أمين معلوف

ليون الإفريقي

ترجمة :
د. عفيف دمشقية



ليون الإفريقي

AMIN MAALOUF

Léon l'Africain

J.-C. LATTÈS

الكتاب	ليون الافريقي
التأليف	امين معلوف
الترجمة	د. عفيف دمشقية
الناشر	دار الفارابي – بيروت – لبنان ص.ب. ٣١٨١/١١ – ت: ٣٠١٤٦١ – فاكس: ٣٠٧٧٧٥
التنضيد	شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.
الطبعة	الأولى ايلول ١٩٩٠ الثانية كانون الثاني ١٩٩٤ الثالثة كانون الثاني ١٩٩٧

الى اندريه...

«لا تَرْتَبْ مع ذلك بأن ليون الإفريقي، ليون الرحّالة،
كان أيضاً أنا».

و. ب. ييتس
شاعر إيرلندي
(١٨٦٥ م - ١٩٣٩ م)

خُتِنْتُ، أنا حسن بن محمد الوزّان، يوحنّا ـ ليون دومديتشي، بيد مزيّن وعُمِّدت بيد أحد البابوات، وأُدعى اليوم «الإفريقي»، ولكنّي لست من إفريقية ولا من أوروبة ولا من بلاد العرب. وأُعْرَف أيضاً بالغرناطي والفاسي والزيّاتي، ولكنّي لم أصدر عن أيّ بلد، ولا عن أيّ مدينة، ولا عن أيّ قبيلة. فأنا ابن السبيل، وطني هو القافلة وحياتي هي أقلّ الرحلات توقّعاً.

لقد عرف معصماي على التوالي دغدغاتِ الحرير وإهاناتِ الصوف، ذَهَبَ الأمراءِ وأغلالَ العبيد. وأزاحت أصابعي آلاف الحُجُب ولوّنت شفتاي بحُمرة الخجل آلاف العذارى، وشاهدت عيناي احتضار مدن وفَناء إمبراطوريات.

ولسوف تسمع في فمي العربية والتركية والقشتالية والبربرية والعِبرية واللاتينية والعامية الإيطالية لأن جميع اللغات وكلّ الصلوات ملك يدي. ولكنّي لا أنتمي إلى أيّ منها. فأنا لله وللتراب، وإليهما راجع في يوم قريب.

وستبقى بعدي يا ولدي، وستحمل ذكراي، وستقرأ كتبي. وعندها سترى هذا المشهد: أبوك في زيّ أهل نابولي على متن هذه السفينة التي تعيده إلى الشاطىء الإفريقي وهو منهمك في الكتابة وكأنه تاجر يُعِدّ لائحة حساباته في نهاية رحلة بحرية طويلة.

أليس هذا ما أفعله تقريباً: ماذا ربحت، ماذا خسرت، ماذا أقول للديّان الأعظم؟ لقد أقرضني أربعين عاما بدّدتها في الأسفار، فعشتُ الحكمة في روما، والصبابة في القاهرة، والغمّ في فاس، وما زلت أعيش طهري وبراءتي في غرناطة.



كتاب غرناطة

عام سلمى الحرّة

٨٩٤ هـ (٥ كانون الأول «ديسمبر» ١٤٨٨ م - ٢٤ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٤٨٩ م)

وافق وقوع شهر رمضان المبارك ذلك العام في إبّان الصيف، وكان أبي نادراً ما يخرج من البيت قبل المساء لأن الناس في غرناطة كانوا في أثناء النهار ثائري الأعصاب كثيرة مشاجراتهم، وكان مزاجهم المعكّر آية على التقى لأن غير الصائم وحده كان قادراً على الاحتفاظ بابتسامة تحت شمس محرقة، ولأن اللامبالي بمصير المسلمين كان قادراً وحده على البقاء هاشّاً باشّاً في مدينة ملغومة بالحرب الأهلية ومهدّدة من الكَفَرة.

وقد وُلدتُ بفضل الله تعالى ومنّه في أواخر شهر شعبان قُبيل بداية الشهر المبارك فأُعفيتْ أمي سلمى من الصيام بانتظار انقضاء النفاس، وأُعفي أبي محمد من التذمّر، حتى في ساعات الجوع والحرّ، لأن ولادة ابن سوف يحمل اسمه، ويكون ذات يوم سلاحه، مدعاة فرح مشروع بالنسبة إلى كل رجل. وكنت علاوة على ذلك الابن الأول، وكان أبي ينفخ صدره بشكل خفيّ لمجرّد سماعهم ينادونه «أبا الحسن»، ويمسّد شاربيه ويخلّل لحيته بإبهاميه على مهل وهو ينظر بطرف عينه نحو مخدع الطبقة العليا حيث كنت مقمّطاً في مهدي. ومع ذلك فإن فرحته العارمة لم تكن بعمق فرحة سلمى وحدّتها، إذ كانت على الرغم من آلامها المبرّحة وضعفها الشديد تشعر بأنها وُلدتْ مرة ثانية بفضل قدومي إلى الدنيا، لأن ولادتي جعلت منها أُولى نساء البيت وأتاحت لها الحظوة عند أبي لسنوات طويلة مقبلة.

ولقد باحت لي بعد مدة طويلة بمخاوفها التي إن لم أكن قد بدّدتها فقد لطّفتها من غير أن أدري. وإذ كانت وأبي ابني عمّ منذوراً أحدهما للآخر منذ الطفولة، ومتزوجين طوال أربع سنوات من غير أن تحمل هي، فقد شعرا حواليها منذ السنة

الثانية بلغط شائن. حتى إن محمّداً رجع ذات يوم ومعه فتاة مسيحية ذات شعر أسود مضفور اشتراها من جندي كان قد أسرها في غَزاة بجوار «مُرسية». وقد سمّاها «وردة» وأسكنها حجرة صغيرة مطلّة على صحن الدار، وذهب إلى حدّ القول بأنه سيرسلها إلى إسماعيل المصري لتعليمها الضرب على العود والرقص والكتابة مثلما يُفعل بمحظيّات السلاطين.

وقد قالت لي أمي: «كنت حرّة وكانت جارية، ولم يكن الصراع بيننا متكافئاً. كان بوسعها أن تستخدم على هواها جميع أسلحة الغواية، وأن تخرج من دون حجاب، وأن تغني وترقص وتصبّ الخمر وتغمز بعينيها وتتعرّى، في حين كان لزاماً عليّ بحكم وضعي ألاّ أتخلّى قطّ عن وقاري، وألاّ أُظهِر كذلك أي اهتمام بملذّات أبيك. وكان يدعوني «بنت عمي». وإذا تحدّث عني قال بإجلال، «الحرّة» أو العربيّة»، وكانت وردة نفسها تُبدي لي الاحترام الواجب على خادم حيال سيّدتها. وأما في الليل فكانت هي السيّدة.

وأضافت أمي قائلة: «وذات صباح قرعت بابنا «سارة المبرقشة» مشدودة النحر رغم مَرِّ السنين، مصبوغة الشفتين بجذور شجرة الجوز، مكحولة العينين، مخضوبة البنان بالحنّاء، مبهرجة من الرأس حتى أخمص القدمين في أثواب حريرية قديمة من جميع الألوان مدعوكة ومرشوشة بالمساحيق المعطّرة. وكان من عادتها أن تزورني تغمدها الله برحمته أينما كانت ـ لتبيعني أحجبة وأساور وعطوراً. مصنوعة من الليمون والعنبر والياسمين والنيلوفر، ولتقرأ لي الطالع. وقد لاحظت على الفور احمرار عينيّ، ومن غير أن أحتاج إلى إخبارها بسبب حزني أخذت تقرأ في كفّي وكأنها تقرأ في صفحة مدعوكة من كتاب مفتوح.

ومن دون أن ترفع عينيها نطقت على مهل بهذه الكلمات التي لا أزال أذكرها: «نحن نساء غرناطة حرّيتنا عبودية مستورة، وعبوديتنا حرّية بارعة». ومن غير أن تضيف شيئاً أخرجت من قفّتها حُقّاً صغيراً أخضر اللون وقالت: «تصبين هذا المساء ثلاث قطرات من هذا الأكسير في كأس من شراب اللوز وتقدّمينه بنفسك إلى ابن عمك. وسوف يأتيك كما تقترب الفراشة من القنديل. وتعيدين الكرّة ثلاث ليالٍ، ثم سبعاً.

وعنـدما عادت «سارة» لزيارتي بعد بضعة أسابيع كان قد سبق لي أن بدأت أصاب بالغثيان. وفي ذلك اليوم أعطيتها كل ما كنت أحمل من مال، قبضة من الدراهم المربّعة والمرابطيّات، وشرعت أضحك وأنا أراها ترقص وتهزّ ردفيْهـا خابطة بقوّة أرض غرفتي بقدمها، منطّطة بيديها النقود التي اختلط رنينها برنين الجُلجُل، الجرس الصغير المفروض على اليهوديات حملة».

كان الأوان قد آن لكي تحمل سلمى لأن العناية الإلهية شاءت أن تكون وردة قد حملت على الرغم من حرصها على إخفاء ذلك تجنّباً للمتاعب. وعندما اكتُشف الأمر بعد شهرين دار السؤال عمّن ستنجب غلاماً، وإذا كانت الاثنتان تحملان ذَكَرين فمن التي ستلد قبل الأخرى. وكانت سلمى وحدها القلقة إلى حدّ الأرق لأنه يكفي وردة أن تضع ثاني الصبيّين، أو حتى بنتاً، إذ إن الإنجاب يكفل لها في شرعنا وضع المرأة الحرّة من غير أن تفقد مع ذلك الدلالَ الذي يسمح به أصلها كجارية.

أما أبي فقد بلغ به رضاه عن نفسه بأن يقدّم برهاناً مزدوجاً على رجولته حدَّ الغفلة عما كان يدور تحت سقفه من تنافس غريب. حتى إنه عندما تكوّر بطنا زوجتيه أمرهما ذات مساء باصطحابه قُبيل غروب الشمس إلى مشارف الحانة التي اعتاد أن يلتقي فيها أصدقاءه بالقرب من باب الرايات. وكانتا تمشيان وراءه وقد أمسكت كل منهما بيد الأخرى وهما خجلتان، ولا سيما أمي، من نظرات الرجال المحملقة وضحكات عجائز حيّنا المكبوتة ـ وكن أكثر نساء ضاحية ألبيسان ثـرثرة وتعطّلاً ـ اللائي كنّ يرقبنهما من أعلى شرفات البيوت وهنّ مختبئات خلف الستائر التي كانت تُزاح لدى مرورهما. وإذ عَرَضَهما أبي على هذا النحو، وكان هو أيضاً قد أحسّ ولا ريب بوطأة النظرات، فقد تظاهر بنسيان شيء وعاد إلى المنزل سالكاً الطريق نفسه وقد بدأ الظلام يحجب الأخطار التي لا حصر لها في أزقة ألبيسان التي كان بعضها موحلاً وزلِقاً في ذلك الربيع الممطر، والأخرى مبلّطة وإن أكثر خطراً لأن كل بلاطة ناقصة كان يمكن أن تكون شَرَكاً مُهلكاً لمن ستكونان أُمّيْن عمّا قريب.

وارتمت سلمى ووردة اللتان تضامنتا للمرة الأولى وقد أنهكهما التعب وأضناهما الخجل على سرير واحد، سرير الخادم، لأن الحرّة كانت عاجزة عن ارتقاء الدرج إلى مخدعها، في حين عاد أبي إلى الحانة جاهلاً أنه كاد يفقد ولديه المرتقبين دفعة واحدة،

مستعجلاً ولا ريب - كما قالت أمي - أن يتلقّى تمنيات أصدقائه الخالصة بولادة صبيّين مكتنزين جميلين، وأن يتحدّى في الشطرنج جارنا حمزة المزيّن.

وما إن سمعت المرأتان الباب يُقفل بالمفتاح حتى أطلقتا ضحكة طويلة مشتركة استغرق كبح جماحها وقتاً طويلاً. وقد احمرّ وجه أمي وهي تتذكّر ذلك بعد خمسة عشر عاماً خجلاً من تلك التصرّفات الصبيانية منبّهة إياي بلا فخر إلى أن وردة كانت حينها في السادسة عشرة تقريباً، وأنها هي كانت تزحف نحو الحادية والعشرين. وبفضل الأحداث قام بينهما نوع من التواطؤ أدى إلى التخفيف من غلواء منافستهما، وعندما قامت (سارة المبرقشة) في اليوم التالي بزيارتها الشهرية لسلمي كان أن دعت هذه الخادمَ لتجّس لها بطنَها البائعةُ البّراجةُ اليهودية التي كانت أيضاً، إذا اقتضى الأمر، قابلة ومدلّكة وماشطة ومُزيلة للشعر النابت في بعض أنحاء الجسد، وكانت تُحسن فوق ذلك نقل الأخبار والأقاويل إلى زبوناتها الكثيرات القابعات في دورهن عن ألف فضيحة وفضيحة من فضائح المدينة والمملكة. وقد أقسمت سارة لأمي أنها تراها من القبح بمكان، الأمر الذي سرّها أشدّ السرور لأنه كان علامة لا شكّ فيها على أنها تحمل صبيّاً؛ وهنّأت بالمقابل وردة بشيء من الشفقة على نضارة وجهها البديعة.

كانت سلمى واثقة من صحة التشخيص بحيث لم تستطع تمالك نفسها عن إخبار محمّد به في مساء اليوم عينه. وظنّت أنها تقدر بهذا على تمرير ملاحظة جديدة أبدتها سارة، ملاحظة محرجة جداً مُفادها أن الرجل ينبغي أن يمتنع عن الاقتراب من زوجته هذه أو زوجته تلك خوفاً من إيذاء الجنين أو التسبّب في ولادة قبل الأوان. وعلى الرغم من تغليف البلاغ بالحيطة والحذر، وتقطيعه بتردّدات طويلة، فقد كان من الوقاحة بحيث ألهب أبي في لحظة واحدة وكأنه قطعة من الحطب الجزْل، فانطلق في شتائم تكاد تُفهم، وكان يتكرّر فيها كضربات المطرقة في الهاوِن أمثال «هُراء» و«مُشعوِذات» و«إبليس الخبيث»، وأقوال لا توحي بمدح الطبّ واليهود وعقول النساء. وظنّت سلمى أنه كان من الممكن أن يضربها لو لم تكن حُبلى، ولكنّها قالت في نفسها كذلك إنه ما كان الشجار ليقع في تلك الحالة. ولكي تتعزّى خلصت برجاحة إلى أنّ فضائل الأمومة كانت تتعدّى مساوئها العابرة.

وعقاباً لها منعها محمّد من أن تستقبل من جديد في بيته «طابخة السموم» هذه (سيرة) - نفث اسمها باللهجة الخاصّة بغَرناطة، وهي اللهجة التي احتفظ بها طوال حياته وكانت تجعله يدعو أمي «سِلمى» ومحظيّته «وِردة» والباب «بيب» ومدينته «غِرناطة» وقصر السلطان «الحِمرا». وظلّ أياماً معكّر المزاج شكِساً، ولكنّه لم يكن، بدافع الحذر كما بدافع المناكفة، يتردّد على حجرتيْ زوجتيْه إلى أن وضعتا.

وقد تمّت الولادتان بفارق يومين. وكانت وردة أوّل من أحسّت آلام الطلْق متباعدة في المساء، ثم متقاربة في الفجر. وعندها فقط شرعت بالانتحاب عالياً كي يسمعها مَنْ حولها. وهُرع أبي إلى جارنا حمزة ونقر على بابه ورجاه إعلام أمّه، وهي امرأة فاضلة ورِعة حاذقة جداً، بقرب الولادة. وقد وصلت بعد دقائق مشتملة رداء أبيض ومعها طست عريض وفوطة وصابونة. وكان يقال إنّ يدها ميمونة، وقد قبلت من الصبيان أكثر بكثير ممّا قبِلت من البنات.

وُلدت أختي مريم حوالَي الظهر. وبالكدّ نظر إليها أبي. فلم يكن يتطلّع إلا إلى سلمى التي جرؤت على التأكيد له: «أمّا أنا فلن أُخيّب رجاءك!». ولكنّها لم تكن واثقة تماماً على الرغم من وصفات سارة التي لا تُخيب، ومن وعودها المتكرّرة. ولا سيّما أنه كان أمامها بعدُ يومان لا نهاية لهما من الغمّ والآلام قبل أن ترى أعزّ أمانيها تتحقّق: أن تسمع ابن عمّها يناديها «أمّ الحسن».

* * *

في اليوم السابع على ولادتي استدعى أبي حمزةَ المزيّنَ لختاني ودعا جميع أصدقائه إلى مأدبة. ونظراً للحالة التي كانت فيها أمّي ووردة فقد تولّت جدّتاي وخادماتها أمر تحضير الطعام. ولم تحضر أمّي الاحتفال، ولكنّها باحت لي فيما بعد أنها انسلّت على مهل خارج غرفتها لرؤية المدعوين وسماع أحاديثهم خلسة. وكان تأثّرها من الحدّة في ذلك اليوم بحيث انحفرت في ذاكرتها أدق التفاصيل.

وإذ اجتمع المدعوون في صحن الدار حول الفسقية المصنوعة من الرخام المنحوت مرطّباً ماؤها الجوّ بخريره والرذاذ الذي كان يرشّه فقد أخذوا يأكلون بشهية فائقة نظراً لأنهم كانوا في الأيام الأولى من رمضان، وكانوا يُفطرون في الوقت الذي يحتفلون فيه

بانخراطي في جماعة المؤمنين. وحسبما قالت أمي التي كان عليها أن تتقوّت في اليوم التالي بما تبقّى من طعام فإنّ المأدبة كانت وليمة جديرة حقاً بالملوك. فقد كان الطبق الرئيسي «المروزية»، وهي طعام مؤلف من لحم الضأن المحضّر بقليل من العسل، وبالكزبرة والنشاء واللوز والكمثّري والجوز الأخضر الذي كان قد بدأ موسمه على التوّ. وكان هناك أيضاً «الطفاية» الخضراء، وهي لحم جدي يضاف إلى إضمامة كزبرة طازجة، و«الطفاية» البيضاء المصنوعة بالكزبرة اليابسة. وهل أذكر الفراريج والزغاليل والقُبّرات بمرق الثوم مخلوطاً بالجبن، والأرانب البرية المشويّة المغموسة بالزعفران والخلّ، وعشرات الأطباق الأخرى التي طالما سردتها عليّ أمي تذكاراً لآخر احتفال كبير أُقيم في بيتها قبل أن ينصبّ عليها وعلى أهلها غضب السماء؟ وإذ كنت أسمعها وأنا بعدُ صبيّ فقد كنت أنتظر في كل مرّة بفارغ الصبر أن تصل إلى «المجبّنات»، هذه الفطائر الساخنة بالجبن الأبيض، المرشوشة بالقرفة المغموسة في العسل، وإلى الحلوى المصنوعة من معجون اللوز أو التمر، وإلى الكعك المحشوّ بالصنوبر والجوز المعطّر بماء الورد.

وقد أقسمت لي والدتي في ورع أن الضيوف لم يشربوا في تلك المأدبة غير شراب اللوز. ولقد امتنعت أن تضيف أنّه إذا لم تكن قطرة خمر واحدة قد صبّت فإنما كان ذلك احتراماً للشهر الفضيل. فلطالما أتاح الختان في بلاد الأندلس فرصة الاحتفالات التي تُنسى فيها تماماً المناسبة الدينية التي يُحتفل بها. أفلا تُذكر حتى اليوم أهمّ الحفلات كلها، الحفلة التي أقامها يوماً الأمير ذو النون في طليطلة لختان حفيده وسعى كل أحد من يومها إلى محاكاتها دون أن ينجح قطّ؟ ألم تجرِ فيها أنهار من الخمر وأنواع الشراب في حين كانت مئات منَ الجواري الجميلات يرقصن على أنغام تحت «داني اليهودي»؟

ولقد أكّدت أمي أنه كان في ختاني أنا أيضاً موسيقيون وشعراء. حتى إنها كانت تذكر شيئاً من الشعر أُنشده أبي بالمناسبة:

غـدا ابنُـكَ بهـذا الختـان أشـدَّ بهـاءً

لأنّ نور السراج يتوهّج لدى قصّ الفتيـل

وإذ أنشد المزيّن بنفسه وغنّى على جميع الأنغام هذا البيت لشاعر قديم من سرقسطة فقد اختتمت به المأدبة وبدأ الاحتفال الحقيقي. وصعد أبي إلى الطبقة العليا ليحملني بين ذراعيه، في حين تحلّق المدعوون بصمت حول المزيّن ومساعده، وهو غلام لم يطرّ شارباه، وقد أشار إليه حمزة فشرع يدور في صحن الدار وبيده قنديل متوقّفاً أمام كل ضيف. فلقد كان ينبغي تقديم هدية صغيرة للمزيّن، وحسب التقليد المتّبع كان كل واحد يلصق قطع النقود التي تسمح بها نفسه على وجه الغلام فيعلن اسمه بصوت عالٍ ويشكره قبل التوجّه إلى جاره. وإذ جُمعت كلّ العطاءات فقد طلب المزيّن أن يُقرِّب منه قنديلان قويّان وأخرج موساه وهو يقرأ الآيات الملائمة وانحنى فوقي. وقد قالت أمي إن الصرخة التي أطلقتها حينذاك دوّت في كل أرجاء الحيّ وكأنها أمارة على نباهة مبكّرة، ثم إنه، بينما كنت مستمرّاً في الصراخ بكل جسدي الضئيل وكأنني كنت أرى أمام ناظريّ جميع المصائب المقبلة، استؤنف الاحتفال على أنغام العود والناي والربابة والطبلة حتى ساعة السحور.

ولكنْ لم تكن جميع القلوب تتطلّع إلى الاحتفال. فقد وصل إليه خالي أبو مروان، وكان حينها كاتباً في ديوان الدولة في قصر الحمراء، متأخّراً وعلى وجهه أمارات الأيام العصيبة. وتحلّق حوله جمع من المتسائلين. وأصاخت أمي السمع فوصلتها عبارة أغرقتها دقائق طويلة في كابوس كانت تظنّ أنها نسيته إلى الأبد.

لقد قال: «إننا منذ العرض الكبير لم نعرف عاماً واحداً من الهناء!.».

«ذلك العرض الملعون!» لقد عاود الغثيان بسببه أمّي كما في الأسابيع الأولى من حملها، ورأت نفسها من جديد في ذهنها الملبّد بالضباب صبيّة في العاشرة من العمر حافيةَ القدمين جالسة في الوحل وسط زقاق مقفر كانت قد مرّت فيه مئة مرّة ولكنّها لم تعد تعرفه، وقد رفعت حاشية ثوبها الأحمر المدعوك المبلل القذر لتخفي وجهها الباكي. «كنت أجمل صبايا ضاحية ألبيسان وأكثرهن دلالاً، وكانت جدّتك ـ غفر الله لها ـ قد علّقت في ثيابي حجابين متماثلين أحدهما ظاهر والآخر خفيّ لحمايتي من كل سوء طالع. ولكنْ لم ينفع شيءٌ في ذلك اليوم».

***

«كان السلطان في ذلك العهد، وهو أبو الحسن علي، قد قرّر أن يقيم يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، عروضاً عسكرية ضخمة لأجل أن يرى الناس عِظم قوّته ـ الله وحده القويّ، وهو لا يحبّ المتكبّرين! وكان هذا السلطان قد أقام على التلّة الحمراء في قصر «الحمراء» قرب «باب الخيانة» مدرّجات كان يجلس عليها مع حاشيته كل صباح ويستقبل عمّاله ويصرّف شؤون الدولة، في حين كانت فصائل من الجنود الآتين من جميع أرجاء المملكة، من رُنْدَة إلى بَسْطَة ومن مالقة إلى ألَمرِيّة، تمرّ بلا توقّف وهي تحيّيه وتتمنّى له الصحّة وطول العيش. وقد اعتاد سكان غرناطة والقرى المجاورة أن يحتشدوا كباراً وصغاراً على منحدرات «السبيكة» عند أسفل قصر الحمراء بالقرب من المقبرة حيث كان بوسعهم أن يشاهدوا فوقهم الاحتفال الذي لا ينتهي. وكان يقيم بالجوار باعة متجوّلون يبيعون كل شيء من النعال إلى نقانق المركاس إلى الفطائر إلى الشراب بماء الزهر».

وفي اليوم العاشر من العرض، وإذ كانت السنة العربية ٨٨٢ (هـ) قد انتهت فإن الاحتفال برأس السنة الذي يتمّ على الدوام بلا أبّهة لم يكد يُلحظ في زحمة تلك الاحتفالات التي لم تكن تنقطع. وكانت هذه ستتواصل خلال «المحرّم»، الشهر الأول من السنة الجديدة، وقد لاحظت أمّي التي كانت تذهب كل يوم إلى «السبيكة» مع إخوتها وأبناء عمّها أن عدد المشاهدين كان في تزايد، وأنه زاد عدد الوجوه غير المعروفة. وتضاعف عددالسكارى في الشوارع، واقتُرفت السرقات، وشَجَرَ الخصام بين عصائب الفتيان فكانوا يتقاتلون بالهراوات إلى حدّ سفك الدماء. وقد وقع قتيل وعدّة جرحى، الأمر الذي حمل المحتسب على نشر الشرطة.

وإذ خشي السلطان الفوضى والاضطرابات فقد قرّر أخيراً وقف الاحتفالات. ورَسَمَ أنّ اليوم الأخير من الاستعراض سيكون الثالث والعشرين من المحرّم ٨٨٣ (هـ) الموافق للخامس والعشرين من نيسان (إبريل) من السنة المسيحية ١٤٧٨ (م) مضيفاً مع ذلك أن المسرّات النهائية ستكون أفخم من التي كانت في الأسابيع السابقة. وفي ذلك اليوم اختلطت في «السبيكة» نساء الأحياء الشعبية محجّبات وسافرات بالرجال من جميع الطبقات. وخرج أطفال المدينة، ومن بينهم أمّي، بثيابهم الجديدة منذ ساعات الصباح الأولى، ولم ينسوا أن يتزوّدوابضع قطع

من النقود النحاسية لشراء التين الجاف الآتي من مالقة. وانتشر في طول حيّ «السبيكة» المشعوذون والحواة والمهرّجون والبهلوانات والقرّادون والمتسوّلون من عميان حقيقيين ومزيّفين وقد جذبهم حشد الناس المتزايد. وإذ كان الفصل ربيعاً فقد كان بعض الفلاحين يجولون ومعهم فحول من الجياد يشبون بها مقابل أجر معلوم الأفراس التي يحضرها أصحابها لهذا الغرض.

وأخذت أمّي تستعرض ذكرياتها عن ذلك اليوم فقالت: «لقد صحنا وصفّقنا طوال تلك الصبيحة على ضربات الطبلة التي كان يحاول في اثنائها الفرسان البربر الزناتيون الواحد بعد الآخر أن يصيبوا هدفاً خشبياً بعصيّهم التي كانوا يقذفون بها وهم يركضون بجيادهم. ولم يكن في مقدورنا أن نرى من كان الفائز الأفضل، ولكن الهتاف الذي كان يبلغنا من التلّه، من المكان المسمّى تحديداً «الطبلة»، كان يعيّن لنا من دون خطأ محتمل مَنِ الفائزون ومَنِ الخاسرون.

«وفجأة ظهرت غمامة سوداء فوق رؤوسنا. وقد كانت من السرعة بحيث شعرنا بأن الشمس انطفأت وكأنها مصباحٌ نفخ عليه جنيّ. لقد خيّم الظلام ظهراً وتوقّفت الألعاب من غير أن يأمر السلطان بوقفها لأنّ كلّ واحد كان يحسّ بوطأة السماء فوق كتفيه.

«ثم ابرقت ودوّى صوت الصاعقة، وأبرقت من جديد وأرعدت رعداً شديداً وانهمرت علينا شآبيب المطر. وإذ علمتُ أن المسألة مسألة عاصفة لا مسألة لعنة مشؤومة فقد تطامن خوفي وأخذت مثل آلاف الأشخاص المحتشدين في «السبيكة» أبحث عن ملاذ. وكان أخي الأكبر يمسك بيدي، الأمر الذي طمأنني وإن كان قد أرغمني على الركض فوق قارعة الطريق التي كانت قد أوحلت. وفجأة هوى على بُعد خطوات منا أطفال وشيوخ، وجنّ جنون الناس وهم يدوسونهم بأقدامهم. وكان الظلام لا يزال مخيّماً، وكانت صرخات الألم تختلط بصيحات الذُعر. وانزلقت بدوري وأفلتت يدي يد أخي وتعلّقت بحاشية ثوب مبلّل ثم بأخرى من غير أن أتمكّن قطّ من التعلّق حقاً. وكان الماء قد بلغ ركبتيّ، وكنت أصرخ ولا شكّ بأعلى ممّا كان يفعل الآخرون.

«وسقطت ونهضتُ خمس مرات أو ستّاً من غير أن تدوسني الأقدام حتى اكتشفت

شيئاً فشيئاً أن الجمع غدا أكثر تشتّتاً من حولي وأكثر بطئاً في التحرّك كذلك لأن الطريق كان مصعّداً والسيول التي تنحدر من فوقه كانت تزداد عَرَماً. ولم أعد أعرف الناس ولا الأمكنة، ولا بحثتُ عن إخوتي ولا عن أبناء عمّي. وارتميت تحت سقيفة أحد البيوت وغرقت في النوم من التعب والقنوط على السواء.

«واستيقظتُ بعد ساعة أو ساعتين. كانت الدنيا أقلّ إظلاماً، ولكنّ الوابل كان لا يزال منهمراً. وبلغني من كل صوب رعد يُصمّ الآذان ويقلقل البلاطة التي كنت أجلس عليها. وأما الزقاق الذي كنت فيه فكم من مرّة كنت قد ذرعته جيئة وذهاباً! ولكنّي لرؤيته مقفراً وقد اجتاحه السيل لم أتمكّن من تحديد موقعه. وكنت أرتجف من البرد، وكانت ثيابي مبلّلة ونعلاي قد ضاعا في أثناء جريي، وكان شعري يقطر ماء مثلّجاً لا ينفكّ خيطه يغسل عينيّ اللتين ألهبتهما الدموع. وكنت لا أزال أرتعد وأسعل بكلّ ما في صدري من قوّة عندما ناداني صوت امرأة: «بُنيّة، بُنيّة، مِنْ هنا!» وإذ أجلت ناظريّ في كل الجهات فقد رأيت عالياً جدّاً فوقي، في إطار نافذة مقوّسة وشاحاً مقلّماً ويداً تلوّح.

«وكانت أمّي قد حذّرتني على الإطلاق من دخول بيت لا أعرف أصحابه، وأفهمتني أن عليّ في مثل سني أن أحذر، لا من الرجال وحدهم، وإنما من بعض النساء أيضاً. ومع ذلك لم يطل تردّدي. فعلى بُعْد ثلاثين خطوة، ومن جانب الطريق نفسه، جاءت التي نادتني تفتح بالفعل باباً ثقيلاً من الخشب وهي تسرع بالصياح لتطمئنني: «أعرفك، أنت بنت سليمان الورّاق، الرجل الفاضل الذي يحيا بتقوى الله». وأخذتُ اقترب منها خطوة كلما نطقت بكلمة. «لقد رأيتك كثيراً تمرّين بصحبته للذهاب إلى خالتك تميمة زوجة الكاتب بالعدل الذي يسكن قريباً من هنا في طريق «السفرجلة» المسدود». ومع أنه لم يكن يُشاهد أيّ رجل فقد غطّت وجهها بمنديل أبيض لم ترفعه إلا بعد أن أُرتِجَت الباب خلفي. وعندما أخذت بيدي وقطعت بي دهليزاً ضيقاً على شكل مِرفق، ثم ركضت تحت المطر من غير أن تتركني عبر صحنٍ صغير قبل أن نرتقي سلّماً صغيراً ثابت الدرجات قادنا إلى غرفتها. وجرّتني برفق إلى النافذة وقالت: «انظري، إنه غضب الله!».

«وانحنيت بخوف. لقد كنت فوق ذروة تلّة «مرور». على يميني قصبة قصر

الحمراء الجديدة، وعلى يساري بعيداً القصبة القديمة، ووراء الأسوار مآذن حيّي ألبيسان البيضاء. وكان الدويّ الذي سبق أن سمعته في الشارع قد أصبح الآن مُصِمّاً. وإذ كنت أبحث عن مصدر الصوت فقد نظرت إلى أسفل، ولم أتمالك من إطلاق صرخة فزع. «لِيَرْحَمْنا الله، إنه طوفان نوح!» هذا ما كانت تتمتم به مضيفتي خلفي».

***

إنّ أمّي لن تنسى أبداً الصورة التي كانت تتمثّل لعينيها طفلةً مذعورة، كما لن ينساها جميع من كانوا في غرناطة في يوم العرض المشؤوم ذاك. فها قد تشكّل في الوادي الذي يسيل فيه عادةً نهر «دَرّو» الصاخب، لكنِ المُسالم، سيل عَرِم كاسحاً في طريقه كل شيء، مخرّباً الحدائق والبساتين، مقتلعاً آلاف الأشجار، من دردار مهيب وجَوْز عمره مئة سنة ومُرّانٍ ولوز وعُبَيْراء، قبل أن يلج قلب المدينة جاحفاً جميع غنائمه مثل فاتح تتريّ، لافّاً أحياء الوسط، مدمّراً مئات المنازل والحوانيت والمستودعات، دارساً المساكن المبنيّة فوق الجسور، حتى إنه ألّف في آخر النهار من جرّاء الحطام الذي كان يسدّ مجرى النهر مستنقعاً شاسعاً ابتلع رحبة الجامع الأعظم وقيصرية التّجار وسوق الصاغة وسوق الحدّادين. ولا يعلم أحد عدد الناس الذين هلكوا غرقاً أو تحت الأنقاض أو الذين اختطفتهم السيول. وعندما أتاحت مشيئة السماء في المساء أن يتبدّد الكابوس حمل السيلُ الحُطامَ إلى خارج المدينة في حين انحسر الماء بأسرع ممّا تدفّق. وفيما كان الضحايا يُغطّون الأرض المتلألئة عند انبلاج النهار كان القاتل قد ابتعد.

وكانت أمّي تقول برتابة العبارات القاطعة: «وكان ذلك جزاءً وِفاقاً لجرائم غرناطة. فقد أراد الله أن يُظهر قدرته على ما يَعْدِلها من قدرات، وأن يعاقب صَلَف الحكّام وفسادهم وجَوْرهم وانحلالهم. وسعى إلى تحذيرنا ممّا سَيَنْزِل بنا إذا ظللنا سادرين في الغيّ، ولكنّ العيون والقلوب بقيت مغلقة».

وفي اليوم التالي على المأساة كان جميع سكّان المدينة قد اقتنعوا بأن المسؤول الأول عن هذه المصيبة، الإنسانَ الذي جلب عليهم غضب الله، لم يكن غيرَ المتكبّر الجائر الفاسد المفسد أبا الحسن، عليّاً بن سعد النصريّ، سلطانَ غرناطة الحادي

والعشرين، وقبل الأخير، محا الله اسمه من جميع الحوافظ!

لقد خلع أباه وحبسه ليجلس على عرشه. وقطع رؤوس أبناء أشرف عائلات المملكة، ومن بينهم بنو سراج البواسل، ليوطّد سلطانه. ومع ذلك فقد كانت جريمة السلطان التي لا تُغتفرَ في نظر أمّي هي هجره زوجته الحرّة، ابنة عمّه فاطمة بنت محمد الأيسر، من أجل سَبِيَّة مسيحية اسمها إيزابيل دو سوليس، وقد سمّاها هو ثريّا.

وكانت تقول: «يُروى أن السلطان جمع ذات صباح أفراد حاشيته في ساحة «الريحان» ليشاهدوا هذه الرومية وهي تستحمّ» وكان يروّع أمّي أن يكون عليها نقل مثل هذا التجديف. وكانت تغمغم وهي تنظر إلى السماء: «أستغفر الله»، وتكرّر: «أستغفر الله» لأنها كانت عازمة على متابعة حكايتها: وإذ انتهت عملية الاستحمام فقد دعا الأمير كل واحد إلى شرب طاسٍ من الماء الذي خرجت ثريّاً منه، وهلّلوا جميعاً، نثراً وشعراً، للطعم الزكي الذي اكتسبه ذلك السائل. جميعاً ما عدا الوزير أبا القاسم ڤينيغاس الذي بقي في مكانه بكل وقار من غير أن ينحني فوق البركة. ولم يفت هذا التصرّف السلطان فسأله عن السبب. وأجاب أبو القاسم قائلاً: «أخاف يا مولاي إن أنا ذقت المرق أن تعتريني رغبة في الحَجَل». وكرّرت أمي قائلة من غير أن تسعى إلى خنق ضحكتها: «أستغفر الله».

لقد سمعت هذه النادرة تُروى عن عدّة أشخاص في بلاد الأندلس، ولا أدري حقاً إلى من أنسبها؛ وأمّا في غرناطة فقد كان كل إنسان يسعى غداة يوم العرض اللعين إلى البحث في سيرة صاحب الحمراء الفاسدة عن الحدث الذي يمكن أن يكون قد أغضب الله تعالى، والسعيد مَنْ يعثر على التفسير القاطع الذي لم يكن في الغالب سوى بيت من الشعر أو مزحةٍ أو مثلٍ سائرٍ قديمٍ حُرّف ليلائم ذوق العصر.

وكان انفعال السلطان نفسه لِمَا حلّ بعاصمته من كوارث أشدّ إزعاجاً من ذلك الهذر. فبدلاً من أن يرى في الفيضان الجائح نذيراً من الله تعالى استخلص منه أن ملّذات هذه الدنيا عابرة، وأن الحياة تجدّ في الهرب، وأن على المرء أن يُفيد ما استطاع من كل لحظة. وقد تكون هذه حكمة شاعر، ولكنها ليست بالتأكيد حكمة أمير بلغ الخمسين ومملكتُه في خطر.

وهكذا انصرف إلى الملذّات على الرغم من تحذيرات طبيبه إسحاق حمون المتكرّرة، فاستبطن الجواري الجميلات وأحاط نفسه بالشعراء المُجّان، شعراء كانوا يصفون في بيت تلو آخر مفاتن الراقصات العاريات والغلمان ذوي القدود الرشيقة، ويشبّهون الحشيش بالزمرّد ورائحته بالبخور، ويتغنّون بلا كلل بالخمر، حمراء وصفراء، معتّقة ومنعشة على الدوام. وكانت كأس ضخمة من الذهب تنتقل من يد إلى يد، ومن شفة إلى شفة، وكان من يُفرِغها يفخر بنداء الساقي ليملأها له من جديد حتى الجمام. وكانت تنهال أمام الضيوف صحاف صغيرة لا تُحصى مليئة باللوز والصنوبر والجوز والفاكهة المجفّفة والطازجة والخرشوف والباقلاّء والمربّيات وأنواع الحلوى فلا يُدرى أهي لتهدئة سَوْرة الجوع أم لريّ العطش. وقد علمت فيما بعد لدى إقامتي الطويلة في روما أن عادة القضم في أثناء السُكر كانت دارجة عند قدماء الرومان، وأنهم كانوا يسمّون كل صحفة من تلك الصحاف «نوقلوس»، أفيكون ذلك هو السبب في تسمية الصحاف نفسها باسم «النُّقْل» في غرناطة؟ الله وحده يعلم أصول الأشياء!

وإذ كان السلطان غارقاً في ملذّاته فقد أهمل شؤون المملكة، وأتاح للمقرّبين منه جمع ثروات حقيقية عن طريق الضرائب غير المشروعة ومصادرة الأملاك. وأمّا جنوده الذين لم يكونوا يقبضون رواتبهم فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى بيع ثيابهم ومطاياهم وأسلحتهم لإطعام عائلاتهم. وأمّا في المدينة حيث يسود انعدام الأمن والخوف من غدٍ، وحيث كان مصير كل عسكريّ سرعان ما يُعرف ويُعلّق عليه، وحيث كانت أخبار مجالس السُكْر تترامى بانتظام بفعل ما يذيعه الضيوف والخدم، فقد كان مجرّد التفوّه باسم السلطان أو اسم ثريّا يستدعي الشتائم واللعنات ويدفع بالناس أحياناً إلى حدّ الفتنة والشغب. وإذ لم يكن بعض خطباء الجمعة بحاجة إلى مهاجمة «أبي الحسن» مباشرة، ونادراً ما كانوا يجرؤون على ذلك، فلم يكن عليهم سوى رَذْل الفساد والخسّة وعدم التقوى ليعلم جميع المؤمنين، بلا أدنى ظِلٍّ من شكّ، مَنِ المقصود، ويصيحوا عالياً: «الله أكبر» صيحات تنطلق كالمقارع ويجيب عنها الإمام في بعض الأحيان متظاهراً بالإلغاز: «يد الله فوق أيديهم». هذا والعيون تقدح شرراً باتّجاه «الحمراء».

وبالرغم من إجماع الناس على كراهية السلطان فقد كان لا يزال له بين الجموع

عيون وآذان تنقل إليه ما يُقال، الأمر الذي كان يجعله يزداد حذراً وقسوة وجَوْراً. وتستذكر أمي قائلة: «ما أكثر وجهاء القوم وأعيان المدينة الذين قُبض عليهم لوشاية من خصم، أو حتى من جارٍ حسود، واتُّهِموا بشتم الأمير وهتك عِرضه، ثم طيف بهم في الشوارع على الحمير ووجوههم إلى أذيالها قبل أن يُلقى بهم في سجن أو تُقطع رؤوسهم!» وبسلطان من «ثريّا» وضع «أبو الحسن» زوجته «فاطمة» وولديه «محمداً» الملقّب بأبي عبدالله و«يوسف» في الإقامة الجبرية داخل برج القمر، وهو قلعة جبّارة في الشمال الشرقي من «الحمراء» قبالة «جنّة العريف». وكانت المحظيّة تأمل من وراء ذلك في أن تمهّد سبيل الحكم أمام أبنائها هي. ولقد كان البلاط على كل حال موزّعاً بين أنصار «فاطمة»، وهم كُثُر ولكنّهم متكتّمون، وأنصار «ثريّا»، وهم وحدهم المسموعة كلمتهم من الأمير.

وإذا كان عامّة الناس قد وجدوا في حكاية تلك الصراعات داخل البلاط ما يقضون به على التضجّر من لياليهم الطويلة الباردة فإن أَوْخَمَ عواقب كرههم المتفاقم للسلطان كان موقفه حيال «قشتالة». فقد قرّر أبو الحسن الذي لم تكن الشجاعة البدنية لتنقصه أن يحارب المسيحيين تحت وطأة التُّهَم الموجّهة إليه بتفضيل «روميّة» على حساب ابنة عمّه، وإهمال الجيش، وقضاء حياة لا مجد فيها ولا عزّة.

وقد تجاهل السلطان تحذيرات بعض الناصحين الحكماء الذين لفتوا نظره إلى أنّ «أرغون» كانت قد ربطت مصيرها بمصير «قشتالة» بزواج «فرديناند» و«إيزابيلا»، وأنّ عليه أن يتحاشى أدنى ذريعة قد يتّخذانها للهجوم على مملكة المسلمين، وقرّر أن يُنهي أَمَد الصلح المضروب بين غرناطة وجيرانها الأقوياء عندما رأى مفرزة من ثلاثمئة فارس غرناطي تنقضّ على قصر «الزهرة» الذي كان المسيحيون قد احتلّوه قبل ثلاثة أرباع القرن فتستولي عليه.

وإزاء ذلك عمّت الفرحة غرناطة، واستعاد أبو الحسن بعض الحظوة لدى رعاياه. ولكنْ سرعان ما أخذ كثير من الناس يتساءلون عمّا إذا لم يكن السلطان قد أظهر طيشاً يبلغ حدّ الإجرام بجرّه المملكة إلى حرب لا يعلم عواقبَها إلا الله. ولسوف تُثْبِت الأحداث اللاحقة أنهم كانوا على حقّ. فقد ردّ القشتاليون بالاستيلاء على «الحامة»، أمنع قِلاع الجزء الغربي من المملكة، بالرغم من قيامها على شعفة

صخرية. ولقد باءت بالفشل جهود السلطان المضنية لاستعادتها.

ودارت رحى حرب طاحنة لم يكن في مقدور المسلمين أن ينتصروا فيها، ولكنْ كان في وسعهم أن يؤخِّروا على الأقل اندلاعها إن لم يستطيعوا تفاديها. ولسوف تدوم تلك الحرب عشر سنوات وتنتهي بأشدّ الأشكال عاراً. وعلاوة على هذا فإنه سرعان ما سترافقها حرب أهليّة ساحقة ماحقة هي النصيب المكتوب للممالك السائرة على طريق الاندثار.

وبالفعل فإنّ أبا الحسن أُقصي عن الحكم بعد مئتي يوم، وبالتحديد بعد انتصاره في «الزهرة». وقد قامت الثورة في السابع عشر من شهر جمادي الأولى عام ٨٨٧ هـ، الموافق للرابع عشر من تموز (يولية) ١٤٨٢ م. وكان فرديناند في ذلك اليوم على رأس الجيش الملكي عند ضفّة نهر «جنيل» تحت أسوار مدينة «لوشة» التي كان يحاصرها منذ خمسة أيام عندما باغتته مفرزة من المسلمين بقيادة علي العطّار أحد أمهر ضباط غرناطة. وكان ذلك يوماً تذكارياً كان من الممكن أن يزهو به أبو الحسن لأن بطل ذلك اليوم الذي كان ينفّذ أوامره استطاع أن يزرع الهلع في معسكر الملك المسيحي الذي فرّ باتجاه قرطبة تاركاً وراءه عرّادات وذخائر وكمية كبيرة من الدقيق ومئات من القتلى والأسرى. ولكنْ جاء ذلك متأخراً ولا ريب. فعندما وصل الخبر العظيم إلى غرناطة كانت الثورة قد هَدَرَت: فقد تمكّن أبو عبدالله، ابن «فاطمة»، من الهرب من برج القمر منزلقاً على حبل حسبما يقال. وما لبث أن نودي به في ضاحية «ألبيسان» وأتاح له بعض المتواطئين أن يدخل «الحمراء» في اليوم التالي.

وعلّقت سلمى على الخبر بقولها: «لقد شاء الله أن يُخلع أبو الحسن في يوم نصره، مثلما أرسل عليه الطوفان يوم «العرض»، ليُكرهه على إحناء ظهره أمام خالقه».

لكنّ السلطان الهرم لم يعترف بالهزيمة فلجأ إلى مالقة وجمع أنصاره من حوله وجهد في تهيئة انتقام من ابنه. وغدت المملكة منذ ذلك الحين مشطورة إلى إمارتين عدوّتين لن تلبثا أن تتناهشا على مرأى من القشتاليين المتهلّلين.

وتتذكّر أمي وتقول: «ها قد مرّت سبع سنوات من الحرب الأهلية، سبع سنوات من حرب يقتل فيها الابن أباه، ويخنق الأخ أخاه، ويرتاب الجار في جاره ويخونه،

سبع سنوات لا يقدر فيها الناس في ضاحيتنا «ألبيسان» أن يذهبوا ناحية جامع قرطبة من غير أن يُهزأ بهم أو أن تُساء معاملتهم أو يُضربوا أو حتى أن يذبحوا في بعض الأحيان».

وعندها كان فكرها يسبح بعيداً جدّاً عن حفلة الختان التي كانت تجري على بُعد خطوات منها، بعيداً جدّاً عن تلك الأصوات وعن قرع الكؤوس، وكانت تترامى إليها خافتة كما في حلم. وانتبهت إلى نفسها وهي تردّد: «يا لذاك العَرْضِ الملعون!». وتنهّدت وهي نصف نائمة.

* * *

«ما زالت «سِلمى» أختي غارقة في أحلامها؟»

لقد حوّل صوت خالي الأجش أمّي إلى صبيّة صغيرة. ووثبت على عنق أخيها الأكبر وغطّت جبينه وكتفيه، ثم ذراعيه ويديه، بقبلات حارّة ومكتومة. ورقّ لها، ولكنّه، وقد شعر ببعض الحرج إزاء هذا الدفق من العواطف الذي زعزع وقاره، ظلّ منتصباً في جبّته الطويلة الحريرية ذات الرُّدنين الفضفاضين، وطيلسانه الملفوف بأناقة حول كتفيه، من غير أن يرتسم على وجهه سوى ظِلّ ابتسامة متعطّفة لإثبات فرحته. ولكنّ هذه البرودة الظاهرة لم تفتّ في عضد سلمى. فطالما علمت أنه ليس في وسع رجل ذي مكانة أن يُبدي مشاعره من غير أن يُشْعِر بخفّة لا تليق بمكانته.

«فيمَ كنتِ تفكّرين»؟

لو أن السؤال كان صادراً عن أبي لكان جواب سلمى غامضاً، وأمّا خالي فكان الرجل الوحيد الذي كانت تعرف كيف تكشف له عن مكنون قلبها وهي تكشف في حضرته عن شَعْرها.

«كنت أفكّر في مصائبنا، في يوم «العَرْض»، في هذه الحرب التي لا تنتهي، في مدينتنا المقسّمة، في الناس الذين يموتون كلّ يوم»،

وسحق بإبهامه الغليظة التي ضغطها فوق خدّ أخته دمعة متوحّدة.

وصاح على غير اقتناع: «ليست هذه أفكار أمّ لم يمض على ولادتها ابنها البكر كبيرُ

وقت»، وذلك قبل أن يقول بنبرة أكثر فخامة على الرغم من كونها أشدّ صدقاً: «لقد قال النبيّ: كما تكونون يُولّى عليكم».

وقالت بسذاجة:

«ماذا تريد أن تقول؟ ألم تكن من أوائل أنصار السلطان الحاليّ؟ ألم تُهِجْ «ألبيسان» لمساندته؟ ألست من المرموقين في «الحمراء»؟

وتهيّأ خالي، وقد أُصيب في الصميم، للدفاع عن نفسه بمهاترة صاخبة، ولكنّه أدرك أنّه لم يكن قبالته غير أخته الصغرى، هزيلةً مريضةً، . وأنّها فوق ذلك أغلى عليه من كل ما في الدنيا.

«لم تتغيّري يا «سِلمى». يعتقد المرء أنه يكلّم مجرّد امرأة، وإذا هو يحاور بنت سليمان الورّاق، زاد الله في عمركِ ما نقص من عمره. وقصّر من لسانكِ بقدر ما أطال في لسانه».

وانفجرا بضحكة مجلجلة وهما يباركان ذكرى والدهما. لقد أصبحا الآن متواطئين كما في الماضي. ودفع خالي بذيل جبّته أمامه وتربّع فوق حصير من القشّ المضفور عند باب غرفة أخته.

«أسئلتك تمزّق العقل بلطف مثل ثلج جبل «شُلَيْر» الذي يحرق الوجه بأشدّ ممّا تفعل شمس الصحراء».

وقالت سلمى بلا تحفّظ وقد غدت فجأة واثقة وخبيثة بعض الشيء:

«وجوابك»؟

وبحركة لم يكن فيها شيء من العفوية طأطأت رأسها وجمعت ذيل طيلسان أخيها وخبّأت فيه عينيها المحمّرتين. ثم قالت وكأنّها تلفظ حُكماً أصدره أحد القضاة ووجهها لا يزال مستوراً:

«قل لي كلّ شيء!».
لم تكن كلمات خالي بالكثيرة.

«هذه المدينة يحميها لصوصها بالذات ويحكمها اعداؤها بالذات. وسيكون علينا أن ننفي أنفسنا عمّا قريب خلف البحار».

وتلجلج صوته فأفلت من سلمى وانفتل خشية افتضاح انفعاله.

ولم تحاول، وقد خارت قواها، أن تستوقفه. حتى إنها لم تلاحظ أنه كان يبتعد. ولم يترامَ إليها من الجنينة ضجّة ولا نبرة ولا ضحكة ولا قرع كؤوس. ولا حتى خيط من نور.

كان الاحتفال قد خمد.

عام التمائم

٨٩٥ هـ - (٢٥ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٤٨٩ م - ١٣ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٤٩٠ م)

في هذا العام سلك خالي راضياً مرضياً طريق المنفى. ومهما يكن فعلى هذا النحو شرح لي قراره بعد سنوات بينما كانت قافلتنا تتهادى في الصحراء الكبرى جنوبي «سجلماسة» ذات ليلة عذبة هادئة كان عواء بنات آوى البعيد يهدهدها أكثر مما يزعجها. وقد أجبرت ريح خفيفة خالي على قصّ روايته بصوت مرتفع أدخل السكينة إلى نفسي وجعلني أشمّ روائح مسقط رأسي غرناطة. وكان نثره من السحر بحيث خُيّل إليّ أن جملي لم يكن يسير إلا على إيقاعه.

لَوَدِدْت نقل كل كلمة من كلماته، ولكنّ ذاكرتي لا تتسع وبياني عاجز عن الجموح، ولن يظهر ـ واأسفاه! ـ كثير من زخارف حكايته في أيّ كتاب.

«في اليوم الأول من ذلك العام بكّرت في الذهاب إلى «الحمراء»، لا لألتحق كالعادة بالديوان حيث كنت أكتب رسائل الأمير، وإنما لأقدّم مع بعض أعيان أسرتي التهاني برأس السنة. وكان المجلس المنعقد للمناسبة في قاعة السفراء يغصّ بالقضاة المعمّمين والوجهاء ذوي اللبدات العالية الخضراء أو الحمراء، والتجّار الأثرياء ذوي الشعور المخضوبة بالحنّاء والمفروقة، مثل شعري، بفرق مرسوم بعناية.

«وانسحب معظم الزوّار بعد انحنائهم أمام أبي عبد الله إلى روضة الآس حيث جالوا بعض الوقت حول البِرْكة وهم يتبادلون التحيّات. وكان الأعيان الرئيسيّون يجلسون على الأرائك المفروشة بالسجاجيد والمرصوفة إلى جدران القاعة الفسيحة وهم يتدافعون بالأرداف للاقتراب ما أمكن من السلطان أو من الوزراء لتقديم بعض الالتماسات أو لمجرّد إظهار أنهم يحظون بالرضا.

«وإذ كنت كاتباً وخطّاطاً في ديوان الدولة ـ الأمر الذي يشهد به أثر الحبر الأحمر

على أصابعي ـ فقد كنت أتمتّع ببعض الامتيازات الهزيلة مثل التنقّل على هواي بين المجلس والبِرْكة والمشي بضع خطوات مع الشخصيات التي كانت تبدو لي ذات شأن، ثم العودة إلى الجلوس للتربّص بفريسة جديدة. وتلك وسيلة ممتازة لتسقّط الأخبار والآراء في شؤون الساعة، إذ كان الناس يتكلّمون بحريّة في عهد أبي عبدالله، في حين كان المرء يتلفّت أيامَ أبيه سبع مرّات حوله قبل أن يتلفّظ بأدنى نقد معبّراً عنه بعبارات مُبْهَمة مستخدماً الآيات والأمثال ليكون في وسعه التنصّل إذا تعرّض لوشاية. وإذ شعر الغرناطيّون بأنهم كانوا أكثر تمتّعاً بالحرية وأقلّ تعرّضاً للترصّد فقد ازدادوا صرامة مع السلطان، حتى وهم تحت سقفه، وحتى عندما كانوا يأتون للدعاء له بطول العمر والسلامة ودوام النصر. فشعبنا لا يرحم الملوك الذين ليسوا ملوكاً.

«كانت الأوراق المصفرّة في ذلك اليوم الخريفي أشدّ تشبثاً بشجراتها من أعيان غرناطة بعاهلهم. وكانت المدينة منقسمة، كما كانت منذ سنوات، بين محبّذي السلم ومحبّذي الحرب، ولم يكن أيّ منهم ليقف مع السلطان.

«وكان الراغبون في مسالمة قشتالة يقولون: إننا ضعاف والروم أقوياء؛ لقد تخلّى عنّا إخوتنا في مصر والمغرب، بينما يحظى أعداؤنا بمساندة رومة وجميع المسيحيين؛ وقد خسرنا جبل طارق والحامة ورُندة ومَرْبلة ومالقة وكثيراً غيرها من الأماكن، وإذا لم يعمّ السلام فلن تنفكّ اللائحة تطول؛ الجيوش تعيث فساداً في البساتين، والفلاحون يتظلّمون؛ الطرقات غير آمنة، والتجّار عاجزون عن التموّن، وقيسارية والأسواق بدأت تفرغ، وقد ارتفعت أسعار السلع باستثناء اللحم الذي يُباع الرطل منه بدرهم لأنه وجب ذبح آلاف رؤوس الماشية تخليصاً لها من النهب؛ على أبي عبدالله أن يبذل قصارى الجهد لإسكات أنصار الحرب والتوصّل إلى هدنة قابلة للدوام مع القشتاليين قبل أن تُحاصَر غرناطة نفسها.

«وكان الراغبون في الحرب يقولون: لقد اتّخذ العدوّ قراراً لا رجوع عنه بإبادتنا، وليس استسلامنا هو السبيل لحمله على التراجع. انظروا كيف استُرِقّ سكان مالقة بعد استسلامهم! انظروا كيف تقيم محاكم التفتيش المحارق ليهود إشبيلية وسرقسطة وبلنسية وترويلة وطليطلة! وغداً تُقام المحارق هنا في غرناطة لا لأهل السبت وحدهم وإنما للمسلمين كذلك! وكيف السبيل إلى منع ذلك إن لم يكن بالمقاومة والاحتشاد

والجهاد؟ إننا في كل مرّة قاتلنا فيها بحميّة تمكّنا من عرقلة تقدّم القشتاليين، ولكنْ كان يوجد بيننا بعد كل انتصار خونة لا همّ لهم سوى مصالحة عدوّ الله، يدفعون له الجزية ويفتحون أمامه أبواب مدينتنا. ألم يَعِد أبو عبدالله نفسه فرديناند بتسليمه غرناطة ذات يوم؟ لقد مرّ أكثر من ثلاث سنين على توقيعه له رقعة بهذا الشأن في «لوشة». إن هذا السلطان خائن. ينبغي أن يُستبدَل به مسلم حقيقي مصمّم على الجهاد فيعيد الثقة إلى جيشنا.

«وكان صعباً أن تجد جندياً أو ضابطاً، أمير عشرة أو مئة أو ألف، وأصعب من ذلك أن تجد قاضياً أو كاتباً بالعدل أو عالماً أو إمام مسجد لا يقول بهذا الرأي، في حين كان التجّار والزرّاع يجنحون إلى السلم. وكان بلاط أبي عبدالله نفسه منقسماً. ولو تُرك السلطان لنزعاته لعقد أيّ هدنة مهما يكن ثمنها لأنه وُلِد مولى ولم يكن يطمح في أن يموت إلا كذلك؛ لكنّه لم يكن في مقدوره تجاهل إرادة جيشه الذي كان يراقب بنفاد صبر المعارك التي كان يخوضها ببسالة أمراء آخرون من الأسرة النَصْريّة المالكة.

«وكان مِثالٌ مُبِين يتردّد خلال كل الأحاديث الدائرة على ألسنة أنصار الحرب: مَثَلُ «بسطة» المدينة المُسْلِمة الواقعة شرقي غرناطة، وكان الروم يحاصرونها ويضربونها بالمدافع منذ خمسة أشهر. وقد رفع الملوك المسيحيون ـ ليهدمِ الله ما بنوا ويبنِ ما دمّروا ـ أبراجاً من الخشب قبالة أسوارها وحفروا خندقاً لمنع المحاصَرين من الاتّصال بالخارج. ومع ذلك، وعلى الرغم من تفوّق القشتاليين الساحق بالعديد والعُدّة، وعلى الرغم من وجود فرديناند نفسه على الساحة، فإنهم لم يتمكنوا من الفوز بها، وكانت حاميتها تقوم كل ليلة بخرجات قتّالة. وهكذا كان صمود المدافعين الباسل عن «بسطة» بقيادة الأمير النصْريّ يحيى النجّار تثير حميّة الغرناطيين وتُلِهب خيالهم.

«وما كان ذلك ليفرح أبا عبدالله. فيحيى، بطل «بسطة»، أحد ألّد أعدائه. بل لقد كان يطالب بعرش «الحمراء» الذي سبق أن تربّع عليه جدّه، وكان ينظر إلى السلطان الحاليّ نظره إلى مغتصِب.

«وبلغ مسامع الغرناطيين نبأ مأثرة جديدة للمدافعين عن «بسطة» فقد قيل إن القشتاليين علموا بتناقص المؤن في «بسطة»، وأن يحيى أعمل الحيلة لإقناعهم بعكس

ذلك فجمع كل ما بقي من أطعمة وعرضها بشكل جليّ في متاجر السوق ثم دعا وفداً من المسيحيين إلى القدوم لمفاوضته. وإذ دخل مبعوثو فرديناند فقد عجبوا لرؤية هذه الوفرة من المنتجات من جميع الأنواع، ولم يقصّروا في نقل ذلك إلى ملكهم ناصحين إياه بالكفّ عن السعي لإجاعة «بسطة» واقتراح تسوية مشرّفة على حُماتها.

«وقد نقل إليّ عشرة أشخاص على الأقل بسرور بالغ نفس الحكاية في الحمّام والمسجد وأروقة «الحمراء» على مدار عشر ساعات متقطّعة؛ وكنت أتظاهر بالدهشة في كل مرّة كيلا أسيء إلى مخاطبي، ولكي أفسح له في المجال ليزيد في الحكاية شيئاً من عندياته. وكنت أبتسم كذلك، ولكن بمقدار أقلّ في كل مرّة لأن القلق كان ينهش صدري. وشرعت أتساءل لماذا ترك يحيى ممثّلي فرديناند يدخلون المدينة المحاصَرة، وكيف رجا على الأخصّ أن يُخفي عن العدو المجاعة التي كانت تهصر بين فكّيها «بسطة» ما دام كل الناس في غرناطة، وربما خارجها أيضاً، كانوا يعلمون الحقيقة ويسخرون من الحيلة.

وتابع خالي قائلاً:

«وصحّ أشدُّ مخاوفي نُكراً يوم رأس السنة في أثناء أحاديثي مع زوّار «الحمراء». فقد علمت بالفعل أن يحيى، «حسام الدين» و«سيف الإسلام»، لم يكن قد قرّر تسليم «بسطة» وحسب، بل الانضمام أيضاً إلى الجيوش القشتالية لتمهيد السبيل لفتح سائر مدن المملكة، ولا سيما «قادس» و«ألمريّة» وأخيراً غرناطة. وقد تجلّت مهارة هذا الأمير الفائقة في إلهاء المسلمين بحيلته المزعومة لإخفاء الغرض الحقيقي من محادثاته مع فرديناند. ويقول بعضهم إنه اتّخذ قراره لقاء مبلغ كبير من المال ووعْدٍ بالإبقاء على حياة جنوده وسكّان مدينته. ولكنّه حصل على أكثر من ذلك: إن هذا الأمير سليل الأسرة المالكة وحفيد أحد سلاطينها سوف يصبح باعتناقه دين المسيح أحد رجالات قشتالة المرموقين. وسأحدّثك عنه فيما بعد.

«لم يكن أحد ليرتاب في إمكان مثل هذا التحوّل في مطلع سنة ٨٩٥ هـ. ولكنْ أخذت تترامى إلينا منذ الأيام الأولى من شهر محرّم أفظع النُذُر. لقد استسلمت «بسطة» وما لبثت أن تبعتها «برشانة» و«ألمريّة» ثم «قادس». ووقع الجزء الشرقي من

المملكة بأكمله ـ وكان أنصار الحرب فيه أقوى منهم في أيّ مكان ـ بلا قتال في أيدي القشتاليين.

«لقد فَقَد أنصار الحرب بطلهم وتخلّص بذلك أبو عبدالله من عدوّ مزعج؛ غير أن انتصارات القشتاليين كانت تختزل مملكته إلى النزر اليسير، إلى غرناطة ونواحيها المباشرة التي كانت هي أيضاً عرضة لهجمات متكرّرة. فهل كان على السلطان أن يفرح أم كان عليه أن يشكو ويتأوّه؟

وقال خالي:

«في مثل هذه الأوقات يظهر السموّ أو تنكشف الضّعة. وكانت هذه الأخيرة هي التي طالعتُها بجلاء في وجه أبي عبدالله يوم رأس السنة في قاعة السفراء. وكنت قد عرفت الحقيقة الجائرة عن «بسطة» من ضابط بربري شاب في الحرس يقيم بعض أفراد أسرته في المدينة المحاصرَة. وكان كثيراً ما يأتي لزيارتي في ديوان السلطان، وقد أسرّ الأمر إليّ لأنه لم يكن يجرؤ على التوجّه إلى السلطان، ولا سيّما للإخبار بمصيبة. وقدته على الفور إلى أبي عبدالله فدعاه إلى قول ما عنده بصوت خافت. وانحنى على أذن الملك المرهفة فكرّر له متمتماً الأنباء التي كان قد جمعها.

«ولكن كان كلما تقدّم الحديث بالضابط انفتح وجه السلطان بابتسامة عريضة وقحة بشعة. وما زلت أرى أمامي شفتيه الغليظتين تنفرجان، وخدّيه المكسوّين بالشعر يتباعدان نحو أذنيه، وأسنانه المفروقة التي تظنّ أنها تقضم النصر، وعينيه اللتين كانتا تنغلقان على مهلٍ وكأنّه على وشك تلقّي قبلة حارّة من حبيبة، وذلك الرأسِ الذي كان يترجّح بتلذّذ من الأمام إلى الخلف ومن الخلف إلى الأمام وكأنه يستمع إلى أشجى الأغاني. ولسوف تظلّ تطالعني تلك الابتسامة البغيضة، ابتسامة الضّعة، ما دمت حيّاً».

وتوقّف خالي عن الكلام. كان الليل يُخفي عني وجهه، ولكنّي كنت أسمعه يلهث ويتنهّد ثم يتمتم ببعض الأدعية فكنت أردّدها بعده. وبدا نباح بنات آوى أكثر قرباً.

واستأنف خالي قائلاً بصوت عاوده الهدوء:

«ما كان تصرّف أبي عبدالله ليفاجئني. فلم أكن أجهل طيش صاحب «الحمراء» ولا ضعف طبعه، ولا حتى علاقاته المشبوهة بالقشتاليين. وكنت أعرف الفساد في أمرائنا وأعلم أنّهم لم يكونوا قطّ يفكّرون في الذود عن المملكة، وأنّ المنفى لن يلبث أن يُكتب على شعبنا. ولكن كان عليّ أن أرى بأمّ عيني آخر سلاطين الأندلس وقد انزاح عن قلبه كل حجاب لأشعر بأني مرغم على الثورة. «والله يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء»!

لم يلبث خالي بعد ذلك في غرناطة سوى ثلاثة أشهر، الوقت اللازم لتحويل أملاكه سرّاً إلى قطع ذهبية سهل نقلها. ثم إنه انطلق في ليلة لا قمر فيها بفرس وبضعة بغال، ومعه أمه وامرأته وبناته الأربع وخادم، إلى «ألمريّة» حيث حصل من القشتاليين على إذن بركوب البحر مع غيره من المهاجرين إلى «تلمسان». ولكنه كان ينوي أن يستقرّ في «فاس»، وفيها التقيناه أنا ووالداي بعد سقوط غرناطة.

وإذا كانت أمي قد ظلّت تلك السنة تبكي رحيل خالي فإن محمّداً أبي طيّب الله ذكره لم يكن يفكّر قطّ في الاقتداء بنسيبه. وما كان جوّ مدينتنا بالميؤوس منه تماماً. وكانت حكايات مشجّعة جداً تسري على مدار السنة، وغالباً ما كانت تشيعها «سارة» العجيبة، كما قالت لي أمّي. «كنت أعلم في كل مرّة كانت تأتيني فيها «المبرقشة» أنه سيكون في وسعي أن أنقل إلى أبيك أحاديث تجعله فرحاً مطمئناً أسبوعاً بأكمله. وفي نهاية الأمر كان هو الذي يسألني بفروغ صبر عمّا إذا لم يرنّ «الجلجل» في بيتنا أثناء غيابه».

وأقبلت سارة ذات يوم وملء عينيها أخبار. وقد بدأت تسرد حكايتها مرفقة بألف حركة حتى قبل أن تجلس. وكانت قد علمت لتوّها من ابن عمّ لها مقيم في إشبيلية أن الملك فرديناند استقبل بسريّة كبيرة رسولين من سلطان مصر وراهبين من القدس كُلّفوا كما يقال بأن ينقلوا إليه تحذيراً شديد اللهجة من صاحب القاهرة: إن لم تتوقّف الهجمات على غرناطة فإن غضب السلطان المملوكي سيكون شديداً!

وفي بضع ساعات طاف النبأ حول المدينة متعاظماً بلا حساب ومغتنياً بالتفاصيل على الدوام حتى نُظِر في اليوم التالي من «الحمراء» إلى «مرور»، ومن «ألبيسان» إلى حيّ الخزّافين، نظرة احتقار وريب شديد إلى كلّ من تسوّل له نفسه الارتياب في

مَقْدَم الجيوش المصرية الوشيك الحاشد. وذهب بعضهم إلى التأكيد بأن أسطولاً مُسْلِماً كبيراً قد ظهر في عُرْض «الرابطة» جنوبي غرناطة، وأنه انضمّ إلى المصريين أتراك ومغاربة. وكان آخر المرتابين يُواجَهون بأنه لو لم تكن تلك الأخبار صحيحة فكيف يُفَسَّر توقّف القشتاليين المفاجىء منذ أسابيع عن هجماتهم في جميع أنحاء المملكة في الوقت الذي يقوم فيه أبو عبدالله الشديد الوجل قبلاً بالغزوة تلو الغزوة للأراضي التي يهيمن عليها المسيحيون من غير أن يتعرّض للانتقام؟ إن نشوة نصر عجيبة كانت قد استحوذت على المدينة المحتضَرة.

لم أكنِ أنا سوى رضيع محروم من حكمة الرجال، ولكنْ من جنونهم أيضاً، الأمر الذي جنّبني المشاركة في التصديق السائد. وإذ أصبحتُ بعد ذلك بكثير رجلاً يحمل بفخار لقب الغرناطي لتذكير الجميع بالمدينة الذائعة الصيت التي كنت قد نُفيت منها، فلم يكن في مقدوري الامتناع عن التفكير في كثير من الاحيان في ذلك العمى الذي أصاب الناس في بلدي، بدءاً بذويّ الذين استطاعوا إقناع أنفسهم بمَقْدَم وشيك لجيش مخلّص في الوقت الذي لم يكن يترصّدهم فيه غير الموت والهزيمة والعار.

* * *

كانت تلك السنة بالنسبة إليّ أيضاً أخطر السنوات التي سأخوضها. ولم يكن ذلك بسبب التهديدات التي كانت تنوء بها مدينتي وذويّ وحسب، وإنما لأن السنة الأولى في حياة كل ابن آدم هي السنة التي تكون فيها الأمراض أشدّ فتكاً، السنة التي يختفي فيها من الوجود كثير من الناس من غير أن يخلّفوا أثراً لِما يمكن أن يكونوا أو يضعوا. فكم من ملك عظيم، وكم من شاعر مُلْهَم، وكم من رحّالة مِقدام لم يتمكّنوا قطّ من تحقيق المصير الذي بدا أنهم نُذروا له لأنهم لم يستطيعوا قطع هذه المرحلة الأولى والصعبة، المرحلة الشديدة البساطة الكثيرة المهالك. وكم من أمّ لم تجرؤ على التعلّق بولدها خوفاً من أن يُكتب عليها ذات يوم أن تداعب شبحاً. لقد قال الشاعر:

يُمسِك الموت بحياتنا من طرفيها

وليست الشيخوخة أقرب إلى الفنَاء من الصبا.

ألم يكن الناس في غرناطة يقولون إن أخطر لحظات الحياة على رضيع هي اللحظة

التي تلي مباشرة يوم فطامه في حوالي نهاية السنة الأولى؟ فكثير من الأطفال لم يتمكّنوا وقد حُرموا حليب أمهاتهم من البقاء طويلاً على قيد الحياة، ولذا راجت العادة بأن تعلّق في ثيابهم للوقاية تمائم السَبَج والأحجبة المغلّفة بأكياس صغيرة من الجلد وفيها أحياناً كتابات سحرية يفترض أنها تحمي حاملها من شرّ العيون والأمراض؛ حتى إن حجاباً منها يُعرف بـ «حجر الذئب» كان يُفترض فيه أن يدجّن الحيوانات الضارية بوضعه على رؤوسها. وقد حدث لي أن أسفت في حقبة لم يكن لقاء السبع فيها نادراً في منطقة «فاس» على أن ذلك «الحجر» لم يكن في متناول يدي؛ لكنّني لا أظن أني كنت سأقترب من تلك الضواري اقتراباً يتيح لي وضع الطلّسم على لبداتها.

ويرى الأتقياء أن هذه المعتقدات وتلك الممارسات مخالفة للدين، ومع ذلك فإن أولادهم غالباً ما يحملون التمائم لأنه نادراً ما يتمكّن أولئك الرجال الأفاضل من هداية أزواجهم أو أمهاتهم سواء السبيل.

ولم يحدث أن فارقت أنا نفسي ـ لماذا الإنكار؟ ـ قطعة السَبَج التي باعتها سارة لأمي عشية ذكرى مولدي الأولى، وقد خُطّت عليها علامات سحرية لم اتمكّن من فكّ رموزها. ولا أظن أن هذه التميمة مزوّدة بأي سلطان سحري، ولكن الإنسان من الضعف بإزاء القَدَر بحيث لا يستطيع إلا أن يتعلّق بأمور تكتنفها الأسرار.

أيؤاخذني الله الذي خلقني ضعيفاً على ضعفي في يوم من الأيام؟

عام «أستغفر الله»

٨٩٦ هـ (١٤ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٤٩٠ م - ٣ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٤٩١ م)

كانت عمامة الشيخ «أستغفر الله» عريضة وكانت كتفاه ضيّقتين وصوته صوت أئمة الجوامع الأبحّ، وقد مالت لحيته الكثّة المحمرّة الشعر إلى اللون الرمادي في ذلك العام مُضْفِية على وجهه الحادّ القَسَمات مظهر الغضب المقيم الذي سوف يحمله متاعاً أوحد ساعة المنفى. وكان قد عزم في لحظة وهن على ألاّ يخضب قطّ شعره بالحنّاء، والويل لمن كان يسأله عن السبب: «إذا سألك ربّك عمّا فعلت يوم حصار غرناطة فهل تجرؤ على أن تجيبه بأنّك تزيّنت؟».

وكان في كل صباح يركب ساعة الأذان سطح منزله، أحد أعلى منازل المدينة، لا لكي يدعو المؤمنين للصلاة كما كان يفعل سنوات طوالاً، بل ليحدّق بعيداً إلى ما كان مثار حنقه المحقّ فيه.

وكان يصيح في جيرانه الذين لم يكونوا قد استيقظوا تماماً بعد: «انظروا، إنّه قبركم ذاك الذي يُشاد هناك على طريق «لوشة» وأنتم هنا راقدون منتظرين قدومهم لدفنكم! تعالوا وانظروا إذا كان الله يريد أن يفتح أعينكم! تعالوا وانظروا تلك الجدران التي ارتفعت في يوم واحد بقدرة إبليس الخبيث»!

وكان يشير بأصابعه النحيلة ويدُه ممدودة باتجاه الغرب إلى أسوار «سانتافيه» التي كان الملوك الكاثوليكيون قد بدأوا بناءها في الربيع وما لبثت أن اتّخذت في أواسط الصيف مظهر المدينة.

وكان الناس جميعاً في هذا البلد الذي درج أهله منذ زمن طويل على عادة المشي البغيضة في الشوارع حاسرين، أو اعتمار كوفية تُلقى كيفما اتفق على الرأس فلا تلبث أن تنزلق على مهل في أثناء النهار لتستقرّ فوق الكتفين، يتعرّفون من بعيد على طيف

«أستغفر الله» الشبيه بنتة الفِطر. لكنّ قلة من الغرناطيين كانت تعرف اسمه الحقيقي. ويقال إن أمّه كانت أول من أطلق عليه لقبه بسبب الصيحات المفزعة التي كان يطلقها منذ نعومة أظفاره إذا ذكر أمامه شيء أو عمل يرى أنه يستوجب النكير. فكان يصرخ لمجرد ذكر الخمر أو جريمة قتل أو شيء من ملابس النساء: «أستغفر الله! أستغفر الله!».

وأتى عليه حين من الدهر كان يُهزأ به بلطف حيناً وقسوة حيناً آخر. وباح لي أبي بأنه كان قبل مولدي بزمن كثيراً ما يجتمع وعصبة من الأصحاب يوم الجمعة قبل صلاة الظهر الجامعة في دكّان ورّاق لا يبعد كثيراً عن الجامع، وأنهم كانوا يتراهنون فيما بينهم على عدد المرّات التي سيتلفّظ فيها الشيخ بعبارته المفضّلة في أثناء خطبته. وكانت الأرقام تراوح بين خمس عشرة مرة وخمس وسبعين، وكان أحد الشبان المتآمرين يحصي العدد بأمانة طوال مدة الخطبة وهو يبادل الآخرين الغمزات في حبور.

ويتابع أبي قائلاً وهو يفكر متحيّراً في صبيانيّاته القديمة:

«لكنّ أحداً لم يعد يسخر في أثناء حصار غرناطة من نزوات «أستغفر الله». فقد بدا الشيخ لعيون عامّة الناس شخصاً جليلاً، ولم يكن قد تخلّى مع العمر عن تلك الكلمات ولا عن تلك التصرّفات التي كان يتميّز بها، بل ازدادت حدّة على العكس من ذلك الملامحُ التي كانت تجعل منه أضحوكة في نظرنا. بيد أن روح مدينتنا كانت قد تبدّلت.

«أعلم يا حسن يا بنيّ أن هذا الرجل كان قد أمضى عمره يبصّر الناس بأنهم إذا ما استمرّوا في العيش على ما هم عليه فإن الله تعالى سيعاقبهم في هذه الدنيا وفي الآخرة؛ لقد اتّخذ من المصيبة شغله الشاغل. وما زلت أذكر إحدى خطبه وكان قد استهلها تقريباً كما يلي:

«مررت وأنا قادم هذا الصباح إلى الجامع عبر باب الرمل وسوق الأشياء العتيقة بأربع حانات «أستغفر الله!» يُباع فيها خفية تقريباً خمر مالقة «أستغفر الله»! وأشربة محرّمة أخرى لا أريد معرفة أسمائها».

وشرع أبي بمحاكاة الخطيب بصوت متقبّض شديد التصنّع مبهرج بعدد لا يحصى من عبارات «أستغفر الله!» جعلتها سرعة التفوّه بها غير مفهومة، باستثناء بضع منها كانت الوحيدة الحقيقية ولا ريب. لكنه خُيّل إليّ على الرغم من الإفراط في المبالغة أن تلك الأحاديث قد رويت بما يكفي من الدقة والأمانة.

«ألم يتعلّم أولئك الذين يَغْشَوْن هذه الأماكن اللعينة، ألم يتعلّموا منذ نعومة الأظفار أن الله قد لعن بائع الخمر وشاريها؟ أنه لعن شاربها وساقيها؟ لقد تعلّموا، ولكنهم نسوا، أو فضّلوا الشراب الذي يحوّل الإنسان إلى دابّة على قول الله الواعد بالجنّة. إن إحدى هذه الحانات تديرها امرأة يهودية، ما من أحد يجهل ذلك، وأما الثلاث الأخرى فيديرها «أستغفر الله!» مسلمون. ثم إن زبائنهم ليسوا يهوداً ولا مسيحيين على ما أعلم! وربما كان بعضهم بيننا في يوم الجمعة هذا متوجّهين بخشوع إلى خالقهم في حين كانوا البارحة ساجدين أمام كأس أو مرتمين في أحضان بغيّ، بل ربما كانوا وقد زاغت عقولهم وأفلتت ألسنتهم من عقالها يجدّفون على الذي حرّم الخمر، على الذي قال: «لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارى»، «أستغفر الله»!

وتنحنح محمد، والدي، ليجلو حنجرته التي أزعجها الصوت المستعار قبل أن يتنابع قائلاً:

«أجل أيها الإخوة المؤمنون، إن هذه الأمور تحدث في مدينتكم على مرأى منكم ولا تثورون، وكأنّ الله لا ينتظركم يوم الحساب ليسألكم عن أعمالكم. وكأن الله سوف يُعِينكم على أعدائكم وأنتم تخالفون كلامه وكلام رسوله، صلى الله عليه وسلّم، أو عندما تتجوّل في شوارع مدينتكم المزدحمة نساء بلا حجاب كاشفات عن وجوههن وشعورهن للنظرات الشبِقة يطلقها مئات من الرجال لا أظنّ أنهم جميعاً أزواجهنّ ولا آباؤهنّ ولا أبناؤهنّ ولا إخوتهنّ. ولماذا يحفظ الله غرناطة من الأخطار المحيقة بها ما دام أهلها قد عادوا إلى سيرة الجاهلية وجدّدوا ما كان مألوفاً قبل الإسلام من البكاء على القبور والتفاخر بالأنساب وتعاطي الكهانة والاعتقاد بالطِيَرَة والإيمان بالأنصاب والأزلام والتنابز بالألقاب التي حذّرنا الله منها تحذيراً لا مِراء فيه؟».

ورمقني أبي بنظرة موافقة، ولكنْ من غير أن يقطع الخطبة أو حتى يلتقط أنفاسه:

«وما دامت قد دخلت بيوتكم خلافاً للتحريمات القاطعة تماثيل الرخام والعاج التي تحاكي بالرِّجس أشكال الرجال والنساء والحيوان، وكأن الخالق بحاجة إلى مساعدة مخلوقاته لإتمام خليقته؟ وما دام قد داخَلَ عقولَكم وعقولَ أبنائكم الشكُّ الكافر المُفسِد، الشكُّ الذي يُبعِدكم عن الله وكتابه ورسوله والمؤمنين، الشكّ الذي يصدّع أسوار غرناطة وأسسها بالذات؟»

وغدت نبرة أبي على امتداد كلامه أقلّ دعابة ممّا كانت، وحركاته أقلّ اتّساعاً وانتظاماً، وعبارات «أستغفر الله» أكثر ندرة:

«ما دمتم تنفقون بلا خجل ولا تحفّظ على ملذّاتكم أموالاً كان من الممكن أن تُشبع ألف فقير وتُعيد البسمة إلى ألف يتيم؟ ما دمتم تتصرّفون وكأنّ البيوت والأراضي التي تتمتّعون بها ملككم، في حين أن الملك لله تعالى، له وحده، منه جاءت وإليه ترجع متى شاء، مثلما نرجع إليه نحن أنفسنا من غير أن نحمل معنا من الخيرات غير الأكفان والأعمال الصالحة؟ إن الغنى أيها الإخوة المؤمنون لا يُقاس بما نملك من الأشياء وإنما بالتي نعرف كيف نستغني عنها. اتّقوا الله! اتّقوا الله! اتّقوه وقد فارقتم الشباب، ولكن اتّقوه أيضاً وانتم في ريعانه! اتّقوه في الضعف، ولكن اتّقوه أيضاً في إبّان القوّة! بل أقول إن عليكم أن تكونوا أكثر اتّقاء له وأنتم أقوياء لأنه سيكون في هذه الحال أقلّ رأفة بكم، واعلموا أن عينه تخترف سور قصرٍ مُنيف بالسهولة التي تخترق بها جدار كوخ من طين. وماذا تبصر عينه داخل القصور؟»

ولم تعد نبرة أبي عند هذا الحدّ من الخطبة نبرةَ مقلّد، وإنما نبرةُ عريف من عرفاء الكتاتيب؛ فقد كان صوته الآن ينساب بلا تعمّل، وكانت عيناه مُثْبَتتين في البعيد وكأنهما عينا شخص يسير وهو نائم:

«عندما تنفُذ عين الله تعالى إلى داخل القصور فإنها ترى أنّه يُصغى إلى المغنّيات أكثر ممّا يُصغى إلى الفقهاء، وأنّ صوت العود يمنع الناس من سماع الأذان، وأنّه لا يُميَّز بين رجل وامرأة في اللباس ولا في المشية، وأن المال المسلوب من المؤمنين يُرمى به عند أقدام الراقصات. أيها الإخوة، إنه كما يفسد أوّلَ ما يفسد رأس السمكة التي نصطادها، كذلك في الجماعات البشرية يدبّ الفساد من أعلى إلى أسفل».

وتلا ذلك صمت طويل، وعندما أردت طرح سؤال قاطعني أبي بحركة من يده. وعليه فقد انتظرت حتى يتخلّص تماماً من ذكرياته ويحدّثني بنفسه:

«إن العبارات التي ردّدتها عليك يا حسن مقتطفات من الخطب التي ألقاها الشيخ قبل بضعة أشهر من سقوط غرناطة. وسواء وافقتُ أو لم أوافق على كلامه فإنه يهزّ كياني حتى حينما أستذكره بعد انقضاء عشر سنوات. وعليه ففي وسعك أن تتصوّر الأثر الذي كانت مواعظه تحدثه في المدينة المنكوبة التي كانتها غرناطة عام ٨٩٦ هـ.

«وكلّما كان الغرناطيون يدركون أنّ النهاية قد قربت، وأن المصائب التي لم يفتأ «أستغفر الله» يتنبّأ بها قد بدأت تنهال عليهم، كان يزداد اقتناعهم بأنّ الشيخ كان على حقّ منذ البداية، وأنّ السماء طالما تحدّثت بلسانه. وعندها لم يعد يُرى في الشارع، حتى ولا في الأحياء الفقيرة، وجه امرأة. فكانت بعض النساء، حتى اللائي بلغن الحلم من وقت قريب، يغطّين وجوههن مخافةَ الله، وبعضهنّ مخافةَ الناس، إذ تألّفت زُمَرٌ من الشبّان المسلّحين بالهراوات للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولم تعد حانة تجرؤ على فتح أبوابها حتى في السرّ. وغادرت البغايا المدينة أفواجاً إلى معسكر المحاصرين حيث استقبلهنّ الجنود بالترحاب. وأخفي الورّاقون عن الأنظار الكتب التي تشكّك في العقائد والسُّنن، ودواوين الشعر التي تتغنى بالخمر والملذّات، والأبحاث التي تعالج التنجيم وكشف الطالع. حتى إنّه صودرت بعض الكتب ذات يوم وأُحرقت في صحن المسجد الجامع. واتّفق أن كنت مارّاً من هناك وقد بدأت المحرقة الصغيرة بالخمود وأخذ المتسكّعون بالتفرّق مع تبدّد الدخان. وقد عرفت من ورقة متطايرة أنه كان في المحرقة كتاب لطبيب شاعر من الأيام الخوالي يعرف بالقلندر. وتمكّنت من أن أجد في هذه الورقة التي التهمت النار نصفها هذه الكلمات:

جَرَتْ مِنِّيَ الخمرُ مجرى دمي   فَجُلُّ حياتِيَ من سُكْرِها»

***

كانت الكتب المحترقة في ذلك اليوم ترجع، كما قال لي أبي، إلى طبيب آخر كان ألدّ خصوم «أستغفر الله». وكان اسمه «أبا عمرو»، ولكنّ أصحاب الشيخ حرّفوه إلى «أبي خمر».

ولم يكن يجمع بين الواعظ والطبيب سوى الصراحة في القول، وذلك هو بالضبط ما أجّج بينهما بلا انقطاع نار المشادّات التي كان الغرناطيون يتابعون أحداثها. وأمّا ما عدا ذلك فقد كان المرء يشعر بأن الله تعالى قد أوجد منهما أشدّ مخلوقين اختلافاً على وجه الدنيا.

كان «أستغفر الله» ابن مسيحيّ اعتنق الإسلام، وهذا ما يفسّر بلا ريب حماسته وتفانيه، في حين كان «أبو خمر» ابن قاضٍ وحفيد قاضٍ، وبالتالي فإنه لم يكن يشعر أنّه بحاجة إلى تقديم برهان على تعلّقه بالعقيدة والسُّنّة. وكان الشيخ أشقر نحيلاً سريع الغضب؛ وكان الطبيب في مثل سُمْرة التمرة وأكثر امتلاء من خروف عشيّة العيد، وقلّما فارقت شفتيه البسمة سروراً أو سخرية.

وكان قد درس الطبّ في الكتب القديمة، كتب أبقراط وجالينوس والرازي وابن سينا وأبي القاسم وابن زُهْر وميمون، وكذلك في الكتب المُحْدَثَة عن الجُذام والطاعون أبعدهما الله! وكان من عادته أن يوزّع كلّ يوم على الأغنياء والفقراء على السواء عشرات القوارير من ترياق كان يصنعه. ولكنّه كان يفعل ذلك فقط للتحقّق من تأثير لحم الأفعى أو معجون العسل، لأنّه كان أشدّ انصرافاً إلى العلم والتجربة منه إلى ممارسة الطبّ. وهل كان في وسعه على كل حال، بيديه اللتين كان الكحول يرعشهما على الدوام، أن يجري جراحة في عين أصابها الماء الأزرق، أو حتى أن يخيط جرحاً؟ وهل كان في مُكنته أن يصف لمرضاه الحِمْيَة - قال النبي: «الحِمْيَةُ رأس كلّ دواء» - أو أن ينصحهم بألاّ يفرطوا في الشراب والطعام في حين كان هو ينصرف بلا تحفّظ إلى جميع ملذّات الخِوان؟ لقد كان في مقدوره على أبعد تقدير أن يوصي بالنبيذ المعتّق لعلاج الكبد كما فعل أطباء آخرون قبله. وإذا كان يُدعى «الطبيب» فذلك لأن الطبّ كان من بين جميع العلوم التي اهتمّ بها - وكانت تراوح بين الفلك والنبات مروراً بالكيمياء والجبر - الحقلَ الذي لم يكن يَقْصِرُ دوره فيه على مجرّد القراءة. بيد أنه لم ينتفع منه بدرهم لأنّ رزقه لم يكن منه: كان يملك في سهل غرناطة الخصيب، غير بعيد من أراضي السلطان، بضع عشرة قرية تحيط بها حقول القمح والشعير، وكروم الزيتون، وبشكل خاص الحدائق الرائعة الأثمار. ويُقال إن غلّته في الموسم الواحد من الحنطة والكُمثرى والأترجّ والبرتقال والموز والزعفران وقصب السكّر

كانت ثلاثة آلاف دينار ذهباً، وهو ما لا يكسبه طبيب في ثلاثين سنة. وكان يملك فوق ذلك على قلّة «الحمراء» بالذات دارة واسعة رائعة غائصة بين أشجار الكرمة.

وحين كان «أستغفر الله» يُعرِّض بالأغنياء فإنه غالباً ما كان يغمز من قناة «أبي خمر»، وكانت صورة الطبيب المكرش الرافل في الحرير هي التي ترتسم في أذهان العامّة. فحتى الذين كانوا ينعمون مجّاناً بعقاقيره كانوا يشعرون ببعض الانزعاج في حضرته، إمّا بسبب ممارساته التي كانت تبدو وكأنها ضرب من السحر، وإمّا بسبب حديثه المزخرف جدّاً بالتعابير العلمية، الأمر الذي يجعله غير مفهوم إلا من زمرة صغيرة من المتعلّمين المتعطّلين الذين كانوا يقضون معه أيامهم ولياليهم في الشراب والحديث عن المناعة المتحصّلة من تعاطي السموم بكميّات خفيفة، وعن الاصطرلاب، وعن التقمّص. وكثيراً ما وُجد بينهم أمراء من الأسرة المالكة، وكان أبو عبدالله نفسه يألف مجالس شربهم، على الأقلّ إلى اليوم الذي اضطرّ فيه السلطان إلى إبداء مزيد من الحرص في اختيار صَحْبِه بفعل الجوّ الذي أشاعه «أستغفر الله» في المدينة.

ويعلّق أبي قائلاً: «كانوا رجال علم وجهالة؛ وكانوا كثيراً ما يعبّرون، خارج سلطان الشراب، عن أمور رشيدة، ولكنْ بطريقة كانت تثير حفائظ العامّة بخروجها عن التقى كما بإغراقها في التعمية. وعلى المرء إذا كان غنياً، بالذهب أو بالمعرفة، أن يراعي فقر الآخرين».

ويضيف في نبرة مسارّة: «كان جدّك لأمك، سليمان الورّاق رحمه الله، قد اجتمع مرّات بهؤلاء الناس. ولم يكن ذلك لأجل الخمر بالطبع، وإنّما لأجل الحديث. ثم إن ذلك الطبيب كان أحسن زبائنه. وكان يجلب له كتباً نادرة من القاهرة أو بغداد أو أصفهان، وحتى من روما والبندقية وبرشلونة في بعض الأحيان. وعلى كل حال فقد كان «أبو خمر» يشكو من أن إنتاج الكتب في البلاد الإسلامية قد قلّ عمّا كان في الماضي، وبات الأمر محصوراً على الأخصّ في مجرّد نقول عن الكتب القديمة أو مختصرات لها. وهذا ما كان جدّك يوافقه عليه. وكان كثيراً ما يردّد في مرارة أنه في عصور الإسلام الأولى لم تكن تُحصى في المشرق كتب الفلسفة أو الرياضيّات أو الطبّ أو الفلك، وأنّ الشعراء أنفسهم كانوا أكثر عدداً وتجديداً في

الأسلوب والمعنى».

وفي الأندلس أيضاً كان الفكر مزدهراً، وكانت ثماره كتباً تُنسخ بأناة ويتداولها رجال العلم من الصين إلى المغرب الأقصى. ثم كان نضوب الفكر والقلم. واتُّخذ من السُنّة حصن لاذ به الناس دفاعاً عن أنفسهم من الفرنجة، أفكارهم وعاداتهم. ولم تُنجب غرناطة سوى مقلّدين بلا موهبة ولا جراءة.

وتألّم لذلك «أبو خمر»، وأمّا «أستغفر الله» فارتاح إليه. فقد كان البحث الجاهد عن الأفكار الجديدة رذيلة في نظر هذا الأخير، وكان المهمّ عنده أن يتّبع المرء تعاليم الله تعالى كما نقلها القدماء وناقشوها. «فمنذا الذي يجرؤ على الزعم بأنه أقرب إلى الحقّ ممّا كان النبي وصحابته؟ إن المسلمين ما ضعفوا أمام أعدائهم إلا لأنّهم حادوا عن الصراط المستقيم وتركوا أفكارهم وأخلاقهم نهباً للفساد». وكانت تعاليم التاريخ مختلفة عن ذلك تماماً في نظر الطبيب. وكان يقول إن «أزهى عصور الإسلام كانت يوم كان الخلفاء ينثرون ذهبهم على العلماء والمترجمين، ويوم كانوا يقضون الأمسيات في الحديث عن الفلسفة والطبّ بصحبة شعراء أنصاف سكارى. وهل كانت حال الأندلس سيّئة في أيام الوزير عبد الرحمن الذي كان يقول ضاحكاً «أنت يا من ينادي: حيّ على الصلاة، الخير لك أن تنادي: حيّ على الشراب». إن المسلمين لم يضعفوا إلا يوم أظلمت عقولهم بفعل الصمت والخوف والخضوع».

وبدا لي أنّ أبي كان قد تابع عن كثب كل تلك الصراعات، ولكنْ من غير أن يتّخذ قطّ بشأنها حُكْماً قاطعاً. وظلّت أحاديثه بعد عشر سنوات عارية من كل يقين.

«كان قلّة من الناس يتّبعون الطبيب على طريق عدم التديّن، بيد أنّ بعض أفكاره كانت تزعزعهم. يشهد بذلك أمر المِدفع. هل سبق أن قصصته عليك؟

حدث ذلك حوالي آخر عام ٨٩٦ هـ. وكانت جميع الطرق المؤدّية إلى السهل قد أصبحت في يد القشتاليين، وقلّت المؤن. ولم يكن من وسيلة لحساب الوقت في غرناطة سوى عزيف القذائف وكتل الصخور التي كانت تنهال على المنازل، وغيرُ نواح النائحات؛ وكان مئات البائسين في الأسمال يتنازعون في الحدائق العامة أغصان الشجرة الأخيرة المقطّعة لمواجهة شتاء منذر بالاستطالة والقسوة؛ وكان رجال الشيخ

المندفعون على غير هدى يطوفون الشوارع بحثاً عن عاصٍ لمعاقبته.

وكانت المعارك حول المدينة المحاصَرة أكثر تقطعاً وأقلّ ضراوة. ولم يكن فرسان غرناطة ومُشاتها يجرؤون على التجوّل زرافات بعيداً عن الأسوار لأن المدفعية القشتالية كانت تبيدهم عن بكرة أبيهم عند كل خرجة. وكانوا يكتفون بعمليات سطو ليلية صغيرة لمهاجمة زمرة من جنود العدوّ، أو لسلب أسلحة، أو للاستيلاء على بعض الماشية، وكلّها أعمال جسورة وإن كانت لا طائل تحتها لأنّها لم تكن كافية لفكّ الطوق ولا لتموين المدينة ولا حتى لاستعادة الشجاعة.

وفجأة سرت شائعة. لا من تلك التي تتساقط كالرذاذ من سحابة عريضة وإنما من تلك التي تنهمر كوابل صيفي مغطّية بضجيجها المصمّ ضآلة الأصوات اليومية. شائعة حملت إلى مدينتنا هذه المسحة من السخرية التي لا تخلو منها مأساة.

«عُلِم أن «أبا خمر» قد استولى على مدفع سلبته من العدوّ ثلّة من الجنود البواسل الذين ارتضوا أن يجرّوه إلى بستانه لقاء عشر قطع من الذهب».

ورفع أبي إلى شفتيه قدحاً من عصير اللوز وعبّ منه عدّة جرعات متتالية قبل أن يتابع غير متأثّر بما كنت أسبح فيه من بُحران عدم الفهم:

«لم يكن قد سبق للغرناطيين أن امتلكوا المدافع، ولما كان «أستغفر الله» لا يني يردّد على مسامعهم أن هذا الاختراع الشيطاني يُحدِث من الضجيج أكثر ممّا يُحدِث من الضرر فقد سلّموا بأن آلة بمثل هذه الجدّة وذاك التعقيد لا يمكن أن توجد إلا عند العدوّ. وقد أوقعتهم مبادرة الطبيب في حيرة. وانقضت أيام وسيل لا ينقطع من المستطلعين شبّاناً وشيباً يقفون على بُعْدٍ لا يُستهان به من «الشيء» وهم يتحدّثون همساً عن استداراته المتقنة وشدقه المتوعّد. وأمّا «أبو خمر» فكان هناك باستداراته هو نفسه متلذّذاً بانتقامه. «اذهبوا إلى الشيخ وقولوا له أن يأتي بدلاً من قضاء أيامه في الصلاة! واسألوه إن كان يعرف أن يشعل فتيلاً بالسهولة التي يحرق بها كتاباً!» وكان أكثر الناس تقى يسرعون في الابتعاد مغمغمين ببعض اللعنات، بينما كان آخرون يلحفون في سؤال الطبيب عن كيفية استخدام المدفع وعن آثاره إذا استخدم لضرب «سانتافيه». ولم يكن هو نفسه يعرف بالطبع شيئاً من ذلك ولم تكن شروحه إلا لتزيد

الأمور غموضاً

«لا بدّ أنك حزرت يا حسن يا بنيّ أن هذا المدفع لم يستخدم على الإطلاق. فما كان عند «أبي خمر» قذائف ولا بارود ولا مدفعيّون، وكان زوّاره قد بدأوا يسخرون. ولحسن حظه حضر المحتسب صاحب الشرطة وقد أقلقته التجمّعات فأمر بعض رجاله بسحب ذلك الشيء إلى قصر الحمراء لعرضه على السلطان. ولم يظهر بعدها قطّ. لكنّ حديثه ظلّ يُسمع طويلاً، على لسان الطبيب طبعاً، فهو لم يفتأ يردّد أنه بالمدفع وحده يستطيع المسلمون الانتصار على أعدائهم، وأنهم ما لم يحزموا أمرهم على اقتناء عدد كبير من هذه الآلات أو صنعها بأنفسهم فستظلّ ممالكهم عرضة للخطر. وأما «أستغفر الله» فكان يبشّر بأمور أخرى: سوف يتمّ سحق المحاصِرين باستشهاد المقاتلين في سبيل الله.

«ولسوف يوفّق أبو عبدالله بينهما لأنّه لم يكن من جهته راغباً في المدافع ولا في الشهادة. وفيما كان الشيخ والطبيب يتماحكان بلا هوادة، وكانت غرناطة بأسرها تتساءل من خلالهما عن مصيرها، لم يكن صاحب المدينة يفكّر إلا في الهرب من العراك. فكان يرسل إلى الملك فرديناند الرسالة تلو الرسالة، ولم يكن يُذكر في تلك الرسائل غير موعد الاستسلام يحدّده المحاصِر بالأسابيع والمحاصَر بالشهور لعلّ يد الله تعالى تُبطل في أثنائها تدابير الناس الهشّة بمشيئة مباغتة كطوفان أو زلزال أو طاعون يُهلك كبار إسبانيا».

إلا أن السماء كانت تدبّر لنا غير ذلك.

عام السقوط

٨٩٧ هـ (٤ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٤٩١ م - ٢٢ تشرين الأول «أوكتوبر» ١٤٩٢ م)

«كان الجوّ بارداً هذا العام في غرناطة، وكان مع البرد الخوف، وكان الثلج أسود بفعل التربة المفلوحة والدم. وما كان أشد الألفة مع الموت، وما كان أقرب المنفى، وما كان أقسى تذكّر أفراح الماضي!»

لم تكن أمي هي إيّاها عندما كانت تتحدّث عن سقوط مدينتنا؛ وكان يصدر عنها حيال هذه المأساة صوت ونظرة وكلمات ودموع لم أكن أعرفها لها في أية مناسبة. وأما أنا فلم أكن قد بلغت الثالثة من عمري في تلك الأيام الصاخبة، ولست أدري إذا كانت الصيحات المزدحمة في مسمعي في هذه اللحظة تذكرة لما كنت قد سمعته حينذاك حقّاً أو أنها فقط صدى ألف حكاية حُكيت لي مُذّاك.

لم تكن تلك الحكايات تبـدأ كلها بالطريقة نفسها. فحكايات أمّي كانت تتحدّث أول ما تتحدّث عن المجاعة والكرْب. كانت تقول:

«جاء الثلج منذ الأيام الأولى من السنة يقطع الطرق القليلة التي كان المحاصرون قد عفَوا عنها مُنجزاً عزل غرناطة عن سائر البلاد، ولا سيّما عن السهل وجبال البجراس في الجنوب، ومنها كان يأتينا القمح والشوفان والذرة البيضاء والزيت والزبيب. وفي جوارنا كان الناس خائفين، حتى أقلّهم فقراً؛ وكانوا يشترون في كل يوم جميع ما يقع تحت أيديهم، وإذ كانوا يرون خوابي المؤن مرصوصة إلى جدران الغرف فقد كان خوفهم من الجوع والجرذان والناهبين يزداد بدلاً من الشعور بالطمأنينة. وكانوا جميعاً يقولون إنه إذا فُتحت الطرق مجدّداً فإنهم سيرحلون بلا إبطاء إلى بعض القرى التي لهم فيها أقارب. وفي أشهر الحصار الأولى كان أهل القرى المجاورة هم الذين يبحثون عن ملجأ في غرناطة منضمّين إلى اللاجئين من

قادس وجبل طارق؛ وكانوا يقيمون كيفما اتّفق عند أقاربهم أو في ملحقات المساجد أو في الأبنية المجهورة؛ حتى إنهم أقاموا في الصيف الماضي في الحدائق والأراضي المشاع داخل خيم مُرْتَجلة. وكانت الشوارع تغصّ بالمتسوّلين من كل حدب وصوب، أُسَراً بكاملها أحياناً، الأب والأم والأولاد والشيوخ، وكلّهم هياكل عظميّة زائغة الأبصار؛ وحيناً زمراً من الشباب الذين يبعث مظهرهم القلق في النفوس؛ وكان الشرفاء الذين لا يطيقون التسوّل أو السرقة يموتون على مهل في مساكنهم بعيداً عن الأنظار».

لم يكن ذلك مصير ذويّ. فحتى في أسوأ لحظات القحط لم يكن ينقص بيتَنا شيءٌ بفضل مكانة أبي. فقد ورث بالفعل عن أبيه منصباً بلدياً مهمّاً يقضي بوزن الحبوب والتأكدّ من سلامة الممارسات التجارية؛ وهذا ما أضفى على أفراد عائلتي لقب «الوزّان» الذي ما زلت أحمله؛ ولا يعرف أحد في المغرب أنني أدعى اليوم ليون أو يوحنّا ـ ليون دومديتشي،ولم يلقّبني أحد بالإفريقي؛ فهناك كنت الحسن بن محمد الوزّان، وكان يضاف في الوثائق الرسمية «الزيّاتي» نسبة إلى قبيلتي الأصلية، و«الغرناطي»، وعندما كنت أبتعد عن «فاس» كانوا يقولون «الفاسي» نسبة إلى أوّل بلد أقمت فيه بعد نزوحي عن بلدي، ولم يكن موطني الأخير.

كان في استطاعة أبي بوصفه وزّاناً أن يقتطع من السلع الخاضعة لإشرافه الـمـيّات التي يشاءُها في حدود المعقول، أو حتى أن يقبض بالدنانير الذهبية ثمن سكوته عمّا يرتكبه التجّار من غشّ؛ ولا أعتقد أنه حاول أن يثري، لكن مكانته كانت تُبعد عنه وعن أقاربه كل شبح من أشباح المجاعة.

وكانت أمي تقول لي: «كنتَ في ذلك الحين طفلاً بديناً فلم أكن أجسر على إخراجك معي إلى الشارع خوفاً من عيون السوء»؛ كان ذلك أيضاً لكيلا يفتضح أمر رخائنا النسبيّ.

وإذ كان أحد هواجس أبي ألّا يفقد محبّة جيرانه الموثوقين فقد كان كثيراً ما يجعلهم ينتفعون بما يحصل عليه، ولا سيّما اللحم وبواكير الخُضرَ والثمار، بيد أنه كان يعطي دائماً بمقدار وتواضع لأنّ كل بحبوحة كانت استفزازاً، وكل تشوّف إهانة.

وعندما أبدى أهل العاصمة في الشوارع ـ وقد خارت قواهم وطفح كيل أوهامهم ـ سخطهم وضيقهم، وذهب وفد منهم إلى السلطان لحمله على إنهاء الحرب بأيّ شكل، رضي أبي أن يكون في عداد ممثّلي «ألبيسان».

وهكذا فإنه عندما كان يقصّ عليّ خبر سقوط غرناطـة كان من المحتّم أن تبدأ حكايته من قاعات «الحمراء» المنجّدة.

«كنّا ثلاثين قادمين من جميع أنحناء المدينة، من نجد إلى عين الدمع، ومن حيّ الخزّافين إلى بستان اللوز، ولم يكن الذين يرفعون عقائرهم بالكلام أقلّ ارتعاداً من الآخرين. ولا أُخفي عليك أنّني كنت أنا نفسي هلِعاً، وأنّني وددت أن أرجع أدراجي لو لم أخف سواد الوجه، فتصوّر إذن جنون مسعانا: لقد زرع آلاف الأهالي الفوضى في الشوارع خلال يومين كاملين زاعقين بأبشع المثالب في وجه السلطان، شاتمين أصحاب مشورته وساخرين من نسائه، فارضين عليه بلا تحفّظ أن يقاتل أو يسالم بدلاً من أن يطيل إلى ما لا نهاية أَمَدَ وضعٍ تخلو معه الحياةُ من البهجة، والموتُ من المجد. وها نحن أولاء مبعوثين صاخبين زاعقين نحضر إلى قصره ونتحدّاه أمام حاجبه ووزرائه وضباط حرسه وكأننا نحمل إلى مسمعيه الشتائم التي سبق أن حملها إليه ولا شكّ عيونه وجواسيسه. وكنت أنا الموظف في ديوان المحتسب، أنا من يُفترض فيه السهر على احترام القانون والنظام العام، هناك مع مسبّبي الشغب، في حين كان العدوّ على أبواب المدينة. وكنت أقول لنفسي وأنا أفكّر بارتباك في كل هذا إني لن ألبث أن أُلقى في زنزانة وأُجلد بالسياط حتى تسيل دمائي، أو حتى أن أصلب فوق متراس في أحد الأسوار.

«لم تلبث مخاوفي أن بدت مضحكة، وسرعان ما أعقب الخجلُ الفزعَ؛ ولحسن الحظّ أن أحداً من صحبي لم يدرك هذا ولا ذاك. إنك لن تلبث يا حسن يا بنيّ أن تفهم لماذا أكشف لك عن لحظة الضعف هذه التي لم يسبق قطّ أن حدّثت عنها أيّاً من أقاربي. فأنا أريد أن تعرف ما حدث بالضبط في مدينتنا غرناطة في عام الشقاء ذاك؛ فلعلّك تتجنّب أن تدع من في أيديهم مصير الجماعة يعبثون بك. وأنا بالذات لم أُخْبَر شيئاً ثميناً من أشياء الحياة إلا بالكشف عن قلوب الأمراء والنساء.

«دخل وفدنا إذن قاعة السفراء حيث كان أبو عبدالله متربّعاً في مكانه المعتاد يحيط

به جنديان بسلاحهما وبعض المستشارين. وكانت غضون وجهه عميقة بشكل يدعو إلى التعجّب بالنسبة إلى رجل في الثلاثين من العمر، ولحيته شيباء وجفونه مسترخية؛ وكان أمامه منقل نار ضخم من النحاس المرصّع يخفي عنّا ساقيه وصدره. وكان ذلك اليوم نهاية شهر المحرّم الموافق في ذلك العام للأول من شهر كانون الأول (ديسمبر) من السنة المسيحية، وكان البرد من الشدّة بحيث يذكّر بأقوال الشاعر ابن صارة الشنتريني الوقحة يوم زار غرناطة:

يا أهل هذه البلاد لا تزاولوا الصلاة
ولا تبتعدوا عن المحرَّمات
ويذا يكون في وسعكم أن تكسبوا مأوالَم في السعير
حيث تبعث النار الدفء والسكينة
عندما تهبّ ريح الشمال.

«واستقبلنا السلطان بابتسامة كادت ترتسم على شفتيه وإن بدت لي مرحّبة. ودعانا بحركة من يده إلى الجلوس فجلست على طرف المقعد. ولكنْ قبل أن يبدأ الحديث رأيت ويا لعجبي عدداً كبيراً من وجهاء القوم ضبّاطاً وعلماء وأعياناً وقد جاءوا من كل صوب، وبينهم الشيخ «أستغفر الله» والوزير المُليح والطبيب «أبو خمر»، وبالجملة نحو مئة شخص كان بعضهم يتحاشون التلاقي منذ زمن.

«وتكلم أبو عبدالله على مهل وبصوت خافت أكره زوّاره على السكوت والانكباب ناحيته وهم يتنفّسون بمشقّة فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم، رغبت في أن يجتمع هنا في قصر الحمراء كل الذين يرون رأياً في الوضع الشاغل الذي رمى القدر به مدينتنا. تبادلوا الرأي في الموقف الواجب اتّخاذه لخير الجميع، وسوف اتصرّف وفقاً لمشورتكم. إنّ وزيرنا المُليح سيكون أوّل من يدلي برأيه، ولن أتكلّم إلا في النهاية». وهنا أسند ظهره إلى الطنافس المرصوصة إلى الجدار ولم ينبس بكلمة.

«كان المُليح مساعد السلطان الأوّل، وكان يُتوقّع من فمه مديح بنثر مسجّع للسلوك الذي يتبّعه سيّده حتى الآن. ولكنّ شيئاً من ذلك لم يكن. وإذا كان قد وجّه خطابه إلى «سليل المجد من الأسرة النَصْريّة المجيدة» فقد تابع بنبرة تختلف كل

الاختلاف قائلاً: «مولاي هل تعطيني الأمان إذا قلت ما أفكّر فيه في هده اللحظة بلا مراوغة ولا تحفّظ؟» ووافق أبو عبدالله بهزّة خفيفة من رأسه فأضاف الوزير قائلاً: «في رأيي أن السياسة التي نتّبعها لا تخدم الله ولا عباده. ولسوف نخطب هنا عشرة أيام بلياليها فلا تسقط حبّة أرزّ واحدة في صِحاف أطفال غرناطة الفارغة. فلنواجه الحقيقة حتى وإن كانت بشعة، ولنتجنّب الكذب حتى وإن كان مزيّناً بالجواهر. إن مدينتنا كبيرة، وليس من السهل حتى في أيّام السلم تأمين حاجتها من المؤن. وكلّ يوم يمرّ يزيد فيه نصيبها من الضحايا، وسوف يحاسبنا الله تعالى ذات يوم على جميع هؤلاء الأبرياء الذين تركناهم يموتون. ولَكان في وسعنا مطالبة السكان بالتضحيات لو أمّلناهم بخلاص قريب، لو كان جيش قويّ من المسلمين في طريقه لفكّ الطوق عن غرناطة ومعاقبة محاصِريها. بيد أننا نعرف الآن أنه لن يأتي أحد لنجدتنا. لقد كتبت أنت يا مولاي إلى سلطان القاهرة والسلطان العثماني فهل أجاباك؟» ورفع أبو عبدالله حاجبيه علامة النفي. «وكتبت من قريب أيضاً إلى الحكّام المسلمين في فـاس وتلمسان ليهبّوا بجيوشهم، فكيف ردّوا؟ إن دمك النبيل يمنعك من قول ذلك، وأمّا أنا فسأفعل عنك. لقد أرسل حكام فاس وتلمسان الرُسُل مثقلين بالهدايا، لا إلينا، وإنما إلى فرديناند، مُقسمين له بأنهم لن يرفعوا قطّ السلاح في وجهه! إنّ غرناطة تقف اليوم وحدها لأنّ سائر مدن المملكة قد ضاعت، ولأنّ مسلمي البلادالأخرى يُصِمّون آذانهم عن نداءاتنا. فما الحلّ الذي تبقّى لنا؟».

«وران صمت مطبق على الحضور الذين كانوا يكتفون بإرسال هدير بالموافقة بين الحين والحين. وفتح المُليح فمه وكأنّه يستعدّ لمتابعة حججه. ولكنّه لم يقل شيئاً، وخطا خطوة إلى الوراء وجلس وبصره إلى الأرض. وتتالى ثلاثة خطباء لا يُعرف أصلهم ولا فصلهم فقالوا بضرورة الإسراع في المفاوضة لتسليم المدينة، وذهبوا إلى أن المسؤولين قد أضاعوا كثيراً من الوقت غير شاعرين بآلام الضعفاء.

«ثم كان دور «أستغفر الله» الذي كان يتململ منذ البداية في مقعده. ونهض رافعاً يديه بحركة لا إرادية إلى عمامته فأصلحها وسرّح بصره في السقف المزيّن بالنقوش وقال: «إن الوزير المُليح مشهور بذكائه ومهارته، وإذا أراد إقناع سامعيه برأي تسنّى له الأمر بسهولة. لقد أراد أن ينقل إلينا رسالته فحضّر أذهاننا لتلقّيها ثم

صمت لأنه لا يريد أن يقدّم لنا بيديه الكأس المُرّة التي يسألنا شربها. وماذا في هذه الكأس؟ إذا كان لا يريد قول ذلك بلسانه فسأقوله أنا: يريد الوزير أن نقبل بتسليم غرناطة إلى فرديناند. فقد شرح لنا أنّ كلّ مقاومة باتت الآن بلا جدوى، وأنّ أية مساعدة لن تصل إلينا من الأندلس ولا من الخارج؛ وكشف لنا أن مبعوثين من الأمراء المسلمين قد تواطأوا مع أعدائنا أنزل الله بهم جميعاً جزاءه الوفاق! غير أن المُليح لم يكشف لنا كل شيء. لم يقل لنا إنّه يُجري منذ أسابيع مفاوضات مع الروم. لم يبُح لنا بأنه قد اتّفق معهم على أن يفتح لهم أبواب غرناطة».

«ورفع «أستغفر الله» صوته ليعلو على الهمهمة المتصاعدة. «لم يخبرنا المُليح أنه ذهب إلى حدّ القبول بتقديم موعد التسليم، وأنّ هذا الموعد سيكون في الأيام القادمة، وأنّه سعى فقط إلى تهيئة أذهان الغرناطيين للهزيمة. وما إغلاق مخازن المؤن منذ عدّة أيام إلا لإكراهنا على التسليم؛ وما المظاهرات التي نظّمها في الشوارع عملاء الوزير إلا للتعجيل في خَوَرنا، وإذا كانوا قد أتوا بنا اليوم الى الحمراء فليس ذلك لنقد أعمال حكّامنا كما أراد الوزير إقناعنا، وإنما للموافقة على قرارهم الكافر بتسليم غرناطة». كان الشيخ يصيح تقريباً؛ وكانت لحيته تنتفض غضباً وسخريةً مُرّة. «لا تستنكروا أيها الإخوة المؤمنون، فإذا كان المُليح قد أخفى عنّا الحقيقة فما كان في نيّته خداعنا؛ بل لأنّ الوقت لم يُسعفه. ولكنْ لا نُقاطِعْه بحق الله، ولنَدَعْه يشرح بالتفصيل ما فعله خلال هذه الأيام الأخيرة، ثم يكون في وسعنا إبداء الرأي في الموقف الذي علينا اتّخاذه». وصمت فجأة وجلس جامعاً بيد مرتعشة ذيل ثوبه المتّسخ في حين لفّ القاعةِ صمت كصمت القبور واتّجهت جميع الانظار نحو المُليح.

«وانتظر هذا الأخير أن يتدخّل أحد الحاضرين؛ ولكنْ عبثاً. وعندها نهض منتفضاً وقال: «إنّ الشيخ رجل تقوى ومروءة، وكلّنا نعلم ذلك؛ وإنّ حبّه لهذه المدينة أجدر بالتقدير لأنّها ليست مسقط رأسه، وإخلاصه للإسلام أحقّ بالثناء لأنه ليس في الأصل دينه. وهو كذلك واسع المعرفة منكبّ على علوم الدين والدنيا، ولا يتردّد في طلب المعرفة من مَعينها مهما بَعُد؛ وإذ سمعته يتحدّث عمّا جرى بيني مبعوثاً من سلطان الأندلس العظيم وبين مبعوث الملك فرديناند لم أتمالك من إظهار إعجابي وعجبي ودهشتي لأنّني لست الذي نقل إليه هذه الوقائع. وعليّ الاعتراف من جهة

أخرى بأن ما قاله لا يُجانب الحقيـقة . وكلّ ما آخذه عليه هو أنّه عرض الأمور بالطريقة التي توصف بها عند أعدائنا. فالمهمّ في نظر هؤلاء هو موعد الصلح لأن الحصار يكلّفهم غالياً؛ وليس هدفنا تأخير النهاية التي لا محيد عنها بضعة أيام أو أسابيع ينقضّ علينا بعدها القشتاليون بضراوة مضاعفة؛ وإذ كان النصر في الوقت الحاضر بعيداً عن متناول يدنا بأمر لا يُرَدُّ ممّن يقدّر الأشياء جميعها فعلينا محاولة الحصول على أفضل ما يُمكن من شروط. أي الإبقاء على حياتنا وحياة نسائنا وأولادنا؛ أي الحفاظ على أرزاقنا وحقولنا وبيوتنا وبهائمنا، وعلى حقّ كلّ منّا في مواصلة العيش في غرناطة على دين الله ورسوله، مصلّين في مساجدنا، غير دافعين من ضريبة سوى الزكاة والعشور التي نصّت عليها شريعتنا؛ وكذلك حقّ الذين يريدون الرحيل وراء البحر إلى المغرب حاملين كلّ ما يملكون بالإضافة إلى مهلة قدرها ثلاث سنوات لتقرير خيارهم وحريّة بيعهم ممتلكاتهم بالسعر القائم إلى مسلمين أو إلى مسيحيين. ذلكم هو ما أردت انتزاع موافقة فرديناند عليه بجعله يُقسم على الإنجيل باحترام الأمر حتى مماته، وحَمْلِ خلفائه من بعده على احترامه. فهل أخطأت؟».

«ولم يتوقّف المُليح ليستمع إلى الأجوبة وتابع قائلاً: «يا كبار غرناطة ووجهاءها، إني لا أعلن لكم عن نصر، ولكنّي أريد تجنيبكم مرارة كأس الهزيمة المُذِلّة، والذبحَ وهتك أعراض الزوجات والبنات والعارَ والاسترقاقَ والنهبَ والدمارَ. ولذا أحتاج إلى موافقتكم ومساندتكم. وفي وسعي إذا طلبتم أن أقطع المفاوضات أو أجعل أمَدَها يطول، وهذا ما كنت أفعله لو كنت لا أبحث إلا عن مدائح البلهاء والمتظاهرين بالتقوى. ولكنت قدّمت لمبعوثي فرديناند ألف ذريعة لتأخير الصلح. ولكنْ أيكون ذلك حقّاً لخير المسلمين؟ إننا في الشتاء وقوّات العدو مشتّتة، وقد أرغمه الثلج على اختصار هجماته. إنّه يختبىء خلف أسوار «سانتافيه» والتحصينات التي بناها، مكتفياً بقطع الطرقات عنا. وبعد ثلاثة أشهر يحلّ الربيع ويكون لفرديناند جيوش على أتمّ الأهبة لتوجيه الضربة الحاسمة لمدينتنا التي يكون قد استنزفها الجوع. الآن وقت المفاوضة! الآن يرضى فرديناند بشروطنا لأنّ في مقدورنا تقديم شيء إليه في المقابل».

«وثب «أبو خمر» الذي كان صامتاً منذ بدء النقاش من مكانه بغتة دافعاً جيرانه

بكتفيه العريضتين وقال: «تقول في وسعنا تقديم شيء إليه، لكنْ أيّ شيء؟ لماذا تُخفي الكلمات في أعماق حلقك؟ إنّ ما تريد تقديمه لفرديناند ليس شمعداناً من الذهب، ولا طيلساناً، ولا جارية بنت خمس عشرة. إنّ ما تريد تقديمه هو هذه المدينة التي قال فيها الشاعر:

غِـرنـاطــةٌ مـا لهــا نـــظيرٌ ما مصرُ ما الشامُ ما العراقْ؟
مـا هي إلا العروسُ تُجلى وتـلـكَ من جُمـلةِ الصَّــداقْ

«إن ما تريد تقديمه إلى فرديناند أيها الوزير هو قصر الحمراء هذا، مجد الأمجاد وعجيبة العجائب. انظروا حولكم يا إخوتي! أجيلوا على مهل أنظاركم في هذه القاعة التي جهد آباؤنا وأجدادنا في نقش كل طرف من أطراف جدرانها وكأنه حِلية لطيفة نادرة! احفروا في ذاكرتكم إلى الأبد هذا المكان الجليل الذي لن تطأه قدم أيّ منكم بعدُ، إلا أن يكون عبداً من العبيد».

«كان الطبيب يبكي، وأخفى كثير من الرجال وجوههم. وتابع بصوت منكسر لاهث: «لقد أنرنا خلال ثمانية قرون هذه الأرض بعلمنا، ولكنّ شمسنا تُؤْذِن بالمغيب، وقد أظلم كلّ شيء. وأنتِ يا غرناطة أَعْلَمُ أن نارك تتأجّج للمرة الأخيرة قبل أن تنطفىء، لكنْ لا يعتمدنْ أحد عليّ للنفخ فيها لأنّ ابنائي سوف يتفلون على ذكراي حتى يوم الدين». وجلس وكان جلوسه أقرب إلى التهالُك، ومرّت بضع لحظات بطيئة ثقيلة قبل أن يقطع «أستغفر الله» الصمت من جديد ناسياً في الوقت الحاضر عِداءه لِـ «أبي خمر» ويقول: «لقد نطق الطبيب بالحقّ. إنّ ما يريد الوزير تقديمه إلى ملك الكفّار هو مدينتنا بمساجدها التي ستصبح كنائس، ومدارسها التي لن يدخلها بعدُ القرآن، ومنازلها التي لن تُرعى فيها أية حُرمة. وما سيقدّمه كذلك هو حقّ الحياة والموت علينا وعلى ذوينا لأنّنا لا نجهل ما تساويه المعاهدات والأَيْمان في نظر الروم. ألم يعِدوا سكّان مالقة منذ أربع سنوات باحترامهم والإبقاء على حياتهم قبل أن يدخلوا المدينة ويأسروا النساء والأطفال؟ أفتضمن لي يا مُليح ألاّ يحصل لغرناطة ما حصل لتلك؟».

«وأجاب الوزير بصوت كليل: «ليس في مقدوري أن أضمن لك غير أنّني سوف

أبقى أنا نفسي في هذه المدينة وأقاسم ابناءها مصيرهم وأسخّر كل ما يشاء الله تعالى أن يهبني إيّاه من الطاقة لتأمين احترام الاتفاقات. إن مصيرنا ليس في يد فرديناند، وإنما هو في يد الله، وهو وحده القادر على إيتائنا يوماً النصرَ الذي يأبى أن يُؤْتينا إيّاه اليوم. وأمّا الآن فالحالة هي التي تعرفون، ولا جدوى من إطالة النقاش. ينبغي التوصّل إلى قرار. فليُعلنِ الذين يوافقون على إبرام اتّفاق مع القشتاليين شعار الأسرة النَصْرِيّة!».

وتذكر أبي أنه «تعالت في جميع أرجاء قاعة السفراء عبارة واحدة «الله وحده قادر على إيتائنا النصر». قيلت بحزم وإن خِلواً من كل بهجة لأنّ ما كان قبلاً صيحة حرب غدا في هذه السنة صيغة استسلام؛ وربما كان في أفواه بعضهم عتباً على الخالق، جنّبنا الريب والكفر!

وإذ وثـق أبو عبدالله من دعم أكثرية الحاضرين فقد عزم على تولّي الكلام عن وزيره. وأسكت رعاياه بحركة ملحّة من يديه قائلاً بصوت هادىء: «لقد أجمع المؤمنون واتخذوا قرارهم. ولسوف نتّبع سبيل الصلح مؤمنين بأن الله يهدينا إلى خيرنا، إنه سميع مجيب».

«وقبل أن يتمّ عبارته كان «أستغفر الله» يتّجه صوب الباب وقد ضاعف الغضب ظَلَعَه وتمتمت شفتاه بهذه الكلمات الرهيبة: «أنكون الذين عناهم الله بقوله في كتابه الكريم: لقد كنتم خير أمّة أُخرجت للناس؟»».

* * *

ومساء يوم الاجتماع بالذات في الحمراء كانت غرناطة بأسرها تعرف ما دار من حديث. وعندها بدأت محنة الانتظار القاسية بنصيبها اليومي من الشائعات التي كانت تدور جميعاً حول موضوع موئس واحد: اليوم والساعة اللذان سيدخل فيهما القشتاليون المدينة.

وقد روت لي أمي قائلة: «في أثناء الأسبوع الأخير من شهر صفر، وكان ذلك غداة عيد ميلاد عيسى المسيح عليه السلام، حضرت سارة المبرقّشة لزيارتي وهي تحمل كتيّباً ملفوفاً بعناية في خمار من الحرير البنفسجي سحبته بحذر من قعر سلّتها

فقلت لها جاهدة في الابتسام: «لا أنا ولا أنت نعرف القراءة»، ولكنْ بدا أنها فقدت كلّ مرحها. وشرعت تقول بنبرة باردة جداً: «جلبت هذا لأريه لابن عمّك. إن كاتبه رجل حكيم جداً من جماعتنا هو الحاخام إسحاق بن يهودا. وهو يقول إن طوفاناً سوف يعمّنا، طوفان دم ونار، عقاباً سوف يناله جميع الذين تركوا حياة الفِطرة إلى فساد المدينة». وقد كانت عبارتها متلجلجة ويداها ترتعشان.

«وكنت جالساً على ركبتيّ يا بنيّ، وأخذت أشدّ عليك بقوة وأقبّلك بحرارة في رقبتك. وصرخت في وجه سارة يحدوني الانزعاج أكثر ممّا يحدوني الشرّ: «يا كاهنة النحس! ألا تَرَيْنَ ما يساورني من آلام كل يوم؟ وهل ينبغي أن تنبّئي حقّاً بمصير أشدّ هولاً؟» ولكنّ اليهودية لم تنصرف عن مقالها: «إن الحاخام إسحاق إلف للملك فرديناند ويعرف كثيراً من الأسرار، وإذا كان قد استعار لغة الأنبياء فلكي يسمعنا ما لا يستطيع نشره بطريقة أخرى. وربما سعى إلى تحذيركم من أن غرناطة سوف تؤخذ، بيد أنّ هذا ليس سرّاً. إنّ أقواله تذهب إلى أبعد من هذا. فهو يؤكّد أنّه لن يكون لليهود هواء يستنشقونه ولا ماء يشربونه في ملاذهم هذا».

«وكانت، هي الذربة اللسان في العادة، تنطق بمشقّة كبيرة لفرط فزعها. «أهو كتابك الذي أفزعك هكذا؟ ـ هناك غير ذلك. فقد علمت هذا الصباح أن أحد أبناء أختي قد أُحرق حيّاً في محرقة لاغوارديا بالقرب من طليطلة مع عشرة أشخاص آخرين. لقد اتّهموا بممارسة أعمال السحر وخطف طفل مسيحي وصلبه كما صُلب عيسى. ولم يتمكّن أعضاء محكمة التفتيش من إثبات شيء؛ لم يستطيعوا تقديم اسم الطفل المزعوم قتله، ولا تقديم جثّةٍ ما، ولا حتى البرهان بأن طفلاً من أطفال المنطقة قد اختفى، ولكنْ كان على يوسف وأصحابه آن يعترفوا بأيّ شيء للإفلات من التعذيب بالماء والضرب بالحبال. ـ أتظنين أن مصير جماعتك في غرناطة سيكون مثل هذا المصير؟» وحدجتني سارة بنظرة ظننت أني لمحت فيها الحقد. ولم أعرف ما إذا كنت قد أسأت إليها، بيد أنّني عزمت نظراً للحالة التي هي فيها على أن أقدم لها اعتذاري. ولم تترك لي الفرصة، بل قالت: «أتظنّين أنه عندما سيُصار إلى أخذ هذه المدينة سيكون الطمع في أراضيكم وبيوتكم وذهبكم أقلَّ ممّا هو في أراضينا وبيوتنا ومالنا؟ أتظنّين أن نار المحرقة تُؤْثر ابناً من أبناء سام على آخر؟ إننا في غرناطة كما فوق

فُلك، نعوم معاً أو نغرق معاً. وغداً، على طريق المنفى...»

«وإذ شعرت بأنها غالت كثيراً فقد توقّفتْ عن الكلام وأحاطتني بذراعيها الفضفاضتي الرُدنين العابقتين برائحة المسك لتلطّف من حدّة أقوالها وشرعت تنتحب فوق كتفي. مع أنّني لم أكن واجدةً عليها لأن الصور التي كانت تُخيفها كانت تُخامر ذهني في اليقظة والمناه، وفي هذا كنّا أختين سبق أن أضحتا يتيمتي المدينة المُحتَضرة.

«وكنا على هذه الحال من الشكوى والأنين عندما سمعتُ وقع أقدام أبيك العائد إلى المنزل. وناديته من مخدعي، وبينما كان يرقى الدرجات كنت أمسح خديّ بذيل ثوبي في حين غطّت سارة على عجل رأسها ووجهها. كانت عينا محمّد بلون الدم، ولكنّي تظاهرت بعدم ملاحظة ذلك كيلا أحرجه. «لقد أحضرت لك سارة كتاباً لنفسّر لنا ما يتضمّن». ولم يكن لأبيك منذ مدّة أدنى تحفّظ على المبرقّشة التي أضحت تأتينا كلّ يوم، والتي كان يحلو له أن يبادلها الآراء والأخبار؛ كما أنه كان يحبّ مداعبتها بشأن زيّها المضحك، الأمر الذي كان يجعلها تضحك من كلّ قلبها. ومع ذلك فإنه لم يكن يجد أكثر ممّا تجد متّسعاً للضحك. وأخذ الكتاب بيديه من غير أن ينبس بكلمة وتربّع فوق عتبة الغرفة يقلّب صفحاته. وانكبّ عليه أكثر من ساعة ونحن نرقبه بصمت؛ ثم أغلقه ولبث مفكّراً. ونظر إليّ من غير أن يظهر عليه أنّه يراني وقال: «كان أبوكِ سليمان الورّاق قد قال لي إنه عشيّة الحوادث الجسام تظهر كتب مثل هذا تبشّر بنهاية العالم وتسعى لأن تشرح ذلك عن طريق حركة النجوم أو معصيّة الناس نواهي الله تعالى. وأن الناس يتناقلونها في الخفاء فتطمئنهم قراءتها لأن مصيبة كل إنسان تضيع وتُنسى وكأنها قطرة في سيل. وهذا الكتاب يقول يا سارة إنّ على أهلك أن يرحلوا قبل أن يقرع القدر بابهم. وما إن تؤنسين القدرة فاحملي أولادك وابتعدي عن هذا البلد». وكشفت سارة عن وجهها أمارة على التفجّع. وقالت: «أذهب إلى أين؟» وكان قولها صرخة كرب أكثر ممّا كان سؤالاً، بيد أن أباك أجاب وهو يقلّب صفحات الكتاب: «يوصي هذا الرجل بإيطاليا أو بالبلاد العثمانية، لكنْ في وسعك أيضاً الذهاب إلى المغرب وراء البحر وهو أقرب من غيره. وإلى هناك سوف نذهب نحن.» وترك الكتاب وذهب من غير أن ينظر إلينا.

«كانت تلك المرّة الأولى يتحدث فيها أبوك عن المنفى، وَلَوَدِدْتُ أن أسأله عن هذا

العزم وعن الاستعدادات التي اتّخذها، بيد أنّني لم أجرؤ، ولم يعُدْ هو إلى الكلام عليها غير مرة واحدة في اليوم التالي قائلاً لي بصوت هامس ألاّ أثير هذه المسألة أمام وردة».

وظلّت المدافع والمجانيق صامتة في الأيام التالية؛ وظلّ الثلج يتساقط على غرناطة موشّحاً إيّاها بالسلام وبِدَعَةٍ ما كان يبدو أنّ شيئاً ينبغي أن يقطّع معها أوصالها. فلم تكن هناك معارك، وكانت بعض صيحات الأطفال وحدها تبعث الحياة في الشوارع. وَلَوَدَّت المدينة كثيراً لو ينساها الزمان! غير أنّه كان يسير: بدأت السنة الميلادية ١٤٩٢ في آخر يومٍ من شهر صفر عام ٨٩٧ هـ وقُرع بابنا بشدّة قبل الفجر. واستيقظت أمّي مُجْفِلَة ونادت أبي الذي كان نائماً في تلك الليلة بجانب وردة. وذهب يفتح. كان الطارقون بعض ضباط السلطان، وقد طلبوا إليه أن يتبعهم على جواده؛ وكان قد سبق لهم أن جمعوا بضع عشرات من الناس بينهم يافعون كان الثلج يضيء وجوههم الخالية من اللحى. ودخل محمد فلبس ما يدفّىء من الثياب وذهب بين جنديينْ يفكّ مطيّته في مخزن الغلال القائم خلف البيت. ووقفت أمي في خصاص الباب وأنا على ذراعها نصف نائم ورأس وردة ممدود من فوق كتفها وأخذت تلحّ على الضباط لكي تعرف منهم إلى أين يقودون زوجها. وأجابوا بأنّ الوزير المُليح قد أعطاهم لائحة بأسماء الأشخاص الذين يرغب في مقابلتهم على وجه السرعة؛ وأضافوا أنه ليس هناك ما تخشاه. وبذل أبي جهده وهو ذاهب في طمأنتها بدوره.

وإذ بلغوا ساحة الطبلة بالقرب من الحمراء رأى محمد مع بزوغ ضوء النهار زهاء خمسمئة مُحْتَجَز راكبين ومشتملين على معاطف صوفية سميكة ومحاطين بألف من الجنود راجلين وراكبين لم يكونوا يستخدمون تجاههم أية فظاظة، وإنْ بالكلام، مكتفين بالإحاطة بهم لمنعهم من الابتعاد. ثم تحرّك الركب الضخم في صمت وعلى رأسه فارس ملثّم وعلى جانبيه الجنود في صف طويل. ومرّ من أمام باب الطِباق السبع وحاذى الأسوار وخرج من المدينة من باب نَجْد فبلغ «الجنيل» الذي كان سطحه قد تجمّد. وتوقّفت القافلة الصامتة المرتجفة للمرّة الأولى في بستان كرز عند ضفّة النهر.

كان النهار قد انبلج، ولكنْ كان بالإمكان بعدُ رؤية هلال الشهر الجديد. وأماط

الرجل الملثّم لثامه ونادى إليه بضعة عشر رجلاً من الأعيان اختارهم من بين المحتجزين. ولم يدهش أحد لكون الرجل هو المُليح. وبدأ بالطلب إليهم ألاّ يقلقوا واعتذر عن تأخّره في تقديم الإيضاحات إليهم.

«كان ينبغي أن نخرج من المدينة لتفادي كلّ حدث وكلّ مواجهة ليست في الحسبان. لقد طلب فرديناند خمسمئة رهينة من الوجهاء المنتمين إلى أعرق الأُسَر الغرناطية ليتمكّن من إدخال جيوشه إلى المدينة دونما خوف من وقيعة. وفي مصلحتنا نحن أيضاً أن يجري التسليم بلا أدنى عنف. طمئنوا الآخرين، قولوا لهم إنهم سوف يُعامَلون معاملة حسنة، وإنّ كلّ شيء سيتمّ بسرعة فائقة».

وبُلّغ الخبر إلى الجميع من دون أن يُواجَه بغير بعض الهمهمات التي لا طائل تحتها لأنّ الغالبية كانت تستشعر الزهوَ لكونها اختيرت، وبعضَ الأمان لبُعْدِها عن المدينة حينها تُجتاح، الأمر الذي كان يعوّض كثيراً عن الانزعاج من أَسْر مؤقت. وكان آخرون يفضّلون كأبي أن يكونوا بالقرب من نسائهم وأولادهم في اللحظة العصيبة، ولكنهم كانوا يعلمون أنّهم لا يملكون لهم شيئاً، وأنّ مشيئة الله تعالى يجب أن تَنْفُذ حتى النهاية.

لم يطل الوقوف أكثر من نصف ساعة انطلق الركب بعدها نحو الغرب من غير أن يبتعد عن «الجنيل» أكثر من مرمى حجر. وما لبثت فرقة من الجنود القشتاليين أن لاحت في الأفق، وعندما وصلت إلينا تحدّث رئيسها عن بُعْدٍ إلى المُليح الذي أمر الجنود الغرناطيين بالعودة أدراجهم خَبَباً نحو المدينة في حين حلّ محلّهم جنود فرديناند مُحْدِقين بالرهائن. وفي السماء لم يَعُد الهلال يُرى. وتابع الركب سيره أشدّ صمتاً وغمّاً حتى أسوار «سانتافيه».

«غريبة هي مدينتهم الجديدة المبنيّة بحجارتنا العتيقة». هذا ما دار في خلد محمد وهو ينفذ إلى هذا المعسكر الذي طالما لاحظة المرء عن بُعْد بفزع وفضول. وكان يسوده هرْج منذر بالهجمات الكبرى، إذ كان جنود فرديناند يتهيّأون جِهاراً لخوض المعركة الأخيرة، أو بالحري لذبح المدينة التي سُقط في يدها مثلما يُجهز في حَلَبات غرناطة على الثور الذي تناهشه قطيع من الكلاب من كل جانب.

وفي مساء الأول من كانون الثاني (يناير) ١٤٩٢ م بالذات عاد الوزير الذي كان قد بقي إلى جانب الرهائن إلى غرناطة يصحبه هذه المرّة عدد كبير من الضبّاط المسيحيين الذين كان عليه إدخالهم إلى المدينة وفقاً لبنود الاتفاق. ودخلوها ليلاً سالكين الطريق التي سلكها أبي ورفاقه في الأسر، الأمر الذي كان من شأنه ألّا يثير شكوك الناس في وقت مبكّر جدّاً. ومثلوا في صباح اليوم التالي أمام أبي عبدالله في برج القمر فسلّمهم مفاتيح الحصن. وما لبث أن وصل بالطريق نفسها بضع مئات من الجنود القشتاليين فاستوثقوا من الأسوار. ورفع راهب صليباً فوق برج المراقبة فهتف له الجنود ثلاثاً «قشتالة»، «قشتالة»، «قشتالة»، وكانت هذه عادتهم عندما يستولون على مكان. وإذ سمع الغرناطيون هذه الصيحات فقد أدركوا أن المقدّر كان قد وقع، وإذ أذهلهم أن يحصل مثل هذا الحدث الخطير بمثل هذه الضآلة من الضجيج فقد أخذوا يدعون ويرتّلون وقد اغرورقت عيونهم وتراخت رُكَبُهم.

وما إن شاع الخبر حتى خرج الأهالي إلى الشوارع وقد اختلط الرجال بالنساء، والمسلمون باليهود، والأغنياء بالفقراء، وهم يجولون مذهولين مُجْفِلين لأقلّ صوت. وحملتني أمي من زقاق إلى زقاق حتى «السبيكة» حيث قبعت ساعاتٍ مراقبةً كل ما كان يتحرّك حول الحمراء. وأظنني أذكر أني رأيت في ذلك اليوم جنوداً قشتاليين يغنّون ويصيحون ويتبخترون على الأسوار. وحوالي الظهر بدأوا ينتشرون في المدينة وقد ثملوا، فعزمت سلمى على الذهاب إلى البيت لانتظار زوجها هناك.

وبعد ثلاثة أيام أعيد أحد جيراننا، وهو كاتب بالعدل يزيد عمره على السبعين كان قد أُخذ مع أبي ومَنْ أُخذ من الرهائن، إلى منزله؛ وكان قد تظاهر بوعكة فخشي القشتاليون أن يموت بين أيديهم. وقد عُلم منه أيّ طريق سلك ركبهم، وقرّرت أمي أن تذهب في فجر اليوم التالي للترقّب على باب نَجْدٍ جنوبي المدينة غير بعيد عن «الجنيل». ورأت من الحكمة أن تصطحب وردة التي بإمكانها مناقشة إخوتها في الدين إذا تعرّضوا لنا.

وهكذا ذهبنا في أولى ساعات النهار تحملني أمي، وتحمل أختي مريم أمُّها، وكلتا الوالدتين تسيران الهوينا لتفادي الانزلاق على الثلج المتجمّد. واجتزنا القصبة القديمة وجسر القاضي وحيّ «مرور» وغرناطة اليهود وباب الخزّافين من غير أن نلتقي أحداً

من المارّة؛ وكانت قعقعات بعض الآنية المعدنية تذكّرنا وحدها بين الفينة والفينة بأننا لم نكن في مخيّم مهجور مسكون بالأشباح، وإنما في مدينة كانت كائنات من لحم ودم لا تزال تحسّ فيها بالحاجة إلى قرع القدور.

وتساءلت أمي بصوت مرتفع: «صحيح أن النهار كاد يطلع، ولكنْ هل يفسّر هذا عدم وجود ديدبان يتولى الحراسة عند باب نجد؟».

ووضعتني أرضاً ودفعت مصراع الباب فانفتح بلا عناء لأنه كان قد سبق فتحه. وخرجنا من المدينة من غير أن ندري بالضبط أي درب نسلك.

وكنا لا نزال على بضع خطوات من الأسوار عندما بـدا لأعيننا المحملقـة مشهد عجيب: فرقتان من الجنود بدا أنهما تتوجّهان نحونا، واحدة على اليمين مصعّدة من «الجنيـل» وكارّة خيـولها عـلى الرغم من الانحـدار، والثانيـة على يسـارنـا آتيـة من الحمـراء وتسير متهـادية. ومـا هي إلا أن انفصل فـارس عن هذه وانـطلق يعدو. وسارعنا على الفور في العودة نحو المدينة واجتزنا باب نَجْدٍ من جديد ولكنْ لم نغلق المصراع كي نستمرّ في المشاهـدة من غير أن نُـرى. وما إن اقـترب فارس الحمـراء حتى خنقت أمي صيحة وقالت:

«إنه ابو عبدالله!». وإذ خشيت أن تكون قد تكلّمت بصوت مرتفع فقد ألصقت راحتها إلى فمي لإسكاتي في حين كنت صامتاً مطبقاً، وكذلك كانت أختي لأننا كنّا مستغرقين بالمشهد الغريب الذي كان يدور أمامنا.

لم أرَ من السلطان غير عمامته التي كان قد لاثها حول رأسه فغطّت جبينه إلى الحاجبين. وبدا لي جواده باهتاً بإزاء جوادي الحفلات الملكيين الذين كانا يتقدّمان من الناحية الأخرى بخطى وئيدة وقد غطّاهما الذهب والحرير. وتظاهر أبو عبدالله بالترجّل، بيد أن فرديناند أوقفه بحركة مُطَمْئِنَة. وعندها تقدّم السلطان من قاهره وحاول إمساك يده لتقبيلها، ولكنّ الملك سحبها، ولم يستطع أبو عبدالله الذي كان قد انحنى عليه أن يقبّل غير كتفه علامة على أنه لا يزال يُعامَل كأمير. لا كأمـير لغرناطة على أيّ حال: لقد منحه سادة المدينة الجدد إمارة صغيرة في جبال ألبيجراس وسمح له أن يقيم فيها مع أهله.

لم يدم مشهد باب نَجْدٍ غير لحظات تابع بعدها فرديناند وإيزابيل طريقهما باتجاه الحمراء، في حين دار أبو عبدالله ذاهلاً دورة حول نفسه قبل أن يستأنف مسيره بخطى كانت من البطء بحيث لم يلبث أن انضمّ إليه جيشه المؤلف من مئة من الخيل والبغال حاملة رجالاً ونساء وأطفالاً وعدداً كبيراً من الصناديق والأشياء المغلّفة بالقماش. وفي الغداة كان الناس يقصّون أنه نبش قبور أجداده وحمل معه رفاتهم خوفاً من وقوعه في أيدي الأعداء.

وزعموا كذلك أنّه لم يتمكّن من حمل جميع ممتلكاته، وأنّه خبّأ ثروة طائلة في كهوف جبل «شُلّير». وما أكثر مَنْ وعدوا أنفسهم يومذاك بالعثور عليها! أيصدقني أحد إذا قلت إنني التقيت طوال حياتي أناساً لم يكونوا يحلمون بغير هذا الذهب المطمور؟ حتى إنّي عرفت أشخاصاً يُدْعَوْن في كل مكان «الكنّازين»، ولا عمل لهم سوى البحث عن الكنوز، ولا سيّما كنز أبي عبدالله؛ وهم من الكثرة في فاس بحيث يجتمعون بانتظام في ندوة، وقد انتخبوا لهم في الأيام التي قضيتها في تلك المدينة حاكماً للاهتمام بالدعاوى التي كان يقيمها عليهم باستمرار أصحاب الأبنية التي كانوا يزعزعون أسسها في أثناء تنقيباتهم. وقد أدرك أولئك الكنّازون أنّ الثروات التي كان الأمراء في الماضي يخلّفونها كانت تُرصد وتُسحر كيلا يُعثر عليها، ومن هنا كان استنجادهم في معظم الأحيان بمشعوذ لفكّ الرصد. ولم يكن في الإمكان التحدّث إلى كنّاز من غير أن يُقسم الأَيْمان بأنّه سبق له أن شاهد كُثباناً من الذهب والفضّة لم يكن في وسعه لمسها لأنه كان يجهل التعزيمات والرُّقى الخاصّة بها أو لأنّه لم يكن يحمل العطور اللازمة. وها هوذا يُريك كتاباً ذُكرت فيه الأمكنة التي توجد فيها هذه الكنوز، من غير أن يسمح لك مع ذلك بتصفّحه!

أما أنا فلست أدري ما إذا كان الكنز الذي جَمَعه طويلاً الحكّام النصريون لا يزال مدفوناً في تلك الأرض من بلاد الأندلس، بيد أنّي لا أظنّ ذلك لأنّ منفى أبي عبدالله لم يكن يُرجى معه الرجوع، وقد سمح له الروم بأن يحمل معه كل ما يرغب في حمله. وهكذا فإنه رحل إلى النسيان غنياً ولكنْ بائساً، وعندما اجتاز آخر ممرّ جبلي كان في وسعه أن يرى بعدُ منه غرناطة، ظلّ طويلاً ساكناً مضطرب النظرات شارد الذهن من الهول؛ ولقد سمّى القشتاليون هذا المكان «زفرة العربي الأخيرة»، إذ

ذرف فيه السلطان المخلوع على ما يقال بعض عَبَرات الخزي والندم. ولربما رمته أمّه فاطمة في تلك اللحظة بالقول: «تبكي كالنساء مُلْكاً لم تُحْسِن الذود عنه كالرجال!»

ولسوف يقول لي أبي فيما بعد: «إنّ ما حدث لم يكن في نظر تلك المرأة انتصاراً للقشتاليين وحسب، وإنما كان، وربّما قبل كل شيء، انتقاماً لضرّتها. فإذ كانت فاطمة ابنة سلطان وزوجة سلطان وأمّ سلطان فقد كانت مجبولة على السياسة والمكائد أكثر ممّا كان عبدالله الذي ربّما قنع مختاراً بحياة لَهْوٍ لا طموح فيها ولا مخاطر. وهي التي دفعت بابنها إلى الحكم طمعاً في أن يخلع زوجَها أبا الحسن عن العرش لأنه اقترف ذنب هجرها إلى أحضان الأسيرة المسيحية الجميلة ثريّا. وفاطمة هي التي هرّبت أبا عبدالله من برج القمر ودبّرت تمرّده في أدقّ تفاصيله على الملك العجوز. وهي التي أزاحت على هذا النحو المحظيّة وأبعدت أولادها عن الحكم إلى الأبد.

«ولكنّ القَدَر أشدّ تقلّباً من جِلْد الحرباء كما قال أحد شعراء «دانية». وبينما كانت فاطمة تهرب من المدينة المفقودة، استعادت ثريّا بسرعة اسمها القديم، «إيزابيل دوسوليس»، وعمّدت ابنيها سعداً ونصْراً فَغَدَوَا «دون فرناندو» و«دون جوان» وريثي عرش غرناطة. ولم يكونا سليلي الأسرة الملكية الوحيدين اللذين هجرا دين آبائهما ليصبحا من كبراء إسبانيا، فقد سبقهما إلى ذلك مَنْ كان إلى حين بطل «حزب الحرب»، يحيى النجّار، وتلقّى لقب «دوق غرناطة ـ ڤينيغاس». وما هي أن سقطت المدينة حتى عُيِّن صاحب الشرطة فيها، الأمر الذي يكفي لإثبات أنّه كان قد حظي بثقة الغالبين التامّة. وحذا هذا الحذو أشخاص آخرون من بينهم أحد كتّاب السلطان، واسمه أحمد، وكان يُرتاب من زمن في أنّه جاسوس لحساب فرديناند.

«كثيراً ما تكشف الأيّام التي تلي الهزيمة عن فساد النفوس. وإذ أقول هذا فإنّي أفكّر في الوزير المُليح أكثر ممّا أفكّر في يحيى. لأنّ الرجل وهو يفاوض من أجل سلامة أرامل غرناطة وأيتامها، حسبما أفاض في إفهامنا، لم ينسَ حظّه بالذات. فقد حصل من فرديناند لقاء التسليم الذي استعجل موعده عشرين ألف قشتاليّ ذهبيّ، أي ما يقارب عشرة آلاف ألف مُرابطيّ ذهبي، علاوة على أراضٍ شاسعة. وارتضى غيره من وجهاء الحكم بلا حرجٍ هيمنة الروم الذين بَدَوْا متسامحين في أيام النصر الأولى».

والحقّ أن الحياة سرعان ما استعادت دورتها في غرناطة المحتلّة وكأنّ فرديناند كان يريد تجنّب ارتحال المسلمين بالجملة إلى المنفى. وعاد الرهائن إلى أُسَرهم في اليوم التالي لدخول الملك والملكة المدينة، وقد قصّ علينا أبي أنّه لقي من الرعاية ما كان يلقاه ضيف من الأمراء. ولم يُحبس، ولا رفاقه، في سجن داخل «سانتافيه»؛ وكان في وسعهم الذهاب إلى السوق والتجوّل أحياناً زُمَراً صغيرة في الشوارع يصحبهم مع ذلك حرّاس مكلّفون مراقبتهم وحمايتهم من حنق بعض الجنود السكارى أو الهائجين. وفي أثناء إحدى الجولات أُطْلِع أبي عند باب حانةٍ على بحّار جَنَوِيّ كان حديث الناس وسلواهم في جميع أنحاء «سانتافيه»، وكانوا يسمّونه «كريستوبل كولون»، وكان يزعم أنه يرغب في تجهيز بعض المراكب السريعة لبلوغ الهند من جهة الغرب نظراً لأنّ الأرض كرويّة، ولم يكن يخفي رجاءه في الحصول على جزء من كنوز الحمراء للقيام بهذه الحملة. وكان قد أقام هنا منذ أسابيع ملحّاً على مقابلة الملك أو الملكة اللذين كان يتحاشيانه على الرغم من أنّ شخصيات مرموقة كانت قد أوصتهما به. ولم يكن يكفّ عن إرسال الرسائل والالتماسات إليهما في انتظار أن يستقبلاه، الأمر الذي كان يزعجهما في أوقات الحرب تلك. ولم يرَ محمّد قط ذلك الجنويّ فيما بعد، وأمّا أنا فكثيراً ما أُتيح لي سماعُ أخباره.

وما هي إلا أيّام على عودة أبي حتى استدعاه الدوق يحيى طالباً إليه استئناف عمله وزّاناً لأن السلع الغذائية لن تلبث، حسب قوله، أن تعود بوفرة إلى السوق وينبغي السهر على قمع كلّ غشّ. وقد هاج أبي أول الأمر لمجرّد رؤية المارق، بيد أنّه لم يلبث أن تعاون معه ومع كل صاحب شرطة غيره، ولكنْ مع الغمغمة، على الرغم من ذلك، ببعض اللعنات حينما كان يتذكّر بين الفينة والفينة الرجاء الذي كان يعقده المسلمون على الرجل فيما مضى. ومن جهة أخرى فإنّ وجود يحيى كان يطمئن وجهاء المدينة الذين كان بعضهم يعرفونه جيّداً، والذين أخذوا جميعاً يواظبون على مخالطته بأكثر ممّا كانوا يفعلون يوم كان منافساً لأبي عبدالله المنكود.

ويذكر أبي أن «فرديناند كان يأتي بنفسه إلى غرناطة للتأكّد من أن رجاله كانوا يحترمون الوعود المقطوعة، إذ كان حريصاً على طمأنة المدحورين على حسن مآلهم. وبعد أن كان الملك قلِقاً قَلَقاً شديداً على سلامة نفسه في الأيام الأولى أخذ يتنقّل

بانتظام في أرجاء المدينة زائراً السوق، بحراسة مشدّدة بالطبع، متفحّصاً الأسوار العتيقة. والحقّ أنّه كان يتحاشى خلال عدّة أشهر قضاء الليل في مدينتنا مُؤْثِراً العودة إلى «سانتافيه» قبل غروب الشمس، بيد أنّ حذره المبرّر بالطبع لم يكن يترافق مع أي تدبير جائر أو متحيّز، ولا مع أيّ انتهاك لمعاهدة التسليم. وكانت رعاية فرديناند الخالصة أو المصطنعة من السعة بحيث كان زائرو المدينة من المسيحيين يقولون للمسلمين: «إنكم اليومَ أعزُّ على قلب ملكنا ممّا لم نكن نحن يوماً». وكان بعضهم يذهبون إلى القول بسوء نيّة مفرطة إن العرب قد سحروا الملك لمنع المسيحيين من الاستيلاء على أملاكهم.

ويتنهّد محمد قائلاً: «وما لبثت آلامنا أن طهّرتنا وذكّرتنا بأنّنا على الرغم من كوننا أحراراً فإننا أصبحنا مكبّلين بِذُلّنا. ومع ذلك فإنّه ما إن مرّت بضعة أشهر على سقوط غرناطة ـ نجّاها الله ـ حتّى جُنِّبْنا أفظع الشرور، إذ انصبّت شريعة الغالبين على اليهود بانتظار انقضاضها علينا. وكانت سارة، لِنَكَدِ طالِعها، على حق».

* * *

في شهر جمادى الثانية من هذا العام، أي بعد ثلاثة أشهر على سقوط غرناطة، جاء رُسُل الملك إلى قلب المدينة يذيعون بالعربية والقشتالية وهم يقرعون الطبول أمراً من فرديناند وإيزابيل يقضي بأن «تُقطع نهائياً كل صلة بين اليهود والمسيحيين، الأمر الذي لا يمكن تحقيقه إلا بطرد جميع اليهود من مملكتنا». وكان على هؤلاء أن يختاروا بين العمادة والمنفى. وإذا ارتأوا الحلّ الأخير فإن أمامهم مهلة أربعة أشهر لبيع أملاكهم المنقولة وغير المنقولة، ولكنّهم لا يستطيعون أن يحملوا معهم الذهب ولا الفضّة.

وعندما جاءت سارة تزورنا غداة ذلك الإعلان كان وجهها منتفخاً بعد ليل طويل من الدموع، بيد أنّه كانت تُطلّ من عينيها اللتين جفّت مآقيهما تلك الوداعة التي كثيراً ما تصاحب وقوع مأساة طال انتظارها. حتى إنّها استباحت السخرية من المنشور الملكي منشدة بصوت رجولي أجشّ بعض عبارات استظرفتها منه:

«لقد أخبرنا أعضاء محاكم التفتيش وأشخاص آخرون أن تعاطي اليهود مع المسيحيين يجلب أفظع الشرور. فاليهود يسعون إلى إغواء من اعتنقوا المسيحية

حديثاً وأولادهم بتزويدهم بكتب الصلوات اليهودية وإعطائهم الخبز الفطير في أيام الفصح وتعريفهم بالمآكل المحرّمة وإقناعهم باتّباع شريعة موسى. وهذا يؤدّي إلى تحقير ديانتنا الكاثوليكية المقدّسة والتقليل من شأنها».

وقد حاولت أمّي مرّتين حملها على خفض صوتها لأنّنا كنّا جالسين في تلك الصبيحة الربيعية في حديقة البيت، ولم تكن سلمى تريد أن تترامى تلك السخرية إلى مسمع جارٍ سيّء النيّة. وكانت وردة قد ذهبت لحُسْن الحظ إلى السوق مع أبي وأختي لأنني لا أعرف ما كان يمكن أن يكون حالها وهي تسمع عبارة «ديانتنا الكاثوليكية المقدّسة» تقال بلهجة ساخرة.

وما إن انتهت سارة من محاكاتها حتى طرحت عليها أمي السؤال المهمّ الوحيد:

«ماذا قرّرت أن تفعلي؟ هل ستختارين تغيير دينك أم المنفى؟»

وكان الجواب ابتسامة متصنّعة، ثم «ما زلت أملك وقتاً!» وقد قيلت بمرح زائف. وانتظرت أمّي بضعة أسابيع قبل أن تعيد الكرّة. ولم يكن الجواب ليختلف.

ولكنْ في أوائل الصيف، وكانت المهلة المعطاة لليهود قد انقضى ثلاثة أرباعها، كانت المبرقشة قد حضرت بنفسها معلنة:

«علمتُ أن حاخام إسبانيا الأكبر، أبراهام سنيور، قد طلب العماد هو وأبناؤه وجميع أهله. واستهولتُ الأمر في البداية، ثم قلتُ لنفسي: «أيا سارة، أرملة يعقوب بردونيل وبائعة العطور في غرناطة، أتكونين أكثر يهودية من الحاخام أبراهام؟» وعليه فقد قررّت طلب العماد لي ولأبنائي الخمسة تاركة أمر الحكم على ما في قلبي لربّ موسى».

كان ضيق سارة بادياً في ذلك اليوم فنظرتْ إليها أمي بحنان وقالت: «إني سعيدة بأنّك لن ترحلي. وأنا أيضاً سوف أبقى في هذه المدينة لأنّ ابن عمي لم يتحدّث عن المنفى».

ومع ذلك فقد غيّرت سارة رأيها بعد أقلّ من أسبوع. وحضرت إلينا ذات مساء

مضطربة وهي تجرّ ثلاثة من أبنائها يكاد يكون أصغرهم أكبر مني. قالت: «جئت أودّعكم. لقد عزمت أخيراً على الرحيل. ستقوم غداً في الفجر قافلة إلى البرتغال، وسوف أنضمّ إليها. ولقد زوّجت أمس بنتيّ الكبيرتين، وعمر الأولى أربع عشرة سنة والثانية ثلاث عشرة، ليكون لهما زوجان يرعيانهما، وبعت بيتي لجندي من جنود الملك لقاء أربع بغلات».

قالت ذلك قبل أن تضيف معتذرة:

«إذا بقيتُ يا سلمى فسيراودني الخوف كلّ يوم إلى الممات، وسأفكرّ كلّ يوم بالرحيل، ولكنّي لن أستطيع ذلك على الإطلاق».

وقالت أمي بدهشة:

ـ حتى ولو كنت قد غيّرت دينك؟

وكان ردّ «المبرقشة» الأوحد حكاية كانت تدور منذ أيام في الحيّ اليهودي بغرناطة، وهي التي جعلتها تختار المنفى:

«يحكى أن أحد حكماء جماعتنا وضع على نافذة من نوافذ بيته ثلاث حمامات إحداها مذبوحة منتوفة الريش علّق في رقبتها لوحة كتب عليها: «كانت هذه المرتدّة آخر العازمات على الرحيل»؛ وكانت الحمامة الثانية منتوفة الريش لكنّ حيّة، وقد حملت لوحة عليها: «رحلت هذه المرتدّة قبل الأولى بقليل»؛ وكانت الثالثة حيّة مكسوّة بريشها، وكان بالإمكان قراءة ما يلي في لوحتها: «كانت هذه هي الراحلة الأولى».

وعلى هذا فقد مشت سارة وأهل بيتها من غير أن يلتفتوا خلفهم؛ وكان مقدّراً أن نقتفي نحن أثرهم عمّا قريب على درب الشتات.

عام المهرجان

٨٩٨ هـ (٢٣ تشرين الأول «أوكتوبر» ١٤٩٢ م - ١١ تشرين الأول «أوكتوبر» ١٤٩٣ م)

لم أجرؤ قطّ منذ ذلك العام على أن اتلفّظ أمام أبي بكلمة «مهرجان» لفرط ما كانت تغرقه في آلم الذكريات. وما كانت أسرتي لتحتفل بعد ذلك بهذا العيد.

لقد جرى كل شيء في التاسع من شهر رمضان المبارك، وربما كان عليّ بالحري أن أقول في ذكرى القديس يوحنا في الرابع والعشرين من شهر حزيران (يونية)، لأنه لم يكن يُحتفل بـ «المهرجان» بحسب العام الهجري، وإنّما تبعاً للتقويم المسيحي. فذلك اليوم يمثّل منقلب الصيف الذي يحدّد مدار الشمس، وعليه فلا وجود له في سنتنا القمرية. وقد طالما اتبّع الناس في غرناطة، كما في فاس، التقويمين معاً. فلحرث الأرض أو لمعرفة الوقت اللازم لتطعيم أشجار التفاح أو قطع قصب السكر أو جمع السواعد للقطاف فإنّ الأشهر الشمسية وحدها هي التي تتيح تحديد الأوقات؛ فلدى اقتراب «المهرجان» مثلاً يعرف الناس أنّه حان قطاف الورود المتأخرة التي كانت بعض النساء يزيّنّ بها صدورهنّ في تلك الأيام. وعلى العكس من ذلك فإنّه إذا سافر إنسان لم يعمد إلى مدار الشمس وإنما إلى مدار القمر: بدر أو غرّة، مُتنامٍ أو مُتناقص، لأنّه بذلك يمكن تحديد المراحل لسير القافلة.

وبعدُ فلا أكون أميناً للحقيقة إذا أغفلت أن أضيف أنّ التقويم المسيحي لم يكن يُستخدم فقط للاهتمام بالنبات، وإنما كان يُقدِّم كذلك فرصاً كثيرة للاحتفال، الأمر الذي لم يكن مواطنيّ يحرمون أنفسهم إيّاه قطّ. فلم يكن يُكتفى بالاحتفال بذكرى مولد النبي بإلقاء المطوّلات الشعرية في الساحات العامة وبتوزيع الأطعمة على المحتاجين، بل كان يُحْتَفَل أيضاً بذكرى ميلاد المسيح بتحضير أطباق خاصة من

القمح أو الفول أو الحمّص أو الخُضَر. وإذا كان تقديم التهاني الرسمية في قصر الحمراء علامة خاصة على الاحتفال برأس السنة الهجرية فإن رأس السنة المسيحية كان يتيح احتفالات يترقّبها الأطفال بفارغ الصبر: كانوا يومئذٍ يتقنّعون ويطوفون بمنازل الأغنياء يقرعون أبوابها وهم ينشدون أناشيد كانت توفّر لهم حفنات من الفاكهة المجفّفة تُعطى لهم لإبعاد صخبهم أكثر ممّا تُعطى لشكرهم على أغانيهم؛ وكان الناس يتلقّون فوق ذلك بالحفاوة رأس السنة الفارسية، يوم «النيروز»؛ فعشيّته كانت تُعقد زيجات لا يُحصى عددها لأنّه كان يُقال إنها لحظة مؤاتية للإخصاب، وفي الصبيحة كانت تُباع على قارعات جميع الطرق دُمى من الفخّار أو الخزف المموّه تمثل خيولاً أو زرافات على الرغم من التحريم الديني. وكان هناك بالطبع أيضاً الأعياد الإسلامية الرئيسية: الأضحى، وهو العيد الكبير الذي كان كثير من الغرناطيين ينفقون فيه كل ما يملكون لشراء خروف الأضحية أو الثياب الجديدة؛ وعيد الفطر الذي لم يكن يهنأ لأشدّهم فقراً أن يَطْعَموا فيه على مائدة تحفل بأقلّ من عشرة أطباق منوّعة؛ وعاشوراء، وهي يوم مخصّص لذكرى الأموات، وإن لم يكن الناس يقصّرون فيه عن تبادل الهدايا الفخمة. وكان ينضاف إلى هذه الأعياد عيد الفصح، وأول أيام الخريف، ويوم «المهرجان» على الأخصّ.

وكان من عادة القوم أن يشعلوا في هذا الحدث الأخير إبّالات كبيرة يوقدون نارها بالقش؛ وكانوا يقولون وهم يضحكون إنه لما كانت هذه الليلة أقصر ليالي السنة فإنها لم تكن تستحقّ أن يناموا فيها. ولم يكن يفيد على أي حال أن يسعى المرء في طلب أدنى الراحة لأنّ زُمراً من الفتيان كانت تجوب المدينة إلى الصباح رافعة عقائرها بالغناء؛ وكانوا قد درجوا فوق ذلك على عادة بغيضة هي رشّ جميع الشوارع بالماء، الأمر الذي كان يجعلها زَلِقَةً طوال ثلاثة أيام.

ولقد انضمّ إلى أولئك الرعاع في تلك السنة مئات الجنود القشتاليين فاجتاحوا منذ الصباح الحانات الكثيرة التي فُتحت بعد سقوط المدينة قبل أن ينتشروا في مختلف الأحياء. وعليه فلم يكن أبي يشعر بأية رغبة في المشاركة في الأفراح. ولكنّ دموعي ودموع أختي مضافة إلى شفاعة وردة وشفاعة أمّي حملته على اصطحابنا

للتجوّل بعد التأكيد بأن «لا نتعدّى نطاق ألبيسان». وعليه فقد انتظر مغيب الشمس لأنّنا كنا في شهر الصوم، وازدرد بسرعة طبعاً من حساء العدس كان قد استحقّه - ما أقسى رمضان حين يكون النهار بمثل هذا الطول! - ثم قادنا إلى باب الرايات حيث أقام للمناسبة باعة الزلابية والتين المجفّف وشراب المشمش المثلّج بثلج محمول على ظهور البغال من أعالي جبل «شُلَير».

وكان القدر قد ضرب لنا موعداً في شارع «السور القديم». وكان أبي يمشي في الطليعة ممسكاً بيد مريم من جهة وبيدي من الجهة الأخرى، متبادلاً بضع كلمات مع كل واحد من الجيران الذين كان يلتقيهم؛ وكانت أمّي على بُعْد خطوتين خلفه تتبعها عن كثب وردة عندما صاحت هذه بغتة: «جوان!» وجمدت في مكانها. وتوقّف على يميننا جندي شابٌ ذو شاربين مطلقاً صيحة مخمور خفيفة وهو يجهد في التعرّف إلى المرأة المحجّبة التي نادته على هذا النحو. وشعر أبي على التوّ بالخطر وقفز خطوة نحو أمّ ولده وأمسك بمرفقها بقوة وهو يقول بصوت خافت:

«لنعد إلى البيت يا وردة! لنعد بحقّ عيسى المسيح!»

كانت نبرته متوسّلة لأنه كان يحيط بالمدعوّ جوان أربعة جنود قشتاليين ثملين ومسلحين مثله ببلطات ثقيلة طويلة المقابض؛ وابتعد جميع المارّة ليتسنّى لهم شهود العرض من غير أن يدخلوا فيه. وجَلَتْ وردة الأمر بصيحة:

«إنه أخي!»

ثم هتفت للشابّ الذي ظلّ ذاهلاً:

«جوان، أنا إسمرلدا، أختك!»

وخلّصت، وهي تتفوّه بهذه الكلمات، ذراعها اليمنى من قبضة محمّد المُطْبَقة ورفعت نقابها قليلاً. وتقدّم الجندي وأمسك بها بضع لحظات من كتفيها ثم ضمّها إليه بقوّة. وشحب وجه أبي وأخذ يرتعد. فقد كان يعرف أنّه في طريقه إلى فقدان وردة، وكان - وهذا أدهى وأشدّ - خَزْيانَ أمام الحيّ بأسره، مطعوناً في صميم رجولته.

وأمّا أنا فلم أكن أفقه بالطبع شيئاً من المأساة الدائرة أمام عيني الطفل الذي

كنته. بيد أنّي أذكر فقط بدقّة اللحظة التي توجّه فيها الجندي إليّ. فقد قال لوردة إنّ عليها أن تصحبه للعودة إلى قريتهما التي دعاها «القنطريّة». وبدت بغتة متردّدة. فإذا كانت قد عبّرت بعفوية عن فرحها بلقاء أخيها بعد خمس سنوات من الأسر، فإنّها لم تكن متأكدّة من رغبتها في مغادرة بيت أبي والعودة إلى ذويها ومعها ابنة أولدها إيّاها عربيّ. فممّا لا ريب فيه أنّها لن تحظى قطّ بزوج. ولم تكن بائسة عند محمّد الوزّان الذي كان يُطعمها ويكسوها ولا يهملها قطّ أكثر من ليلتين متواليتين. ثم إنّه حينما يكون المرء قد عاش في مدينة مثل غرناطة، حتى وإنْ في أيّام الأسى، فإنه لا يرجو أن يعود فيدفن نفسه في قرية صغيرة من نواحي مُرْسِيَة. ويمكن تصوّر أنّ هذه كانت أفكارها عندما نبهّها أخوها نافد الصبر:

«هذان الولدان ولداك؟»

واستندت إلى جدار مترنّحة وتمتمت بـ «لا» لم تلبث أن غطّتها «نعم». وإذ سمع جوان الكلمة الأخيرة فقد وثب باتجاهي ورفعني بين ذراعيه.

كيف السبيل إلى نسيان الزعقة التي أطلقتها عندئذٍ أمي؟ وارتمت على الجندي تخمشه بأظفارها وتنهال عليه ضرباً بينما كنت أنا أتخبّط ما وسعني التخبّط. بيد أنّ الشاب لم ينخدع، وسرعان ما تخفّف من حملي هاتفاً في أخته بنبرة عتاب:

«الصَّبِيَّة وحدها لكِ إذن؟».

ولم تقل شيئاً، الأمر الذي كان جواباً كافياً في نظر جوان.

«أتأخذينها معك أم تتركينها لهم؟».

كانت النبرة عند هذا من القسوة بحيث خافت المسكينة. وتضرّعت قائلة:

«أهدأ يا جوان، لا أريد فضيحة. غداً آخذ أمتعتي وأذهب إلى القنطريّة»

بيد أن الجندي لم يكن يفهم الأمر على هذا النحو:

«أنت أختي، وسوف تذهبين لجمع أمتعتك على الفور وتتبعينني!»

وإذ تشجّع أبي بما أبدت وردة من تراجع فقد اقترب وقال:

«إنها زوجتي!»

قال ذلك بالعربية، ثم بقشتالية رديئة. وصفعه جوان بكل ما فيه من عزم فألقاه منبطحاً على قارعة الطريق الموحلة. وأخذت أمي تُعْوِل وكأنها إحدى النادبات، في حين صاحت وردة:

«لا تؤذِه! لقد أحسن معاملتي على الدوام. إنه زوجي».

وتردّد الجندي الذي كان يمسك بأخته من غير مداراة قبل أن يطلق وقد خفّت حدّته فجأة:

«في نظري أنك كنت أسيرته، ولم تعودي ملك يمينه بعد أن أصبحت هذه المدينة في أيدينا. وإذا قلت لي إنه زوجك كان في وسعه الاحتفاظ بك، ولكنْ ينبغي أن يُعَمَّد على الفور وأن يبارك كاهن زواجكما».

عندها توجّهت وردة بتضرعاتها إلى أبي قائلة:

«إقْبَلْ يا محمّد وإلا فرّقوا بيننا!».

وساد صمت. ثم صاح واحد من المتجمهرين:

«الله أكبر!».

ونهض أبي، وكان لا يزال ملقى على الأرض، على مهل وتقدّم بكبرياء نحو وردة وهتف بها بصوت مرتجف: «أعطيك ثيابك وابنتك!» قبل أن يتّجه صوب البيت مخترقاً سياجاً من تمتمات المُوَافَقَة.

وقد علّقت أمي على الحادث بتجرّد قائلة: «لقد أراد أن يُبقي على ماء وجهه أمام الجيران، ولكنّه كان قد شعر مع ذلك بالتضاؤل والعجز».

ثم أضافت جاهدة في ألاّ يُسْتَشَفَّ من كلامها أيّ تهكّم:

«في تلك اللحظة كانت غرناطة في نظر أبيك قد سقطت حقّاً في يد العدو.»

* * *

قبع محمد في بيته أياماً لا يسلو. وكان يرفض حتى الانضمام إلى أصدقائه لتناول

وجبات الإفطار؛ ومع ذلك لم يؤاخـذه أحد، إذ كـان الجميع قـد عرفـوا بمحنته في مساء «المهرجان» بالذات. وقد جاء الجيران غير مرة حاملين إليه، كما إلى مريض، الأطباق التي لم يَذُقْها في بيوتهم. ولم يعـد أحد يحسّ في البيت بـوجود سلمى، فـما كانت توجّـه إلى زوجها كـلاماً إلا للردّ عـلى أسئلته، وكـانت تمنعني من إزعاجـه، وتتحاشى هي أن تفرض عليه وجودهـا من غير أن تبتعـد قطّ عنه لكيـلا يضطّر إلى طلب الشيء نفسه مرّتين.

وعلى الرغم من قلق أمّي فقد حافظت على هدوئها لأنها كانت مقتنعة بأن الزمن كفيل بإزالة ألم ابن عمّها. وكان ما يؤلمها هو أن تـرى محمّداً متعلّقـاً «بأم ولده» إلى هذا الحد، ولا سيّما أنّ هذا التعلّق انكشف لجميع ثرثارات ألبيسان. وعندما كنت أسألها وقـد غدوت يـافعاً عـمّا إذا لم تكن على الـرغم من كل شيء راضيـة لرحيـل ضرّتها كانت تدافع قائلة عن قناعة:

«الزوجة العاقلة تسعى إلى أن تكون أُولى نساء زوجها لأنّ رغبتهـا في أن تكون الوحيدة وَهْمٌ من الأوهام».

ثم تضيف بدعابة زائفة:

«مهما قيل فإن كون الزوجة الـزوجةَ الـوحيدة ليس أبهـج من كون الـولدِ الـولدَ الوحيد. فذاك يقتضي مزيداً من العمل، ومـزيداً من الضجـر، وتنفرد الـزوجة في تحمّل أطوار غضب الـرجل ومـطالبه. صحيـح أن هناك الغَـيْرة، وهناك المكـائد، وهناك المشاجرات، ولكنّ هذا كله يجري على الأقل داخل البيت، لأنّه ما إن يبـدأ الزوج بالبحث عن مسرّاته خارج البيت حتى تفقده جميع زوجاته».

ولهـذا السبب ولا ريب جُنّ جنون سلمى عنـدما وثب محمّـد في آخـر يـوم من رمضان من مكانه المعهود وخرج من البيت ثابت الخطى. ولم تعرف إلا بعد يومـين أنه ذهب لزيارة حامد الملقّب بالفكّاك، «مفتدي» غرناطة العجوز الذي كان يقـوم منـذ عشرين سنة بـوظيفة صعبـة، وإن مُربحـة، هي افتداء الأسرى المسلمـين في الأرض المسيحية.

فلقـد طـالمـا كـان في بـلاد الأنـدلس أشخـاص مهمّتهم البحث عن المسـاجـين

والحصول على الإفراج عنهم. ولم يكن ذلك وقفاً علينا بل كان عند المسيحيين الذين درجوا منذ زمن طويل على تعيين «الفكّاك مايور»، وهو في الغالب شخصية رفيعة من شخصيات الدولة يساعده مُفْتدون آخرون كُثُر. وكانت عائلات الأسرى هي التي تبلّغ عن اختفائهم: جندي وقع في قبضة العدو، أحد أهالي مدينة محتلّة، فلّاحة أسرت أثناء غزوة للنهب والسلب. ويبدأ «الفكّاك» أو أحد ممثّليه عندها تحقيقاته متنقلاً إلى أرض الخصم - وحتى إلى مناطق بعيدة أحياناً - في زيّ تاجر، أو حتى بصفته الحقيقية، للعثور على الأشخاص المفقودين والمساومة على مبلغ الفِدْيَة. ولّما كانت عائلات كثيرة تعجز عن دفع المبلغ المطلوب فقد كانت تُنظّم حملاتٌ للتبرّع، ولم تكن أي صدقة أسمى في نظر المؤمنين من التي تُستخدم للإفراج عن المؤمنين المُسْتَرَقين. وكان كثير من أهل التقى والورع ينفقون كلّ ما يملكون لافتداء أسرى غالباً ما لا يكونون قد شاهدوهم في حياتهم، وهم لا يرجون من جزاء غير رحمة الله تعالى. وفي المقابل لم يكن بعض المفتدين سوى عُقْبان يستغلّون مصائب العائلات ليبتزّوا منها القليل من المال الذي تملكه.

لم يكن حامد من هؤلاء، يشهد بذلك بيته المتواضع. وقد قصّ عليّ أبي ما حدث له معه بشيء من التردّد والتحفّظ لم تُفلح السنون في إزالتهما:

«استقبلني باللياقة الباردة التي يَستقبِل بها من لا ينفكّون يتلقّون الالتماسات، ودعاني إلى الجلوس على وسادة وثيرة، وبعد أن استفاض في السؤال عن صحتي رجاني أن أعرض له ما حملني إليه. ولما أخبرته لم يتمالك من الإغراب في ضحك صاخب انتهى بسعال خفيف ممطوط. وإذ شعرت بأنّني أُهنت فقد نهضت للوداع، ولكنّ حامداً جذبني من كميّ قائلاً: «أنا في سنّ أبيك ولا ينبغي أن تجدَ عليّ. لا تعتبر ضحكي إهانة بل اعتبره إكباراً لجسارتك التي لا تصدّق. الشخص الذي تريد استعادته ليس امرأة مسلمة وإنما امرأة مسيحية قشتالية تجرّأتَ على الاحتفاظ بها أسيرة لديك ثمانية عشر شهراً بعد سقوط غرناطة في حين أن أوّل قرار اتّخذه المنتصرون قضى بأن يُحرَّر جهاراً نهاراً آخر الأسرى المسيحيين المقيمين في مدينتنا وعددهم سبعمئة أسير». وكان جوابي الأوحد: «نعم». ورمقني متأملاً طويلاً في ثيابي ثمّ خاطبني بتؤدة ولياقة وقد حكم ولا ريب بأني شخص محترم: «أُدرِك جيداً

يا بنيّ أن تكون مـولّهاً بهـذه المرأة، وإذا قلت لي إنّـك أحطتهـا بالـرعايـة والعنايـة بـاستمرار وأنّـك تحبّ البنت التي أنجبتها منها صدّقتـك عن طيب خـاطـر. ولكنْ عليك أن تقول إن العبيد لم يكونوا يعاملون جميعاً على هذا النحو، لا عندنا ولا في قشتالة. لقد كان معظمهم يقضون النهار في نقل الماء أو صناعة النِّعال، وكـانوا في الليل يُحشرون كالبهـائم والقيـود في أقـدامهم أو في رقـابهم في أقبيـة فـظيعـة تحت الأرض. إن ألوفاً من إخوتنا ما زالوا يَلْقَوْن هذا المصير ولا يهتمّ أحد بتخليصهم. فكّر فيهم يا بنيّ وساعدني على افتداء بعضهم بـدل الجري وراء وَهْم، وكـن عـلى ثقة من أنه لن يستطيع بَعْدُ مسلم على الأرض الأندلسية أن يحكم مسيحياً ولا حتى مسيحيـة. وإذا أصررت على الـرغبة في استعـادة تلك المـرأة فينبغي أن تتـوجّـه إلى كنيسة». وأطلق لعنة ومرّ براحتيه على وجهه قبل أن يتابع قائلاً: «فَـوِّضْ أمركَ إلى الله واسأله أن يهبك الصبر والسلوان».

وتابع أبي قـائـلاً: «وإذ نهضت للذهـاب خائبـاً ساخـطاً فقد أغـدق عليّ حـامد نصيحة أخيرة بشيء من المسارّة: «في هذه المـدينة كثـير من الأرامل بفعـل الحرب، ويتيمات كثيرات معدمات، ونسـاء كثيرات بـلا معين. حتى إن منهنّ ولا شـك من هنّ من ذوي قرباك. ألم يـوصِ كتاب الله المستـطيعين من الـرجال أن يحيـطوهنّ بالرعاية والحماية؟ إنه لينبغي على المسلم الكريم في زمن المصائب الكبرى كالمصيبـة التي أصـابتنا أن يتـزوّج مَثْنىً وثُلاثَ ورُبـاعَ، لأنّه وهـو يضاعف من مسرّاتـه ينجز عملاً محموداً ونافعاً لـلأمة. غـداً يوم العيـد ففكّر في أولئـك اللائي سيحتفلنَ بـه بذرف الدموع». وغادرتُ الفكّاك العجوز وأنا لا أدري إذا كانت السـماء هي التي قادتني إليه أو الجحيم».

ما زلت حتى اليوم عاجزاً تماماً عن الجزم بالأمـر، لأنّ حامـداً سوف يتصرّف في نهاية المطاف بقدر من المهارة والإخلاص والتفاني سيكون من شأنها أن تُسْلِم حيـاة أهلي إلى الاضطراب سنواتٍ طويلةً.

عام الرحيل

٨٩٩ هـ (١٢ تشرين الأول «أكتوبر» ١٤٩٣ م-
أول تشرين الأول «أكتوبر» ١٤٩٤ م)

«يشبه الوطن المفقود جثّة أحد الأقرباء؛ ادْفِنْها بإجلال وآمن بالخلود».

كانت كلمات «أستغفر الله» ترنّ على وقع سبحة العنبر التي كانت أصابعه الهزيلة الورعة تفرّق حبّاتها بلا كلل. وكان حول الواعظ أربعة وجوه ملتحية عابسة بينها وجه محمّدٍ أبي، أربعة وجوه ممطوطة ارتسم عليها نفس الكرب الذي كان الشيخ يؤجّجه بلا تحفّظ.

«ارحلوا، هاجروا، دعوا الله يسدّد خطاكم لأنكم إذا رضيتم بالعيش في الخضوع والذلّ، إذا رضيتم بالعيش في بلد تُنتهك فيه تعاليم الدين الحنيف ويُشتم كلّ يوم الكتّابُ والنبي صلى الله عليه وسلّم فإنكم تصوّرون الإسلام بصورة مهينة سوف يحاسبكم عليها الله تعالى يوم الدين. لقد جاء في الكتاب قوله عزّ وجلّ ﴿إنّ الذين توفّاهُمُ الملائكةُ ظالمي أنْفُسِهم قالوا فيمَ كنتم، قالوا كنّا مُستضعَفين في الأرض، قالوا ألم تكُنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهُمْ جهنّمُ وساءَتْ مصيرا﴾»[1].

في ذلك العام الحافل بالبلاء والتمزّق كانت نهاية مهلة السنوات الثلاث التي مُنحت للغرناطيين للاختيار بين الخضوع والمنفى. فحسب اتفاق التسليم كان أمامنا حتى بداية عام ١٤٩٥ المسيحي للتقرير، بيد أنّه لمّا كان اجتياز البحر إلى المغرب محفوفاً بالريب منذ شهر تشرين الأول (أوكتوبر) فقد كان من الخير الذهاب في الربيع أو في أقصى حدّ في الصيف. وسرعان ما أُلصِق بمن رغب في البقاء

---

(١) سورة النساء، الآية ٩٧ (المترجم).

النعتُ الـذي سبق إطلاقـه على المسلم القـاطن أرضاً مسيحيـة: «مُـدَجَّن»، وهي كلمة حرّفها القشتاليون إلى «مُديجار». وعلى الـرغم من هذه التسميـة الشائنـة فإن كثيراً من الغرناطيين كانوا متردّدين.

كان الاجتماع السـريّ المعقود في حـديقة بيتنـا بألبيســان ـ ردّه الله علينا ـ يشبـه آلافاً غيره كانت تُعقد في ذلك العام في مدينتنا لمناقشة مصـير الجماعـة، وحتى مصير واحد من أفرادها في بعض الأحيان. وكان «أستغفر الله» يحضر حينـما يكون قـادراً على الحضور، وكانت له الكلمة العليا وإنْ كان يقولها بصوت خـافت للدلالة عـلى أنه أضحى مذّاك في بلد مُعادٍ. وكان يبادر إلى القول إنـه إذا لم يكن قد سلك حتى الآن طريق المنفى فذلك فقط لِثَنْيِ المتردّدين عن درب الهلاك.

ولم يكن عدد المتردّدين ممّن كانوا حاضرين بالقليل، بدءاً بأبي الذي لم يكن قـد فقد الرجاء في العثور على وردة وابنتها، والذي كان قد أقسم ألّا يرحل من غير أن يصطحبهما نكاية بجميع جنود قشتالة وأراغون. وكان قد حصل بـإلحاحـه في زيارة حامـد الفكّاك على وعد منه بإيصال رسالة إلى أمّ ولده. وكان قـد أفلح كذلـك في تكليف تاجر جَنَويّ اسمه «برتولوميه» يقيم منذ أمد طويل في غرناطة ويكسب المال الطائل من جرّاء افتداء الأسرى بمهمّة مماثلة لقاء مبلغ كبير من المال. وعليه فإنه لم يكن راغباً في الابتعاد قبل أن يجني ثمار مساعيه البـاهظة الثمن. وكـانت محنته قـد جعلت منه رجلاً آخر لا يُعير اهتماماً لإجمـاع الناس عـلى نبذه ولا لـدموع سلمى، ويلوذ بمصيبته من المصائب المحيطة به.

أمّا جارنا حمزة الحلّاق فكانت تدفع به أسباب أخرى إلى التردّد. فقد كان يملك أراضي اشتراها قطعة قطعة في مـدّة عشرين سنة من المـال الذي كـانت تدرّه عليـه عمليات الختان الدقيقة المُرْبحة، وكان يمنّي نفسه بألّا يهاجر قبل أن يبيع بسعر جيد آخـر كَرْمـة من كرومـه؛ ولهذا كـان ينبغي الانتـظار لأنّ كثيـراً من المستعجلين في الرحيل كانوا يُرْخِصون آنذاك أثمان حقولهم، وكانت الكلمة العليا للمشترين.

وكان يبرّر موقفه بالقول: «سوف أجعل هؤلاء الروم الملاعين يدفعـون أغلى مـا يمكن من ثمن».

وكان «أستغفر الله» الذي كان حمزة من المعجبين به على الدوام يرغب في تجنيبه عدم الطهارة، هو الذي طهّرت موساه نصف صبيان ألبيسان.

جارٌ آخر من جيراننا هو البستاني العجوز سعد الذي عميت عيناه حديثاً لم يكن يشعر بالقدرة على الرحيل. وكان يردّد: «لا يُعاد غرس شجرة عتيقة خارج تربتها».

وإذ كان رجلاً وَرِعاً متواضعاً يخشى الله في كل أمر فقد جاء يسمع من فم الشيخ ما يُفتي به في حاله العلماءُ المتفقّهون في كلام الدين وفي الحديث الشريف.

وتتذكّر أمي أن «حمزة وسعداً قدِما إلى بيتنا بُعَيْد صلاة الظهر فأدخلهما محمّد بينما انسحبْتُ بصحبتك إلى مخدعي. وكانت خدودهما شاحبة وابتسامتاهما مصطنعتين كما كانت حال أبيك الذي أجلسهما على وسادتين قديمتين في زاوية ظليلة من الحديقة ولم يبادلهما سوى تمتمات لا تكاد تُسمع. ووصل الشيخ بعد ساعة، وعندها فقط ناداني محمّد وطلب إليّ تجهيز شراب بارد».

وقد اصطحب «أستغفر الله» حامداً الذي كان يعرف مدى صلته بربّ البيت. كان الفكّاك العجوز قد رقّ لجنون والدي، وإذا كان قد أخذ يُكْثِر من زيارته منذ عام فلم يكن ذلك لردّه إلى الرشد بقدر ما كان لملامسة جراءته وشبابه وعشقه المُقيم. ومع ذلك فقد كان لزيارة الفكّاك في ذلك اليوم بعض الفخامة. فقد انقلب مجدّداً إلى ذلك الوجيه المتديّن الذي كان يعرفه الناس، وكانت أجفان عينيه المجزّعة تتعمّد الصرامة، وكانت أحاديثه ثمرة تعاطيه الطويلة مع الخصم.

«لقد خالطتُ طوال حياتي أسرى لم يكونوا يحلمون بغير الحريّة، وليس في وسعي أن أفهم أن يختار رجل حرّ سليم العقل الأسر بملء إرادته». كان العجوز سعدٌ أوّلَ من أجاب بالقول:

«إذا رحلنا جميعاً أجتُثّ الإسلامُ من هذه الأرض إلى الأبد، وعندما يصل الأتراك بعون الله لمقاتلة الروم فلن نكون هنا لمدّهم بالمساعدة».

وفرض صوت «أستغفر الله» الوقور الصمت على البستاني بالقول:

«البقاء في بلد استولى عليه الكفّار يحرّمه الدين تحريمَ الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل الناس».

وأضاف وهو ينوء بيده على كتف سعد:

«كلّ مسلم يلبث في غرناطة يزيد عدد سكان دار الكفر ويُسهم بذلك في تقوية أعداء الله ورسوله».

وانحدرت دمعة على خدّ العجوز قبل أن تتغلغل في شعر لحيته وقال:

«لقد بلغتُ من الكبر عتيّاً ونال مني المرض والفقر فلا أقدر على التجوّل في الطرقات وركوب البحار. ألم يقل النبي: أفعل ما تقدر عليه ولا تبحث عبثاً عن الصعب؟

ورقّ قلب حامد لحال البستاني ورتّل مجازفاً بمعارضة الشيخ آيتين مطمئنتين من سورة النساء:

﴿... إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عَفْوّاً غفورا﴾.

فبادر سعد إلى القول:

«الحقّ ما قاله الله العليّ القدير».

ولم ينكر «أستغفر الله» ما لا يحتاج إلى دليل وقال:

«الله واسع حليم ولا يطلب الأمور نفسها من القادرين ومن غير القادرين. فإذا كنت راغباً في طاعته بالهجرة ولكنْ لا تستطيع ذلك فإنه يقرأه في صدرك ويحاكمك على نيّاتك. ولن يَنْذُرَكَ للجحيم، ولكنْ قد تكون جحيمك على هذه الأرض وفي هذا البلد. وستكون جحيمك الذلّ اليومي لك وللنساء من أهلك».

وإذ ألصق بغتة راحتيه بالتراب الحارّ فقد التفت بكلّ جسده إلى ابي والحلاق محدّقاً النظر فيهما وقال:

«وأنت يا محمّد؟ وانت يا حمزة؟ أتكونان أيضاً فقيرين وعاجزين؟ ألستما من

الأعيان، ألستما مرموقين من الجماعة؟ وما عذركما في عدم التقيّد بتعاليم الإسلام؟ لا تأملا في أي مغفرة ولا في أي رحمة إذا أنتما اتّبعتما سبيل يحيى الجاحد لأن الله تعالى لا يتسامح مع الذين يغمرهم بنِعَمِه».

وأقسم الرجلان بشيء من الحرج على أنهما لا يفكّران قطّ في البقاء إلى الأبد في دار الكفر، وأنّهما يرغبان فقط في ترتيب أمورهما للرحيل في ظروف حسنة.

وصاح «أستغفر الله» قائلاً: «ويل لمن يسترخص الجنّة ويستغلي متاع الدنيا!» في حين توجّه الفكّاك الراغب في عدم استفزاز محمّد لعلمه بتوتّر أعصابه وقدرته على ارتكاب الحماقات إلى المعاندَيْن قائلاً بنبرة أبوية:

«منذ أن سقطت هذه المدينة في أيدي الكفّار وهي محلّ عار لكلّ واحد منا. إنها سجن بابه آخذ في الانغلاق على مهل. فكيف لا تنتهزان هذه الفرصة الأخيرة للهرب؟».

ولم تُفلح لعنات الواعظ ولا توبيخات الفكّاك في حمل أبي على مغادرة المدينة. وفي صبيحة اليوم التالي للاجتماع ذهب إلى حامد لاستطلاعه أخبار محبوبته. وكانت سلمى تعاني في صمت وترجو النزوح.

وقد قالت لي:

«كنا قد دخلنا في قيظ الأيام الأولى من الصيف، بيد أن المتنزهّين في حدائق غرناطة كانوا قلّة قليلة، وقد خلت الأزهار من كل رونق. وكانت أجمل منازل المدينة قد أُخليت، وخلت دكاكين الأسواق من معارض بضائعها، وسكن صخب الشوارع، حتى في الأحياء الفقيرة. ولم يكن الجنود القشتاليون يحاذون في الساحات العامة غير المتسوّلين لأن جميع المسلمين الحريصين على شرفهم ومكانتهم كانوا يشعرون بالخزي إذا وقعت عليهم الأنظار إن هم لم يرحلوا بعد».

وأضافت بصوت ملؤه الحسرة:

«إذا ابتلي المرء بمعصية الله تعالى فمن الخير له أن يفعل ذلك في الخفاء لأنه يكون قد عصى مرتين إذا هو تبختر بمعصيته».

وكانت تردّد ذلك على مسمع أبي بلا انقطاع من غير أن تُفلِح في زحزحته.

«العيون الوحيدة التي تراقبني في شوارع غرناطة هي عيون الناس الذين لم يرحلوا بعد. فأية مآخذ يجرؤون على أخذها عليّ؟».

وكان يؤكّد من جهة ثانية أن أغلى أمانيه أن يبتعد عن هذه المدينة التي انتهك فيها شرف رجولته؛ بيد أنّه لن يهرب كما يهرب ابن آوى. ولسوف يرحل مرفوع الجبين والاحتقار ملء نظراته.

وسرعان ما أقبل ذو القعدة، الشهر قبل الأخير من السنة، وحان دور حمزة لسلوك الدرب؛ وإذ استعجلته أمّه القابلة العجوز مضيّقة عليه بعويلها وانتحابها، متّهمة إيّاه بالرغبة في جرّ أهله إلى جهنّم، فقد ذهب من غير أن يبيع أراضيه مؤمّلاً نفسه بالعودة وحده بعد بضعة أشهر بحثاً عن مُشترٍ. وقد دقّت ساعة المنفى بالنسبة إلى «أستغفر الله» أيضاً. ولم يحمل معه ذهباً ولا ثياباً فاخرة، وإنما حمل فقط مصحفاً وبعض المؤن للطريق.

«ثم أقبل شهر ذي الحجة وأصبحت السماء أكثر غيوماً والليالي أشدّ برداً. وكان أبوك لا يزال سادراً في عناده يقضي النهار بين الفكّاك والجَنَويّ ويعود في المساء منهوكاً أو هائجاً، منشغل البال أو مطمئناً، ولكنْ من غير ما كلمةٍ واحدة على الدوام بشأن الرحيل. ثم انتابته فجأة قبل نهاية السنة بأسبوعين ثورة عارمة: كان يريد الرحيل على الفور، وكان ينبغي بلوغ المريّة قبل ثلاثة أيام. لماذا المريّة؟ ألم تكن هناك موانىء أقرب كثغر «أدرا» الذي سافر منه أبو عبدالله، أو الرابطة، أو سالوبرينية، أو المُنيْقِر؟ كلا، كان ينبغي أن تكون المريّة، وكان يجب بلوغها قبل ثلاثة أيام. وجاء حامد عشية الرحيل لوداعنا، وفهمت أن حماسة محمّد لم تكن بالغريبة عليه. وسألته عمّا إذا كان سينزح هو أيضاً فأجابني مبتسماً: «لا، لن أرحل إلا بعد تحرير آخر أسير مسلم».

وألحفت سلمى قائلة:

«ولكنّك تخاطر بالبقاء طويلاً في دار الكفر!»

وابتسم الفكّاك ابتسامة غامضة وإن لم تخلُ من أسى وغمغم وكأنه لا يحدّث غير

نفسه، أو ربّما الخالق مباشرة:

«يجب أن يُعصى الله أحياناً لكي يُطاع بصورة أفضل».

وانطلقنا في اليوم التالي قبل صلاة الفجر، أبي على جواد وأنا وأمي على بغلة، وقد كُدِّست أمتعتنا على خمس بهائم أخرى. والتقينا عند باب نجد جنوبي المدينة بضع عشرات من المسافرين فرافقناهم في أثناء الطريق لضمان مزيد من السلامة. فقد كان قطّاع الطريق كُثُراً في جوار المدينة وفي شِعاب الجبال لأن أحداً لم يكن يجهل أن ثروات هامّة كانت في طريقها على الدوام إلى الساحل.

* * *

ترك الهرج السائد في ميناء ألمريّة لعَيْنَي الطفل الذي كنته ذكرى لا تُنسى. فكثيرون من الناس كانوا مثلنا قد عزموا على الرحيل في آخر لحظة، وكانوا يسارعون ليستقلّوا على الفور مركباً مهما كان صغيراً. وكان هنا وهناك بعض الجنود القشتاليين يتولَّوْن تهدئة المتدافعين بصيحة متوعِّدة؛ وكان آخرون يتحقّقون بعيون تنضح بالطمع محتويات صندوق من الصناديق. وكان من المتّفق عليه أنّ في وسع المهاجرين حمل جميع أملاكهم بلا أيّ استثناء، ولكنْ كثيراً ما كان من المفيد ترك قطعة ذهبية بين أصابع ضابط ملحاح. وعند الشاطىء كانت المساومات على قدم وساق، وكانت تُوَجَّه بلا انقطاع إلى أصحاب المراكب المواعظُ الدائرة حول المصير الذي أعدّه الله للذين يستغلّون مصائب المسلمين؛ وكانت على ما يبدو بلا جدوى لأنّ أجور السفر استمرّت بالتصاعد ساعة فساعة. فطعم الربح يهدهد الضمائر وقلّما كانت لحظات الذعر مؤاتية لاستدرار السخاء. وإذ لم يكن في وسع الرجال إلاّ الخضوع فقد كانوا يحلّون أكياس نقودهم مومئين إلى أسَرهم أن يُسرعوا. وفي المراكب كانوا يجهدون في تجنيب نسائهم وبناتهم شوائب الاختلاط والزحام، وهي مهمّة عسيرة حينمايتكدّس ثلاثمئة شخص في مركب لم يسبق له أن حمل أكثر من مئة.

لقد رفض أبي منذ وصولنا الاختلاط بالناس. وأخذ يجول ببصره على مهل من فوق مطيّته حوالي الميناء قبل أن يتوجّه إلى كوخ خشبي صغير تلقّاه عند عتبته مرحِّباً

رجلٌ حسن الهندام. وتبعناه عن بُعْد فأشار إلينا أنِ اقتربوا. وما هي إلا دقائق حتى كنّا نجلس جلسة مريحة فوق أمتعتنا في مركب فارغَ نزلنا إليه في عبّارة ما لبثت أن رُفعت بعد ركوبنا. ولم يكن الرجل سوى أخي حامدٍ، وكان يُدير الجمارك في المريّة، وهي وظيفة لم يكن القشتاليون قد سحبوها منه بعدُ. وكان المركب ملكه، وما كان مقدّراً له أن يمتلىء بالركاب إلا في اليوم التالي. وأعطتني أمي وأعطت أبي قطعة زنجبيل صغيرة نمضغها لتفادي دُوار البحر، وأخذت هي نفسها قطعة كبيرة منه. وما لبث الليل أن هبط فاستسلمنا جميعاً للنوم بعد أن تناولنا بعض كرّيات من اللحم كان قد جلبها إلينا مضيفنا.

واستيقظنا في الفجر على أصوات صيحات ومدافعات. فقد هجم على مركبنا عشرات الرجال وهم يزعقون، والنساءِ المتّشحات بالبياض أو السواد، والأولادِ المتصايحين أو المذهولين. وكان علينا أن نتشبّث بأمتعتنا كيلا نُزاح عن مكاننا، أو حتى لا يُقذف بنا إلى البحر. وضمّتني أمّي إلى صدرها عندما أخذ المركب يبتعد عن الشاطىء. ومن حولنا كان شيوخ ونساء يجأرون بالدعاء مُعوِلين، وكان هدير الأمواج يكاد يعجز عن الطغيان على أصواتهم.

أبي وحده ظلّ وادعاً في تلك الصبيحة من صبيحات المنفى، حتى إنّه كان في وسع سلمى أن تلمح على شفتيه ابتسامة غريبة طوال الرحلة. ذلك أنه تمكّن من أن يقيم لنفسه في قلب الهزيمة بالذات ساحة نصر ضئيلة.


كتاب فاس

كنت في مثل سنّك يا بنيّ، ولم أرَ غرناطة قط بعد ذلك. فلم يشأ الله أن يُكتب قدري برمّته في كتاب واحد، وإنما أن يجري موجة إثر موجة على وَقْع البحار. فقد خفّفني في كلّ رحلة من مستقبل ليُغدق عليّ آخر؛ وربط فوق كلّ شاطىء جديد إلى اسمي اسم وطن مهجور.

لقد جنح وجودي في يوم وليلة من «ألمريّة» إلى «مليلة». على الرغم من أن البحر كان رحيماً والريح وادعة، ولكنّ العاصفة كانت تكبر في قلب والديّ.

وكان حامد الفكّاك سامحه الله قد رتّب الأمور جيّداً. فإذ لم يَعُدْ ساحل الأندلس خلفنا سوى خيط دقيق من الندم هُرعت إلينا في زاويتنا من المركب امرأة قافزة بخفّة فوق الأمتعة والمسافرين. ولم يكن خطوها المرح يتوافق جيداً مع هندامها المؤلّف من مناديل شديدة السواد والصفاقة إلى حدّ أنّه صعب علينا جميعاً التعرّف عليها لو لم تكن مريم بين ذراعيها.

كانت صيحات الفرح الوحيدة التي انطلقت صيحاتي وصيحات أختي. وجمّد الانفعال محمّداً ووردة، كما جمّدتهما النظرات المثبّتة التي كانت تُحاصرهما. وأمّا سلمى فقد شدّدت من ضمّي إلى صدرها. وفهمتُ من أنفاسها المكتومة ومن بعض التنهدات التي انطلقت على غير قصد منها أنها كانت تتألّم. وكانت دموعها تجري ولا ريب خلف نقابها، وما كان ذلك عن غير حقّ لأن عاطفة أبي الجامحة لن تلبث أن تقودنا جميعاً إلى شفير الهاوية.

محمد الوزّان الوادع جدّاً وقد أصبح جموحاً جدّاً! لقد حدث لي أن أضعتُه في شبابي لأعثر عليه في أيام نضجي عندما لم يعُدْ من هذا العالم. وكان عليّ أن انتظر ظهور الشعرات البيضاء الأولى وأيام الأسف الأولى قبل الاقتناع بأنّ من حقّ الرجال، وأبي من بينهم، أن يَضِلّوا الطريق إذا

هم ظنّوا أنهم يسيرون وراء السعادة. ومذّاك أخـذتُ أُحبّ ضلالاتـه مثلما أرجو أن تحبّ يا بنيّ ضلالاتي. بل أرجو أن تضِلَّ أحياناً بـدورك. وأرجو أن تحبّ كما أَحَبُّ إلى حدّ الطغيان، وأن تـظلّ طويـلاً متهيّئاً لأسمى مـا في الحياة من إغراءات.

عام الفنادق

٩٠٠ هـ (٢ تشرين الأول «أوكتوبر» ١٤٩٤ م - ٢٠ أيلول «سبتمبر» ١٤٩٥ م)

لم تـطأ قدمـاي قطّ مدينـة قبل فـاس، ولا سبق لي أن شاهـدت عجيج النـاس وانهماكهم في الأزقّـة، ولا أن أحسست على وجهي تلك النفحـة القويـة التي تشبـه ريح عُرض البحر، وإنْ كانت مثقلة بالصيحات والروائح. لقد وُلِدتُ بـالطبـع في غرناطة عاصمة مملكة الأندلس الجليلة، ولكنْ حدث ذلك في زمن متأخّـر جدّاً من العصر، ولم أعرفها إلا محتضَرة مفرغة من ناسها وروحهـا، ذليلة خامـدة، وعندمـا غادرت ضاحية ألبيسان لم تكن في نظر والديّ إلا معسكراً مُعادياً خَرِباً.

وأمّا فاس فكانت شيئاً آخر، وقد صرفتُ شبابي بأكمله لأعلم ذلك. ولم يبق لي من لقائنا الأوّل في ذلك العام سوى ذكريات يلفّها الضباب. فقد دنوت من المدينة على ظهر بغل فاتحاً يُرثى له ونصف نائم، تُسندني يد أبي القـويّة الثـابتة لأن جميـع الطرق كانت منحدرة، وكان انحـدارها من الشـدّة أحيانـاً بحيث لم تكن الرَّكـوبة تتقدم إلا بخطوات متردّدة غير مستقرّة. وكنت أعتدل عنـد كلّ هـزّة ثم أعود كـرّة أخرى إلى النوم. وفجأة جلجل الصوت الأبوي:

«حسن، إذا كنت تودّ رؤية مدينتك فاستيقظ!».

وإذا فارقني إجفالي فقـد أدركت أنّ موكبنـا الصغير كـان قد أصبـح عند أسفـل سور بلون الرمل ضخم مرتفع يعلوه عدد لا يُحصى من المتـاريس الحادّة المتـوعِّدة. وأجزنا باباً بفضـل قطعـة من النقد انـزلقت في يد ديـدبان. وهكـذا غدونـا داخل الأسوار.

وألحّ محمّد قائلاً: «انظر».

كان يحيط بفاس على مدّ النظر صفّ من التلال المرصّعة بعدد لا يُحصى من البيوت المصنوعة من القرميد والحجر مزيّنة في أغلب الأحيان بمربّعات من الخزف كما في غرناطة.

«هناك في ذلك السهل الذي يقطعه النهر يقوم قلب المدينة. وعلى اليسار عَدْوَة الأندلسيين، وقد أنشأها منذ قرون مهاجرون من قرطبة؛ وعلى اليمين عَدْوَة أهل القيروان، وفي وسطها جامع القرويين ومدرستهم، ذلك البناء الفسيح ذو القرميد الأخضر حيث ستتلقّى إن شاء الله علوم العلماء».

لم أكن أسمع بغير أُذُن شاردة تلك الإيضاحات العلمية لأنّ ما كان يستحوذ على بصري بشكل خاص كان منظر سطوح المنازل: كانت غيوم كثيفة قد خفّفت من حدّة الشمس في ذلك الأصيل الخريفي، وكان ألوف من أهل المدينة جالسين في كلّ مكان على ما يشبه السُطيحات وهم يتحدّثون ويصيحون ويشربون ويضحكون، وقد انصهرت أصواتهم جميعاً في هَرْجٍ ومَرْجٍ عريضين. وكان يموج حولهم، منشوراً أو ممدّداً، غسيل لأناس أثرياء وفقراء وكأنّه شراع سفينة واحدة.

ضجّة مُسكِرة، ومركب يُبحر من عاصفة إلى عاصفة ويغرق أحياناً، أليست هذه هي المدينة؟ وكثيراً ما حدث لي في مراهقتي أن قضيت نهارات برمّتها أمام هذا المشهد مُطلِقاً لأحلامي العِنان. ولم يكن يوم دخولي فاس إلّا نشوة عابرة. فقد كانت الرحلة من «مليلة» قد أنهكتني، وكنت مستعجلاً بلوغ بيت خالي. ولم أكن أحتفظ بالطبع بأيّة ذكرى عن خالي الذي هاجر إلى المغرب يوم كنت في العام الأوّل من عمري، ولا عن جدّتي التي رحلت معه بوصفه بِكْر أولادها. ولكنّني كنت واثقاً من أنّ ترحابهم بنا سوف يُنسينا أهوال الطريق.

لقد كان ترحاباً بي وبسلمى. وبينما كانت هي تختفي جسماً وزينة تحت أثواب أمّها المنشورة وجدت نفسي بين ذراعي خالي الذي تأمّلني طويلاً من غير أن ينبس بكلمة قبل أن يطبع فوق جبيني أحرَّ القُبَل.

كانت أمّي تقول لي: «إنه يحبّك كما يحبّ كل إنسان ابن أخته؛ وفوق ذلك فإنّه لمّا لم يكن قد رُزق إلا البنات فقد كان ينظر إليك على أنك ابنه من صلبه».

ولقد أثبت لي ذلك في مناسبات كثيرة. وأمّا في ذلك اليوم فكانت عنايته بي شؤماً عليّ.

فبعد أن أنزلني خالي إلى الأرض التفت إلى محمّد وقال له بنبرة نمّت عن عتاب لأنّ أحداً لم يكن يجهل الغرام المحْرِج الذي أخّر نزوح الوزّان: «انتظرتك من زمن طويل».

ومع ذلك فقد تعانق الرجلان. ثم التفت خالي للمرّة الأولى إلى وردة التي كانت واقفة بعيداً. وكاد بصره يعلق بها، بيد أنّه سرعان ما انزلق إلى بعيد. فقد اختار ألاّ يراها، وما كانت لتحلّ أهلاً في مسكنه. ومريم نفسها، البنت اللطيفة الممتلئة الوجه البسّامة، لم تحظَ بأدنى مداعبة.

وقد شرحت لي أمي الأمر فيما بعدُ قائلة: «كنت أخشى ذلك الاستقبال، ولذا لم أُسرَّ حينما ظهرت وردة على السفينة. لقد تحمّلت دائماً في صمت لحظات الجفاء من محمّد. ولقد أهانني سلوكه في نظر الجيران كلّهم، وسخرت غرناطة بأسرها من أعماله الطائشة. ومع ذلك لم أفتأ أقول لنفسي: «أنت زوجته يا سلمى، وعليك طاعته؛ ولسوف يتعب يوماً ويعود إليك!» وبانتظار ذلك وطّدت النفس على إحناء الرأس بِجَلَدٍ. وما كان في وسع أخي الشديد الاعتزاز الشديد الشموخ أن يفعل مثلي. ولقد كان سينسى الماضي ولا ريب لو أننا وصلنا نحن الثلاثة وحدنا. وأمّا أن يستقبل تحت سقفه «الرومية» التي كان جميع الناس يقولون إنها سحرت نسيبه فكان سيجعل منه أضحوكة كلّ المهاجرين الغرناطيين الذين لا يقلّ عددهم عن ستة آلاف في فاس، وجميعهم يعرفونه ويحترمونه».

كان جميع ذويّ يتنفّسون بعناء، باستثنائي أنا المغمور بالرعاية من الجميع، الحالم بأشهى آيات الدلال.

وقد قال لي محمّد: «كان الأمر كما لو كنّا نشهد احتفالاً حوّله جنّي شرير من عرس إلى جنازة. لقد طالما نظرتُ إلى خالك نظرتي إلى شقيق، وكان بودّي لو صحتُ في وجهه أنّ وردة هربت من قريتها مجازفة بحياتها للعثور عليّ، وأنها تركت بلاد الروم للحضور إلينا والعيش معنا، وأنّه لا حقّ لنا في تسميتها بـ «الرومية».

ولكن لم يخرج من حلقي أيّ صوت. ولم يكن أمامي سوى الاستدارة والخروج في صمت يشبه صمت القبور».

لقد اعترضت سلمى طريقه بعد تردّد على الرغم من أنّها كانت على شفا الإغماء. وكانت أشدّ الجميع اكتئاباً، بل أشدّ من وردة نفسها. إن أمّ الولد كانت قد أُهينت ولا ريب. بيد أنّ عزاءها أنها كانت تعلم أن محمّداً لا يقدر بعد اليوم على هجرها من غير أن يريق ماء وجهه؛ وبينما كانت ترتعد في زاويتها كان يراودها شعور بأنّها، لكي تبقى بصحبته، ضحيّة جَوْر. شعور يجرح، ولكنّه يبلسم الجرح، شعور قتال في بعض الأحيان، ولكنّه كثيراً ما يمنح النساء أسباباً متينة للعيش والصراع. ولم يكن لدى سلمى شيء من ذلك.

«كنت مسحوقة بالخصومة، وكانت ذلك اليوم في نظري يوم الدينونة، فقد كنت في طريقي إلى فَقْدِ أبيك بعدما فقدتُ مسقط رأسي والبيت الذي أنجبت فيه».

عُدْنا إذن إلى ركوب بغالنا من غير أن ندري أيّ وجهة نتوجّه. وكان محمّد يغمغم قائلاً وهو يُهوي بقبضته على حزام دابّته:

«وحقّ تراب أجدادي لو قيل لي إني سأستقبل على هذا النحو في مملكة فاس لما غادرت غرناطة قطّ!».

وكانت كلماته تصكّ آذاننا المُفَزَّعة:

«يرحل المرء، يترك بيته وأراضيه، يجوب الجبال والبحار، ثم لا يجد غير أبواب مغلقة وقُطّاع طرق والخوف من الأوبئة!».

والحقّ أننا منذ وصلنا إلى أرض إفريقيا والمصائب وخيبات الأمل لم تفتأ تنصبّ علينا. وذلك منذ اللحظة التي حاذى فيها مركبنا ميناء «مليلة». وكنّا نعتقد بأننا سوف نبلغ هنا شاطىءَ أمانٍ إسلامياً تقع علينا فيه الراحات المُطَمْئِنة لتمسح زبد العناء عن الشيوخ وتكفكف دموع المهدودين. غير أنّ كلّ ما استقبلنا فوق الرصيف كان أسئلة لاهثة: «أصحيح أن القشتاليين قادمون؟ هل رأيتم مراكبهم الحربيّة؟» ولم تكن المسألة تتعلّق عند من كانوا يسائلوننا على هذا النحو بالاستعداد

للدفاع عن الميناء، وإنما بعدم التأخّر في تولية الأدبار. وإذ رأينا أنّه كان علينا، نحن النازحين، أن نُغْدِق كلمات التطمين فقد زاد استعجالنا لإقامة جبل أو صحراء بيننا وبين هذا الشاطىء الذي كان يقدّم نفسه إلى المجتاحين وهو يتثاءب.

وتقدّم منّا رجل قال إنّه مُكاري بغال وأنّ عليه الذهاب دون إبطاء إلى فاس، وإذا شئنا قدّم لنا خدماته بسعر رخيص هو بضع عشرات من الدراهم الفضيّة. وإذ كان محمّد راغباً في مغادرة «مليلة» قبل هبوط الليل، وكان قد أغراه ولا شكّ السعر المعروض، فقد قَبِل العرض من غير أن يساوم. ومع ذلك فقد طلب إلى المُكاري أن يسلك الطريق الساحلي حتى باديس قبل التوجّه جنوباً إلى فاس؛ ولكنّ الرجل كان يملك فكرة أفضل هي سلوك طريق مختصر أقسم أنه يوفّر علينا مشقّة يومين كاملين. وكان يسلكه كل شهر ويعرف أضأل تضريس فيه معرفتَه ظهرَ بغلته. وكانت حجّته من القوة بحيث سرنا بعد نصف ساعة من مغادرتنا المركب أنا وأبي على دابّة، وأمّي ومعها أكثر المتاع على أخرى، وورده ومريم على ثالثة، والمُكاري بجانبنا هو وابنه، وكان هذا صبيّاً بغيضاً في الثانية عشرة من العمر حافي القدمين متّسخ الأصابع موارب النظرات.

وما كدنا نقطع ثلاثة أميال حتى انتصب أمامنا فارسان ملثّمان باللون الأزرق وفي يد كل منهما خنجر معقوف. وما هي إلا أن أخذ المُكاري وابنه ينهبان الشاطىء من غير أن يطالبا بما تبقّى من الأجر، وكأنهما لم يكونا ينتظران سوى إشارة لفعل ما فعلا. واقترب اللصّان، وإذ عرفا أنه سيكون لهما شأن مع رجل واحد عليه حماية امرأتين وطفلين، واطمأنّا إلى ذلك تمام الاطمئنان فقد أخذا يجسّان بيد خبيرة أحمال البغلات. وكان أوّل أسلابهما صندوق مصدّف رصّت فيه سلمى بلا حذر جميع حُلاها. ثم شرعا يسحبان واحداً بعد آخر أثواباً رائقة من الحرير ومفرش سرير مطرّزاً كان في عِداد الجهاز الذي نقلته أمّي إلى بيت زوجها.

وسار أحدهما بعد ذلك صوب وردة وأمرها قائلاً: «اقفزي في الهواء!».

وإذ ظلّت ذاهلة فقد تقدّم من محمّد ووضع رأس خنجره على عنقه. وارتاعت أمّ الولد فحمحمت وتحرّكت كأنها دمية مُخَلَّعة المفاصل، ولكنْ من غير أن تنفصل عن الأرض. وإذ لم أدرك مأساوية الموقف فقد انطلقت في ضحكة مجلجلة قمعها

أبي بتقطيبة من حاجبيه. وصرخ الوغد: «اقفزي أعلى فأعلى!»

واندفعت وردة قافزة في الهواء بأقصى جهدها فسُمع رنين نقود خفيف. «أعطيني كلّ هذا!».

ومدّت يدها داخل ثوبها فأخرجت بِدرة متواضعة دحرجتها إلى الأرض بحركة تنمّ عن ازدراء. والتقطها اللصّ من غير أن يُبدي استياء والتفت إلى أمي وقال:

«إليكِ الآن!»

وفي هذه اللحظة جلجل في البعيد أذان مؤذّن قروي. ورفع أبي بصره إلى الشمس القابعة في أعلى السماء وتناول بيد رشيقة سجّادة صلاة صغيرة موضوعة فوق خاصرة رَكوبته وفرشها على الرمل وأدار وجهه نحو القِبلة وأخذ يؤدي صلاة الظهر بصوت مرتفع. وقد تمّ ذلك كلّه بلمح البصر وبشكل طبيعيّ جعل اللصّين لا يدريان كيف يتصرّفان. وبينما كانا يتشاوران بالنظرات علا من الطريق كما بمعجزة عجاج غبار كثيف على مسافة أقلّ من ميل منّا. ولم يحظَ الوغدان بأكثر من الوقت اللازم لامتطاء جواديهما والاندفاع بأقصى سرعة في الاتجاه المعاكس. ولقد نجونا، وما كان على أمّي أن تُذعن لما كانت قد أُمرت به.

«لو فعلتُ لما كان الذي سُمع رنيناً وإنما دويٌّ حقيقي لأن أباك كان قد حمّلني مئات الدنانير في عشر بِدَرٍ مكتظّة علّقتها حول ضلوعي لاقتناعي بأنّه ما من رجل كان سيجرؤ على الإيغال في البحث إلى ذلك الحدّ».

وعندما حاذانا المارّة الذين أرسلتهم إلينا العناية الإلٓهية أدركنا أنهم كانوا مفرزة من الجنود. وأسرع محمّد يحكي لهم بالتفصيل العملية التي ذهبنا ضحّيتها. وقد شرح قائدهم والابتسامة لا تفارق شفتيه أنّ مهمّته ومهمّة رجاله هي بالضبط القيام بدورية على هذا الطريق المليء باللصوص مُذْ بدأ الأندلسيون يصلون في مراكب غاصّة إلى «مليلة». وأضاف بكلّ بساطة أنّه جرت العادة بأن يُذبح المسافرون ويعود المُكاري فيستعيد دوابّه وينال النصيب المقرَّر له من الغنيمة. وبحسب الضابط فإن كثيراً من الغرناطيين القادمين إلى فاس أوتلمسان قد لَقُوا مثل هذا المصير المشؤوم. وعلى العكس من ذلك فإن النازحين الذين اختاروا

تونس أو تطوان أو سلا أو متيجة الجزائر لم يكونوا يتعرّضون للإزعاج.

«وكانت نصحيته لنا أنْ عودوا إلى الميناء وانتظروا. وعندما تتألّف قافلة من التّجار سيروا في ركابها لأنّ حرّاساً سوف يرافقونها حتماً وتكونون في أمان».

وإذ سألته أمي عمّا إذا كان من الممكن أن تستعيد صندوقها العزيز فقد أجابها كما يجيب كل إنسان عاقل بالآية القرآنية:

﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

وذلك قبل أن يعلّق بقوله:

«سوف تكون هذه البغلات التي اضطرّ قُطّاع الطريق إلى تركها لكم أنفع بكثير من الحُليّ؛ فسوف تحملكم ومتاعكم ولا تسترعي انتباه اللصوص».

واتّبعنا نصائح هذا الرجل بحذافيرها، وهكذا وصلنا إلى غايتنا بعد عشرة أيام منهوكي القوى ولكنْ سالمين، لندرك أن أقرباءنا رفضوا استضافتنا.

* * *

كان علينا بعد اليوم أن نجد سقفاً يُؤوينا، الأمر الذي لم يكن سهلاً بعد أن امتلك النازحون الأندلسيون الواصلون موجة إثر موجة إلى فاس جميع المنازل التي كانت شاغرة. ويُقال إنه عندما نزل أبو عبدالله قبل ثلاث سنوات كان معه سبعمئة شخص أصبح لهم الآن حيّهم الخاص الذي لم تزل الحياة فيه منظّمة كما كانت في الحمراء باستثناء عزّ الأيام الخوالي. وقد جرت العادة بأن ينزل القادمون الجدد بعض الوقت عند أقرب أقربائهم، الأمر الذي كنّا سنفعله بالتأكيد لولا وردة. ولم يكن وارداً بالطريقة التي تبدّت بها الأمور أن نمضي ليلة واحدة في بيت خالي حيث قدّر أبي بحقّ أنه قد أهين.

بقيت الفنادق، ولم يكن في فاس أقلّ من مئتين منها معظمها فائقة النظافة، وكلّ واحد منها مزوّد ببركة ماء ومراحيض بماء جارٍ بِدَفْقٍ شديد يحمل الأوساخ باستمرار إلى النهر المتفرّع إلى ألف قناةٍ جارية. وكان بعضها يتألّف من أكثر من

مئة وعشرين غرفة فسيحة تفضي كلها إلى دهاليز. وكانت الغرف تؤجّر خالية حتى من الأسِرّة، ولم يكن صاحب الفندق يقدّم للزبائن غير الأغطية والحُصُر للنوم، تاركاً لهم أن يهتمّوا بشراء أطعمتهم بأنفسهم وإعطائها إليه لطبخها. ومع ذلك فإن الأمر كان يروق لكثير من الناس لأنّ الفنادق ليست أماكن يمرّ بها المسافرون مروراً عابراً وحسب، وإنما هي أيضاً أماكن للسكن بالنسبة إلى بعض أهالي فاس ممّن ماتت زوجاتهم وليس لهم أُسَر ولا يملكون من المال ما يكفي لاستئجار منزل وخَدَم، أو ممّن يرتضون بالسكن اثنين في غرفة واحدة ليستأنس كل منهما بالآخر في شدّتهما. وكان علينا أن نقيم بالطريقة نفسها بضعة أيام ريثما نجد مسكناً أكثر احتشاماً.

لم يكن ما يشغل بال أبي على كل حال جوار هؤلاء التعساء، وإنما جوار فئة بغيضة أخرى. فإذ كان قد زار فاس في صباه فإنه لم يزل يذكر أن سمعة بعض الفنادق كانت من السوء بحيث لم يكن أيّ إنسان محترم من أهل البلد يرغب في اجتياز أعتابها أو مخاطبة أحد من أصحابها لأنّ من يسكنونها كانوا معروفين بـ «الهوى». وهم، كما وصفتهم في كتابي «وصف إفريقية» الذي ظلّت مخطوطته في روما، رجال يلبسون على الدوام ملابس النساء ويتبرّجون ويتزيّنون ويحفّون لحاهم ولا يتكلّمون إلا بصوت حادّ، ويقضون أيامهم في غزل الصوف. ولم يكن أهل فاس يرونهم إلا في المآتم لأنه جرت العادة باستئجارهم إلى جانب النوادب لتضخيم الحزن. ولا بدّ من معرفة أنّ لكل من هؤلاء عشيقاً يتصرّف وإيّاه تصرّف المرأة وزوجها. جنّبنا الله سُبُل الضلال!

وأخطر منهم الخارجون على القانون الذين تعجّ بهم هذه الفنادق نفسها. فالقتلة واللصوص والمهرّبون والقوّادون وأهل جميع الرذائل يشعرون فيها بالأمان وكأنّهم في أرض خارج حدود المملكة يمارسون فيها على هواهم الاتّجار بالخمرة وتعاطي حشيشة الكيف والبغاء يغرون الناس بها للإغراق في غيّهم وشرورهم. ولقد تساءلت طويلاً عن السبب الذي يمنع شرطة فاس التي تسارع إلى معاقبة تاجر على جشعه وسارق رغيف يسدّ به جوعه من التدخّل أبداً في هذه الأمكنة لإلقاء القبض على المجرمين ووضع حدٍّ لأعمال تُغضب الله والناس. ولم يطل بي الأمر للعثور على

الجـواب: لقد كـان عـلى هـذه الفنـادق أن تقـدّم إلى السلطان مجّانـاً الأشخـاص اللازمين لتحضير طعام الجنـود في كل مـرّة يذهب فيهـا جيش السلطان في حملة. وكـان السلطان يترك لأصحـاب تلك الفنـادق حـريّـة التصرّف عـلى هـواهم لقـاء مسـاهمتهم هذه في المجهـود الحربي. والحقّ أن النـظام والفوضى يتـواطـآن في كـلّ حرب.

وكـان علينا للتـأكّد من عـدم الوقـوع في أحد تلك الأمكنـة السيئة السمعـة أن نبحث عن فندق بجوار جامع القـرويين. فهنـا كان ينـزل الأثريـاء من المسافـرين التجّار. وعلى الـرغم من ارتفاع أسعـار الغرف فيهـا بالنسبـة إلى الفنادق الأخـرى فإنها لم تكن تخلو قطّ من النزلاء الذين كانوا يَغْشَوْنها بكـامل قـوافلهم. وقد اقتضى أن يحـالفنا حظّ كبـير مساء وصـولنا للعثـور على مـأوى في مؤسسة يـديـرهـا نـازح غرناطي. وقد أرسل أحد عبيده يشتري لنا من سـوق الدخـان سمكاً صغيـراً مقليّاً وفطائر باللحم وزيتوناً وبعض عناقيد العنب. ووضع لنـا كذلـك عند عتبـة الباب إبريق ماء بارد لشرابنا خلال الليل.

وبدلاً من قضاء بضعة أيام لبثنا في ذلك النُزُل حوالي ستـة أسابيـع إلى أن وجد لنا صاحبه بنفسه غير بعيد عن سوق الأزهار في آخر درب مسدود بيتاً ضيّقاً يعـادل نصف الذي كنا نسكنه في غرناطة، وكان باب مدخله واطئاً ومنفّـراً إلى حدّ أنـه لم يكن بالإمكان الوصول إليه إلا بالغوص في مستنقع من الوحل. وقد شرح لنا وهو يعرضه علينا أنه كان يسكنه تاجر أنـدلسي قرّر الـذهاب لـلإقامـة في القسطـنـطينية المعظّمة لتوسيع نشاطه. ولكنّ الحقيقـة كانت تختلف كـلّ الاختلاف كـما سيسارع جيراننا إلى إعلامنا بأن سَلَفَنا الذي كان يلازم سريره على الدوام، وكان عاجزاً عن مواصلة تجارته، ولم يعرف يوماً من أيام الهناء طوال السنوات الثـلاث التي قضاهـا في فاس، كان قد عزم بكل بساطة على العودة إلى غرناطة. وكـان اثنان من ابنـائه قد ماتـا بالـطاعون وأصيب ابنـه البكر عـلى ما يقـال بمرض شـائن، ذاك المعروف بـ «البثور». وكانت فاس بأسرهـا تعيش لدى وصـولنا هـاجس ذيّاك المـرض الذي كان من سرعة الانتشار بحيث بدا أنه ليس في وسع رجل الإفلات منه. وقد عُمد في الأيام الأولى إلى عزل من أصيبوا به في بيوت على حِـدَة كما يُفعـل بالمجـذومين،

ولكنْ سرعان ما تزايد عددهم بحيث توجّب إعادتهم إلى كنف أُسَرهم. وغدت المدينة بأسرها منطقة موبوءة، ولم ينجع أيّ دواء في الشفاء.

وكان ما يُشاع عن المرض يكاد يكون أقلّ فتكاً من المرض نفسه. فقد كان سكّان المدينة يتهامسون بأنه لم يكن قطّ قد ظهر عندهم قبل مجيء الأندلسيين. وكان هؤلاء يدافعون عن أنفسهم بأن «البثور» قد انتشرت بلا أدنى ريب بفعل اليهود ونسائهم، وكان هؤلاء يتّهمون بدورهم القشتاليين والبرتغاليين، وفي بعض الأحيان البحّارة الجَنَوِيين والبنادقة. ولقد سمّي هذا المرض بالذات في إيطاليا بالمرض الفرنسي.

***

في تلك السنة بالذات، وكان الفصل ربيعاً على ما أظنّ، أخذ أبي يحدّثني عن غرناطة. ولسوف يفعل ذلك في المستقبل ويستبقيني ساعات إلى جانبه من غير أن ينظر إليّ قطّ أو يعرف ما إذا كنت أصغي إليه، أو إذا كنت أفهم، أو إذا كنت أعرف الأشخاص والأمكنة. وكان يتربّع في جلسته ويُشرق وجهه ويتموّج صوته ويتلاشى تعبه وغضبه. وما هي إلا دقائق أو ساعات حتى يغدو قصّاصاً. ولم يكن حينئذ في فاس، ولا على الأخصّ داخل هذه الجدران العابقة بالنتن والعفن. فلقد كان يسافر في ذاكرته ولا يعود إلا على مضض.

وكانت سلمى تنظر إليه بحنان وقلق، وبفزع في بعض الأحيان. فلم تكن تلمح في مسلكه الحنين إلى الوطن ولا انعكاس المصاعب الناجمة عن حياة النزوح. ففي نظر أمي أنّ أبي لم يعُد هو إيّاه منذ اليوم الذي رحلت فيه وردة، وأن عودة أم الولد لم تغيّر شيئاً. وكانت تلكما العينان الغائبتان، وذلك الصوت المستعار، وذيّالك الانجذاب إلى بلد «الروم»، وتلك الهواجس التي تجعله يتصرّف خلافاً لكلّ حكمة، تدع المجال للافتراض بأن محمّداً كان تحت سلطان سحرٍ ما. وكانت مصمّمة على تخليصه منه، حتى لو اقتضى الأمر استشارة جميع عرّافي فاس واحداً تلو الآخر.

عام العرافين

٩٠١ هـ (٢١ أيلول «سبتمبر» ١٤٩٥ م- ٨ أيلول «سبتمبر» ١٤٩٦ م)

كانت نساء فاس الفاضلات إذا اقتضى الأمر أن يقطعن سوق الازهار يُسرعن الخطى ويزدن من شدّ خُمُرهنّ ويلقين يمنة ويسرة بنظرات كنظرات حيوان مذعور، لأنّه إن لم يكن للاقتراب من الريحان والنرجس ما يُعاب فإن أحداً لم يكن يجهل العادة الغريبة التي درج عليها الفاسيّون بإحاطة أنفسهم بالأزهار المزروعة أو المقطوفة في كل مرّة ينصرفون فيها إلى ملذّات الخمرة المحرّمة. وكان شراء باقة عطرة يكاد يكون في نظر بعض الأتقياء أقلّ ذنباً من الحصول على قارورة نبيذ، ولم يكن بائعو الزهر عندهم خيراً من أصحاب الحانات ما داموا جميعاً في أكثر الأحيان أندلسيين سوّسعاً عليهم في الرزق وفَجَرَة.

ولم تكن سلمى تغفل عن تغيير مشيتها عندما كانت تمرّ بالساحة المربّعة التي فيها سوق الأزهار، وكانت تفعل ذلك بهاجس مشروع من احترام النفس أكثر مما تفعله بدافع التزمّت. وقد انتهى بي الأمر إلى ملاحظة سلوكها، وإذ راق لي على أنه لعبة جديدة حين كنت أتكردح إلى جانبها فقد كنت أتظاهر بتحدّيها في سباق.

وبينما كنا نجتاز الساحة ذات يوم من ذلك العام حثّت أمي الخطى فأخذت أجري مقهقهاً. ولكنّها بدلاً من أن تمسك بي كما كانت تفعل في العادة أخذت تهرول بدورها أسرع فأسرع. وإذا لم أتمكنّ من اللحاق بها فقد التفتت وراءها لحظة ثم حملتني بين ذراعيها وواصلت جريها زاعقةً حذاء أذني بكلمة لم أفقهها. ولم أفهم سبب عجلتها إلا عندما توقّفت عند الطرف الآخر من الساحة وصاحت باسم «سارة»!

سارة المبرقشة. كنت حتى ذلك الحين كثيراً ما أسمع الحديث عن اليهودية، بيد

أنّ قَسَماتها لم تكن تعني لي شيئاً.

وقالت سلمى لاهثة وقد لحقت بها: «لقد بعثك الله بنفسه إلى هذا البلد».

ومطّت سارة شفتيها متضاحكة وقالت:

«هذا ما يردّده حاخامنا باستمرار. أمّا أنا فلست متأكدّة من ذلك».

كان كل ما فيها يبدو لي غريباً، ثيابها التي بجميع الألوان، وضحكتها المتواصلة، وأسنانها الذهبية، وأقراطها الضخمة، ولا أنسى عطرها الخانق الذي تلقيته ملء منخريّ عندما ضمتني إلى صدرها. وبينما كنت أتفرّس فيها بلا حشمة أخذت تقصّ من خلال ألف حركة وألف صيحة ما جرى لها مُذْ غادرت ضاحية ألبيسان قبلنا بقليل.

«أحمد الله كل يوم على أنْ هداني سبيل المنفى لأن الذين اختاروا المعادة هم الآن ضحايا أسوأ أنواع الأضطهاد. سبعة من أبناء عمومتي وخؤولتي في السجن، وبنت أخ وزوجها أُحرقا حيّين بتهمة البقاء على اليهودية في السرّ».

وأنزلتني إلى الأرض قبل أن تتابع بصوت أكثر خفوتاً:

«جميع الذين غيّروا دينهم متّهمون بالبقاء على يهوديتهم، وليس في وسع إسباني النجاة من محكمة التفتيش ما دام لم يُثْبِتْ أن «دمه نقيّ»، أي أنه ليس في أجداده مهما ابتعدوا في الزمن يهوديّ أو عربي. ومع ذلك فإنّ في ملكهم فرديناند نفسه دماً يهوديّاً، وكذلك المفتّش «توركمادا». لاحقتهم نيران جهنّم إلى أبد الآبدين»!

لم تكن سارة إذن نادمة قطّ على هربها وأهلها إلى البرتغال حتى وإن أدركت سريعاً أن أثرياء اليهود وحدهم في وسعهم الإقامة فيها، بشرط أن يُغرِقوا الملك ومستشاريه فوق ذلك بالذهب. وأما عامّة الناس فسرعان ما كان عليهم أن يختاروا، كما في قشتالة، فإمّا تغيير دينهم وإمّا الرحيل.

«وعليه فقد سارعتُ إلى ركوب البحر إلى تطوان حيث أمضيتُ بضعة شهور، ثم جئتُ إلى فاس مع ابنتي الكبرى وصهري الذي يعوّل على الإقامة هنا بقرب عمّ له صائغ. وأمّا ابنتي الثانية وزوجها فقد ذهبا مثل معظم جماعتنا إلى بلد مولانا

السلطان حامينا مدّ الله في عمره ونصره على أعدائه!

وأمّنت أمي بقولها:

ـ ذاك ما نرجوه جميعاً. وإذا شاء الله أن يُعيد إلينا بلدنا يوماً فسوف يكون السلطان ذراعه.»

لقد كان الانتقام من القشتاليين ولا ريب أمنية غالية جداً على قلب سلمى. بيد أنّ ما كان يشغل بالها في تلك الساعة لم يكن مصير غرناطة بقدر ما كان مصير بيتها وأسْرَتها. وإذا كانت قد أبدت هذا القدر من الفرح بالعثور على سارة فلأنّها تذكّرت نجاحها في مساعدتها على استعادة محمّد حين كاد يُفلت منها قبل مولدي بقليل. ولكنْ لم يكن إكسيرٌ ليكفي هذه المرّة؛ وكانت سلمى مصرّة على استشارة العرّافين، وإذ لم يكن في وسع أمّها التي هدّها المرض مرافقتها فقد كانت تعتمد على حضور المبرقشة المُطَمْئِن.

وقد سألت هذه قائلة: «كيف حال ابن عمّك؟» فأجابت أمي قائلة: «على ما يسمح الله بأن يكون».

لم يَخْفَ إبهام العبارة بالطبع على اليهودية، فوضعت يدها على ذراع أمّي، ونظرت كلّ منهما إليّ من زاوية عينها في وقت معاً وابتعدتا مقدار خطوة وبدأتا بصوت خافت حديثاً لم أفقه منه غير أطراف. وقد تردّد على لسان سلمى بضع مرّات كلمة «رومية» وكلمة «سحر» وربما كلمة «مخدّر» أيضاً؛ وبدت اليهودية متنبهّة ومُطَمْئِنة.

وضربت المرأتان موعداً بعد غدٍ في المكان نفسه للبدء بجولة على العرّافين. وعرفتُ بالأمر في ذلك اليوم لأنّ أمّي كانت قد قرّرت اصطحابي. وربّما لم تكن راغبة في تركي بين يدي وردة. وربما قدّرتْ أنّه من الأوفق في عيني أبي وعيون الجيران أن تتنقل بصحبة طفل هو الضمانة الحيّة لعفّة رَوَحاتها وغَدَواتها. وعلى كل حال فقد كان الأمر بالنسبة إليّ أنا ابن السابعة تجربة رائعة بقدر ما هي غير متوقعّة. ومُكرِبة بين حين وحين، على ما ينبغي أن أقرّ وأعترف.

كانت زيارتنا الأولى لبرّاجة تُدعى أمّ بصّار. ويُقال إنّ سلطان فاس كان

يستشيرها مطلع كل هلال جديد، وأنّها عملت عملاً لأمير كان يهدّده فأُصيب بالعمى وبالرغم من شهرتها كانت تقيم في منزل يعادل في تواضعه منزلنا ويقوم في سوق العطارين عند نهاية رواق مقنطر ضيّق. وقد كفانا إزاحة ستارة لدخوله. وأجلستنا خادم سوداء في حجرة صغيرة قبل أن تقودنا إلى نهاية ممرّ مظلم يُفضي إلى حجرة أكبر قليلاً من تلك. وكانت أمّ بصّار جالسة على وسادة كبيرة خضراء وقد غطّى شعرها خمارٌ من اللون نفسه مُشْرَبٌ بخيوط مذهبّة، وخلف ظهرها قبّة ملصقة إلى الجدار تمثّل أبراج القمر الثمانية والعشرين، وأمامها منضدة واطئة عليها برنيّة لماعة.

جلست أمي قبالة البرّاجة وشرحت لها بصوت خافت داعي زيارتها. وبقينا أنا وسارة واقفين في الخلف. وصبّت أمّ بصّار ماءً في الوعاء وأضافت إليه قطرة نفخت فيها ثلاث مرات. وقرأت بعض العبارات غير المفهومة ثم حدّدت بصرها في البرنيّة قائلة بصوت كأنّه صادر من أعماق كهف:

«ها هم الجنّ قد وصل بعضهم برّاً وبعضهم بحراً.»

ثم التفتت بغتة إليّ وأومأت قائلة: «اقترب!»

ولم أتحرّك إذ راودني الحذر.
«تعالَ، لا تخف!»
وطمأنتني أمّي بنظرة فاقتربت بخطى موجِسة.
«انْحَنِ فوق المنضدة!».

أقول الحقّ إن المشهد كان مدهشاً. كانت انعكاسات قُطيرات الزيت المتراقصة على سطح القارورة الأملس توحي بحركة لا تهدأ. فما إن يثبّت المرء فيها بصره ويرخي العِنان لخياله حتى يكون في مكنته ملاحظة جميع أنواع الكائنات والأشياء.

«أرأيت كل أولئك الجنّ الذين يتحرّكون؟».

وأجبت بالطبع: «أجل».

كنت سأقول «أجل» مهما يكن السؤال، بيد أنّ أمّي كانت اذاناً كلّها. فلم

تكن تريد أن يخيب ظنّها نظراً للغاية التي كانت قد رسمتها والثمن الذي كانت قد دفعته. ورجعتُ بأمر من أمّ بصّار إلى مكاني. وعندئذٍ ظلّت البرّاجة بضع لحظات بلا حراك.

وشرحت بنبرةٍ مُسارّة: «ينبغي انتظار الجنّ حتى يهدأوا، إنهم شديدو الهياج».

ومرّت لحظة صمت طويلة ثم أخذت تتحدّث إلى جنّها. وكانت تهمس إليهم بأسئلة ثم تنحني فوق الوعاء لمراقبة الحركات التي كانوا يبدونها باليد أو بالعَينْ.

«سوف يعود إليك ابن عمّك بعد ثلاث إشارات». أصدرت هذا الحكم من غير أن تحدّد ما إذا كانت المسألة مسألة ثلاثة أيام أو ثلاثة أسابيع أو ثلاثة أشهر أو ثلاثة أعوام.

ودفعت أمي قطعة ذهبية ومضت مرتبكة مفكّرة. وفي طريق العودة طلبت مني ألاّ أقول شيئاً عن هذه الزيارة لأيّ كان، حتى ولا لأبي، وإلاّ تعرّضت لركوب الجنّ عليّ في أثناء النوم.

وبعد أسبوع التقينا المبرقشة من جديد عند الساحة المربّعة القريبة جدّاً من بيتنا. وقادتنا زيارتنا في هذه المرّة إلى مسكن فخم لا يبعد كثيراً عن قصر السلطان. وكانت القاعة التي استقبلونا فيها فسيحة وعالية بسقف مطلي بالأزرق والذهبي. وكان هناك عدّة نساء جميعهن بدنيات وسافرات، ولم يبدُ أنهّن سُرِرْنَ لرؤيتي. وقد تبادلن بعض الكلمات بشأني ثم نهضت إحداهن متثاقلة وأمسكت بيدي واجلستني في زاوية نائية من الغرفة واعدة إيّاي بأن تأتيني بِلُعَب. ولم أرَ منها شيئاً، بيد أني لم يُتَحْ لي الوقت لكي أتضجّر، فما هي إلا دقائق حتى أقبلت سلمى وسارة لأخذي.

ينبغي أن أقول إنه كان عليّ أن أنتظر سنوات طوالاً لأعلم حقيقة ما جرى في ذلك اليوم. بيد أنّي أذكر أنّ أمي والمبرقشة كانتا تتذمّران بلا انقطاع ونحن نبتعد، ولكنّهما كانتا تتبادلان بين صيحتي غضب بعض النكات وتنفجران ضاحكتين. وأذكر كذلك أنّي كنت قد سمعت النساء يتحدثن في غرفة الاستقبال عن «الأميرة».

لقد كانت شخصية فذّة منصرفة بعد موت زوجها، وهو أحد أبناء عمومة

السلطان، إلى علوم التنجيم، وكانت قد أسست أخويّة غريبة مؤلّفة من النساء فقط، وقد اختيرت بعضهن لمواهبهن في كشف الطالع، وأخريات لمجرّد أنهن جميلات. ويسمّي الناس الذين خبروا الحياة طويلاً هؤلاء النسوة «سحاقيات» لأن من عادتهن أن تستعمل إحداهن الأخرى، الأمر الذي لا أستطيع التعبير عنه بعبارة أكثر حشمة. وعندما كانت امرأة تأتي لزيارتهن كنّ يُلقين في روعها أنهنّ على صداقة مع بعض الجنّ فكنّ يقسمنهنّ إلى عدّة أنواع: الجنّ الحمُر، والجنّ البيض، والجنّ السُود. وكنّ هنّ أنفسهنّ يغيّرن أصواتهن للإيهام بأن هؤلاء الجنّ يتكلّمون بألسنتهن كما شرحت ذلك في كتابي «وصف إفريقية». وكثيراً ما يأمر هؤلاء الجنّ الزائرات عندما يكنّ حِسان الهيئة بأن يخلعن جميع ملابسهن ويبادلنَهم، أي في الحقيقة «الأميرة» وتابعاتها، قُبلَ الغرام. وإذا قبلت المرأة، عن غباء أو عن تلذّذ، أن تشارك في هذه اللعبة دُعيت للانضمام إلى الأخويّة وأقيمت على شرفها وليمة فخمة ترقص فيها النسوة معاً على أنغام جوقة من الزنج.

لقد عرفتُ قصة «الأميرة» ذات الجنّ. وعندها فقط قدّرتُ السبب الذي دفع بأمّي وبسارة إلى الهرب بمثل تلك العجلة.

* * *

على الرغم من تلك الحادثة المشؤومة فإن سلمى لم تُرِد قطّ وقف مسعاها. ولكنّها بدت في زيارتها التالية أكثر حذراً في اختيار العرّاف. وهكذا زرنا نحن الثلاثة بعد بضعة أسابيع رجلاً محترماً جدّاً في المدينة، وهو ورّاق منجمّ كان يقوم دكانه بجوار جامع القرويين. واستقبلنا في غرفة لم يكن بها من الأثاث غير الكتب عند الجدران وحصير على الأرض، وحرص على التأكيد لنا منذ وصولنا بأنّه ليس ساحراً ولا متعاطي كيمياء، وإنما هو يسعى وحسب إلى قراءة ما ساقه الله إلى عباده من آيات. وقد أخذ يقرأ لدعم أقواله آيات من القرآن:

﴿وفي الأرضِ آياتٌ للموقِنين ● وفي أنفسكم أفلا تُبصرون ● وفي السماء رزقُكم وما تُوعَدون﴾.

وإذ طمأننا بذلك على إيمانه وكرم محتده فقد طلب منا أن نبتعد إلى أقصى

الحجرة ولفّ الحصير ورسم بطبشورة على الأرض عدة دوائر موحّدة المركز. ورسم في الأولى صليباً سجّل عند أطرافه الجهات الأربع الأصلية وكتب داخله أسماء العناصر الأربعة. وقسم الدائرة الثانية إلى أربعة أقسام متساوية، ثم كل قسم إلى سبعة أجزاء فكان المجموع ثمانية وعشرين جزءاً دوّن فيها حروف الأبجدية العربية الثمانية والعشرين. ووضع في الدوائر الأخرى الأفلاك السبعة وأشهر السنة اللاتينية الأثني عشر وعلامات أخرى متفرّقة. وهذه العملية المعروفة بـ «الزيرجة» طويلة ومعقّدة، وما كنت لأتذكّر تفاصيلها لو لم أشاهدها تتمّ ثلاث مرّات أمام عينيّ. وكل ما آسف عليه هو أنّي لم أتعلّم صنعها بنفسي، لأنها الوحيدة من بين جميع علوم التبصير التي لا مجال للمجادلة في نتائجها، حتى في نظر علماء الدين.

وبعد أن انتهى المنجم من رسمه سأل أمي عمّا تبحث عنه. وتناول حروف سؤالها واحداً واحداً وسجّل قِيَمها العددية، ووجد بحساب معقّد جداً العنصر الطبيعي الذي يتوافق مع كل حرف. وبعد ساعة من الكتابة والتسطير وصل إلينا جوابه شعراً:

سوف ينقضي الموت، ثم أمواج البحر،
وعندئذٍ تعود المرأة وثمرة أحشائها.

واضطربت أمّي إلى حدّ أنها اختنقت بكلامها وأخذ الرجل يهدّئها قائلاً:

«عندما يبحث المرء عن استطلاع المستقبل عليه أن يتوقّع مصادفة الموت في بعض الأحيان. أليس الموت نهاية المصير؟».

ووجدت سلمى القوة على الردّ وهي ترتجف شبه متضرّعة:

«في النهاية، لا ريب في هذا، وأمّا هنا فإنه قد ظهر في بداية التنبؤ».

وكان كلّ ما أجاب به الرجل أن رفع عينيه وراحتيه إلى فوق. ولم ينبس بأيّة كلمة، وعندما أرادت أمّي أن تدفع له رفض ذلك بحركة لا رجعة فيها.

* * *

كانت الزيارة الرابعة هي التي أضاعت سلمى. وكان الأمر في هذه المرّة أمر

أحد أولئك الأشخاص الذين يسمّونهم في فاس «المعزّمين»، وهم مشهورون بطرد الشياطين. وكانت جدّتي رحمها الله قد مدحت ذلك الرجل الذي قالت إنه قد حلّ ألف قضيّة أكثر تعقيداً من قضيتنا. والحقّ أنه كان من الرواج بحيث اضطررنا إلى انتظاره ساعتين في ردهته ريثما ينتهي من ستّ زبونات أخريات.

وما إن شرحت له سلمى أمرها حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة مشرقة وهو يقسم لها أنه ما إن تنقضي سبعة أيام حتى تكون قد نسيت مشكلتها.

«في رأس ابن عمّك عفريت صغير يجب طرده. ولو كان هنا لشفيته في الحال. بيد أنّي سأنقل إليك القدرة على طرده بنفسك. وسأعلّمك عبارة تقرأينها فوق رأسه وهو نائم هذا المساء وغداً وبعد غد؛ وأعطيك كذلك زجاجة العطر هذه تسكبين منها قطرة وأنت تلفظين كل عبارة».

في مساء اليوم الأول كان أبي ينام عند سلمى فلم تجد بأساً في لفظ العبارة وسكب قطرة الإكسير. وما إن أطلّ اليوم الثاني حتى كان ما في وسع أي إنسان عاقل أن يخمنّه، فقد كان محمّد بالقرب من وردة، وقد دلفت أمي وهي ترتجف إلى غرفتها. وكانت تتهيّأ لسكب السائل عندما أطلقت أم الولد صرخة حادّة فاستيقظ أبي وأمسك مهاجمه الهزيل من عرقوبه. وسقطت سلمى أرضاً وهي تنتحب.

وإذ رأى محمّد الزجاجة في يد زوجته فقد نعتها بالساحرة والمجنونة والمسمِّمة وصرخ في وجهها ثلاث مرات من غير أن ينتظر طلوع الفجر: «أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق»، مشيراً بذلك إلى أنها أصبحت بعد الآن حرّة مُطلَّقة.

عام النوادب

٩٠٢ هـ (٩ أيلول «سبتمبر» ١٤٩٦ م - ٢٩ آب «أغسطس» ١٤٩٧ م)

في ذلك العام جاء أبو عبدالله بنفسه إلى بيتنا لتقديم التعازي. أعني إلى بيت خالي لأنّني كنت أقيم عنده مُذْ طرد أبي سلمى. ودخل السلطان المخلوع غرفة الاستقبال يتبعه حاجب وكاتب وستّة حراس في الزيّ الذي كانوا يرتدونه في الحمراء. وتمتم بضع كلمات للمناسبة في أُذن خالي الذي صافح يده طويلاً قبل أن يتنازل له عن أريكته العالية الوحيدة في البيت. وظلّ رجال حاشيته واقفين.

كانت جدّتي قد توفّيت في الليل، وبدأ غرناطيّو فاس يتقاطرون منذ الصباح. وكان أبو عبدالله قد وصل قُبيل صلاة الظهر من غير أن يُخبر عن قدومه. ولم يكن لدى أيّ من الحاضرين فكرة رفيعة بشأنه، بيد أنّ ألقابه، وإن كانت وهمية، لم تلبث أن فُرضت على رعاياه السابقين. ومن ناحية أخرى فإن المناسبة لم تكن سانحة قطّ للأحقاد وتصفية الحسابات. إلاّ بالنسبة إلى «أستغفر الله» الذي دخل بعد السلطان بقليل فلم يوجِّه إليه أدنى نظرة وجلس على أوّل وسادة خالية وشرع يرتّل بصوته الأبح آيات من القرآن تتناسب مع المقام.

كانت بعض الشفاه تتمتم بالدعاء، وبعضها مبرطمة حالمة، تنمّ عن شيء من اللهو أحياناً، وكان بعضها الآخر يثرثر بلا كلل. وفي حجرة الرجال كان خالي وحده دامع العين. وما زلت أراه وكأنّه بلحمه وشحمه أمامي، وأراني كذلك جالساً على أرض الحجرة بلا فرح طبعاً، ولكنْ بغير حزن شديد، وعيناي جافّتان لامباليتان تجولان بجشع على الحضور، من أبي عبدالله الذي أضحى بديناً إلى الشيخ الذي أنحلته السنون والمنفى فنفرت عظامه من أطراف جلده. وكانت عمامته تبدو أكثر إتساعاً وأقلّ هنداماً ممّا كانت في أيّ يوم. وفي كل مرة كان

يصمت فيها عن الترتيل كان يرتفع عويل كريه صادر عن النوادب ذوات الوجوه الملطّخة بالسُخام والشعور المشعّثة والخدود المخموشة النازفة دماً، في حين كان النادبون المتنكّرون في ملابس النساء، وقد حلقوا لتوّهم وتبرّجوا، يهزّون في ركنٍ من أركان الحديقة دفوفهم المربّعة. وكان «أستغفر الله» يعود إلى الترتيل بأعلى ممّا كان وأكثر نشازاً وحميّة ليفرض عليهم الصمت. وكان ينهض بين الفينة والفينة شاعر جوّال فيُنشد بنبرة جعجاعة قصيدة سبق أن رثى بها مئة ميت آخرين. وكان ينبعث من الخارج صوت قدور وأوعية: إنهن الجارات مقبلات بالطعام لأنّه لم يكن يُطبخ قطّ في منزل ميت.

أحتفالٌ هو الموت. مشهد.

ولم يحضر أبي إلا عند الظهر شارحاً بارتباك أنه علم لتوّه بالنبأ الأليم. وكان الجميع يحدجونه بنظرات غريبة، ويظنّون أنّ عليهم أن يحيّوه ببرودة، أو حتى أن يتجاهلوه. ولقد شعرتُ بأنّي محطّم، ووددت لو لم يكن هنا، ووددت لو لم يكنْ أبي. وإذ خجلتُ من أفكاري فقد أقبلتُ عليه وأسندتُ رأسي إلى كتفه وبقيتُ بلا حراك. ولكنْ بينما كان يمرّ بيده متمهّلة على عنقي شرعت أفكرّ، من غير أن أدري لماذا، في الورّاق المنجّم ونبوءته.

لقد مرّ الموت على هذا النحو، وكنتُ، من غير أن أقرّ بالأمر، قد اطمأننت بعض الاطمئنان إلى أن ضحيّته لم تكن أمي ولا كان أبي. وسوف تقول لي سلمى فيما بعد إنها كانت تخشى أن أكون أنا. بيد أنّ ما لم يكن في وسعها قوله، حتى بصوت خافت جدّاً، كان «أستغفر الله» وحده سيتجرّأ على التعبير عنه وإن بصيغةِ عِبرة.

فإذ نهض لتأبين الفقيدة فقد توجّه أوّلاً إلى خالي قائلاً:

«يُروى أنّ أحد خلفاء العصور الخوالي فَقَد أمّه التي كان يحبّها حبّك لأمك، وأنه شرع يبكي بلا هوادة، وتقدّم منه أحد الحكماء وقال له: «يا أمير المؤمنين عليك أن تحمد الله تعالى على أنه شرّف أمّك بجعلك تبكي على جثمانها بدلاً من إهانتها بجعلها تبكي على جثمانك». وينبغي حمد الله عندما يحصل الموت تبعاً

لنظام الأشياء الطبيعي، والتسليم بحكمته عندما يكون المُصاب خلاف ذلك».

واستطرد إلى دعاءٍ أخذ الحضور يتمتمون به في وقت معاً. ثم استأنف عظته من غير انتقال فقال:

«كثيراً ما سمعت في المآتم مؤمنين ومؤمنات يلعنون الموت. مع أنّ الموت هدية من الله عزّ وجلّ، ولا يمكن أن يلعن المرء ما يأتي من عند الله. أتبدو لكم كلمة «هدية» تحدّياً؟ ومع ذلك فإنّها الحقّ الصراح. فلو لم يكن الموت من الأمور التي لا تُدفع لأضاع الإنسان حياته بأسرها لدفعه. وما كان جازف بشيء، ولا حاول شيئاً، ولا شرع في أمر، ولا اخترع شيئاً، ولا بنى شيئاً. أجل يا إخوتي لِنحْمَدِ الله على أنْ أهدى إلينا الموتَ ليكون للحياة معنى؛ والليلَ ليكون للنهار معنى؛ والسكوتَ ليكون للكلام معنى؛ والمرضَ ليكون للصحّة معنى؛ والحربَ ليكون للسِلْم معنى. لِنَحْمَدْه على أنْ أعطانا التعب والأتراح ليكون للراحة والأفراح معنى. لِنَحْمَدْه فإنّ حكمته لا تُحدّ».

وتعالى هتاف الحضور معاً: «الحمد لله، الحمد لله». وقد لاحظت أن رجلاً واحداً ظلّ على الأقلّ صامتاً مشقّق الشفتين متشنّج اليدين. وكان ذلكم خالي.

ولقد شرح لي الأمر فيما بعد قائلاً: «كنت خائفاً. وكنت أقول في سرّي: «أرجو ألا يُجاوز الحدّ!» والمؤسف أني كنت أعرف «أستغفر الله» حقّ المعرفة فلم أطمع بأدنى وَهْم بهذا الصدد».

وبالفعل فقد أخذ مغزى الخطبة بالانزلاق:

«لو أنّ الله أهدى إليّ الموت، لو أنّه دعاني إليه بدلاً ن أن يُعيشني احتضار مدينتي، أفيكون قد ظلمني؟ لو أن الله جنّبني أن أرى بأمّ العين غرناطة تؤسر والمؤمنين يذلّون، أفيكون قد ظلمني؟».

ورفع الشيخ عقيرته بغتة فأجفل جميع الحاضرين، وتابع قائلاً:

«أأكون الوحيد هنا الذي يرى أن الموت خير من العار؟ أأكون الوحيد الذي يصرخ: «إذا كنت يا رب قد قصرّت في رسالتي تجاه المؤمنين فاسحقني بيدك

القديرة وأزلني عن وجه الأرض مثل حشرة ضارّة. يا رب حاسبني اليوم بالذات فوجداني أثقل من أن أحمله. لقد عهدتَ إليّ بأجمل مدنك، ووضعت بين يديّ حياة المسلمين وشرفهم، فِلمَ لا تناديني للحساب؟»

كان خالي سابحاً في عرقه، وكذلك كان الجالسون بجوار أبي عبدالله. وكان وجه هذا الأخير شاحباً مثل عود من القُرْقُم. وكأنما فارقه وجهه الملكي كيلا يشاطره خزيه. وإذ كان قد أتى بناء على نصيحة بعض مستشاريه لتوثيق العُرى مع رعاياه السابقين، وليكون في وسعه عمّا قريب مطالبتهم بالإسهام في نفقات بلاطه، فقد باء مسعاه بالفشل. وانضافت خيبة جديدة. فقد كانت عيناه لا تنفكّان تنظران بهلع إلى باب الخروج، غير أن جسده الوازن كان خائراً.

أكانت الرحمة أم الإعياء أم مجرّد الصدفة هي التي جعلت «أستغفر الله» يقرّر التوقّف بغتة عن متابعة مرافعته واستئناف أدعيته؟ فأمّا خالي فقد رأى في ذلك تدخّلاً من السماء. فما إن قال الشيخ «أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله» حتى انتهز خالي الفرصة ووثب على الفور من مكانه وأشار بالانطلاق إلى الجبّانة. ورافقت النساء النعش حتى عتبة الباب وهنّ يلوّحن بمناديل بيضاء علامة على الأسى والوداع. وتوارى أبو عبدالله من باب خفيّ. لقد أصبح في مُكنة الغرناطيين أن يموتوا بعد اليوم بسلام، فلن يأتي طيفُ السلطانِ المخلوعِ الشائهُ بعد اليوم ليعكّر عليهم رحلتهم الأخيرة.

* * *

استمرّت التعازي ستّة أيام أخرى. فأيّ علاج خير من النَصَبِ في مواجهة الألم الذي يحدثه فَقْدُ عزيز؟ كان أوائل الزائرين يصِلون مع الفجر، ويغادر آخرهم بعد هبوط الليل بزمن. وفي مساء اليوم الثالث جفّت دموع الأقارب، بل كان بعضهم ينسى أحياناً فيبتسم أو يضحك، الأمر الذي ما كان ليُفلت من نقد الحاضرين. النوادب وحدّهن ظللن متماسكات لاعتقادهنّ بارتفاع أجورهنّ بمضاعفة عويلهن. وعادت التعازي تنهال خلال ثلاثة أيام أخرى بالطريقة نفسها بعد انقضاء أربعين يوماً على الوفاة.

وكانت أسابيع الحِداد هذه فرصة يتبادل فيها أبي وخالي بعض الأحاديث المشجّعة على المصالحة. ولم تكن الأمور قد وصلت بعدُ إلى حدّ العودة، إذ اقتضى الأمر وقتاً طويلاً، وكانت أمّي تتحاشى أن تلتقي الذي طردها. لكنّه خطر لي من فوق أعوامي الثمانية أنّي أرى أملاً لائحاً في الأفق.

وكان من بين الأمور التي ناقشها أبي وخالي أمر مستقبلي. وقد اتّفقا على أنّه آن الأوان لكي أبدأ دروسي. وكان بعض الأولاد يتأخّرون إلى ما بعدُ في الذهاب إلى المدرسة، ولكنْ يبدو أنه كانت تلوح عليّ مخايل ذكاء مبكّر، وكان من غير المجدي تركي طوال النهار في البيت بصحبة النساء. فربّما أدى ذلك إلى ترهّلي وزعزعة رجولتي. وجاء أحدهما تلو الآخر يشرح لي الأمر، ثم صحباني كلاهما ذات صباح بأبهّة إلى مسجد الحيّ.

وطلب مني المعلم، وهو شيخ معمّم في مقتبل الشباب ذو لحية شقراء تقريباً، أن أسمِعه الفاتحة. وفعلت بدون خطأ وبلا أدنى تلجلج. فأبدى رضاه قائلاً:

«لفظه حسن وحفظه مضبوط؛ لن يحتاج إلى أكثر من أربع سنوات أو خمس لحفظ القرآن».

لم أكن قليل الزهو بذلك لعلمي أن كثيراً من التلاميذ كانوا يقضون للأمر ستّ سنوات، وسبعاً في بعض الأحيان. وكان في وسعي بعد حفظ كتاب الله عن ظهر قلب أن أنتقل إلى المدرسة العالية حيث تُدرَّس العلوم المختلفة.

وأضاف المعلم قائلاً:

«سوف ألقّنه أيضاً بعض مبادىء الإملاء والنحو والخطّ».

وعندما سألاه عن الأجر الذي يطلبه تراجع خطوة إلى الوراء وقال:

«أجري لا انتظره إلا من الله تعالى».

لكنّه لم ينس مع ذلك أن يضيف أنّ وليّ كلّ تلميذ يعطي المدرسة ما في وسعه إعطاؤه في أوقات الأعياد، بالإضافة إلى هديّة عينيّة عند انتهاء السنة الأخيرة في أثناء الختام الأكبر، ختام استظهار القرآن.

ولما كنت قد عاهدت نفسي على أن أنهي بأسرع ما يمكن حفظ السور المئة والأربع عشرة فقد واظبت على متابعة دروس الشيخ خمسة أيام في الأسبوع. ولم يكن في صفّي أقلّ من أربعة وعشرين صبيّاً تراوح أعمارهم بين سبعة أعوام وأربعة عشر عاماً. وكان كل تلميذ يحضر إلى المدرسة بالثياب التي تروقه، بيد أنّ أحداً ما كان ليخطر في باله أن يلبس ثياباً فخمة من الحرير أو موشّاة إلا في بعض المناسبات. وعلى كل حال فإنّ أبناء الأمراءِ وكبارِ المملكة ما كانوا يذهبون إلى مدارس المساجد، بل كانوا يتلقّون دروس شيخ من المشايخ في منازلهم. وما عدا ذلك تقريباً فقد كان في المدرسة صبيان من مختلف الأوساط، أبناء قضاة وكتّاب بالعدل وضبّاط وموظفين ملكيين أو بلديين وأصحاب حوانيت وحِرَفيين، وحتى بعض أبناء العبيد يرسلهم سادتهم.

كانت الحجرة فسيحة فيها مدرّجات. وكان أطول التلاميذ قامة يجلسون في الخلف وأقصرهم في الأمام، ومع كل واحد منهم لوح يكتب عليه الآيات المطلوب حفظها في ذلك اليوم بإملاء المعلّم. وكان هذا غالباً ما يحمل قصبة لم يكن يتردّد في استعمالها إذا ما أفلتت شتيمة من فم أحدنا أو ارتكب خطأً فادحاً. لكنّ أحداً من التلاميذ لم يكن يستفزّه، ولا هو نفسه كان يضطغن على أحد قطّ إلى اليوم التالي.

وجلست في أول يوم من قدومي إلى المدرسة في الصفّ الثالث من المقاعد على ما أظنّ قريباً بما يكفي لرؤية المعلم وسماعه، وبعيداً بما يكفي للاحتماء من أسئلته وغضباته التي لا يمكن تفاديها. وكان بجانبي أكثر أولاد الحيّ شيطنة، هارون الملقّب بـ «المنقب». وكان في مثل سنّي، شديد السُّمْرة، مرقّع الثياب، وإن نظيفة على الدوام. وما هو إلا أوّل عراك حتى غدونا صديقين متلاحمين في الحياة وفي المهات. ولم يكن أحد يصادفه من غير أن يسأله عن أخباري، ولا أحد يصادفني من غير أن يعجب لأنّه ليس معي. ولسوف أكتشف بصحبته فاسِ وأعوام مراهقتي. وقد كنت أشعر بالغربة، وكان هو يدرك أنّ المدينة ملكه وأنّها خُلقت من أجله، لا لشيء سوى عينيه، ولا لشيء غير ساقيه، ولا لشيء إلا لقلبه. وكان يعرض عليّ أن أشاطره إيّاها.

والحقّ أنه كان ينتمي بحكم ولادته إلى أكرم الجماعات.

عام هارون «المنقِّب»

٩٠٣ هـ (٣٠ آب «أغسطس» ١٤٩٧ م ـ
١٨ آب «أغسطس» ١٤٩٨ م)

في هذا العام سقطت «مليلة» في أيدي القشتاليين. وكان أسطول قد جاء لمهاجمتها فوجدها مقفرة من أهلها الذين كانوا قد هربوا إلى التلال المجاورة حاملين معهم ممتلكاتهم. واستولى المسيحيون على المدينة وبدأوا بتحصينها، والله يعلم إن كانوا سيتخلّون عنها ذات يوم!

وارتاع المهاجرون الغرناطيون في فاس للأمر. فقد تملّكهم شعور بأنّ العدّو كان على أثرهم، وأنّه قد يطاردهم في عقر دار الإسلام، وحتى إلى آخر الدنيا.

وارتفعت حدّة القلق في قلوب ذويّ، ولكنّي كنت لا أزال قليل التأثر، منصرفاً بكلّيتي إلى دروسي وصداقاتي الوليدة.

* * *

عندما زارني هارون لأوّل مرة، وكان لا يزال خجولاً، وقدّمته إلى خالي وأخبرته عن الجماعة التي تنتمي إليها أسرته، أمسك خالي بيديه يديْ صديقي اللتين كانتا أصغر حجماً، ولكنْ سبق لهما أن بدأتا تغلظان، وفاه بهذه الكلمات التي أثارت ضحكي في ذلك الوقت:

«لو أنّ شهرزاد الجميلة عرفتهم لكانت خصّصت ليلة وادعة لقصّ حكايتهم، ولكانت أدخلت فيها الجنّ وبُسُط الريح والفوانيس السحرية، ولكانت حوّلت قبل طلوع الفجر رئيسهم بمعجزة إلى خليفة وأكواخهم إلى قصور وخُلْقانَهم إلى طيالس».

وأمّا هم فكانوا حمّالي فاس. ثلاثمئة رجل جميعهم بسطاء فقراء أُميّون تقريباً،

بيد أنّهم عرفوا مع ذلك كيف يغدون أكثر جماعات المدينة أهلاً للاحترام وأشدّها تضامناً وأحسنها تنظيماً.

وهم ينتخبون في كلّ عام، حتى هذه الأيام، رئيساً، نقيباً ينظّم نشاطهم بعناية فائقة. فهو الذي يُعينّ في بداية الأسبوع مَنِ الذين ينبغي عليهم أن يعملوا، ومَنِ الذين سيستريحون تبعاً لمواعيد وصول القوافل وحالة الأسواق واستعداد الرفاق. ولا يحمل الواحد منهم ما يكسبه في يومه إلى بيته بل يُودِعه بتمامه في صندوق مشترك. وفي نهاية الأسبوع يُقْسَم المال بالتساوي بين الذين عملوا، باستثناء جزء يُحفظ لأعمال الجماعة، وهي كثيرة وسخيّة: إذا مات أحدهم تكفّلوا بنفقات أسرته وساعدوا أرملته على اتخاذ زوج جديد واعتنوا بالأطفال الصغار حتى يصبح لهم حِرفة. وابن أحدهم هو ابنهم جميعاً. ويعود مال الصندوق بالفائدة كذلك على من يتزوّجون: يكتتبون كلّهم ليؤمّنوا لهم ما يساعدهم على السكن.

ويفاوض نقيبُ الحمالين باسمهم السلطانَ ومساعديه. وعلى هذا فقد نال حقّ إعفائهم من الضرائب والمكوس، وخَبْزِ عجينهم مجّاناً في مخابز المدينة. وعلاوة على هذا فإنه إن ارتكب أحدهم لسوء الحظ جريمة قتل يُعاقَب عليها بالموت فإنّ إعدامه لا يتمّ في العلن كما هي الحال مع المجرمين الآخرين لكيلا يصيب الخزي سائر الجماعة. وفي المقابل فإنّ على النقيب أن يتحرّى بلا تسامح عن أخلاق كلّ مرشح جديد لاستبعاد أيّ فرد قد يكون موضع شُبهة. وعلى هذا غدا صيت الجماعة من الحُسْن بحيث وجد التجّار أنفسهم مضطرين إلى استدعائهم لتفريغ بضائعهم. وهكذا يستعين تجّار الزيت القادمون من الريف إلى الأسواق بأجرار من مختلف الأحجام بحمّالين مختصّين يتحقّقون بأنفسهم من مكاييلها وجودة النتاج ويقدّمون بذلك الضمان للمشترين. كذلك فإنّه عندما يستقدم أحد التجّار نوعاً جديداً من القماش تراه يستدعي حمّالين منادين يزينّون للناس منافع بضاعته. ويتقاضى الحمّال أجراً محدّداً عن كل نشاط يقوم به وفقاً لتعرفة يعيّنها النقيب.

ولا يجرؤ أيّ كان، حتى ولو أميراً، أن يعتدي على أحد منهم لأنّه يعرف أنّ عليه أن يقاتل عندئذٍ الجماعة بأسرها. وشعارهم قولة عن النبي: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، ولكنّهم يفسّرون هذه الكلمات كما فسّرها الرسول نفسه عندما

قيل له: «المظلوم ننصره وهذا لا مراء فيه. وأما الظالم فكيف ننصره؟» وقد أجاب: «تنصرونه بالتغلّب عليه ومنعه من الضرر». وهكذا فإنّه نادراً ما كان يفتعل حمّال شجاراً في أسواق فاس، فقد كان بين إخوته على الدوام حكيم كفيل بردّه إلى رشده.

على هذا النحو كان أولئك الرجال، كانوا متواضعين كثيراً، ولكنْ أصحاب عزّة وأنفة. كانوا محرومين جدّاً، وكانوا مع ذلك أسخياء جدّاً. كانوا بعيدين كثيراً عن القصور والحصون، ولكنّهم كانوا مع ذلك ماهرين جدّاً في حكم أنفسهم بأنفسهم. أجل، أولئك كانوا القوم الذين ينتمي إليهم خير أصدقائي.

كان هارون «المنقّب» يمرّ كل يومٍ عند بزوغ الفجر فيصطحبني لنقطع جنباً إلى جنب بضع مئات الخطى التي تفصل بين بيت خالي والمدرسة. وكنّا نتبادل أحياناً بعض الحكايات، ونردّد أحياناً أخرى الآيات التي كنّا قد تعلّمناها في اليوم السابق. وكثيراً ما كنّا نصمت، فقد كنا صديقين في صمت.

وفتحت عيني ذات صباح فرأيته في غرفتي عند أسفل الخزانة التي كنت أفترش سقفها سريراً. وأجفلت خشية أن أكون قد تأخّرت عن موعد المدرسة، وأخذت أتخيّل قصبة المعلّم وصفيرها وهي تهوي على رَبْلَتَيْ ساقيّ. وطمأنني هارون بابتسامة.

«اليوم هو الجمعة والمدرسة مغلقة، وأما الشوارع فمفتوحة، وكذلك هي الحدائق. خذ كِسرة خبز وموزة والحق بي إلى ناصية الدرب».

الله وحده يعلم عدد نزهاتنا وجولاتنا منذ ذلك اليوم. وغالباً ما كنّا نبدأ النزهة من ساحة «الأعاجيب». ولست أدري إذا كان هذا اسمها الحقيقي، بيد أنّ هارون كان يسمّيها هكذا. ولم يكن أمامنا ما نشتريه ولا ما نقطفه ولا ما نأكله. كان هناك فقط ما يمكن أن ننظر إليه وأن نشمّه وأن نسمعه.

قبل كل شيء المرضى المزيّفون. كان بعضهم يزعمون أنهم مصابون بالصَرَع فيمسكون رؤوسهم بين أيديهم ويهزّونها بقوة فتتدلّى الشفاهُ والفكوك، ثم يتدحرجون على الأرض بطريقة تنمّ عن خبرة ومهارة بحيث لم يكونوا ينخدشون

قطّ، ولا كانوا يقلبون قطّ الطاسة الموضوعة بقربهم لجمع الصدقة. وكان آخرون يدّعون الإصابة بداء الحصى في الكلى وينتحبون بلا انقطاع متظاهرين بآلام فظيعة إلّا إذا كنت وهارون المتفرّجيْن الوحيديْن. وآخرون كانوا يعرضون أيضاً الجروح والدمامل. وكنت سرعان ما أدير بصري لأنه كان قد قيل لي إنه يكفي التحديق فيها للإصابة بمثلها.

وكان في الساحة عدد كبير من المشعوذين يغنّون قصائد حبّ سخيفة ويبيعون لمن يصدّقونهم أوراقاً صغيرة تحتوي كما يقولون على عبارات سحرية تشفي من كل الأمراض. وكان هناك أيضاً متطبّبون دجّالون يعرضون منافع أدويتهم العجيبة ويتحرّزون جيداً من المرور بالمدينة نفسها مرّتين. كما كان هناك قرّادون يتسلّون بإخافة النساء الحوامل، وحُواة يلفّون حيّاتهم على رقابهم. ولم يكن هارون يخاف الاقتراب. وأمّا أنا فكنت أفزع بقدر ما كنت أتقزّز.

وفي أيام الأعياد كان هناك قصّاصون. وأذكر منهم على الأخصّ ضريراً كانت عصاه تتراقص على وقع مغامرات «هلول»، بطل حروب الأندلس، أو عنترة بن شدّاد أشجع العرب. وبينما كان يعرض ذات يوم غراميّات عنترة الأسود مع عبلة الجميلة توقّف ليسأل عمّا إذا كان في الحضور أولاد أو نساء. وابتعد هؤلاء وأولئك جميعاً خافضين أبصارهم. وانتظرت أنا بضع لحظات، أي القدر الكافي لتسوية أمري مع عزة نفسي. والتفتت صوبي مئة نظرة معارضة. وإذ لم أستطع تحمّلها وتهيّأت للانصراف فقد غمزني هارون غمزة ليُفهمني أن القضية ليست واردة على الإطلاق. وقد وضع إحدى يديه على كتفي والأخرى على ردفه ولم يتحرّك قيد خطوة. وتابع القصّاص حكايته واستمعنا إليه حتى آخر قُبلة، ولم نستأنف تجوالنا إلا بعد أن تشتّت الحشد بأسره.

كانت ساحة الأعاجيب تشغل تقاطع عدّة شوارع حافلة بالعابرين. وكان أحدها مزدحماً بالورّاقين وكتّاب العرائض والالتماسات، وكان يفضي إلى صحن المسجد الجامع؛ وثانٍ كان يؤوي باعة الأخفاف والنعال؛ وثالث تجّار اللجامات والسروج والركائب؛ ورابع كان لنا مَعْبَراً على الرغم منّا. وهنا كان اللبّانون المزينة حوانيتهم بآنية من الخزف الإيطالي أنفس من السلعة التي تباع فيها. وما كنّا

لنذهب إليهم وإنّما إلى الذين كانوا على أبوابهم يشترون بثمن بخس كل مساء ما كسد من لبن ويأخذونه إلى بيوتهم فيروّبونه أثناء الليل ويبيعونه في اليوم التالي ممزوجاً بالماء. وإنّه لشراب هنيء مريء لا يثقل على الجيب ولا على وجدان المؤمن.

* * *

لم يكن اكتشاف فاس بالنسبة إليّ وإلى هارون إلاّ في بدايته. وكنّا سنعرّيها ثوباً بعد ثوب وكأنّها عروس في غرفة عرسها. وإني لأحتفظ من ذلك العام بألف ذكرى تعيدني كلّما استذكرتها إلى سذاجة أعوامي التسعة اللامبالية. ومع ذلك فإنّ ما أشعر بأنّي مُجْبَر على روايته هنا آلمها جميعاً، ولو أنيّ تكتّمت عليه لَخُنْتُ مهمّتي كشاهد أمين.

بدأت النزهة في ذلك اليوم كما كانت تبدأ النزهات الأخرى. وكان هارون راغباً في التنقير والتنقيب، ولم أكن أنا أقلّ منه فضولاً. وكنّا نعلم أنّ في غربي المدينة ضاحية اسمها «المرسى» لم يكن معلم مدرستنا يتحدّث عنها إلا بنوع من البرطمة الزاخرة بالأسى. فهل كانت بعيدة؟ وهل كانت خطرة؟ لو كان غيرنا لتوقّف عند هذين التفصيلين؛ وأمّا نحن فاكتفينا بالمسير.

وإذ وصلنا إلى تلك الضاحية قرابة الظهر فهمنا بلا عناء ما كانت تنطوي عليه. كانت هناك نسوة في الشوارع مستندات إلى واجهات المباني أو عند أبواب مفتوحة ما كان يمكن أن تكون غير أبواب حانات. وأخذ هارون يحاكي طريقة إحدى الغواني في مشيتها الحافلة بالإغراء.

وماذا لو ذهبنا ننظر ما يجري في الحانات؟ وكنّا نعلم أنه ليس في وسعنا دخولها، ولكن كان في مقدورنا على أيّ حال أن نلقي نظرة عابرة ونلوذ بالفرار.

وعليه فقد اقتربنا من أوّل حانة. وكان الباب موارباً ومددنا رأسينا الصغيرين إلى الداخل. المكان معتم، ولم نرَ سوى زمرة من الزبائن. وفي الوسط شعر غزير أشقر. لم نرَ غير ذلك لأن الجماعة كانوا قد لمحونا فأسرعنا بالهرب نحو حانة الشارع المحاذي. ولم يكن المكان أكثر نوراً، ولكنّ عيوننا كانت تسرح هنا بأسرع

ممّا فعلت هناك. وعددنا أربع رمّات وخمسة عشر زبوناً. واتسع وقتنا في الثالثة لرؤية بعض الوجوه وبعض الأقداح المتلألئة وبعض القوارير. واستمرّت اللعبة، وتوغّل رأسانا الطائشان في الرابعة. وبدا لنا أنها أنْوَر من الأخريات. وميّزنا قريباً من الباب وجهاً. هذه اللحية، وهذا المنظر الجانبي للوجه، وهذه الهيئة؟. وسحبت رأسي وأخذت أجري في الشارع. لم أكن أهرب من أصحاب الحانة ولا من المكلّفين بطرد غير المرغوب فيهم منها. كانت الصورة التي أردت تركها ورائي بعيداً صورة أبي جالساً إلى مائدة في الحانة وبجانبه رمّة مسرّحة. فأمّا أنا فإنّي رأيته، وأمّا هارون فقد عرفه بالتأكيد. وأما هو فهل رآنا يا تُرى؟ لا أظنّ ذلك.

لقد حدث لي غير مرة بعدها أن غشيت حانات وأحياء أقذر من «المرسى». وأمّا في ذلك اليوم فقد مادت الأرض بي. فلكأنّه يوم الحشر. لقد شعرت بالهوان وتألّمت. ولم أتوقّف عن الجري ودموعي جارية على خدّيّ، وعيناي شبه مغمضتين، وحلقي مهصور، ونفسي مختنق.

وكان هارون يتبعني من غير أن يكلمني أو يلمسني أو حتى يقترب كثيراً مني. وانتظر حتى خارت قواي فجلستُ على عتبة دكان مقفل. وجلس هو إلى جانبي من غير أن يوجّه إليّ كلمة. وبعد أن مضت ساعة طويلة ونهضت وقد هدأ مع روعي بعض الشيء انتصب واقفاً وقادني خلسة نحو طريق العودة. وعندما بلغنا مع الغسق الجانب المواجه لبيت خالي تكلّم هارون للمرّة الأولى فقال:

«إنه طالما ذهب جميع الرجال إلى الحانات؛ وطالما أحبّ جميع الرجال الخمرة؛ وإلا فلماذا حرّمها الله؟».

وفي اليوم التالي رأيت هارون «المنقّب» من غير أن أستاء. فالذي كنت أخشاه هو مقابلتي لأبي. ولحسن الحظ أنه كان عليه أن يذهب إلى الريف حيث كان يبحث عن أرض يستأجرها. وعاد بعد بضعة أسابيع، ولكنّ القدر كان قد أغرق عندئذٍ آلامي وآلامه في مصائب أدهى وأمرّ.

عام المفتّشين

٩٠٤ هـ (١٩ آب «أغسطس» ١٤٩٨ م - ٧ آب «أغسطس» ١٤٩٩ م)

في ذلك العام مات حامد الفكّاك بفعل التعذيب في إحدى زنزانات الحمراء؛ ولم يكن عمره ليقلّ عن تسعين سنة. ولم يكن أمهر منه في الحصول على تحرير أسير، ولكنْ عندما اقتضى الأمر أن يحرّر نفسه كانت كلماته قد فقدت من قوّتها. وقد كان رجلًا تقيّاً ورعاً، وإذا حدث له أن أخطأ في حكمه فقد كانت نيّاته حتى آخر يوم من حياته تماثل في صفائها نيات طفل. ولقد مات فقيراً، فتح الله له كنوز جنّات عدن!

وقد عُذّب ألوف آخرين في الوقت الذي عُذّب هو فيه. وكانت تردنا منذ بضعة أشهر أنباء التحذير من وطننا القديم، بيد أن قلّة من الناس كانت تتوقّع النكبة التي ستحلّ بآخر مسلمي الأندلس.

لقد بدأ كل شيء بوصول فريق من المفتّشين إلى غرناطة، وهم رجال دين متزمّتون أعلنوا على الفور أنه ينبغي أن يعود جميع المسيحيين الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام إلى دينهم الأوّل. وأذعن بعض الأشخاص للأمر، ولكنّ الأكثرية عارضته مذكرة بالاتّفاق المعقود قبل سقوط المدينة، وهو يكفل بالحرف لمعتنقي الإسلام البقاء مسلمين. ولكنْ بلا نتيجة، فلم يكن لهذا البند من وجود في نظر المفتّشين. وكلّ إنسان كان قد عُمِّد ويرفض أن يرجع مسيحياً يُعتبر مارقاً، وبهذه الصفّة يحقّ عليه الموت. وقد أقيمت بعض المحارق، كما فُعل باليهود، لإلقاء الرعب في قلوب المعاندين. وتخلّى بعض الأهالي عن معتقدهم. وقال آخرون، وهم قلّة قليلة، لأنفسهم إنه من الخير لهم أن يفرّوا، حتى لو جاء فِرارهم متأخراً، قبل أن يُطْبِق عليهم الفخّ. ولم يتمكّنوا من أن يحملوا معهم غير الملابس التي تستر أجسادهم.

ثم إن المفتّشين رسموا أنّ كلّ من كان أحد أجداده مسيحياً ينبغي حتماً أن يُعمّد. وقد كان حامد أوّل الذين انزعجوا للأمر. فجدّه كان أسيراً مسيحياً اختار التلفّظ بالشهادتين. وعليه فقد حضر إلى منزله في ضاحيتنا ألبيسان ذات مساء بعض الجنود القشتاليين برفقة مفتّش. وإذ هال الأمر جيران العجوز فقد نزلوا إلى الشارع في محاولة لمنع التوقيف. ولكنْ بلا جدوى. وفي اليوم التالي اعتُقل أشخاص آخرون بينهم امرأتان في أحياء من المدينة. وكانت تُشكّل في كل مرّة مفارز من الجنود، وكان على هؤلاء أن يشهروا سيوفهم ليشقوا لأنفسهم طريقاً. ولكنّ تفاقم الأحداث المثيرة كان يتمّ بشكل خاصّ في ألبيسان. فقد أُحرقت غير بعيد من منزلنا القديم كنيسة كانت قد بُنيت حديثاً. واقتصاصاً لحرقها عيث فساداً في مسجدين. لقد كان كلّ شخص سطحيّ الإيمان.

وعُلم ذات يوم أن حامداً قضى في زنزانته على أثر ما كان يلقاه من سوء المعاملة التي فرضها عليه المفتّشون. وقد ظلّ يرفض الارتداد عن دينه حتى النهاية مكتفياً بالتذكير بالعهد الذي وقّع عليه الملك والملكة المسيحيان.

وعندما ذاع نبأ موته دوّت في الشوارع نداءات للقتال. فقد كان حامد الوحيد من وجهاء ضاحية ألبيسان الذي ظلّ مكانه، لا للتقرّب من العدوّ، وإنما لإكمال الرسالة التي وقف عليها حياته: فكّ أسر الأسرى المسلمين. وجاء ردّ فعل المسلمين على الأثر نظراً لنشاطه الشريف وسنّه، وبفعل كل البغضاء المكبوتة في صدورهم لمن حولهم. ورُفعت الحواجز، وذُبح جنود وموظّفون ورجال دين. وكان التمرّد والثورة.

لم يكن أهالي المدينة قادرين بالطبع على الوقوف في وجه جيش الاحتلال. بيد أنّهم استطاعوا منع جيوش القشتاليين من الوصول إلى ألبيسان ببعض الأقواس والسيوف والرماح والهراوات، وسعوا إلى تنظيم أنفسهم في جيش صغير منذور للجهاد. غير أنّهم ما لبثوا أن سُحقوا بعد يومين من القتال. وبدأت المذبحة. فقد أعلنت السلطات أن حكم الإعدام سينفّذ في جميع المسلمين بسبب التمرّد على الملك والملكة، وأضافت بشكل مخاتل أنّ القادرين الوحيدين على الإفلات منه هم الذين سيعتنقون الدين المسيحي. وعندها أفاء سكان غرناطة إلى العبادة شارعاً

بـرمّته تلو شـارع. وأمّا في بعض قـرى جبال ألبيجـارس فقـد قـاوم الفـلاحـون؛ واستطاعوا الصمود بضعة أسابيع؛ حتى قيل إنّهم أفلحوا في قتل أمير قـرطبة الـذي كان يقود الحملة عليهم. ولكنْ هناك أيضاً لم يكن في الإمكان أن تستمرّ المقـاومة وكان على القرويين أن يفاوضوا: لقد أُذن لبضع مئات من الأسر بالرحيل فجـاءت تقيم في فاس؛ واحتمى بعض الأشخاص بـالجبال مُقسمـين على أن لا يَدّعوا أحداً قطّ يعـثر عليهم، وتلقّى العمادة جميـع مَنْ بقي. ولم يَعُدْ في وسـع أحد قـول «الله أكبر» على أرض الأندلس حيث ظل صوت المؤذّن يدعـو المؤمنين إلى الصـلاة طوال ثمانية قرون. ولم يعُد في مقدور أحد قراءة الفاتحـة على جثـمان أبيه. في العلن عـلى الأقلّ، لأنّ هؤلاء المسلمين المرتدّين تحت وطأة القوّة كانوا يرفضون جحد دينهم.

وأخذوا يرسلون إلى فاس رسائل تقطّع نياط القلب. وكانت إحداها تقول: أيّها الإخوة، إذا كنّا قد أهملنا واجبنا في الهجرة لدى سقوط غرناطـة فذاك فقط لأنّنـا لم نكن نملك الوسيلة لذلك، ولأنّا أشدّ الأندلسيين فقراً واستضعافاً. ولقد قبلنا اليوم أن نُعمَّد حفاظاً على حيـاة نسائنـا وأولادنا، ولكنّنـا نخشى غضب الله تعالى علينـا يـوم الدين وإذاقتـه إيّانـا عذاب الجحيم. وعليـه فإننـا نضرع إليكم انتم إخـوتنـا المهاجرون أن تعينونا بنصائحكم. استفتوا لنا الفقهاء في ما علينا عمله، فكَـرْبُنا لا حدّ له.

وعقد المهاجرون الغرناطيون الذين رقّت قلوبهم لإخوانهم عدّة اجتماعات في ذلك العـام، وكان بعضهـا يتمّ في بيت خالي. وقـد حضرها وجهـاء وناس من العـامّة، ولكنْ كان فيها على الأخصّ فقهاء منكبّون على الشريعة. وكان بعضهم يـأتون من أمكنة بعيدة ليقدّموا ثمرة أبحاثهم وعصارة أفكارهم.

وأذكر على هـذا أني شاهـدت حضور مفتي وهـران، وهو رجـل في الأربعين ذو عمامة تكاد تكون أقلّ فخامـة من عمامـة «أستغفر الله»، وإنْ كـان يلوثها بشيء من البساطة. وبدا خالي أشدّ احتفاءً عمّا هو في العـادة فاستقبله عنـد ناصيـة الشارع، واكتفى جميع الحاضرين طوال الاجتماع بطرح الأسئلة عليه من غير أن يتجرّأوا قطّ على محاجّته أو الارتياب في إجاباته. والحقّ أنّ المسألة كما هي مطروحة كانت تحتاج إلى تفقّـه كبير في الشريعـة والسُنّة، وإلى جـرأة كبـيرة في الاجتهـاد: لم يكن يُعقـل

القبول بأن يجحد مئات الألوف من المسلمين دين الرسول؛ وكان الطلب إلى شعب كامل بأن يموت فوق المحارق أمراً فظيعاً.

ما زلت أذكر أقوال الوهراني الأولى وقد لفظها بصوت دافىء هادىء فقال:

«أيها الأخوة، إننا هنا بحمدالله في دار الإسلام، ونحن نحمل بفخر ديننا وكأنّه تاج على رؤوسنا. فلنحذرْ إرهاق أولئك الذين يحملون دينهم كما تُحمل الجمرة باليد».

وتابع:

«لتكن أقوالكم عندما ترسلون إليهم الرسائل حذرة وموزونة. فكّروا في أنه بالإمكان إشعال محرقة بالرسالة التي ترسلون. لاتلوموهم على عمادتهم بل ادعوهم فقط إلى أن يظلّوا على الرغم من كل شيء مخلصين للإسلام، وأن يعلّموه لأبنائهم. ولكنْ لا يعلّموهم إيّاه قبل البلوغ، قبل السنّ التي بالإمكان معها الاحتفاظ بسرّ، ففي وسع الطفل أن يكشف بكلمة طائشة دين أبويه الحقيقي ويتسبّب في هلاكهما».

وإذا أُكره هؤلاء المساكين على شرب الخمر؟ وإذا دُعوا إلى أكل لحم الخنزير للتأكّد من أنهم ليسوا مسلمين؟

قال المفتي:

«فليفعلوا إذا أُكرهوا، ولكنْ ليحتجّوا في قلوبهم».

وإذا عُرض عليهم أن يشتموا النبي صلى الله عليه وسلم؟

وكرّر قائلاً:

«فليفعلوا إذا أُكرهوا، ولكنْ ليقولوا العكس في قلوبهم».

وقد أطلق المفتي على أولئك الناس الذي كانوا يُسامون أشدّ العذاب لأنهم لم يهاجروا اسم «الغرباء» مستشهداً بقول رسول الله: «لقد ابتدأ الإسلام غريباً وسينتهي غريباً؛ والجنّة للأغراب».

* * *

قرّرت الجماعة الغرناطية في فاس إرسال مبعوثين إلى الحكّام المسلمين الأساسيين، مولانا السلطان في القسطنطينية، وسلطان فارس الجديد، وسلطان مصر، وعدد آخر أقلّ شأناً منهم، لدعوة المسلمين في جميع الأمصار لإنقاذ أولئك المنكودين في غرناطة. وعُيّن خالي نظراً للأعمال التي كان يقوم بها في الحمراء لتحرير رسائل رسميّة بالصيغ المعمول بها؛ كما كُلّف أن يواكب أهمّ هذه الرسائل، أي الرسالة الموجّهة إلى صاحب القسطنطينية المعظّمة. وما إن تمّ تكليف خالي حتى زار سلطان فاس وأبا عبدالله وحصل منهما على رسالتي توصية واعتماد.

وفي كلّ مرّة أستذكر فيها تلك الرحلة ينقبض قلبي، وحتى اليوم، على الرغم من أني عرفت مذّاك أغرب البلاد وأشدّ الأمكنة صعوبة منال. فطالما كنت أحلم بالتعرف على القسطنطينية، وما إنْ عرفت بأنّ خالي سوف يزورها حتى لم يعُد يقرّ لي قرار. وأخذت ألوك الأمر في ذهني متسائلاً عمّا إذا كان لي أن أرجو وأنا في العاشرة من العمر أن أشارك في مثل هذه الرحلة. وفاتحت خالي بالأمر من غير أن أتعلّق بحبال الأوهام. ولكنْ ما أشدّ ما كانت دهشتي عندما هتف بي قائلاً وهو يفتح ذراعيه أمارة على الترحيب:

«من أين لي أن أجد رفيقاً خيراً منك؟».

وعلى الرغم من نبرته المتهكّمة فقد كان واضحاً أنه مسرور للفكرة. وبقي إقناع أبي بذلك.

في تلك السنة أيضاً كان محمّد في أكثر الأحيان خارج المدينة بحثاً عن أرض يستأجرها لقضاء حياة وادعة بعيداً عن الضجّة، بعيداً عن القيل والقال، بعيداً عن عيون اللائمين. وهكذا ظللت انتظره يوماً بيوم أسبوعين طويلين سائلاً عن أخباره وردة ومريم بلا كلل. ولم تكونا تعرفان عنه شيئاً، وكانتا مثلي تنتظران.

وإذ عاد أخيراً فقد أسرعت إليه وشرعت أتكلم بسرعة اضطرّ معها إلى جعلي أعيد ما قلت عدّة مرات. وكان، ويا للأسى! رَفْضٌ لا رجعة عنه. ولعلّه كان عليّ أن أنتظر أن يعرض عليه خالي أمر السفر بطريقته الخاصّة. فلربّما عرف كيف

يُطري ببلاغةٍ حسناتِ مثلِ تلك الرحلة. ولربّما كان محمّد يقبل عندها كيلا يُعارض رأي خالي الذي لم يمضِ على تصالحه معه كبير وقت؟ فقد كان في مقدوره أن يقول لي أنا «لا» بلا مواربة. وتذرّع بمخاطر السفر، وذكر لي أشخاصاً لم يرجعوا قطّ، وحدّثني عن دروسي التي كان عليّ أن أقطعها بداعي الرحيل. ومع ذلك فإنّي أعتقد أنّ السبب الحقيقيّ كان شعوره بأنّي كنت قريباً جداً من خالي ومن عائلة أمي بعامّة، وأنّه كان يخشى أن أُفلت منه بالكلّية. وإذ كنت عاجزاً عن الحِجاج فقد توسّلت إليه أن يكلّم خالي في الأمر، بيد أنّه رفض حتى أن يقابله.

وظللت طوال أسبوع استيقظ كلّ صباح وعيناي بلون الدم ووسادتي مبلّلة. وقد أقسم لي خالي لمواساتي أن يصطحبني معه في الرحلة القادمة؛ ولقد برّ بقسمه.

وجاء يوم الرحيل. وكان على خالي أن ينضمّ إلى قافلة تجّار في طريقها إلى وهران قبل أن يستقلّ السفينة. ومع مطلع الفجر توافد الغرناطيون على منزله يتمنّون له التوفيق في مهمّته ويسهمون ببعض القطع الذهبية في نفقاته. وأمّا أنا فقد كنت أتململ في زاويتي عندما جاء عجوز تنمّ عيناه عن الخبث فجلس بجانبي - ولم يكن ذاك الرجل غير حمزة الحلّاق الذي كان قد ختنني - وسألني عن أخبار أبي، وانتحب على موت الفكّاك الذي كان قد التقاه آخر مرّة عندنا في ألبيسان. ثم استفسر عن دروسي وعن السورة التي كنت أدرسها في ذلك الوقت، بل لقد شرع في ترتيلها. وكانت رفقته محبّبة، وقد ثرثرت معه ساعة من الزمن فقصّ عليّ أنه فقد في الهجرة القسم الأكبر من مدّخراته، غير أنه ما زال قادراً بحمد الله على القيام بنفقات نسائه. وكان قد عاد إلى العمل حلّاقاً وحسب لأن ضربة موساه لم تعُد صالحة جدّاً للختان. ولقد استأجر حيّزاً من حمّام الحيّ لممارسة مهنته فيه.

وفجأة التمعت في ذهنه فكرة برقت لها عيناه.

«ألا ترغب في مساعدتي عندما لا تكون في المدرسة؟»

ووافقت بلا تردّد.

«سأدفع لك كلّ أسبوع درهماً».

واندفعت أقول إنّ لي صديقاً أودّ جيداً لو يكون في وسعه المجيء معي. ولم يرَ

حمزة في ذلك ضيراً. وسوف يكون له مثل نصيبي فهناك أمور كثيرة يمكن القيام بها في الحمّام.

وعندما حضر خالي بعد دقائق لتقبيلي قبلة المودّع دهش لرؤية عينيّ جافّتين ضاحكتين. وشرحت له أنّي سوف أعمل وأقبض درهماً كلّ أسبوع فتمنى لي التوفيق في مهمّتي وتمنّيت له مثل ذلك في مهمّته.

عام الحمّام

٩٠٥ هـ (٨ آب «أغسطس» ١٤٩٩ م - ٢٧ تموز «يولية» ١٥٠٠ م)

«عندما أفكّر في أنّ كل هؤلاء الناس يغتسلون بالروث!»

لقد لزِمَني بضع لحظات لإدراك ما قاله هارون. ثم انطلقنا كلانا في قهقهة مجلجلة. فلم يكن صديقي مجانباً للصواب، لأنّ ماء الحمّامات في فاس كان يسخّن حقّاً بالروث.

وقد دفُع لنا مال في ذلك اليوم للاطّلاع على الأمر إذ أرسلنا صاحب الحمّام بعد أن زوّدنا ببغلتين وبعض الدراهم لنجول على حظائر الخيل في الحيّ ونشتري الروث المتراكم فيها. ولقد حملناه إلى خارج المدينة في مكان كان قد حدّده لنا. وكان رجل بانتظارنا لتسلّم الحمولة؛ وكان هو الذي يهتمّ بفرش القِطاف الثمين لتجفيفه، الأمر الذي يقتضي شهراً في الصيف وثلاثة أشهر في الشتاء. وحملنا عند عودتنا كومة من الروث في مثل صلابة الخشب واستعداده للاشتعال. وبهذا كان خلقين الحمّام يُغذّي. وعليك أن تقول ما إذا لم تكن ملابسي وملابس هارون قد اكتسبت، بعد أن أفرغت الحمولة الأخيرة، لون ما نقلناه ورائحته.

وعليه فقد سارعنا إلى خلع ملابسنا والاندفاع إلى حجرة الماء الساخن. ولقد سلّتنا مغامرتنا. وما إن كنّا نلتقي صديقاً في غرفة التجفيف حتى كنّا نُسَرّ بسؤاله عمّا إذا لم يبدُ له الماء مختلفاً في ذلك اليوم عنه في الأيام السابقة.

والحمّام في نظر جميع الناس في المدينة أحبّ الأمكنة لضرب مواعيد اللقاء. فهم يخلعون ملابسهم في الحجرات الصغيرة عند مدخل الحمّام ثم يجتمعون عراة تماماً بلا أي خجل. وإذا كانوا تلاميذ صغاراً أخذوا في الحديث عن معلّميهم

وقصّوا دعاباتهم متكتّمين على ما يلاقونه جميعاً من عِقاب الضرب. وإذا كانوا مراهقين تحدّثوا عن النساء فاتّهم بعضهم بعضاً بالذوبان حبّاً لهذه أو لتلك، وفاخر كلّ منهم بمغامراته الغرامية. وإذا كانوا بالغين أصبحوا أكثر تحفّظاً في هذا الصدد وإن تبادلوا النصائح والوصفات لتحسين أمور أجسادهم فيه، وهذا موضوع لا ينضب الحديث عنه، وهو إلى ذلك منجم ذهب للمشعوذين. وأمّا سائر الوقت فيقضونه في الكلام على الدنانير أو في النقاش بالسياسة بصوت خافت أو مرتفع تبعاً للآراء التي يبشّرون بها.

ويلتقي رجالُ الحيّ في أغلب الأحيان للغداء. ويُحْضِر بعضهم طعامهم معهم، ويطلب آخرون من أحد صبيان غرفة التجفيف أن يشتري لهم شيئاً من السوق المجاورة. بيد أنهم لا يتناولون وجباتهم الخفيفة على الفور. فهم ينتقلون أولاً إلى الحجرة الدافئة حيث يغسل الصبيان أجسادهم ويدلّكونها بزيوت أو مراهم. ثم يستريحون قليلاً مستلقين على بُسُط من اللبد ورؤوسهم على مساند خشبية مغطّاة كذلك باللبد قبل الدخول إلى الحجرة الحارّة للتعرّق. ثم يعودون من جديد إلى الحجرة الدافئة فيغتسلون من جديد ويستريحون. وبعدها فقط يتوجّهون إلى الحجرة الباردة فيجلسون حول البركة للطعام والثرثرة والضحك، وحتى للغناء.

ويظلّ معظمهم عراة حتى الانتهاء من الطعام، باستثناء بعض الأشخاص من ذوي الشأن ممّن يتحاشون الظهور بذلك المظهر ويحتفظون بفوطة حول خصورهم فلا ينزعونها إلا في الحجرات الخاصّة المحجوزة لهم، وهي حجرات مُدَبَّرة أحسن تدبير، وفيها يستقبلون أصدقاءهم، وفيها تُدلّك أجسادهم؛ وإليها يأتي كذلك الحلاّق عارضاً خدماته.

ثم إن هناك النساء. وعدد من الحمّامات مخصّص لهنّ وحدهنّ، بيد أنّ معظمها هو لخدمة الجنسين. في الأمكنة نفسها، ولكنْ ليس في الأوقات ذاتها. والحمّام الذي كنت أعمل فيه يؤمّه الرجال من الثالثة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر. وأمّا سائر اليوم فيستبدل فيه صبيان حجرة التجفيف بزنجيات كنّ يشددن حبلاً إلى عُرض الباب لإشعار الرجال بأنهم لا يستطيعون الدخول، وإذا احتاج أحدهم إلى قول كلمة لزوجه فما عليه الا استدعاء إحدى القيّمات بشؤون الحمّام لنقل الرسالة.

وفي كل مرّة كان علينا فيها ترك المكـان، في كل مـرّة كنّا نـرى فيها الحبـل يُشدّ والنسـاء يصِلْن، كنا نتسـاءل أنا وهـارون عمّا كـان يحدث في الحـمّام عندمـا يصبح ميداناً للنساء. وكنّا نحاول في الأيّام الأولى إقناع أنفسنا بأنّه لم يكن يجـري غير مـا كنّـا نعرفـه عن الرجـال، فالتـدليك نفسـه، والتضميخ عينـه، والثرثـرات ذاتهـا، والاحتفالات ذاتها، والفُوَط نفسها لستر أجساد بنات الذوات. ومع ذلك فإنّنا لدى مراقبتنا باب الدخول عند العصر لم نكن نرى وفود عدد كبير من البائعات بسلالهن وحسب، بـل نرى أيضـاً جميع أصنـاف الناس المزعجين مثـل كاشفـات الـطالـع والمتطبّبات المشعوذات، وربما بعض متعـاطيات أعـمال السحر. فهـل صحيح أنهن كنّ يُحضِّرن الأكاسير، ويـرمين الـرجال بـالأذى من سحرهن، ويـطعنّ تماثيـل من الشمع بدبابيس سحرية؟ إنه لقليل أن نقول إننا كنّا مـأخوذينْ بهـذه الأمور، فقـد غدت بالنسبة إلينا هاجساً لا يطاق.

وتحدّياً أيضاً.

وقال لي هارون ذات يوم: «سأذهب إلى هنـاك غداً، وليكنْ مـا يكون. أتـريد مرافقتي»؟

ونظرت في عينيه؛ لم يكن يمزح.

«أتريد مرافقتي»؟

ولزمني كثير من الشجاعة لقول لا.

قال هارون: «هـذا أفضل: أذهبُ بمفـردي. ولكنْ كُنْ هنا في أول العصر، في هذا المكان بالذات».

أمطرت في اليوم التالي، وكان الجوّ قاتماً. وأتيت فوقفت في المكـان المعيّن حيث كان في مقدوري مراقبة مدخل حمّام النساء دون أن يتنبّه أحد إلى وجودي. ولم أكن قد رأيت هارون طوال الصبيحة. وأخذت اتساءل عمّا إذا كان قد غدا هنـاك، وما إذا كـان سيتمكّن من الدخـول؛ كنت أتوقّـع أن أراه يُقذف بـه؛ بـل كنت أخشى أن أراه خارجاً وعشرون امـرأة في أثره، وأن اضـطّر بدوري إلى الهـرب خلال الشـوارع. والشيء الوحيد الذي كنت متأكّداً منه هو أن «المنقّب» لم يكن قد تخلّى عن مشروعه الجنونيّ. وكنت أنظر بين الفينة والفينة إلى الشمس، إلى هالتهـا خلف الغيوم على

الأقل. ولقد عيل صبري.

لم يكن عند باب الحمّام أيّ حركة غير مألوفة. كانت هناك نساء يدخلن وأخريات يخرجن، وكانت بعضهن يرتدين السواد أو البياض، وأخريات غطّين شعورهنّ وأسفل وجوههنّ فقط. وكانت تصحبهنّ بعض الصبيّات. بل بعض الصبيان الصغار جداً في بعض الأحيان. وما هي إلا أن أقبلت نحوي امرأة بدينة. وإذ غدت قريباً مني فقد توقّفت برهة وتفحّصتني من رأسي إلى أخمص قدميّ ثم رجعت وهي تغمغم بكلمات غير مفهومة. لا بدّ أن هيأتي المتخفّية بدت لها مُريبة. وبعد دقائق طويلة أخرى أقبلت على الفور إلى المكان الذي كنت واقفاً فيه امرأة أخرى مؤتزرة، ولكنّها كانت أكثر رشاقة. لم أكن مطمئناً، وكدت أن أطلق ساقيّ للريح.

«أنت هنا في مأمن وترتعد»؟

كان ذاك صوت هارون! ولم يدع لي مجالاً لأكثر من صيحة تعجّب.

«لا تأتِ بأدنى حركة، بأيّ صوت! عُدَّ إلى المئة ثم لاقِني في البيت!»

كان ينتظرني عند الباب. وانفجرت قائلاً: «خبّرني».

وتريّث قبل أن يجيب بأكثر ما يكون من عدم الاكتراث:

«وصلت ودخلت وتظاهرت بالبحث عن شخص وجلت على الحجرات ثم خرجت».

ـ وهل خلعت ملابسك؟
ـ لا.
ـ وهل رأيت أشياء؟
ـ أجل، ملء العين.
ـ خبّر، قاتلك الله!

لم يقل شيئاً، ولا ارتسمت على شفتيه أدنى ابتسامة، ولا أدنى تكشيرة. بيد أن

عينيه كانتا تبرقان بالرضى والخبث. وتململت، وساورتني رغبة في الانهيال عليه ضرباً.

«أتريد إذن أن اتضرّع إليك، أن ألصق جبهتي بنعليك؟»

لم يتأثر «المنقّب» قطّ بسخريتي.

«حتى لو تضرّعت إليّ، وحتى لو سجدت عند قدميّ، فإنّي لن أقول لك شيئاً. فلقد خاطرتُ وترفض أنت أن تخاطر. وإذا كنت تريد أن تعرف ما يجري عند النساء فعليك أن ترافقني في المرّة القادمة».

وذهلت.

«لأنك تأمل في الذهاب إلى هناك من جديد»؟

وكان الأمر يبدو له مسلّماً به إلى حدّ أنّه لم يتنازل إلى الردّ عليّ.

وفي اليوم التالي كنت في مكمني، وقد رأيته هذه المرّة داخلاً. وكان قد حسّن زيّه. فلم يكن قد اكتفى بالاشتمال في ثوب صفيق أسود، بل لفّ رأسه بخمار أبيض غطّى شعره وجزءاً من جبينه وخدّيه وانعقد تحت ذقنه. وكان فوقه نقاب خفيف شفّاف. وكان التنكّر من الإتقان بحيث كدت أُخدع مرّة ثانية.

وإذ لقيته بعدها فقد بدا مضطرباً. وسألته عن أخبار حملته فرفض أن يجيب على الرغم من إلحاحي وصيحاتي. وظلّ صمته مطبقاً؛ وكدت أنسى تلك الحادثة. ومع ذلك فقد كان هارون هو الذي ذكّرني بها بعد سنوات بعبارات سوف تلازم ذاكرتي إلى الأبد.

***

عاد خالي من رحلته في حوالي نهاية ذلك العام. وما إن علم أندلسيو فاس بالأمر حتى تقاطروا زرافات إثر زرافات للاستماع إلى أخباره ومعرفة نتائج مهمّته. وقصّ خبر رحلته البحرية بالتفصيل، والخوف من الغرق والقراصنة، ورؤيته القسسطنطينيّة وقصر مولانا السلطان، والانكشاريّة، وجولته على مختلف بلدان

المشرق، الشام والعراق وفارس وأرمينيا وبلاد التتار.

ومع ذلك فإنّه لم يلبث أن وصل إلى أهمّ ما في الأمر.

«لقد بدا مضيفيّ في كل مكانٍ مقتنعين بأنّ القشتاليين سيُغلبون عمّا قريب بإذن الله، وأنّ الأندلس ستعود إلى الإسلام ويتمكّن كل إنسان من الرجوع إلى بيته».

واعترف بأنّه لا يعلم متى ولا في أيّ الظروف، بيد أنه كان في مقدوره أن يشهد بقوّة الأتراك التي لا تُقهر، وبالرعب الذي يُلقيه في قلب أيّ رجل منظر جيوشهم الجرّارة. وبدا أنه مقتنع باهتمامهم الفائق بمصير غرناطة وإرادتهم تحريرها من الكفّار.

لم أكن أنا أقلّ الحاضرين حماسة. وعندما أمسينا وحدنا ألححت على خالي قائلاً:

«متى تظنّ أننا سنعود؟»

ولم يبدُ عليه أنه أدرك ما أردت أن أقول فقال:

«نعود إلى أين»؟

وعزوت ردّه إلى تعب السفر وقلت:

«إلى غرناطة، أليس هذا ما كنت تتحدّث عنه»؟

ورمقني طويلاً كأنّه يريد تقدير وزني قبل أن يقول بصوت هادىء موزون:

«لقد أصبحت الآن يا حسن، يا بنيّ، في الثانية عشرة، وعليّ أن أكلّمك كما أكلّم رجلاً (لقد تردّد بعدُ لحظةً). أصغ إليّ جيداً. إنّ ما رأيته في المشرق هو أن سلطان العجم يتهيّأ لمحاربة الأتراك المنشغلين على الأخصّ بصراعهم مع البندقية. وأما المصريون فقد تلقّوا قبل مدّة شحنة قمح من القشتاليين عربون صداقة وحِلف. هذه هي الحقيقة. وربّما تبدّلت الأمور بعد بضعة أعوام، وأمّا اليوم فإنّ أيّ ملك من ملوك المسلمين الذين قابلتهم لم يبدُ لي مهتمّاً بمصير الغرناطيين، سواء نحن المهاجرين أو أولئك «الغرباء» المساكين».

وكان في عينيّ من الدهشة أكثر ممّا كان فيهما من خيبة الرجاء.

وتابع خالي قائلاً:

«سوف تسألني لماذا قلتُ للناس الذين كانوا هنا عكس الحقيقة. انظر يا حسن، إنّ جميع هؤلاء الرجال لا يزالون يعلّقون على جدران بيوتهم مفاتيح منازلهم في غرناطة. وفي كل يوم ينظرون إليها ويتنهّدون ويَدْعُون. وفي كلّ يوم تعود إلى خواطرهم أفراح وعادات، ولا سيّما زهو لن يعرفوه في المنفى. والسبب الوحيد لبقائهم على وجه الدنيا هو تفكيرهم بأنْ لن يلبثوا، بفضل السلطان الأعظم أو عناية السماء، أن يسترجعوا منازلهم وألوان حجارتها، وروائح حدائقهم ومياه بِرَكها، لم يمسسها بشر ولا فسدت، كما هي في أحلامهم. إنهم يعيشون على هذا، وسوف يموتون على هذا، وأبناؤهم من بعدهم. وربّما لزمهم مَنْ يجرؤ على تعليمهم النظر بأمّ أعينهم إلى الهزيمة، منْ يجرؤ على إفهامهم أن على الإنسان لكي ينهض أن يتقبّل أوّلاً أنّه مُلقىً أرضاً. وربما انبغى أن يقول لهم أحد الحقيقة يوماً. وأمّا أنا فلست أملك الشجاعة لذلك».

عام الأسدين الهائجين

٩٠٦ هـ (٢٨ تموز «يولية» ١٥٠٠ م - ١٦ تموز «يولية» ١٥٠١ م)

كانت أختي مريم قد كبرت في غفلة مني. وكان انفصالان طويلان قد جعلا منها غريبة عني. فلم يكن يُظِلّنا السقف نفسه، ولا كانت لنا الألعاب عينها. وعندما كنت ألتقيها لم تكن كلماتنا عبارات تواطؤ، ولا كانت نظراتنا تتفاهم من الوهلة الأولى. وقد انبغى أن تكلّمني في ذلك العام من فوق بغلة لأراها من جديد، لأتأمّلها، لأتذكّر البنت الصغيرة التي كنت أحبّها وأضربها حتى تذرف الدموع.

حدث ذلك في بداية الصيف في كرم زيتون على طريق مِكناس. وكان أبي قد قرّر أن أصحبه مع وردة ومريم في جولة داخل البلاد. وكان لا يزال يبحث عن أراضٍ للإجارة. وكان يفكّر في أن يُنمّي بالاشتراك مع خبراء أندلسيين في الزراعة بعض الزراعات التي كانت قليلاً ما تُمارَس، وإذا مورست فبشكل رديء، في الأرض الإفريقية، ولا سيّما زراعة أشجار التوت الأبيض لأجل دودة القزّ.

وقد حدّثني مُورِداً ألوف التفصيلات عن مشروع قد يشترك فيه أحد أغنى أغنياء فاس. وإذ كنت استمع إليه فقد خامرني شعور بأنّه كان قد تجاوز مرحلة الانهيار والخَوَر التي أعقبت مغادرة غرناطة، وتمزُّقاً كان قد فاقمه ضياع زوجتيه الواحدة تلو الأخرى من يديه. فقد غدا منذ الآن يخطّط ويتحدّى، وكانت قبضتاه مسلّحتين وعيناه تملأهما الرغبة من جديد.

وكنت أركب في هذه الرحلة جواداً كما كان يركب، وأمّا المرأتان فكانت لهما بغلتان، وكان ينبغي أن نسير بالوتيرة التي تسيران بها. وفي لحظة من اللحظات

اقتربت وردة من محمّد فرجعتَ إلى محاذاة مريم. وخفّفتْ من سرعة بغلتها بشكل غير ملحوظ فابتعد الوالدان.

«حسن!»

لم أكن قد خاطبتها مُذْ تركنا فاس قبل أربع ساعات. ووجّهتُ نحوها نظرة كان خير ما يمكن أن تعنيه: «هل تزعجك مطيّتك؟» بيد أنها أزاحت نقابها الذي بلون التراب وأشرق وجهها الأبيض بابتسامة حزينة.

«إنّ خالك يحبّك كما لو كنت ابنه، أليس كذلك؟»

بدا لي السؤال في غير محلّه وبلا هدف. ووافقتُ بأشدّ النبرات تعجّلاً إذ لم تكن بي رغبة قطّ في أن أُطْلِع بنت وردة على علاقاتي بأُسْرة أمي. ولكنْ لم يكن ذاك قَصْدَها.

«عندما أنجبُ أولاداً هل ستحبّهم كما يحبّك؟»

قلت: «بالطبع».

بيد أن عبارة «بالطبع» التي لفظتها كانت سريعة جداً وفظّة جدّاً. ومُرْتَبِكة.

وأمسكتْ عن التتمّة، وظلّت تنتظر. ورمقتُ مريم من طرف خفيّ. كان صمتها يكاد يكون أقلّ إزعاجاً لي من أسئلتها. ولم تكن تنظر إليّ، بيد أنّها لم تكن قد أرخت نقابها على الرغم من غبار الطريق. والتفتُ إليها وتأمّلتها للمرّة الأولى منذ زمن طويل. لم يكن خدّاها أقلّ امتلاء من اليوم الذي رأيتها فيه داخل مركب الهجرة تتقدّم نحونا بين ذراعي أمّها. ولا كانت بشرتها أقلّ تورّداً. ولا شفتاها أقلّ لمعاناً. ومع ذلك فإن الكُحْل على جفونها كان يُضفي عليها مظهر امرأة. وكذلك طيفها. ومن جهة أخرى فإنها بينما كنت أراقبها انتصبت فاستبنتُ ثدييها. هل كان قلبها هو الذي يدقّ، أم كان قلبي؟ وغضضت من بصري. لقد كانت قد نضجت في عام واحد وغدت جميلة ومثيرة.

«عندما أنجب أولاداً فهل ستحبّهم؟»

كان ينبغي أن أتضايق، بيد أنّي ابتسمتُ لأنّي كنت لا أزال أذكر طريقتها، مُنْذ

كانت في سنتها الأولى، بالمطالبة بالدمية عينها ثلاث مرات، أربعاً، عشراً بلا توقّف وبالنبرة ذاتها.

«بالطبع سأحبّهم».

ـ وهل ستحدّث أمّهم كما يحدّث خالك سلمى؟

ـ أجل، بلا ريب.

ـ هل ستزورها كثيراً في بيتها؟ هل ستسأل عمّا إذا كانت على ما يرام؟ هل ستصغي إلى أحزانها؟

ـ أجل يا مريم، أجل!

وشدّت بغتة على زمام بغلتها فرمحت. وبقيت واقفاً فحدجتني بنظرة وقالت:

«ولكنْ لماذا لا تكلّمني قطّ؟ لماذا لا تأتي فتسألني إذا كنت أبكي في أثناء الليل؟ إنّ واجبي هو أن أخاف الرجال جميعاً. اليوم أبي، وغداً زوجي، وجميع من ليسوا أقاربي وعليّ أن أحتجب عنهم».

وأرخت العنان فانطلقت البغلة تخبّ على مهل، وأسرعت لمحاذاتها. وظللتُ لا أكلّمها، بيد أنّي ـ يا للشعور الغريب! ـ كنت خائفاً عليها أغلّفها بعينيّ بحنان مباغت. وكان يُخيَّل إليّ أن خطراً يتربّص بها.

* * *

توقّفنا لقضاء الليل في قرية تقع عند منتصف الطريق بين فاس ومِكناس اسمها «العار». واستضافنا إمام مسجدها لقاء صدقة قدّمناها للأيتام الذين يرعاهم. وكان رجلاً قليل الثقافة، بيد أنّه كان ظريفاً جداً فلم يتردّد في أن يشرح لنا سبب تسمية القرية بهذا الاسم.

فقد باح لنا بأن أهل القرية الذين عُرفوا من زمن ببخلهم كانوا يتألمون لتلك السُمعة. إذ كانت القوافل تتحاشى التوقّف عندهم. وذات يوم علموا أن ملك فاس يصطاد الأسود في الجوار فعزموا على استضافته وجميع أفراد حاشيته وضحّوا

على شرفه ببعض الخِراف. وهكذا تعشّى الملك ونام. وإذ أرادوا التدليل على سخائهم فقد وضعوا عند بابه قِربة كبيرة واتفقوا على مَلْئِها باللبن للفطور الملكي. وكان على الأهالي أن يحلبوا شِياههم ثم يأتي كل واحد بدلوه فيفرغها في القِربة. ونظراً لاتّساع هذه فقد قال كل قرويّ في نفسه إنّ في وسعه أن يمزج لبنه بكميّة كبيرة من الماء من غير أن يلحظ أحد. وقد كان من جرّاء ذلك أن صُبّ للملك وحاشيته سائل شبه شفّاف لم يكن له من طعم سوى طعم البُخْل.

ومع ذلك فإنّني إذا كنت لا أزال أتذكّر مروري بتلك القرية فما ذاك بسبب رذيلة سكّانها التي لا شفاء منها، وإنما بسبب ما ساورني فيها من رعب لا يوصف.

لقد استقبلنا الإمام استقبالاً لا غبار عليه واقترح لمبيتنا كوخاً خشبياً قريباً من المسجد بمحاذاته حظيرة لإيواء بهائمنا. ونامت وردة ومريم داخل الكوخ؛ وفضّلنا أنا وأبي النوم على السطح في هذه الليلة الصيفية التي مكّنتنا من التمتع بالطراوة. وعليه فقد كنّا هناك عندما توقّف عند بابنا حوالي منتصف الليل سَبُعان ضخمان جذبتهما رائحة الحصانين والبغلتين وحاولا انتزاع حاجز الشوك الذي كان يحمي مطايانا. وأخذ الجوادان يصهلان وكأنهما مسعوران ويتمسّحان بجدران الكوخ الذي كان يهدّد عند كل هزّة بالتداعي. وظلّت الحال على هذا المنوال ساعتين أو أكثر إلى أن التفت أحد السَبُعينْ وقد أثاره ولا ريب وخز آلاف الأشواك في كل هجمة إلى الباب وشرع يحكّه ويقرعه بقائمتيه. وكنّا أنا وأبي نتابع المشهد عاجزيْن عارفيْن بأنّ في إمكان الوحشين بلوغ المرأتين وافتراسهما من غير أن نستطيع عمل شيء سوى مراقبتهما من فوق مكمننا أو الارتماء في شدقيهما لإنقاذ شرفنا. وكان يترامى إلينا من الأسفل صرخات مريم ودعوات وردة التي كانت تبتهل إلى السيدة العذراء باللغة القشتالية.

وكان محمّد من جهته يَنْذُر نذراً بصوت مرتجف: إذا قدّر لنا الخروج أحياء من هذا المأزق فسوف يقطع رحلتنا ويذهب حاجّاً إلى مدينة «طغية» لوضع قربان على قبر الوليّ أبي عزّة المشهور بعجائبه الكثيرة في دفع أذى السباع.

ولست أدري إذا كان تدخّل «الوليّ» هو الذي فعل أَمْ تدخّل أُمّ السيد

المسيح، وكل ما أعلمه أن الأمر انتهى بالسَبُعينْ إلى الكلل، وأنهما ابتعدا مع بزوغ الفجر على الرغم من أن زئيرهما الذي كاد يكون أقلّ إثارة للرعب كان لا يزال يترامى إلينا من الجبل القريب جدّاً. ولم تُواتِنا الجرأة على الخروج من ملاذنا إلا عندما بدأت الحركة في القرية مع ساعات الصباح الأولى. وكان علينا مع ذلك قبل معاودة السفر أن ننتظر مرور قافلة طويلة. وإذ كان محمّد مصمّماً على توفية نذره بلا إبطاء فقد كان راغباً في العثور في مِكناس على جماعة من الحجّاج في طريقهم إلى «طغية».

وعندما وصلنا إلى هناك بعد أسبوع ورأيت الحشد الكبير الذي كان يزور مثلنا قبر الوليّ أدركت الرعب الدائم الذي تلقيه السباع في روع أهالي إفريقية. ولقد تأكّد لي الأمر أكثر فأكثر خلال رحلاتي فيها بعد. فكم من مرة رأيت فيها وأنا أبلغ إحدى القرى جمعاً من الناس وقد سيطر عليهم الأسى لأن هذه الحيوانات المفترسة كانت قد التهمت أسرة بأكملها! وكم من مرة ثناني الأدلّاء عن سلوك إحدى الطرق لمجرّد أنّ السباع كانت قد مزّقت فيه قافلة برمّتها! حتّى إنّه حدث أن تمكّن وحش واحد من تلك الوحوش من مهاجمة مفرزة من مئتي خيّال مسلّحين وقتل خمسة أو ستة منهم قبل أن يتقهقر راجعاً.

ممّا لا شكّ فيه أن الأسد أشجع الحيوانات كلّها، وأنا أقول ذلك بشيء من الغبطة لأنّي سأحمل اسم هذا الوحش خلال ثماني سنوات في إيطاليا. وعليّ مع هذا أن أحدّد أن أسود البلاد الباردة أقلّ ضراوة من أسود البلاد الحارّة. وإذا أُريدَ في فاس إسكات أحد المتبجّحين قيل له: «إنك في مثل شجاعة أُسود «عقلة» التي تأكل العجولُ أذنابها». والحقّ أنه يكفي أن يركض طفل في ذلك المكان وهو يصيح خلف أحد الأسود لكي يولّي هذا الأدبار. وفي قرية أخرى من قرى الجبل اسمها «الحجر الأحمر» تأتي الأسود فتأكل بين المنازل العظام التي تُرمى لها، ويحاذيها الناس بلا خوف. كما أنّني سمعت أنّه عندما تواجه امرأة أسداً في مكان منفرد يكفي أن تكشف عن أجزاء من جسمها ليطلق الوحش زئيراً هائلاً ويغضّ من بصره ويذهب. ومن حقّ كل إنسان أن يصدّق ما يشاء!

* * *

وفي طريق العودة من تلك الزيارة تذكّرت الشعور المبهم بالخوف الذي ساورني بشأن مريم. أيكون هاجساً بهجمة الأسدين على كوخنا؟ لقد راودني هذا الخاطر في تلك اللحظة. فالحقّ أنّي عندما كنت بعدُ في الثانية عشرة كانت الوحوش في نظري أشدّ إيذاء من الناس.

عام ختم القرآن

٩٠٧ هـ (١٧ تموز «يولية» ١٥٠١ م - ٦ تموز «يولية» ١٥٠٢ م)

كان عمر خطيب مريم أربعة أضعاف عمرها، وكانت قامته ضِعفيْ قامتها، وكان ذا ثروة جُمعت بشكل رديء، وابتسامة هي ابتسامة من تعلّموا مبكّراً أن الحياة سرقة واحتيال دائمان. وكان معروفاً في فاس بالزروالي، وكان كثيرون يحسدونه، لأن هذا الراعي سابقاً ابتنى أضخم قصر في الحاضرة، بعد قصر الملك بالطبع، وذلك بدافع الحكمة القاضية بالاحتفاظ بالرأس ملتصقاً بالجذع.

لم يكن أحد يعرف كيف نمت ثروة الزروالي. ويقال إنه قضى السنوات الأربعين الأولى من حياته يجول بماعزه في جبل بني زروال في الريف على بُعْد ثلاثين ميلاً من البحر. وقد سنحت لي الفرصة، بعد هذا بزمن طويل، أن أزور تلك المنطقة وألاحظ فيها ظاهرة عجيبة: في أسفل وادٍ من الوديان فتحة في الأرض يُخيَّل أنها مغارة، يخرج منها باستمرار لهب عظيم؛ وقد تكوّن حولها مستنقع داكن اللون يحتوي على سائل لزج ذي رائحة نفّاذة. ويأتي كثير من الغرباء إلى هناك للتأمل في هذه المعجزة، ويرمون أغصاناً وقطعاً من الخشب لا تلبث أن تحترق على الأثر. ويظنّ بعضهم أن ذاك فم الجحيم.

ويقال إنه تقع غير بعيد من هناك آبار سرّية كان الرومان قد خبّأوا فيها كنوزهم قبل أن يغادروا إفريقية. فهل عثر الراعي على أحد تلك المخابىء بالصدفة وهو يرعى قطيعه في أحد الأيام؟ هذا ما كنت قد سمعته مهموساً به في فاس قبل أن يتدخّل هذا الزروالي في حياتي بكثير. ومهما يكن من أمر فإنّه ما إن اكتشف المال المدفون حتى أخذ يُنضج على مهل في باله حيلةً ما بدلاً من أن يبذّره على الأثر كما يفعل مَنْ تهبط عليهم الثروة بشكل مباغت. فبعد أن باع على

دفعات صغيرة جزءاً من الكنز حضر ذات يوم في ثياب فاخرة إلى المجلس العام الذي يعقده سلطان فاس.

وسأل العاهلَ قائلاً له: «كم ديناراً ذهبياً تتقاضى من بني زروال في كل عام؟».

أجاب الملك:

ـ ثلاثة آلاف.

إن أجّرتني إيّاه أعطيك ستة آلاف تدفع سلفاً.

وحصل زرواليّنا على ما أراد بالإضافة إلى مفرزة من الجند لمعاونته في جمع الضريبة واختلاس المدّخرات الهزيلة من الناس بالوعيد أو بالتعذيب. وفي نهاية العام رجع إلى الملك وقال:

«لقد أخطأت. فأنا حصلت على اثني عشر ألف دينار لا على ستة فقط».

وإذ دهش صاحب فاس للأمر فقد أجّر الزروالي الريف بأكمله وعهد إليه بمئة نبّال وثلاثمئة فارس وأربعمئة من المشاة لمساعدته على فرض الضرائب على الشعب.

وما هي إلا سنوات خمس حتى غدا الدخل من الضرائب أكبر بكثير ممّا كان في الماضي، بيد أنّ الناس في الريف بدأوا يفتقرون؛ وهرب كثير منهم للإقامة في أقاليم المملكة الأخرى؛ حتى إن بعض المدن الساحلية فكرّت في تفويض أمرها إلى القشتاليين. وإذ شعر الزرواليّ بتدهور الأمور فقد اعتزل وظيفته وغادر الريف وأقام في فاس بالمال الذي كان قد اغتصبه. ولمّا كان قد احتفظ بثقة الملك فقد ابتنى قصراً وأخذ يتعاطى جميع الأعمال، جشعاً لا يعرف الرحمة وإن فائق المهارة ومترصّداً على الدوام أدهى الخواطر والأفكار.

ولقد تعرّف عليه أبي عن طريق نازح أندلسي غنيّ، وعرض عليه مشروعه لتربية دودة القزّ. وإذ اهتم الزروالي جداً للأمر فقد طرح ألف سؤال عن الخادرة

والشرنقة واللعاب وخيوط الحرير، طالبا من آحد مستشاريه حفظ كل تفصيل. وأبدى أنه سعيد بالتعاون مع رجل في مثل أهليّة محمّد. وقد قال ضاحكاً:

«ذلك هوتحالف الذكاء والثروة».

وإذ أجاب أبي بأن فاس بأسرها تعرف ذكاء الزروالّي وحذقه فقد علّق هذا بقوله:

«أنت يا مَنْ قرأ كثيراً من الكتب، ألا تعلم ما قالت أمّ أحد السلاطين في العصور الخوالي يوم مولد ابنها؟ «لست أرجو لك أن تتمتّع بالذكاء لأن عليك تسخيره لخدمة الأقوياء؛ أرجو لك حُسْن الطالع بأن يكون الأذكياء في خدمتك».

وختم الزروالّي بقوله وقد ضحك حتى بانت نواجذه:

«لعلّ ذلك ما تمنّته أمّي يوم مولدي».

وبدت المقابلة لوالدي مشجّعة على الرغم من أنّ مخاطبه كان قد طلب في نهايتها مهلة للتفكير؛ فقد كان يريد أن يُطْلِع السلطان على المشروع وينال موافقته ويستشير بعض الحائكين وبعض الروّاد. ومع ذلك فقد قدّم إلى محمّد سلفة قدرها أربعمئة قطعة ذهبية للتدليل على اهتمامه الكبير بالقضية ولوّح له كذلك بتحالف بين أُسْرتيهما.

وبعد بضعة أشهر، في شهر شعبان من ذلك العام على ما أظنّ، استدعى الزروالّي أبي وأخبره أن مشروعه قُبِل وأنه ينبغي البدء بالإعداد له ومعاينة بعض بساتين التوت الأبيض وزراعة أخرى والبحث عن عمّال متخصّصين وبناء السقائف الخاصّة لتربية ديدان القزّ، وأن الملك نفسه كان متحمّساً للأمر. فهو يريد إغراق أوروبا والبلدان الإسلامية بحرائره وثَنْيَ التجّار عن الذهاب إلى الصين لاستيراد هذه السلعة النفيسة.

لم تعُد الدنيا تسع أبي من الفرح. فمشروعه بات على أهبة التحقُّق، وعلى مدىً تجاوز كثيراً ما كان يرجوه. واستبق الأمور في رؤية نفسه ثريّاً متمدّداً فوق وسائد عريضة من الحرير في قصر مفروش بالقاشانيّ؛ ولسوف يكون أوجه وجهاء

فاس، وفخر الغرناطيين، وأحد خاصّة السلطان وأحد المحسنين إلى المدارس والمساجد.

وتابع الزرواليّ قائلاً:

«أيّ طابع نمهر به الاتفاق خير من حلف النَسَب؟ أليس عندك بنت للزواج؟».

وعلى الفور وعد محمّدٌ مُموِّلَه بتزويجه مريم.

وعرفت بمحض الصدفة بعد أيام بمضمون ذلك الحديث الذي سوف يغيّر كثيراً من أمور حياتي. فقد ذهبت سارة المبرقشة إلى جناح الحريم في قصر الزرواليّ لبيع عطورها وترّهاتها كما كانت تفعل قبلاً في قصور غرناطة. ولم تتحدث النساء طوال زيارتها إلا عن زواج سيّدهنّ الجديد مُتفكّهاتٍ بالحديث عن نشاطه المقيم، مُناقِشاتٍ نتائجَ هذا التملّك الأخير على جميع المحظيّات الموجودات في القصر في الوقت الحاضر. فلقد كان للرجل أربع زوجات، أي في الحدود التي لا يبيح الشرع تجاوزها، وكان ينبغي على هذا الأساس أن يطلّق إحداهنّ، غير أنّه كان يألف ذلك، كما كانت تألفه نساؤه. وكانت المطلّقة تحظى بمنزل مجاور، أو تبقى في بعض الأحيان داخل الأسوار، وكان يُهمس بأن بعضهنّ كنّ يحملن بعد الطلاق من غير أن يدهش الزرواليّ أو يستاء.

وكان طبيعياً أن تسرع سارة عصراً إلى أمّي لتنقل لها ما دار من أحاديث. وكنت قد وصلت من المدرسة للتوّ وأخذت في قضم بعض حبّات التمر مصغياً من بعيد إلى ثرثرة المرأتين. وبغتة لُفظ اسم فاقتربت:

«حتى إنّهن وجدن الوقت لإضفاء لقب على اسم مريم: دودة القزّ».

وطلبت من المبرقشة أن تعيد على مسمعي حديثها كلمة كلمة، ثم سألتها بلهفة:

«أتظنّين أنّ أختي ستكون سعيدة مع هذا الرجل»؟

ـ سعيدة؟ تسعى النساء لتفادي أشدّ ما قد يكون من سوء. بدا لي الجواب

شديد التعميم ظاهر المراوغة فقلت:

«حدّثني عن هذا الزروالِيّ».

كان ذلك أمراً صادراً عن رجل. وارتسمت على شفتيها بسمة هزء عابرة، بيد أنها أجابت:

«لا يتمتّع بسُمعة طيّبة. خبيث، لا يقيم كبير وزن للذمّة. عريض الثراء...

ـ يقال إنه نهب الريف؟

ـ طالما نهب جميعُ الأمراءِ الأقاليم، ولم يُعرف قطّ أنّ أحداً رفض لهذا السبب تزويجهم ابنته أو أخته.

ـ وسيرتُه مع النساء، كيف هي؟

ونظرت إليّ من رأسي إلى أخمص قدميّ متوقّفة طويلاً عند الزَغَب المزيل فوق وجهي.

«وماذا تعرف عن النساء أنت؟»

ـ أعرف ما ينبغي أن أعرفه.

وتهيّأتْ لإطلاق ضحكة، بيد أنّ نظرتي الحازمة أحبطت سعيها. والتفتتْ إلى أمّي كأنها تسألها عمّا إذا كان عليها أن تتابع مثل هذا الحديث معي. وإذ أشارت إليها أمّي أنْ نعم فقد استعادت أنفاسها وناءت بيدها على كتفي وقالت:

«تعيش نساء هذا الزروالِيّ قابعات في جناح الحريم الخاصّ بهن؛ وسواء كنّ صبايا أو عجائز، حرائر أو إماء، بيضاوات أو سوداوات، فإنّهن لسن أقل من مئة امرأة يدبّرن المكائد على الدوام للحظوة بليلة مع السيد، أو بالامتيازات لأبنائهن، أو بسجّادة لغرفتهن، أو بحلية أو عطر أو إكسير. فاللواتي يتوقّعن الحنان من زوج لن ينلنه، واللاتي يبحثن عن المغامرة ينتهين مخنوقات، وأمّا اللائي يُرِدن فقط العيش بسلام في مأمن من العوز، وبلا جهد يبذل في الطبيخ وتدبير أمور المنزل الأخرى، وبلا زوج يطلب منهن إحضار الإبريق أو تحضير دفّاءة يدفع بها البرد أو الزكام، فأولئك وحدهنّ يمكن أن يكنّ سعيدات. فإلى أية فئة

تنتمي أختك؟»

كنت أرغي وأزبد، وقلت:

«ألا ترين من العار أن تقدِّم صبيّة في الثالثة عشرة هدية لتاجر عجوز لقاء عقد صفقة؟

- لا تزال السذاجة وحدها قادرة أحياناً، في مثل سنّي، على إشعاري بالعار».

والتفتُّ إلى أمي مغيظاً وقلت:

«أتظنين أنت أيضاً أنّ من حقّ هذا المخلوق أن يسلب المسلمين أموالهم، وأن يتّخذ مئة امرأة بدلاً من أربع، وأن ينتهك على هذا النحو شريعة الله؟» ولاذتْ بآية من القرآن:

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أَعْرَضَ ونأى بجانبه ﴾ .

ونهضتُ فخرجت من غير أن أسلّم على هذه أو على تلك. ومضيت رأساً إلى هارون. كنت أشعر بالحاجة إلى شخص من محيطي يستنكر كما استنكرت. إلى مَنْ يقول لي إنّ الدنيا لم تُخلق لتعطى بنسائها ومباهجها للزروالي وأمثاله. ولقد صالحتني التكشيرة التي انفرجت عنها شفتا صديقي لمجرّد ذكر ذلك الاسم مع الحياة. وكان ما سمعه عن خطيب أختي يختلف قليلاً عمّا كنت أعرفه. وأقسم لي «المنقّب» أغلظ الأيْمان أن يستزيد معرفة بالأمر بمساءلة حمّالي الجماعة.

***

أن يكون شخصان صديقين، أن يكونا في الثالثة عشرة من العمر، مجرّدُ عَهْدٍ يُقطَع بمرّ اليد على اللحية، إعلانُ الحرب على الظلم: إنها صورة السعادة بعد عشرين عاماً. أمّا في ذلك الحين فكم من خيبة وكم من ضياع وكم من عذاب! والحقّ أنه كان لديّ سببان وجيهان للنضال. الأوّل الدعوة الخفيّة التي أطلقتها مريم على طريق مِكناس للمساعدة، وها أنا الآن أقيس كل ما تضمّنته من كَرْب. والثاني خَتْم القرآن الذي نفح مراهقتي بالزهو بمعرفة تعاليم الشريعة والرغبة في منع انتهاكها.

ولمعرفة ما يعنيه ختم القرآن في حياة مؤمن ينبغي أن يكون المرء قد عاش في فاس مدينة العِلم التي يبدو أنها بُنيت حول المدارس كما تُبنى بعض القرى حول عين ماء أو ضريح وليّ. وحين ينتهي الأمر بالإنسان بعد بضع سنوات من المثابرة على الاستظهار وحفظ كلّ سورة من سور القرآن، وكلّ آية من آياته عن ظهر قلب، وحين يُعلنه معلم المدرسة جديراً بختْمه، ينتقل دفعة واحدة من عهد الطفولة إلى حياة الرجال، ومن جهل الناس به إلى الشهرة. وذاك هو أوان البدء بالعمل عند بعضهم، والالتحاق عند بعضهم الآخر بالمدرسة العليا، مركز المعرفة والاعتداد.

ويُشعر الاحتفالُ الديني المُقَام بهذه المناسبة الفتى الفاسيَّ بأنّه قد دخل عالم النافذين. وهذا على كل حال ما أحسستُ به في ذلك اليوم. فقد ألبسوني الحرير وكأنّي ابن أمير، وأركبوني جواداً أصيلاً يتبعني خادم حاملاً مظلّة عريضة، وطفتُ شوارع المدينة يحيط بي تلاميذ صفّي وهم ينشدون جميعاً. وكان بعض المارّة يحيّونني باليد على جانبي الطريق فأردّ عليهم التحيّة بأحسن منها. وكان يبرز بين الفينة والفينة رأس أعرفه، خالي وأمّي وابنتا خالي وبعض الجيران وحمزة الحلّاق بصحبة غلمان الحمّام، وبعيداً بعض الشيء تحت طُنُف أحد الأبواب وردة ومريم.

وأمّا أبي فكان ينتظرني أمام قاعة أُعدّت فيها مأدبة على شرفي. وكان يحمل تحت ذراعه الثوب الجديد الذي كان عليّ أن أكسو به حسب العادة المتّبعة معلّم المدرسة أمارة على العرفان بالجميل. ولقد كان يتأمّلني بانفعال مثير.

وأخذت أتفرّس فيه بدوري. وفي لحظة مرّت بخاطري عدّة صور عنه: مهيج للعواطف وهو يقصّ عليّ أخبار غرناطة، ملؤه الحنان وهو يداعب رقبتي، مرعب عندما طرد أمّي، مقيت عندما ضحّى بأختي، يُرثى له عندما كان متهالكاً على مائدة في حانة. وكم من حقيقة وددت لو أصرخ بها من فوق صهوة مطيّتي! بيد أنّي كنت أعلم أنّ لساني سينعقل ما إن تلامس قدماي الأرض ويغدو لزاماً عليّ أن أعيد إلى المُعير الحصان والديباج وأكفّ عن أن أكون بطل «ختْم القرآن» العابر.

عام الخدعة

٩٠٨ هـ (٧ تموز «يولية» ١٥٠٢ م - ٢٥ تموز «يولية» ١٥٠٣ م)

«ما كان الزروالي يوماً الراعي المسكين الذي زعم أنه كان. ولا عثر يوماً على كنز. والحقيقة أنّه كان خلال سنوات لصّاً، قاطع طريق، قاتلاً، ولم تكن ثروته الأساسية إلا ثمرة ربع قرن من السلب والنهب. بيد أنّ هناك ما هو أدهى».

كان هارون قد نقّب بشكل رائع أسبوعاً تلو أسبوع، ولكنّه رفض على الرغم من مناشداتي المتكرّرة أن يبوح بأدنى إشارة قبل أن ينجز تحقيقاته.

وفي ذلك اليوم جاء ينتظرني أمام جامع القرويين. وكان عليّ أن أحضر من الثالثة حتى الخامسة صباحاً حلقة عالم شامي جاء لزيارة فاس. وكان هارون قد هجر الدراسة وبدأ يلبس ثوب الحمّالين القصير الأغبر؛ وكان عليه أن يبدأ عمّا قليل عمل يومه.

وأضاف «المنقِّب» يقول:

«وأخطر ما في الأمر أنّ هذا الرجل غيور إلى حدّ الجنون، فهو مقتنع على الدوام بأن نساءه يسعينْ لخيانته، ولا سيّما أصباهنّ وأجملهنّ. وتكفي وشاية أو نميمة أو كلمة ماكرة تطلقها ضَرّة لتهلك المسكينة خنقاً. ثم يهتمّ خصيان الزروالي بتمويه الجريمة بتحويلها الى غرق أو إلى سقطة قاضية أو إلى ميتة بمرض الخوانيق. وهناك على الأقل ثلاث نساء مُتْنَ في ظروف تدعو إلى الريبة».

كنّا نذرع المكان جيئة وذهاباً تحت قناطر المسجد الذي كان يضيئه عدد لا يُحصى من قناديل الزيت. وصمت هارون بانتظار ما يكون منّي. وكنت من الغمّ بحيث عجزت عن إصدار أدنى صوت. فقدكنت عارفاً بالطبع بأن الرجل الذي

نُذرتْ له أختي قمين بكثير من أعمال السوء، ولهذا بالذات كنت أسعى للحؤول دون عقد الزواج. ولكنْ لم تعد المسألة الآن مسألة تجنيب مراهِقةٍ حياةً كئيبة خاملة؛ كانت المسألة مسألة تخليصها من براثن قاتل، من وحش دموي. ولم يكن «المنقِّب» أقلّ قلقاً منّي، غير أنّ ذهنه لم يكن قطّ ليتوقّف عند الشكوى والأنين. قال:

«متى سيكون حفل الزفاف؟

ـ بعد شهرين على الأكثر. لقد تمّ عقد القران، والاستعدادات قائمة على قدم وساق، وأبي يجمع البائنة، وقد أوصى على المفارش وفُرُش الزينة، وثوب العرس الخاص بمريم جاهز.

ـ عليك أن تكلّم أباك، أن تكلّمه وحده، لأنّه لو تدخّل في الأمر أيّ كان فسوف يعاند ويكابر ولن ينفع شيء في درء المصيبة».

وعملت بمشورته بحذافيرها. وسألت أمّي أن تتحقّق من سارة ما إذا كانت معلومات هارون صحيحة. وأكّدت المبرقشة بعد أسبوع كلّ شيء، ولم تُغْفِل أن تجعلني أُقسم على المصحف بألاّ أذكر أسمها قطّ في هذا الشأن. وكنت بحاجة إلى هذه الشهادة الجديدة لأتمكّن من مواجهة أبي من غير أن يخامرني أدنى خيط من شكّ.

وعلى الرغم من هذه الحيطة فقد أمضيت ليلة بكاملها أدير في رأسي ما عسي أن أقوله أوّلاً للتمهيد للموضوع، ثم للصمود في وجه الهجمات، وللفوز أخيراً بالقرار إذا أسعفني في ذلك العليُّ القدير. وتشكّلت في خاطري ثم تفككت ألف إجابة، مِنْ أكثرها حِذْقاً إلى أكثرها غلظة، لكنّ أيّاً منها لم تَدُمْ حتى الصباح فكان عليّ مواجهة أبي في اليوم التالي بلا أدنى فكرة ولا أدنى شروع في حُجّة.

«أودّ أن أقول لك شيئاً ربّما ساءك».

كان يزدرد كما في كل صباح عصيدة من حنطة مطبوخة وهو جالس على طنفسة من الجلد في زاوية الحديقة.

«هل ارتكبتَ حماقة؟

ـ ليس الأمر خاصّاً بي».

وقبضت على شجاعتي بكلتا يديّ وقلت:

«كثيراً ما يأتيني أحدهم، مُذْ علم الناس بأن أختي ستزفّ إلى الزروالّي، فيروي لي أخباراً مزعجة».

كان الطاس يلامس شفتيه فمجّ منه مُحْدِثاً صوتاً واضحاً ثم قال:

أيّ ناس؟ المدينة لا ينقصها الحسّاد»!

تصامت وقلت:

«يُقال إنّ عدداً من نسائه قَضَيْنَ مخنوقات.

ـ إذا كرّر لك أحدهم مثل هذا الأمر فأجبه بأنه إذا لقيت أولئك النساء عقابهنّ فلأنهنّ كنّ يستحققنه، وأن البنات في عائلاتنا كنّ على الدوام فوق المآخذ.

ـ أمتأكد أنت من أنّ مريم ستكون سعيدة مع..

ـ تدخّل في ما يعنيك».

ومسح فمه بطرف كُمّه ونهض يريد الذهاب. وتشبّثت به منتحباً قائلاً:

لا تذهب هكذا! دعني أكلّمك!

ـ لقد وعدت الرجل بأن أزوّجه أختك، وكلمتي كلمة واحدة. وعلاوة على ذلك فإننا وقّعنا العقد وسيتّم الزفاف بعد بضعة أسابيع. وبدلاً من أن تبقى في مكانك للاصغاء إلى الثرثارين، قم بعمل مفيد! إذهب إلى المنجّد وانظر إذا كان يتقدّم في عمله.

ـ كلّ ما يتعلّق بهذا الزواج أرفض أن...».

وانهالت الصفعة. كانت من العنف بحيث دار رأسي بضع لحظات طويلة. وسمعت خلفي صرختين مخنوقتين صادرتين عن وردة ومريم اللتين كانتا مختبئتين

وراء أحد الأبواب ولم يفتهما شيء من الحديث. وأخذ أبي حنكي بيده وقال وهو يشدّ عليه ويحرّكه بعصبيّة:

«أيّاك أن تقول لي: أرفض! إيّاك أن تكلّمني بهذه النبرة!»

ولا أدري ما الذي اعتراني في تلك اللحظة. فلقد شعرت بأنّ شخصاً آخر كان يحكي بلساني إذ قلت:

«ما كنت قطّ لأكلّمك بهذه النبرة لو لم أرَكَ جالساً في حانة!»

كنت قد ندمت في اللحظة التالية على ما فرط مني. ولسوف أبقى إلى آخر يوم في حياتي نادماً على تلفظّي بتلك الكلمات. ولقد وددت أن يصفعني كرّة أخرى، أن ينهال عليّ ضرباً بدلاً من أن يتهالك كما فعل فوق طنفسته مخبّلاً دافناً وجهه بين راحتيه. وماذا كان سينفع اعتذاري إليه؟ وخرجت من بيته طارداً نفسي بنفسي، وهمت على وجهي ساعات وساعات من غير أن أحيّي أحداً أو أن تكون عيناي قد رأتا أحداً، ورأسي خاوٍ مُوجَع. ولم أنم تلك الليلة في بيت أبي ولا في بيت خالي. فقد بلغت في المساء بيت هارون فاستلقيت على حصير وما نهضت قطّ إلى الصباح، وكان اليوم يوم جمعة. ورأيت وأنا أفتح عينيّ صديقي يتفرّس فيّ. وخامرني شعور بأنه مرّت ساعات وهو على هذا النحو.

«ما هي إلا أن تفوتك صلاة الظهر».

إنّه يكاد يكون مبالغاً في قوله، فالشمس كانت مرتفعة جدّاً.

«كنتَ تبدو عندما وصلت مساء أمس وكأنّك قتلت أباك كما يُقال عندنا».

لم تكن ابتسامتي سوى تكشيرة كريهة. وشرحت له ما حصل.

«لقد اخطأت في قول ذلك. بيد أنه أخطأ هو كذلك، وخطأه أشدّ من خطأك لأنّه في طريقه إلى تسليم ابنته إلى جلّاد. هل ستتغاضى عن جريمة تُقْتَرَف بحقّ أختك لقاء إصلاح ما اقترفتَ أنت من خطأ؟»

هذا بالضبط ما كنت قاب قوسين أو أدنى من عمله. ولكنّ الأمر بدا لي وهو

يُقال على ذلك النحو سافلاً كريهاً.

«في وسعي مفاتحة خالي فسيجد الحجج لإقناع أبي.

ـ افتح عينيك، ليس أبوك هو الذي ينبغي إقناعه.

ـ ولا مريم هي القادرة بالطبع على رفض تزويج نفسها! فلو تجرّأت على قولة لا، مهما صغرت، فسوف يهشّم عظامها!

ـ بقي الخطيب!»

ما كنت لأفهم. فلا بدّ أنّي لم أكن قد استيقظت جيداً بعدُ.

«الزروالي؟

ـ هو بعينه، ولا تنظر إليّ بهاتين العينين. انهض واتبعني!»

وفي الطريق شرح لي الخدعة. لم يكن ينبغي طرق باب اللصّ الغنيّ وإنما باب رجل عجوز ليست له صلة بزواج أختي، لا من قريب ولا من بعيد. ومع ذلك فقد كان الوحيد الذي لا يزال في مقدوره أن يمنع وقوعه.

«أستغفر الله».

فتح لنا الباب بنفسه. وما كنت قد رأيته من قبلُ بلا عمامة. وقد بدا شبه عارٍ، وبدانته ضعفا ما كانت عليه. ولم يكن قد خرج من يومه لأنّه كان يشكو منذ جمعتين داء الجنب. وقد قال لنا إنه أصبح في التاسعة والسبعين من العمر، وكان يرى أنه عاش ما فيه الكفايه «غير أنّ الله هو وحده الذي يقضي في الأمور».

وحيّرته زيارة فَتَيَيْن تبدو على وجهيهما أمارات العُسْر والذهول.

«آمل ألّا تكونا قد جئتما تحملان إليّ خبراً منفّراً».

وانبرى هارون للكلام فتركته يفعل، إذ المبادرة مبادرته وعليه أن يُتمّها إلى آخرها.

«نبأ منفِّر، أجل، بيد أنّه ليس نعياً. إنّه زواج مخالف لشريعة الله، أفلا يكون نبأ منفِّراً؟

ـ ومن الذي سيتزوّج؟

ـ أخت حسن، مريم. . .

ـ بنت «الروميّة»؟

ـ لا يهمّ من تكون أمّها، فالوزّان مسلم وبنته مسلمة».

ونظر الشيخ إلى «المنقِّب» بحنان وقال:

«مَنْ تكون؟ أنا لا أعرفك.

ـ أنا هارون بن عباس الحمّال.

ـ أكمِلْ فكلامك يعجبني».

وشرح صديقي متشجِّعاً بكلام الشيخ الغرضَ من مسعانا. ولم يقف طويلاً عند مصير نساء الزروالي لمعرفته بأنّ هذه الحجّة ما كانت لتؤثّر كثيراً في «أستغفر الله». وذكر في المقابل مجون الخطيب وعلاقاته بزوجاته القديمات وتوقّف طويلاً عند ماضيه وقتله المسافرين، و«لا سيّما النازحين الأندلسيين الأوائل»، وعند نهبه الريف.

«ما تقوله كافٍ لإرسال إنسان إلى نار جهنّم إلى أبد الآبدين. ولكنْ ما هي البيّنات التي تملكها؟ وأيّ شهود تستطيع أن تذكر؟

وأظهر هارون تواضعاً جمّاً وهو يقول:

«أنا وصديقي صغيران جدّاً، وقد قمنا لتوّنا بخَتْم القرآن، وليس لكلامنا كبير وزن. إنّنا لا نعرف شيئاً كثيراً عن الحياة، وربّما استنكرنا أعمالاً تبدو لسائر الناس مألوفة. والآن وقد قلنا كل ما نعرفه، والآن وقد أفرغنا ما ينوء به ضميرنا، فإنّه عليك أيّها الشيخ الجليل أن تنظر في ما يجب عمله».

وإذ أصبحنا خارج المنزل نظرتُ إلى «المنقِّب» نظرة ملؤها الشكّ. وكان يبدو واثقاً من نفسه.

«إن ما قلتُه له هو ما أفكّر فيه حقّاً. لقد بذلنا كلّ ما في وسعنا، وما علينا سوى الانتظار».

لكنّ محيّاه الباشّ كان يقول غير ذلك. ولاحظت قائلاً:

«أشعر بأنّك متهلّل ولا أرى لذلك سبباً.

- ربّما لم يكن «أستغفر الله» يعرفني، أمّا أنا فأعرفه منذ سنوات. ولي ثقة في طبعه البغيض».

وفي اليوم التالي بدا أنّ الشيخ قد شُفي. فقد رؤيت عمامته تتهادى في الأسواق نحرّك تحت السقائف قبل أن تغيب في أحد الحمّامات. ويوم الجمعة التالي، وبينما ان الازدحام على أشدّه، وقف يخطب في مسجده المألوف الذي يؤمّه أكثر ما يؤمّه المهاجرون الأندلسيون. وأخذ يتحدّث بأكثر ما يكون من السذاجة عن «مثال يُحتذى لحياة رجل محترم جداً لن أذكر اسمه»، مذكّراً باللصوصية والنهب والمجون بتلميحات كانت من الدقّة والتحديد بحيث انتهى الأمر بالحضور إلى الهمس باسم الزروالي على الرغم من أنه لم يُذكر مرّة واحدة.

«أولئك هم الرجال الذين يُجلّهم المؤمنون ويُعْجَبون بهم في زمن الانحطاط هذا! أولئك هم الرجال الذين تُفاخرون بفتح أبواب منازلكم لهم! أولئك هم الرجال الذين تقرّبون لهم بناتكم قرابين كالتي كانت تُقرَّب للآلهة في الجاهلية»!

وفي الأصيل لم يكن للمدينة حديث إلا عن ذلك الحَدَث. وقد نُقل إلى الزروالي حديث الشيخ كلمة بكلمة. وأرسل في الحال من يأتيه بأبي فشتم أمامه غرناطة وجميع الأندلسيين، وأفهمه وهو يفأفىء من شدّة الغضب أنه لم يعُد وارداً في الحسبان اتفاق ولا زواج ولا دود قزّ، وأنّ عليه أن يعيد من غير ما مهلةٍ الدنانيرَ التي سلّفه إياها، وأنّ الوزّان وجميع أهله لن يلبثوا أن يندموا مُرَّ الندم على ما جنت أيديهم. وحاول محمّد مصعوقاً أن يحتجّ لبراءته، بيد أن حرس الزروالي طردوه بلا هوادة من القصر.

عنـدما يُلغى زواج في اللحـظة الأخـيرة عـلى هـذا النحـو في جـو من الحقـد، ولا سيّما عندما يشعر الخطيب بأنه هزىء به، فإنّـه كثيراً مـا يروّج الشـائعات بـأن الزوجة المـوعودة ليست عـذراء، أو أنّها قليلة التمسّك بـأهداب الفضيلة، لكيـلا يُقْبِـل عليها الـراغبون في الـزواج. وما كنت لأدهش إذا تصرّف اللصّ المـرفوض على هذا النحو لفرط ما كان يشعر به من مهانة.

غـير أنّي ما كنت لأتخيّـل قطّ، حتى في أحلك كوابيسي، انتقـاماً كـالـذي كـان الزروالّي يبيّته.

عام القشّة المعقودة

٩٠٩ هـ (٢٦ حزيران «يونية» ١٥٠٣ م - ١٣ حزيران «يونية» ١٥٠٤ م)

بدأ هذا العام رخيّاً وادعاً مليئاً بالجدّ في الدرس. وفي رأس السنة الذي أقبل في إبّان الصيف كان الناس يتخبّطون في الشوارع لكثرة ما رُشّت بالماء في الليالي السابقة بمناسبة «المهرجان». وكنت في كل عثرة وعند كل منقع وحل أفكّر في أبي الذي كان يمقت ذلك العيد والعادات المرتبطة به.

لم أكن قد رأيته مُذْ تخاصمنا - ليغفر الله لي! - بيد أنّي كنت أتسقّط أخباره بانتظام من وردة ومريم. ونادراً ما كانت أجوبتهما تُريح بالي. فإذ كان محمّد قد أنفق كل ما يملك على جهاز أختي وألفى نفسه في آنٍ معا مديناً ومحروماً من تحقيق أحلامه ومن حنان أهله فقد أخذ يَنْشُد السُلوان في الحانات.

ومع ذلك فقد بدا في الأسابيع الأولى من العام أنّه في طريقه إلى الإبلال على مهل من هول القطيعة مع الزروالّي. ولقد انتهى به الأمر إلى أن استأجر في أعلى أحد الجبال، على بعد ستة آلاف ميل من فاس، منزلاً قديماً خرباً بعض الشيء ولكنه يطلّ إطلالة رائعة على المدينة، وأراضي شاسعة أقسم أن ينتج فيها أجود أنواع العنب والتين في المملكة؛ وارتبتُ في أن يكون راغباً أيضاً في صنع النبيذ لمشروبه الخاص على الرغم من كون الجبل من أملاك المسجد الجامع. وتلك مشاريع أشدّ تواضعاً بالطبع من مشروع تربية دودة القزّ؛ ولكنّها لم تكن على الأقلّ لتضع أبي تحت رحمة لصّ كالزروالّي.

ولم يكن هذا الأخير قد ظهر منذ أشهر. أيكون قد نسي نكبته، أيكون قد محاها هو الذي يُقال إنه يحفر في الرخام أصغر الشتائم؟ وكان يحدث لي أن أتساءل بفعل القلق العابر الذي كانت تُزيحه مشاغل طلب العلم الملحّة.

كانت أوقاتي تنقضي في حلقات الدرس في جامع القرويين من منتصف الليل إلى الواحدة والنصف وفقاً للتوقيت الصيفيّ، كما كانت تنقضي سائر أوقات اليوم في أشْهَرِ مدارس فاس، مدرسة «بو إنانية»؛ وكنت أنام في الفسَح بين الدروس، قليلاً في الفجر وقليلاً بعد الظهر؛ ولم أكن أطيق البطالة، وكانت الراحة تبدو لي زائدة عن الحاجة، وكنت قد بلغت للتوّ الخامسة عشرة وأملك جسداً عليّ تحريكه؛ وأمامي عالم عليّ التعرّف إليه؛ وكانت لي شهوة إلى المطالعة.

كان أساتذتنا يقرئوننا كلّ يوم تفاسير القرآن والسُنّة النبوية فتجري المناقشة فيها. وكنّا ننتقل في كثير من الأحيان من علوم الدين إلى الطبّ أو الجغرافيا أو الرياضيات أو الشعر، وحتى إلى الفلسفة أو الفلك في بعض الأحيان، على الرغم من تحظير السلطان القاطع دراسة هاتين المادتين. ومن حُسْن طالعنا أننا حظينا بأساتذة منكبّين على جميع ميادين المعرفة. وللتميّز عن عامّة الناس كان بعضهم يلوثون عمائمهم حول طاقيّات عالية محدّدة شبيهة بالتي سأراها على رؤوس الأطباء خلال إقامتي في رومة. وأمّا نحن معشر الطلاب فكنّا نعتمر مجرّد قلنسوة.

وعلى الرغم من علمهم وزيّهم كان معظم أساتذتنا دمثين ذوي جَلَد على الشرح والتفسير متيقّظين لمواهب كلّ منا. وكانوا يدعوننا في بعض الأحيان إلى منازلهم لإطلاعنا على مكتباتهم، فأحدهم كان يملك خمسمئة مجلّد، وآخر ألف مجلّد، وثالث أكثر من ثلاثة آلاف مجلّد، وكانوا يشجّعوننا على تحسين خطوطنا لنتمكّن من نسخِ أَنْفَسِ الكتب لأنّه على هذا النحو تنتشر المعرفة حسبما كانوا يؤكّدون.

وحينما كنت أحظى ببعض الوقت بين درسين كنت أسير إلى محطّة الحمّالين. فإذا وجدت هارون ذهبنا لشرب كوب من اللبن الرائب أو للتسكّع بقرب ساحة «العجائب» حيث قلّما كان فضولنا يخيب. وإذا كان «المنقّب» متغيباً من أجل حمل يقوم به اجتزت سوق الأزهار وذهبت لرؤية مريم.

وكنّا قد اتفقنا على أن تضع قشّة عشب معقودة في فجوة داخل جدار خارجي في كلّ مرة يكون فيها أبي في الريف لقصاء الأسبوع. وذات يوم من أواخر شهر

صفر مررتُ وكانت القشّة المعقودة هناك فهـززت حبل الجـرس فصاحت وردة من الداخل قائلة:

«زوجي غائب، وأنا وابنتي وحدنا، ولا أستطيع فتح الباب لكم.

ـ هذا أنا، حسن!».

وشرحت لي مرتبكة أنّ رجـالاً جاءوا قبـل بضع دقـائق وقرعـوا الباب بـإلحاح طالبين إليها إدخالهم. وكانت خائفة، وكذلـك كانت مـريم التي بدت لي شـاحبة ناحلة.

«ما الذي يجري في هذا البيت؟ يبدو أنكما بكيتما كلاكما».

وسألت دموعهما من جديد، بيد أنّ وردة سرعان ما تمالكت وقالت:

«إنها الجحيم منذ ثلاثـة أيام. فنحن لا نجـرؤ على الخـروج قطّ. والجارات لا ينقطعن عن المجيء لسؤالي عمّا إذا كان صحيحاً أنّه...»

واختنق صوتها فأكملت وعيناها غائمتان:

«يأتين للسؤال عما إذا كنت مصابة بالمرض».

عندما يقولون في فاس «المرض» فإنما يعنـون الجُذام، وعنـدما يقـولون «الحيّ» بلا أي تحديد فإنما هو حيّ المجذومين.

لم أكن قد فهمت بعدُ ما قالتا عندما سمعت قرعاً على الباب.

«باسم السلطان، نحن من رجال الشرطـة! لستما وحـدكما الآن! هنـاك رجل دخل قبل قليل وفي وسعه أن يكلّمنا».

فتحت، وكانوا لا يقلّون عن عشرة أشخـاص، ضابط وأربـع نساء متّشحـات بالبياض، والآخرون جنود.

«أهذا هو البيت الذي تقيم فيه مريم بنت محمد الوزّان الغرناطي»؟

ونشر الضابط ورقة وقال:

«هذا أمر من شيخ المجذومين. علينا أن نصطحب مريم إلى الحيّ».

خاطرة واحدة كانت تجول في ذهني: «لو كان الأمر مجرّد كابوس سخيف»! وسمعتُني أقول:

«ليس الأمر سوى تشهير! إنّه لم يحدث يوماً أن كان في جسدها لطخة واحدة! إنها نقية نقاء آية مُنْزَلة!

ـ هذا ما سوف نراه. هؤلاء النسوة الأربع مكلَّفات بفحصها على الفور».

ودخلنَ بصحبتها إحدى الغرف. وحاولت وردة اللحاق بهن ولكنّه حيل بينها وبين ذلك. وأمّا أنا فبقيت في الخارج مشوّش الخاطر، بيد أنّي كنت أحاول مع ذلك إقناع الضابط بالاحتكام إلى العقل. وكان يجيبني بهدوء متظاهراً بالموافقة على آرائي، غير أنه كان ينتهي إلى القول بعد كل مرافعة من مرافعاتي إنّه ليس سوى موظّف، وأنّ لديه أمراً ينبغي تنفيذه، وأنّ عليّ التوجّه بكلامي إلى شيخ المجذومين.

وبعد عشر دقائق خرجت النساء من الغرفة. كانت اثنتان منهنّ تمسكان بمريم من تحت إبطيها وهما تجرّانها. وكانت عيناها مفتوحتين، لكنّ جسدها كان رخواً؛ ولم يكن أيّ صوت يخرج من حلقها؛ وبدت وكأنها عاجزة عن فهم ما يجري لها. وهمست إحدى النساء كلمتين في أذُن الضابط فأشار إلى أحد رجاله فتقدّم من مريم وطرح عليها قماشة خشنة بلون التراب.

أختك مريضة. علينا أن نذهب بها».

وحاولت اعتراض الطريق فأزاحوني بغلظة وتحرّك الموكب المشؤوم. وتجمّع بعض المتسكّعين في نهاية الدرب المسدود فأخذت أصرخ وأتوعدّ وأقوم بكلّ أنواع الحركات. بيد أنّ وردة لحقت بي متوسّلة:

«أدخل بحقّ السماء! لا ينبغي أن تؤلّب الجوار بأسره. فقد لا تستطيع أختك قطّ أن تتزوّج».

رجعتُ إلى البيت وصفقتُ الباب وأخذتُ أضرب الحائط بقبضتيّ غير شاعر

بالألم. واقتربت مني وردة. وكانت تنحب، غير أنّ ذهنها ظلّ صافياً.

«انتظر حتى يبتعدوا ثم تـذهب فتكلّم خالـك. إنّ له معـارف في القصر. وفي وسعه أن يُعيدها».

وقبضتْ على رُدنيّ وسحبتني إلى الوراء وقالت:

«إهدأ، لقد تجرّحت يداك».

وألقيتُ بذراعيّ بقوّة فوق كتفي وردة وهصرتها بجنون من غير أن أفكّ قبضتي وكأنّي ما زلت أضرب الجدار. وتهالكت على صدري وسالت دموعهـا على نحـري وغطّى شعرهـا عينيّ، ولم أعد أتنفّس إلا نَفَسهـا المُحْرِق الـرطب المعطّر. ولم أكن أفكّر فيها. ولا كانت تفكّر فيّ. ولا كان جسدانا لنا. ولكنّهما كان مـوجودين بغتـة لأنفسهما وقد ألهبهـا الغضب. ولم أكن قد أحسستُ من قبـلُ يومـاً برجـولتي، ولا كنت قد أحسست يوماً بأنها امرأة. كانت في الثانية والثلاثين، العمـر المناسب لأن تكون جدّة، بيد أن وجهها كان خاليـاً من التجاعيـد وشعرهـا أسود بلون اليُسر. ولم أجرؤ على الحـراك لئلا يفتضـح أمري، ولا عـلى الكلام خـوفاً من أن أُبْعِـدها عني، ولا حتّى على فتح عينيّ خـوفاً من أن اعـترف لنفسي بأنّني كنت أعـانق المرأة الوحيدة المحرّمة عليّ تحريماً قاطعاً، امرأة أبي.

إلى أين كان يسافـر خاطـرها في تلك اللحـظات؟ وهل كـانت تحسّ كما أحسٌ بـالانزلاق نحـو دوّامة اللذّة؟ لا أظنّ ذلـك. أكانت فقط خـدِرة متـورّمـة جسـداً وروحاً؟ أكانت في حاجة إلى التشبّث بالإنسان الوحيد الذي كان يقاسمها كَرْبها؟ لن أعـرف قطّ ذلك لأنّـه لم يسبق لنا أن تحـدّثنا عن الأمـر، ولا سبق لنا يـوماً أن ذكّرتنا كلماتنـا أو حركـاتنا بـأنّه وُجـدت لحظة كنّـا فيها رجـلاً وامرأة ربـطت بينهما أصابع القدر التي لا ترحم.

وكـان منها أن تملّصت. وقـد فعلت ذلك بشكـل خفيّ وأرفقتـه بهـذه الكلمات المعبّرة عن ابتعاد رفيق:

«إذهـب يـا حسن يـا بنيّ، سـوف يُعيننـا الله. إنـك خـير أخ يمكن أن يكـون لمريم!».

وجريت وأنا أعدّ خطواتي بصوت خافت لكيلا ينشغل ذهني بأيّ شيء آخر. وظللت كذلك حتى وصلت إلى بيت خالي.

* * *

أصغى إليّ خالي من غير دهشة، لكنّني أحسست بأنّه تأثّر أكثر ممّا كنت أظنّ أنه سيفعل نظراً لغياب العلاقات بينه وبين أختي غياباً كاملاً. وعندما انتهيت من كلامي قال لي:

«شيخ المجذومين رجل نافذ في هذه البلاد. إنّه وحده المؤهلّ لأن يسحب المصابين من فاس، ووحده صاحب السلطان على أهل «الحيّ». وقليل هم القضاة الذين يتجرّأون على معارضة قراراته، ونادراً ما يسعى السلطان نفسه إلى التدخّل في مجاله الجنائزي. وعلاوة على ذلك فإنّه غنيّ غنى فاحشاً لأنّ كثيراً من المؤمنين يقفون أملاكاً على الحيّ بعد موتهم، إمّا لأنّ أسرتهم كانت قد ابتليت بالمرض، وإما لأنّ مرأى أولئك المساكين كان قد استدرّ شفقتهم. والشيخ هو الذي يدير جميع هذه الأوقاف. وهو ينفق جزءاً من الأموال لتأمين الغذاء والمأوى والعناية للمرضى، غير أنّه تبقى له مبالغ طائلة يستعملها في جميع أنواع التجارة لتنمية ثروته الشخصيّة. ومن المحتمل جدّاً أن يكون شريكاً للزروالي في بعض الأعمال، وأن يكون قد قبل بإسداء خدمة إليه للسماح له بالانتقام منّا».

لقد سمعت خالي يقول بوضوح: منّا»! ولم تَفُتْه دهشتي فقال:

«تعلم منذ مدّة رأيي في عشق أبيك لهذه «الرومية». فقد أضاع رشده ذات يوم لأنّها كادت تهجره، ولأنّه قدّر أن شرفه تعرّض للأذى، ولأنّه أراد الانتقام من القشتاليين بطريقته الخاصة. ومذّاك لم يستعد حكمه الصحيح على الأمور. ولكنّ ما حدث لا يخصّ محمّداً ولا وردة ولا حتى هذه المنكودة مريم؛ إن الزروالي قد انتهك جماعة الغرناطيين كلّها في فاس. وعلينا أن نقاتل، حتى من أجل ابنة «الرومية». إنّ أيّة جماعة تتحلّل ما إنْ توافقُ على التخلّي عن أضعف أفرادها».

ما كانت حججه لتهمّ كثيراً؛ فقد أعاد إليّ موقفُه الأمل.

«أتظنّ أنّ في مقدورنا إنقاذ أختي؟

ـ أسأل الله عزّ وجلّ أن يمنحك الأمل والصبر! إنّ علينا مقاتلة أشخاص نافذين ومن أتباع الشيطان. وأنت تعرف أن الزروالِيّ صديق للسلطان.

ـ لكنْ إذا قُدّر لمريم أن تُقيم طويلاً في «الحيّ» فسوف ينتهي بها الأمر إلى أن تغدو مجذومة حقّاً.

ـ ينبغي أن تذهب لزيارتها، وأن تقول لها ألاّ تختلط بالآخرين، وأن تحمل إليها للأكل لحم السلحفاة فإنّه يساعد على مقاومة المرض. ولتحتفظْ على الأخصّ بنقاب مبلول بالخلّ فوق وجهها».

ونقلتُ هذه الأقوال إلى وردة. وتدبّرتِ الأشياء المذكورة، وعندما عاد أبي إلى المدينة بعد بضعة أيام ذهبتْ معه إلى أطراف «الحيّ». ونادى أحد الحراس مريم فجاءت لرؤيتهما. وبدت خائرة مغمومة تائهة، بعينين حمراوين كالدم في وجه شاحب. وكان يفصلها عن والديها مجرى ماء، غير أنّهما تمكّنا من التحدّث إليها ووَعْدِها بخلاص قريب وتوصيتها بالمطلوب منها عمله. وأمّا الأشياء التي أرادا إيصالها إليها فقد عهدا بها إلى الحارس وهما يدسّان بعض الدراهم في يده.

وكنت لدى عودتهما انتظرهما عند الباب. وتظاهر أبي بعدم رؤيتي. وأسندت إحدى ركبتيّ إلى الأرض وتناولت يده وألصقتها إلى شفتيّ. وبعد بضع لحظات طويلة سحبها ومرّ بها على وجهي ثم على رقبتي التي أخذ يربتّ عليها. ونهضت وارتميت بين ذراعيه. وهتف بوردة بصوت منكسر:

«جهّزي لنا الطعام. نحن بحاجة إلى الحديث».

وهُرِعتْ.

وأمّا بشأن الحديث فإنّنا لم نقل شيئاً كثيراً، لا أنا ولا هو. فقد كان المهمّ في تلك اللحظة أن نكون معاً على ذلك النحو، رجلاً لرجل للمرّة الأولى، جالسيْن على الحصير نفسه، غامسيْن اليد بالطريقة عينها في طبق الكسكسيّ نفسه. لقد كانت خطبة مريم قد فرقّت بيننا؛ وعجّل عذابها في مُصالحتنا. ولسوف يقرّب محمّداً كذلك من أسرة أمّي.

ففي ذلك المساء حضر خالي إلى بيت أبي الذي لم يكن قد تخطّى عتبته منذ وصولنا إلى فاس قبل عشر سنوات. وأكرمته وردة إكرامها ضيفاً خطير الشأن فقدّمت له شراب اللوز ووضعت أمامه سلّة كبيرة حافلة بالعنب والمشمش والكمثرى والخوخ. وحصلتْ بالمقابل على ابتسامات رقيقة وكلمات مواسية. ثم انسحبت خلف أحد الأبواب تاركة إيّانا نتحدّث ونتناقش.

* * *

انقضى ما بقي من العام بأكمله في مساعٍ لا تكلّ ومؤامرات ليس لها آخر. وكان ينضمّ إلينا في بعض الأحيان أشخاصٌ من خارج الأسرة حاملين نصائحهم، مشاركين إيّانا خيباتنا. وكان معظمهم من الغرناطيين، غير أنّه كان بينهم اثنان من أصدقائي، أحدهما بالطبع هارون الذي لن يلبث أن يجعل من قضيتي قضيته إلى حدّ انتزاعها منّي. وكان اسم الثاني أحمد، وكان يلقّب في المدرسة بالأعرج. وليس في وسعي وأنا أتذكّره أن أمنع ريشتي من التوقّف عن حكّها المتعرّج، ونفسي من البقاء لحظة ساهماً مرتبكاً. فقد سمعت الناس من تونس إلى القاهرة إلى مكة، وحتى إلى نابولي، يتحدّثون عن الأعرج. وما زلت أتساءل عمّا إذا كان هذا الصديق القديم سيترك بعض الأثر في التاريخ أم أنه سيجتاز ذاكرة الناس كما يجتاز سبّاحٍ جسور نهر النيل من غير أن يغيّر شيئاً من مجراه ولا من فيضانه. ومع ذلك فإنّ واجب المؤرّخ يقتضي مني نسيان مشاعري لأقصّ بأكثر ما يمكن من أمانة ما عرفته عن أحمد منذ دخوله الحلقة للمرّة الأولى في ذلك العام واستقبال الطلاب إيّاه بالضحك والسخرية. فصغار الفاسيين لا يرحمون الغرباء، ولا سيّما إذا بدا أنهم وصلوا للتوّ من مساقط رؤوسهم في الأقاليم، وكانوا على الأخصّ مصابين بعاهة من العاهات.

وأجال الأعرج طرفه في الحلقة وكأنه يدوّن كل ابتسامة وكل تكشيرة، ثم أتى فجلس بجانبي، إمّا لأنّ المكان كان أقرب الأمكنة تناولاً، وإمّا لأنه رأى أنّني كنت أنظر إليه بغير ما كان الآخرون ينظرون. ولقد شدّ على يدي مصافحاً، بيد أنّ كلماته لم تكن مجرّد تحيّة:

«أنت مثلي غريب في هذه المدينة اللعينة».

لم تكن النبرة متسائلة، ولا كان الصوت خافتاً. ونظرتُ حولي منزعجاً فأضاف يقول:

«لا تخفْ من الفاسيين، إنهم محشوّون جدّاً بالمعرفة فلا مكان عندهم لأدنى شجاعة».

كان يصرخ تقريباً فأحسست أنني موسوق إلى جسدي المدافع في غلّ لم يكن يخصّني. وحاولت الخروج من ذلك بصوت ممازح.

«كيف تقول ذلك وقد جئت تطلب المعرفة في إحدى مدارس فاس؟».

وابتسم ابتسامة متّقِدة وقال:

«لست أطلب المعرفة، فهي تُوثِق اليدين بأحكم ممّا يُوثِقهما القيد. أرأيت في حياتك فقيهاً يقود جيشاً أو ينشيء مملكة»؟

وبينما هو يتكلم دخل المعلّم متمهّل الخطوة منتصب القامة. ووقف الصف بأكمله إجلالاً.

«كيف تريد أن يقاتل رجل على رأسه هذا الشيء المترجرج؟»

كنت قد بدأت آسف لأن يكون أحمد قد جاء يجلس بقربي. ونظرت مرتاعاً وقلت:

«اخفض صوتك، أتوسّل إليك، سوف يسمعك المعلم».

وربّت على ظهري تربيتة أبويّة وقال:

«لا تكن خوّافاً! ألم تكن في صباك تقول بصوت مرتفع حقائق كان يُخفيها الكبار؟ الحقّ كان معك في ذلك الوقت إذن! وها إنّ عليك أن تستعيد في نفسك زمن الجهل لأنّه كان كذلك زمن الشجاعة».

ولكي يدلّل على ما أكّده قبل قليل نهض فتقدم وهو يظلع من منبر الأستاذ وخاطبه من غير مقدّمات، الأمر الذي انتفت معه أدنى حركة داخل الصف. قال:

«اسمي أحمد، ابن الشريف سعدي من آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام. وإذا كنتُ أظلع وأنا أمشي فلأنّني جُرحت العام الماضي وأنا أقاتل البرتغاليين الذين اجتاحوا أراضي إقليم السوس».

لم أكن أدري إذا كان أكثر انتماء منّي إلى رسول الله؛ وأمّا عاهته فقد أصيب بها من يوم مولده كما علمت فيما بعد من أحد أقاربه. إنهما إذن كذبتان، لكنّهما أرهبنا كل من كان هناك، بدءاً بالأستاذ.

وعاد أحمد إلى مكانه مرفوع الرأس. فقد غدا منذ يومه الأوّل في المدرسة أكثر الطلاب تجلّة وارسخهم موضع إكبار. فلم يكن يسير إلا وحوله لفيف من الزملاء المطيعين يضحكون لضحكه ويرتجفون لغضبه ويشاطرونه كلّ خصوصيّاته.

وقد كانت تلك الخصوصيات صعبة المراس. فذات يوم تجرّأ أحد معلمينا، وهو فاسيّ من أصل عريق، على التشكيك في النسب الذي أدّعاه الأعرج. وهو رأي لم يكن بالإمكان الاستخفاف به لأنّ ذلك الأستاذ كان أشهر أساتذة المدرسة، إذ كان قد حصل قبل مدّة على امتياز إلقاء خطبة الجمعة في المسجد الجامع. ولم يجب أحمد على الفور، واكتفى بأن ابتسم ابتسامة غامضة للطلاب الذين وجّهوا إليه نظرات مستفهمة. وفي يوم الجمعة التالي انتقل الصفّ بأسره للاستماع إلى الخطيب. وما إن فتح هذا فمه بالكلمات الأولى حتى انتابت الأعرج نوبة سعال لا آخر لها. وشيئاً فشيئاً أخذ آخرون يتناوبون السعال، وما هي إلا دقائق حتى كانت آلاف الحناجر تضجّ وتتنحنح في آن معاً، وكانت عدوى عجيبةٌ امتدّت إلى آخر الخطبة، حتى إنّ المصلين رجعوا إلى بيوتهم من غير أن يفقهوا أدنى عبارة. ومذّاك حرص ذلك الأستاذ على الكفّ إلى الأبد عن الكلام على نسب أحمد الشريف، وإنْ كان موضع شكّ.

أمّا أنا فلم أقتفِ قطّ أثر الأعرج، ولذلك كان ولا شكّ يحترمني. فما كنّا نتقابل إلا على حدة، في بيتي أحياناً، وفي بيته أخرى، وفي المدرسة بالذات حيث كانت تُفرد غرف للطلاب الذين لا تقيم عائلاتهم في فاس؛ وقد كان ذووه يسكنون عند أطراف مملكة مرّاكش.

وعليّ أن أعترف بأنّنا حين كنّا ننفرد الواحد بالآخر كانت بعض تصرّفاته تنفرّني وتقلقني، بل تخيفني في بعض الأحيان. لكنْ كان يحدث كذلك أن يبدو كريماً متفانياً. وقد بدا لي كذلك على كل حال في ذلك العام، يقظاً حيال أدنى ما يبدر مني من علامات الوهن، موفّقاً في كل مرّة إلى النبرة الكفيلة بالتشديد من عزيمتي.

وكنت في أشدّ الحاجة لوجوده، كما لوجود هارون، حتى وإنْ بدا كلّ منهما عاجزاً عن انقاذ مريم. وكان يبدو أنّ خالي وحده قادر على القيام بالمساعي اللازمة. فقد كان يقابل بعض الفقهاء وأمراء الجند وبعض وجهاء المملكة؛ وكان بعضهم يُبدي التطمين، وآخرون يَبْدُون مُحَرجين، ويَعِدُ آخرون كذلك بحلٍّ قبل العيد القادم. ولم نكن ندع رجاء إلا لنتعلّق بآخر ليس أكثر منه جدوى.

إلى أن نجح خالي بعد ألف مداخلة في التقرّب من ابن الملك البكر، الأمير محمّد الملقّب بالبرتغالي لأنه خُطف وهو في السابعة من عمره في مدينة «أرزيلا» واقتيد إلى البرتغال فبقي فيها أسيراً سنوات طوالاً. وكان الآن في الأربعين من عمره، أي في سنّ خالي، وقد ظلّا مدة طويلة يتحدّثان عن الشعر ويتذكّران نكبات الأندلس. وإذ أثار خالي بعد ساعتين مشكلة مريم، فقد استنكر الأمير الأمر ووعد بإيصاله إلى مسامع والده.

ولم يسعفه الوقت لتحقيق ما وعد لأنّ السلطان مات، يا للمصادفة الغريبة! في اليوم التالي بالذات لزيارة خالي إلى القصر.

ولو قلت إن ذويّ بَكَوْا طويلاً العاهل العجوز لكان ذلك كذباً محضاً، وليس ذلك لأنّه كان صديق الزرواليّ وحسب، وإنما لأنّ الروابط المعقودة حديثاً بين ابنه وبين خالي كانت تدفعنا إلى التفاؤل أيضاً بأفضل النتائج.

عام القافلة

٩١٠ هـ (١٤ حزيران «يونية» ١٥٠٤ م - ٣ حزيران «يونية» ١٥٠٥ م)

كان ذلك العام عام رحلتي الكبرى التي ستقودني عبر جبال الأطلس وسجلماسة ونُميدية إلى المنبسط الصحراوي، ثم إلى تومبكتو حاضرة بلاد الزنوج العجيبة.

فقد كلّف سلطان فاس الجديد خالي بحمل رسالة إلى ملك السودان العظيم، الأسكيا محمد توري، يبلّغه فيها تسلّمه الحكم ويعِده بتوثيق روابط الصداقة بين المملكتين. وكما كان خالي قد وعدني قبل خمس سنوات لدى رحلته إلى المشرق، فقد دعاني إلى مرافقته؛ وقد حدّثت أبي بالأمر فما فكّر في الاعتراض نظراً للحيتي الكثّة وإنْ كانت ناعمة الملمس.

وتحرّكت القافلة مع بوادر الخريف النديّة مؤلفةً من مئتي راحلة تحمل الرجال والمؤن والهدايا. وقد زُوّدنا بحرس على جمال لحمايتنا طوال الرحلة وببعض الخيّالة الذين كان عليهم أن يعودوا أدراجهم عند مداخل الصحراء الكبرى. وقد انبغى أن يرافقنا كذلك جمّالون وأدلّاء محنّكون وعدد كاف من الخدم لتعظيم السفارة في عيون مُضيفينا. وانضمّ إلى الموكب الرسميّ بعد استئذان خالي عدد من التجّار مع بضائعهم راجين الاستفادة في وقت معاً من الحماية الملكية في أثناء الطريق ومن المعاملة المميّزة التي لن نلبث أن نلقاها في تومبكتو.

اتُّخذت الاستعدادات بعناية فائقة ودامت طويلاً جدّاً بالنسبة إلى ما كنت أشتهي، ولم أكن أتمكّن في الأيام الأخيرة من النوم ولا القراءة، ولا كنت أتنفّس إلا أنفاساً متباعدة مضغوطة. فقد كنت بحاجة إلى الرحيل على الفور، إلى التشبّث عالياً جدّاً بسنام جمل، إلى أن يبتلعني الرحب الصحراوي الذي يتّخذ فيه

الناس والبهائم والماء والرمل والذهب جميعاً اللون نفسه والقيمة ذاتها والتفاهة الفريدة عينها.

وسرعان ما اكتشفت كذلك أن في وسع المرء أن يترك للقافلة أن تبتلعه. فعندما يعرف رفاق السفر أنّ عليهم خلال أسابيع وأشهر أن يسيروا في الاتجاه نفسه، وأن يواجهوا الأخطار عينها، وأن يعيشوا ويأكلوا ويصلّوا ويتسلّوْا ويقاسوا ويموتوا أحياناً معاً، فإنّهم ينقطعون عن أن يكونوا غرباء بعضهم عن بعض؛ فلا تبقى رذيلة خافية ولا يدوم تصنّع. وإذا نُظر إلى القافلة من بعيد فهي موكب؛ وإذا نُظر إليها عن كثب فهي قرية بكلّ ما فيها من حكايات ودعابات وألقاب ومكائد ونزاعات ومصالحات وأمسيات غنائية وشعرية، قرية تبدو لها جميع الأمصار بعيدة، حتّى تلك التي جاء أصحاب القافلة منها، وحتّى تلك التي يجتازونها من وقتهم. إنها بعيدة بُعداً شديداً كنت في حاجة إليه لنسيان هموم فاس المضنية وضراوة الزروالي وقسوة شيخ المجذومين التي لا توصف.

* * *

اجتزنا في اليوم الذي انطلقنا فيه مدينة «سفرو» القائمة عند سفح الأطلس على بعد خمسة عشر ميلاً من فاس. وأهلها أغنياء، بيد أنّ ملابسهم مزرية ملطّخة بالدهن، وذلك بسبب أمير من الأسرة المالكة كان قد ابتنى مقرّاً فأرهق بالضرائب كلّ من يُظهر بعض الرخاء. وإذ كنّا نجتاز الشارع الكبير فقد قرّب خالي مطيّته من مطيّتي ليهمس في أذني قائلاً:

«لو قال لك أحد إن البخل ابن الحاجة فقل له إنه مخطىء. إنّ الضرائب هي التي ولدت البخل!».

وعبرت القافلة غير بعيد من «سفرو» الممرّ الجبليّ الذي تخترقه الطريق إلى «نُميدية». وبعد يومين كنّا في قلب الغابة عند أطلال مدينة قديمة تُعرف بـ «عين الأصنام». وكان هناك معبد من عادة الرجال والنساء أن يجتمعوا فيه مساءً في وقت معيّن من السنة. وإذ ينتهون من طقوسهم يطفئون الأنوار ويتمتّع كل رجل بالمرأة التي تكون بقربه. ويقضون الليل بطوله على هذا النحو، وفي الصباح

يُذَكَّرون بأنّه لا يحقّ لأيّة امرأة من الموجودات الاقتراب من زوجها مدة عام كامل. وكان كهّان المعبد يتعهدون بالتربية جميع الأطفال الذين يُولدون في تلك المدّة من الزمن. ولقد هُدم هذا المعبد والمدينة بأسرها في أثناء الفتح الإسلامي؛ وبقي الاسم وحده شاهداً على عصر الجاهلية ذاك.

مررنا بعد يومين بالقرب من قرية جبلية حافلة بالآثار القديمة، وتدعى «الآبار المئة» لأن في جوارها آباراً عميقة إلى حدّ يخيّل معه أنها مغاور. ويُحكى أنّ إحداها مؤلفة من عدّة طبقات، وأن بداخلها حجرات مسوّرة بعضها كبيرة وبعضها صغيرة، ولكنّها جميعاً مرتّبة. ولهذا يقصدها من فاس الباحثون عن الكنوز فينزلون إليها بالحبال مزوّدين بالفوانيس. وكثير منهم لا يخرجون منها قطّ.

بعد أسبوع على مغادرتنا فاس اجتزنا بمكان يدعى «أمّ جُنيبة» درجت فيه عادة عجيبة: هناك مجرى ماء تمرّ القوافل بمحاذاته، ويقال إنّ على كلّ من يجتاز به ألاّ يتقدّم إلا راقصاً قافزاً، وآلاّ أصيب بالحمّى الرباعية. وفعلت فرقتنا بأسرها ذلك بطرب، حتّى أنا، وحتى الحرّاس، وحتى التجّار الكبار، وكان بعضنا يقوم بذلك بدافع اللعب، وآخرون بدافع الطِيَرَة، وآخرون أيضاً لتفادي لسع الحشرات، باستثناء خالي الذي منعته كرامته كسفير من سلوك هذا المسلك الصبيانيّ. ولقد كان عليه أن يندم على ذلك أشدّ الندم.

كنّا قد أصبحنا في أعلى الجبال التي تهبّ عليها، حتى في الخريف، ريح شمالية قارسة غير مُنْتَظَرة. وما كنت لأتوقع أن أجد في أمكنة بمثل هذا العلوّ الشاهق والمُناخ القاسي أناساً بمثل هذا الحُسْن في الهندام، ولا بمثل هذا القدر في العِلْم على الأخصّ. وهناك بنوع خاص في أحد أبرد الجبال قبيلة تدعى «مستازة» أبرز نشاطها نسخ عدد كبير من الكتب بأجمل الخطوط وبيعها في المغرب وخارجه. وقد اشترى تاجر جَنَويّ عجوز مُقيم في فاس اسمه السيد «توماسّو دي مارينو»، وكان قد انضمّ إلى قافلتنا وكان لي معه أحاديث كثيرة، من قرية واحدة حوالى مئة كتاب جميلة الخطوط ومجلّدة. وشرح لي أنّ علماء بلاد الزنج ووجهاءها يشترون كثيراً من الكتب وأنّ الاتّجار بها مُجْزٍ للغاية.

وإذ توقّفنا لقضاء الليل في تلك المحلّة فقد صحبت الجنويّ إلى عشاء دعاه إليه عميله. وكان المنزل حسن البناء يحلّيه الرخام والقاشاني والبُسُط الصوفيّة الرقيقة فوق الجدران، وعلى الأرض سجّادات من الصوف أيضاً ولكنّها ملوّنة بألوان زاهية تسرّ الناظر. وبدا أنّ جميع المدعوين كانوا موسرين، ولم أتمالك من أن أطرح على مضيفنا، متحرّزاً أشدّ التحرّز في اختيار عباراتي، سؤالاً كانت تتحرّق له شفتاي: كيف تسنّى للناس في هذه المنطقة القارسة البرد الموغلة في الجبل أن يكون نصيبهم من المتاع والعِلْم بهذا القدر؟

وقهقه ربّ البيت وقال:

«تريد بالمختصر أن تعرف لماذا لم يكن جميع أهل هذا الجبل جُفاة حُفاة متسوّلين؟»

ما كنت لأعبّر عن الأمر على هذا النحو، ولكنّ ذلك بالضبط ما كان يحيّرني.

«اعلم أيها الزائر الشاب أنّ أعظم منّة من الله تعالى على إنسان هو أن يجعله يُولد في جبل مرتفع تقطعه طريق تمرّ فيها القوافل. فالطريق تجلب المعرفة والغنى، والجبل يمنح الحماية والحرية. وانتم يا أهل المدن في متناول يدكم كلّ الذهب وجميع الكتب، ولكنّ لكم أمراء عليكم أن تطأطئوا لهم الرؤوس...»

وعدل إلى القول:

«هل أستطيع أن أكلّمك كما يكلّم عمّ ابن أخيه، كما يكلّم شيخ عجوز تلميذه بلا لفّ ولا دوران حول عِبَر الحياة؟ أتعدني بألّا تستاء؟»

وشجّعته ابتسامتي العريضة على المتابعة:

«عندما يعيش المرء في مدينة يوافق على أن يضع جانباً كلّ كرامة وكلّ عزّة لقاء حماية من سلطانٍ يكون ثمنها غالياً جدّاً، حتّى حين لا يكون هذا السلطان قادراً على تأمينها. وعندما يحيا المرء بعيداً عن المدن، ولكنْ في السهول والتلال، فإنه يفرّ من سطوة السلطان وجنوده وجُباته؛ ويكون مع ذلك تحت رحمة النهّابين من البدو الرحل، عرباً وبربراً أحياناً، يعيثون في البلاد فساداً فلا يمكن رفع جدار من غير خوف من رؤيته مهدوماً عمّا قريب. وعندما يعيش المرء في مكان يتعذّر

الوصول إليه، ولكنْ بعيداً عن الطرق، فإنّه يكون بالطبع في مأمن من الاستعباد كما من النهب؛ ومع هذا فإن الأمر ينتهي به، لعدم اتّصاله بالمناطق الأخرى، إلى العيش عيش البهائم، جاهلاً محروماً مستوحشاً».

وقدّم إليّ قدح نبيذ رفضت بأدب تناوله. وتناول هو واحداً فحسا منه حسوة قبل أن يضيف:

«نحن وحدنا محظوظون: يمرّ بِقُرانا أناس من فاس، ومن نميدية، ومن بلاد الزنج، تجّاراً وأعياناً وطلّاباً وعلماء؛ ويحمل إلينا كلّ منهم قطعة ذهبية أو ثوباً وكتاباً للقراءة والنسخ، أو مجرّد خبر أو طُرفة أو كلمة؛ وعلى هذا نُراكِمُ بمرور القوافل الثروةَ والمعرفةَ في حمى هذه الجبال الوعرة التي نتقاسمها مع النسور والغربان والسباع، رفاقنا في العزّة والأنفة».

ونقلتُ هذا الحديث إلى خالي الذي تنهدّ من غير أن يتكلّم ثم رفع عينيه إلى فوق. ولم أدرِ إذا كان ذلك لتفويض أمره إلى الخالق، أو لتأمّل طيران أحد الكواسر.

كانت مرحلتنا التالية في جبال «زيز» المسمّاة كذلك لأنّ نهراً بهذا الأسم ينبع منها. وينتمي أهل هذه المنطقة إلى قبيلة من البربر مرهوبة الجانب معروف أفرادها بـ «الزناغا». وهم رجال أشدّاء يلبسون فوق جلودهم تبّانات من الصوف ويلفّون حول سيقانهم خِرَقاً يتّخذونها نعالاً؛ ويسيرون حاسرين في الشتاء كما في الصيف. غير أنّي لا أستطيع وصف هؤلاء الناس من غير أن أذكر أمراً من أمورهم لا يصدَّق ويبدو لي أنه ناجم عن الخوارق: إن كميّة هائلة من الأفاعي تزحف بين بيوتهم وادعة أليفة كالهرر أو الكلاب الصغيرة. وعندما يجلس أحدهم للطعام تتجّمع الأفاعي حوله لتتبلّغ بفتات الخبز وفضلات الأطعمة التي يدعها لها.

وانحدرنا خلال الأسبوع الثالث من رحلتنا من فوق جبال الزيز عَبْرَ عدد لا يُحصى من بساتين النخيل ذي الثمار الطريّة الشهيّة باتجاه السهل الذي تقع فيه سجلماسة. أو عليّ أن أقول بالحري كانت تقع فيه تلك المدينة التي طالما أعجب بها المسافرون في الأيام الخوالي. ويقال إنّ الذي انشأها كان الإسكندر الكبير

بالذات، وأنّ شارعها الكبير كان بطول مسير نصف يوم، وأنّ كل بيت من بيوتها كان يحفّ به حديقة وبستان، وأنّه كان فيها مساجد رائقة ومدارس ذائعة الصيت.

ولم يبق من أسوارها العالية قديماً غير حواش نصف مهدّمة تجتاحها الأعشاب والطحالب. ولم يبق من أهلها غير عشائر متقاتلة تقيم كل عشيرة منها مع رئيسها في قرية محصّنة قريباً من أطلال سجلماسة القديمة. وهمّهم الأوّل تنغيص حياة العشيرة المقيمة في القرية المجاورة. ويُبدي بعضهم تجاه بعض قلوباً لا تعرف الرحمة، ويذهبون إلى حدّ هدم أقنية الماء واجتثاث أشجار النخيل وتحريض قبائل البدو الرحّل على إتلاف أراضي الخصوم وتدمير منازلهم، حتّى بدا لي أنهم يستحقّون ما آل إليه أمرهم.

كنّا قد قدّرنا أن نبقى ثلاثة أيام فوق أراضي سجلماسة لإراحة الناس والمطايا وشراء بعض المؤن وإصلاح بعض الآنية؛ ولكن كان مكتوباً علينا أن نبقى فيها عدّة أشهر لأنّ خالي مرض في اليوم التالي لوصولنا. فقد حدث أن كان يرتجف طوال النهار في حين كان الحرّ خانقاً، وأن كان يتفصّد العرق من جميع مسامه طوال الليل في حين كان البرد يعادل برد الجبال العالية. وشخّص تاجر يهودي من تجّار القافلة طويل الباع في الطبّ أنّ ما به حمى رباعية بدت عقاباً لخالي على رفضه التضحية لتقليد «أمّ جُنيبة» الراقص. والله وحده صاحب الثواب والعقاب!

***

كنت ألازم على الدوام خالي المريض متنبّهاً إلى أدنى حركة أو أقلّ تقطيبة تبدر منه، متأمّلاً إيّاه أحياناً ساعات طوالاً وهو نائم نوماً مضطّرباً. وأحسست فجأة أنّه شاخ وترهّل وسُقط في يده، في حين كان قادراً قبل يومين على إبقاء جمهور من الناس مبهوري الأنفاس وهو يتحدّث عن الروم والسباع والأفاعي. وقد أثّر بفضل مواهبه شاعراً وخطيباً، كما بفضل اتّساع معارفه، في محمّد البرتغاليّ الذي كان يستدعيه كل أسبوع لزيارته منذ توليه الحكم. وكان الموضوع موضوع تعيينه في منصب مستشار أو أمين أو عامل على إحدى النواحي.

وأذكر أنّي كنت قد سألت خالي لدى رجوعه من القصر في أحد الأيام عمّا إذا كان قد حدّث كرّة أخرى عن مريم. ولقد أجاب بنبرة فيها بعض الحرج:

«إنني أعمل على كسب ثقة السلطان شيئاً فشيئاً. ولن ألبث أن أصبح قادراً على الحصول منه بلا أدنى صعوبة على إطلاق سراح أختك. وأمّا الآن فعليّ أن أتصرّف بأكثر ما يمكن من الرفق، وسيكون من الخطأ أن أطلب منه أيّ شيء».

ثم أضاف وهو يضحك ضحكة أرادها أن تكون اعتذاراً:

«هكذا يجب أن تتصرّف عندما تخوض غمار السياسة»!

وبعد تسمية خالي سفيراً أعدت الكرّة. وكان عندها قد تحدّث بالأمر إلى السلطان فوعده بأن تكون الفتاة في بيتها لدى رجوعه من تومبكتو. وقد شكره خالي أجزل الشكر وجاء يحمل إليّ النبأ. وعليه فقد عزمت على الذهاب للمرة الأولى إلى «الحيّ» لأزفّ إلى مريم وعد العاهل ومعه خبر سفري.

لم أكن قد رأيتها منذ عام لفرط ما أكنّه لها من حبّ، ولكنْ بدافع من الجُبْن أيضاً. ولم تَفُهْ بكلمة عتاب واحدة، بل ابتسمت لي وكأنّها غادرتني لتوّها، وسألتني عن أخبار دروسي، وبدا لي من وداعتها وطمأنينتها ما أخجلني وأهاج ندمي وأفقدني صوابي. فربّما كنت أفضّل أن أراها تذرف الدمع، وأن يكون عليّ أن أواسيها، حتّى من بعيد إذ كان يفصل بيننا مجرى ماء. وزففت إليها بُخيَلاءٍ وعدَ السلطان. وكان ردّها بما يكفي فقط لعدم الإساءة إليّ. وحدّثتها عن رحيلي فتظاهرت بالتحمّس من غير أن أدري إذا كانت قد فعلت بدافع تهلّل مباغت أو بدافع السخرية. وبدا لي مجرى الماء ذاك الذي كان من الممكن أن يجتازه رجلٍ قويّ بقفزتين أعمقَ من وادٍ وأعرضَ من شعبة بحرية. وكانت مريم بعيدة جدّاً وغير قابلة أبداً لأن يُنْفَذ إلى داخلها، وكان صوتها يبلغني وكأنّما من خلال كابوس. وفجأةً وضعتْ مجذومة عجوز لم أكن قد رأيتها يداً بلا أصابع على كتف أختي. وصرختُ وجمعتُ حجارة لأقذفها باتجاهها طالباً منها الابتعاد. وتدخّلت مريم حامية المجذومة بجسدها وهي تقول:

«دع هذه الحجارة يا حسن وإلا جرحت صديقتي!»

وصدعتُ بالأمر،ولكنّني شعرت بأنّني على وشك أن يُغمى عليّ. وودّعتُ بإيماءة واستدرتُ للذهاب خائر القوى محطّم القلب. وهتفتْ أختي من جديد باسمي فنظرتُ إليها، وكانت قد اقتربت حتى بلغت حافة الماء. ولأوّل مرة منذ قدومي سالت دموعها:

«سوف تخرجني من هنا، أليس كذلك»؟

كان صوتها متضرِّعاً، وبالنسبة إليّ كان مُطَمْئِناً. وبحركة كنتُ أوّل من دهش لها مددتُ يديَّ أمامي كما لو كنت أضعها على المصحف ولفظت بصوت متمهّل مرتفع هذا القسم:

«أقسم بألّا أتزوّج قبل أن أكون قد أخرجتك من هذا الحيّ اللعين».

وابتسمتْ بكلّ صفحة وجهها. وعندها استدرتُ وابتعدت بكلّ ما أوتي ساقاي من قوة لأنّني كنت أودّ أن أحتفظ لها بهذه الصورة بالذات طوال رحلتي. وفي اليوم نفسه مررت لرؤية أبي ووردة وتزويدهما بالأخبار عن ابنتهما. وقبل أن أقرع الباب لبثت هنيهة بلا حراك. ففي فجوة من الحائط الخارجي كانت لا تزال قشّة العشب التي عقدتْها مريم يوم أسْرِها، وقد يبست واسودّت. وأخذتها بين أصابعي ووضعتها بشكل خاطف على شفتيّ. ثم رددتها إلى مكانها.

***

وقد فكّرت مرّة أخرى في تلك القشّة عندما فتح خالي عينيه. وقد سألته عمّا إذا كانت حاله قد تحسّنت؛ وأومأ برأسه أنْ نعم، بيد أنّه ما لبث أن عاد إلى النوم. ولسوف يظلّ هكذا بين الحياة والموت، عاجزاً عن الحراك، حتى أوّل الفصل الحار، في حين غدا من المستحيل اجتياز الصحراء. وعليه فقد كان علينا الانتظار عدة أشهر في ناحية سجلماسة قبل متابعة رحلتنا.

عام تومبكتو

٩١١ هـ (٤ حزيران «يونية» ١٥٠٥ م - ٢٣ أيّار «مايو» ١٥٠٦ م)

بدا أن خالي استعاد نشاطه تماماً حين تابعنا طريقنا في ذلك العام في بداية الفصل النديّ باتّجاه «طبلبالة» الواقعة في قلب صحراء نُميدية على بعد ثلاثمئة ميل من الأطلس ومئتي ميل جنوبي سجلماسة، في منطقة شحيحة المياه واللحم، باستثناء لحم النعام والغزلان، ولا يلطِّف فيها من طغيان الشمس سوى فيء نخلة في بعض الأحيان.

لقد احتسبنا تسعة أيام لهذه المرحلة، ومنذ العشيّة الأولى شرع خالي يحدّثني عن غرناطة، قليلاً كما فعل أبي قبل بضع سنوات. وربّما كان لمرض أحدهما ووهن الآخر الأثر نفسه، عنيتُ دَفْعَهما إلى نقل مشاهداتهما وحكمتهما إلى حافظة أكثر فتوّة وأقلّ تعرّضاً للخطر، أسأل الله تعالى أن يحفظ صفحاتي من النار والنسيان! وكنت انتظر من ليلة إلى أخرى تتمة روايته التي لم يكن يقطعها أحياناً غير نباح ابن آوى قريب.

وفي اليوم الثالث أقبل علينا جنديان يحملان رسالة من أحد السادة كانت أراضيه تقع غربي طريقنا. وكان قد علم بأنّ سفير ملك فاس مارّ بالمنطقة فأصرّ كل الإصرار على لقائه. واستعلم خالي عن الأمر من أحد الأدلّاء فأخبره بأنّ ذلك التعريج قد يؤخرّنا أسبوعين على الأقلّ. وعليه فقد اعتذر إلى الجنديين قائلاً لهما إنّ مبعوثاً من الملك لا يستطيع زيارة السادة الذين هم خارج خطّ سيره، بالإضافة إلى أنّ المرض قد أخّر مهمّته بشكل بالغ. ومع ذلك فإنه لكي يدلّل على مدى التقدير الذي يكنّه للسيد - اعترف لي فيما بعد أنه لم يسبق له أن سمع به قبلاً - سوف يرسل ابن اخته لتقبيل يده.

وهكـذا وجدتني فجـأة معهـوداً إليّ بسفارة، أنـا الذي لم يكن قـد أتمّ أعوامه السبعة عشر. وأرسل معي خالي فارسين وزوّدني ببعض الهدايـا التي كان علـيّ أن أقدّمها بـاسمه إلى ذلـك السيّد الـطيّب: رِكابـان مزينـان على الـطريقة المغـربية، ومهمازان رائعان، وحبلان من الحرير مضفوران بخيوط الذهـب، أحدهما بنفسجي والآخـر أزرق، وكتاب مجلّد حـديثاً يحكي سيرة أولياء أفـارقة، وقصيـدة مـدح. ودامت الرحلة أربعة أيام أفدت منها في أن أنظم بدوري بعض الأبيات على شرف مضيفي.

وإذ وصلت إلى المدينة، واسمها «اورزازات» على مـا أظنّ، قيل لي إنّ السيّـد يصطاد السبع في الجبال المجاورة، وأنّـه أصدر التعليـمات بأن انضمّ إليـه. وقبّلت يده ونقلت إليه تحيات خالي. وعيّن لي مسكناً أستريح فيـه إلى أن يرجـع. ورجع قبل هبوط الليل ودعاني إلى قصره. ومثلتُ أمـامه وقبّلتُ يـده من جديـد وقدّمت إليه الهدايا واحدة تلو أخرى فسرّ بها أيّما سرور، ثم ناولتـه قصيدة خـالي فأقـرأها أحد أمنائه طالباً ترجمة كل كلمة لأنّه لم يكن يحسن العربية كثيراً.

وحانت ساعة الطعام الذي كنت انتظره بفارغ الصبر لأنّي كنت خاوي البـطن منـذ الصباح بـاستثنـاء بعض حبّـات التمـر. واحضر لنـا لحم ضـأن من مشـويّ وملسوق ملفوفاً برقاق من العجين تشبه بعض الشبه اللازانيا الإيطالية وإنْ كـانت أشـدّ منها تمـاسكاً. ثم أحضر الكسكسيّ والفتـات، وهو مـزيـج آخـر من اللحم والعجـين، وبعض الأطباق الأخِـرى التي لم أعد أذكـر ما كـانت. وعندمـا شبعنا جميعاً كلّ الشبع وقفت فأنشدت قصيدتي. وطلب السيـد ترجمـة بعض العبارات، ولكنّه كان يكتفي فيـما عدا ذلـك بملاحـظتي بعين تشي بـالحنان والأمـان. وما إن انتهيت حتى دخل للنوم لأنّ الصيد كان قد أنهكه، بيـد أنّه دعـاني لتناول الفـطور معه في صباح اليوم التالي وطلب من أمينه اعطائي مئة قطعـة ذهبية لتسليمهـا إلى خالي وعبديْن لخدمته في أثناء سفره. وكلّفني أن أنقـل إليه أن هـذه الهديّـة لشكره على قصيدته وليست في مقابل ما قدّم هو إليه من هدايـا. وعهد إليّ كـذلك بعشر قطع ذهبية لكلّ من الفارسين اللذين كانا يصحباني.

وكان يحتفظ لي أنا بمفاجأة. فقد بدأ بإعطائي خمسين قطعة ذهبية، لكنّ الأمين

أشار إليّ بأن أتبعه حين خرجت. واجتزنا دهليزاً قادنا إلى باب واطىء يفضي إلى فِناء صغير كان في وسطه حصان جميل لكنّه صغير الحجم وفوقه فارسة سمراء فاتنة سافرة الوجه.

«هذه الأَمَة هي جائزة السيد لك على قصيدتك إنها في الرابعة عشرة وتجيد الكلام بالعربية، ونحن ندعوها هبة».

وأخذ الزمام ووضعه في يدي. وشددته وعيناي إلى أعلى غير مصدّقتين. وابتسمت جائزتي.

وإذ كنت في سعادة غامرة من جرّاء لقاء سيّد بمثل هذا اللطف وذاك الكرم فقد رجعت رأساً إلى «طبلبالة» حيث كانت القافلة بانتظاري. وأخبرت خالي بأنّي قمت بمهمتي على أكمل وجه ونقلت إليه كلّ حركة وكلّ كلمة. وقدّمت إليه الهدايا العائدة إليه مرفقة بالأحاديث التي دارت بشأنها، وأنهيت كلامي بإخباره بمفاجأتي اللذيذة. واربدّ وجهه عند وصولي إلى هذه النقطة من حكايتي وقال:

«هل قالوا لك حقّاً إنّ هذه الجارية تتكلّم العربية؟

ـ طبعاً، وقد تحقّقت من ذلك في أثناء الطريق.

ـ لا أشكّ في هذا. غير أنّك لو كنت أكبر سناً وأكثر حكمة لأدركت بالطبع شيئاً آخر من كلام الأمين. فإعطاؤك الجارية قد يكون سبيلاً لتشريفك، بيد أنّه قد يكون كذلك سبيلاً لإهانتك، لإطلاعك على الدرك الذي انحطّ إليه من يتكلّمون لغتك.

ـ وهل كان عليّ أن أرفض؟»

وضحك خالي من كلّ قلبه وقال:

«أرى جيّداً أنّه كان سيُغمى عليك لو انبغى أن تترك هذه البنت في مكانها من الفِناء الذي وجدتها فيه.

ـ هل أستطيع على هذا أن احتفظ بها؟»

كانت نبرتي نبرة صبيّ متشبّث بدميته. ورفع خالي كتفيه وأشار إلى الجمّالين بالاستعداد للرحيل. وبينما أنا ابتعد ناداني مرة جديدة وقال:

«أسبق أن لمست تلك البنت؟

وأجبت خافضاً بصري:

ـ لا، فقد نمنا في أثناء الطريق في العراء، وكان الحارسان بالقرب منّي».

وكان في انفراج شفتيه بعض المكر.

«لن تمسّها كذلك الآن لأنّ شهر رمضان سيكون قد بدأ عندما يقدّر لنا أن نستعيد منامنا تحت أحد السقوف. وليس عليك أن تصوم ما دمت مسافراً، بيد أن عليك أن تُظهر امتثالك للخالق بشكل آخر. فسوف تغطّي جاريتك من قمة رأسها إلى أخمص قدميها وتحظّر عليها أن تتعطر أو تتبرّج أو تمشط شعرها، أو حتّى أن تغتسل».

ولم أحتجّ لأنني أدركت على الفور أن الإخلاص في الدين لم يكن السبب الوحيد لهذه الوصيّة. فكثيراً ما شوهدت المشاجرات في القوافل لوجود جارية جميلة، وكان خالي يريد تجنّب كلّ غواية وكلّ تصرّف استفزازي مهما كان الثمن.

وقادتنا المرحلة التالية إلى واحتيْ «تُوات» و«غُرارة» وهما رأسا خطّ سير القوافل الصحراوية. وبالفعل فإنّ التجّار وغيرهم من المسافرين ينتظرون في ذلك المكان للانطلاق معاً.

وكان كثير من التجّار اليهود قد أقاموا في هاتين الواحتين، بيد أنّهم وقعوا ضحية اضطهاد عجيب. ففي العام الذي سقطت فيه غرناطة بالذات، وكان في الوقت نفسه عام طرد اليهود الإسبان، حضر أحد وعّاظ تلمسان إلى فاس محرّضاً المسلمين على إبادة يهود المدينة. وما إن علم الملك بأمر هذا الداعية إلى الشغب حتى أمر بطرده. ولجأ هذا إلى واحتي «تُوات» و«غُرارة» ونجح في إهاجة الناس على اليهود؛ ولقد ذُبحوا عن بكرة أبيهم تقريباً ونُهبت أرزاقهم.

في تلك الناحية كثير من الأراضي المفلوحة، بيد أنها يابسة لأن ريّها لا يتسنّى

إلا بمياه الآبار، وهذه أيضاً ضئيلة الموارد، ولذا يستخدم الأهالي طريقة غير مألوفة لإخصاب الأرض. فإذا مرّ بهم زائر دَعَوْه للإقامة عندهم من دون مقابل، غير أنّهم يأخذون روث المطايا ويُفهمون الناس أنّهم يُهينونهم لو قضوا حاجاتهم خارج محلّ إقامتهم. وهكذا يُضطرّ المسافرون إلى سدّ أنوفهم لدى مرورهم بالقرب من حقل محروث.

وهاتان الواحتان هما المحطّة الأخيرة التي يستطيع المرء التزوّد فيها كما ينبغي بالمؤن قبل اجتياز الصحراء. فمناقع الماء تزداد تباعداً، ويلزم أكثر من أسبوعين لبلوغ أوّل مكان مأهول. وينبغي التأكيد أيضاً بأنه ليس في هذا المكان المعروف بـ «تغازة» سوى مناجم يُستخرج منها الملح. ويُحتفظ به إلى أن تحضر قافلة فتشتريه لتبيعه في تومبكتو التي تعاني من نقصه على الدوام. وفي مقدور كلّ جمل أن يحمل أربع زكائب من الملح. وليس لمستخرجي الملح في «تغازة» من أطعمة غير ما يتلقّونه من تومبكتو الواقعة على مسيرة عشرين يوماً، أو من غيرها من المدن التي تماثلها في البُعد. وقد يحدث أن تتأخر قافلة عن موعدها في بعض الأحيان فتجد بعض الناس وقد هلكوا في أكواخهم من شدّة الجوع.

لكنّ جحيم الصحراء الحقيقية تبدأ بعد تلك المحلّة. فلا يُعثر فيها إلا على عظام مبيضّة لجمالٍ وبشرٍ قَضَوْا عطشاً، والحيوان الوحيد الذي يُصادَف بكثرة هائلة هو الأفاعي.

وفي أجدب جزء من تلك الصحراء ضريحان فوقهما شاهدة من الحجر نقش عليها كتابة مفادها أنه يرقد في هذا المكان رجلان كان أحدهما تاجراً غنيّاً مرّ من هنا وذاق عذاب العطش فاشترى من الآخر، وهو قائد قافلة، طاس ماء بعشرة آلاف قطعة ذهبية. ولكنْ ما إن خطا البائع والشاري بضع خطوات حتى سقطا كلاهما ميتين من العطش. والله وحده يقدّر العيش والأرزاق!

* * *

إنني، حتّى لو كنت أكثر بلاغة وكان قلمي أشدّ مطاوعة، فما كنت لأتمكّن من وصف ما يستشعره المرء عندما تلوح له أخيراً بعد أسابيع من السير المضني، وقد

تقرّحت عيناه من الرياح المتربة، وتورّم فمه من ماء ملح فاتر، والتهب جسده واتّسخ وتثنّى وتلوّى، أسوار تومبكتو. وممّا لا ريب فيه أنّ جميع المدن جميلة عند نهاية الصحراء، وجميع الواحات هي جنّة عدن. غير أنّ الحياة لم تبدُ لي في أيّ مكان بالتهلّل الذي بدت لي فيه في تومبكتو.

ولقد وصلنا إليها عند المغرب فاستقبلتنا ثلّة من الجنود أرسلهم صاحب المدينة لهذا الغرض. وإذ كان الوقت متأخراً لاستقبالنا في القصر فقد اقتادونا إلى مساكن أُعدّت لنا تبعاً لمقام كلّ منّا. وقد أُنزل خالي في بيت قريب من المسجد؛ وكان من نصيبي فيه غرفة واسعة مطلّة على ساحة مكتظّة كانت قد بدأت تخلو. وإذ استحممت مساء وتعشيت استدعيت هبة بعد أن سمح لي خالي بذلك. وكانت الساعة قد بلغت العاشرة على ما أظن عندما ترامت إلينا جلبة من الشارع: كانت زمرة من الشبّان قد اجتمعت وأخذت تعزف الموسيقى وترقص في الساحة وكان عليّ أن آلف عمّا قريب أولئك المتنزّهين الذين سيعودون كلّ ليلة طوال مدّة إقامتي. وفي تلك الليلة كان المشهد من الغرابة عندي بحيث تسمرّت إلى النافذة. وقد يكون أنّي كنت مرتبكاً من الإحساس بوجودي لأوّل مرّة في غرفة مع امرأة تخصّني.

ولقد أصلحتْ وعثاء السفر وكانت نديّة مبتسمة سافرة الوجه كما في يوم إهدائها إليّ. واقتربتْ من النافذة وأخذت تتفرّج مثلي على الراقصين وكتفها ملتصقة بشكل خفي بكتفي. وكانت الليلة رطبة، بل باردة، ولكنّ وجهي كان ملتهباً.

«أتريد أن أفعل مثلهم»؟

ومن غير أن تنتظر جوابي شرعتْ بالرقص بكل أجزاء جسدها، على مهل أوّل الأمر، ثم أسرع فأسرع، ولكنْ من غير أن تفقد شيئاً من طلاوتها؛ كانت يداها وشعرها ومناديلها تتطاير في الغرفة محمولة بما تحدثه من نفحات، وكان ردفاها يتحرّكان على وقع الموسيقى الزنجية، وترسم قدماها على الأرض زخارف وتعرّجات متنوّعة. وابتعدتُ عن النافذة لأسمح لضوء القمر بالتغلغل.

ولم يستعِد الشارع هدوءه إلا في الواحدة صباحاً، وربّما بعد ذلك. واستلقت راقصتي على الأرض منهوكة لاهثة. وأرخيتُ ستارة النافذة ملتمساً بعض الشجاعة في الظلام.

هبة. لو لم تمنحني أرض إفريقية غير هذه الهدية لاستحقّت حنيني إلى الأبد.

وفي الصباح كانت ترتسم على شفتيْ معشوقتي وهي نائمة الابتسامة التي كنت قد تخيّلتُها مرتسمة عليهما طوال الليل، وتفوح منها رائحة العنبر نفسها. وانكببت على جبينها الأملس الوادع وأخذت ألفّها بالوعود المتأثّرة الصامتة. وترامى الضجيج مجدّداً من النافذة، مماحكات بائعات، وصرير قشّ، وقعقعة نحاس، وصيحات دوابّ، كما ترامت روائح حملتها ريح خفيفة رطبة كانت ترفع الستارة على استحياء. وشرعتُ أبثّ كلّ شيء حبّي، وأبارك كلّ شيء، السماء والصحراء والطريق وتومبكتو وصاحب «أورزازات»، وحتى ذلك الألم الذي كان يتجاذب جسدي سرّاً كامتياز على رحلتي المضطّرمة والخرقاء إلى مجهولة.

وفتحتْ عينيها ثم أسرعتْ في إغماضهما وكأنّما خشيت أن تقطع عليّ حلمي. وهمستُ:

«لن نفترق أبداً!»

وابتسمتْ وهي مرتابة. ووضعتُ شفتيّ فوق شفتيها. وانزلقت يدي من جديد على بشرتها لإحياء ذكريات الليل. غير أنّ الباب كان قد قرع. وأجبت من غير أن أفتح. كان ذاك خادماً أرسله خالي لتذكيري بأنّ هناك من ينتظرنا في القصر. وكان عليّ أن أحضر في ثياب الاحتفالات الرسمية عملية تقديم الرسائل.

* * *

والاحتفالات الرسمية في بلاط تومبكتو محدّدة بدقّة وشديدة الأبهّة. فعندما يحصل سفير على مقابلة مع صاحب المدينة يكون عليه أن يجثو أمامه وأن يلامس وجهه الأرض وأن يَحْفِن حفنة من التراب يعفّر بها رأسه وكتفيه. وعلى رعايا هذا الأمير أن يفعلوا مثل ذلك، ولكنْ في المرة الأولى التي يخاطبونه فيها؛ وأمّا في المقابلات التالية فإن الاحتفال يغدو أكثر بساطة. وليس القصر كبيراً، بيد أن

مظهره شديد التناسق؛ وقد بناه منذ حوالي قرنين معمار أندلسي يُعرف بإسحق الغرناطي.

وعلى الرغم من كون صاحب تومبكتو من أتباع «الأسكيا» محمّد توري ملك «غاوو» ومالي وعدد آخر من النواحي فإنّه شخصية مرموقة ومحترمة في جميع بلاد الزنج. وبتصرّفه ثلاثة آلاف فارس وعدد لا يُحدّ من المُشاة المسلّحين بالأقواس والسهام المسمومة. وعندما ينتقل من مدينة إلى أخرى يركب الجمل هو ورجال حاشيته تصحبهم خيول يقودها باليد خدم مسلحون بالسيوف. وإذا التقوا أعداء وكان عليهم أن يقاتلوهم امتطوا صهوات جيادهم في حين يمسك الخدم بالجمال. وإذا انتصر الأمير أسر قومُ من حاربوه كلّهم وبيعوا راشدين وأطفالاً؛ ولهذا يُعثر في بيوت المدينة، حتى وإنْ كانت متواضعة، على عدد كبير من الخدم العبيد ذكوراً وإناثاً. وبعض السادة يستخدمون هؤلاء الإماء لتصريف مختلف السلع في الأسواق. ويمكن التعرّف عليهنّ بسهولة لأنهنّ نساء تومبكتو الوحيدات السوافر. وجزء كبير من التجارة البسيطة بين أيديهم، ولا سيّما الأغذية وما يتعلّق بها، وهذا عمل يدّر المال بشكل استثنائي لأنّ سكان المدينة يعتنون بغذائهم جيداً: الحبوب والمواشي موجودة فيها بوفرة؛ واستهلاك اللبن والزبد عظيم القدْر. والملح هو الوحيد النادر، ولذا فإن الأهالي بدلاً من أن يُذَرّوه على الأطعمة يحتفظون في أيديهم بقطع منه يلحسونها من وقت إلى آخر بين لقمتين.

وغالباً ما ترى أهل المدينة أغنياء، ولا سيّما التجّار، وهم كُثُر في تومبكتو. ويحيطهم الأمير بالرعاية، حتّى عندما لا يكونون من أهل البلاد، فقد زوّج اثنتين من بناته لتاجرين غريبين بسبب ثروتها. وتُجلب إلى تومبكتو جميع أنواع السلع، وعلى الأخص أقمشة من أوروبا تُباع بأغلى كثيراً ممّا تُباع في فاس. ولا تستخدم في الصفقات النقود المسكوكة، بل قطع الذهب الصافي، وتدفع المبالغ الصغيرة بالغوري وهي أصداف تُجلب من فارس والهند.

كنت أقضي أيامي متجوّلاً في الأسواق زائراً المساجد جاهداً في الحديث إلى أيّ شخص يعرف بضع كلمات عربية، مسجّلاً في المساء في غرفتي ما كنت قد شاهدته نهاراً تحت نظرات هبة المُعْجَبَة. وكان ينبغي أن تمكث قافلتنا أسبوعاً في

تومبكتو قبل التوجّه إلى «غاوو» مقرّ «الأسكيا»، وهي آخر مرحلة في رحلتنا. ولكنّ خالي مرض كرّة أخرى بسبب مشقّات السفر ولا ريب. وقد عاودته الحمّى الرباعية عشية الارتحال بالذات. ولازمت سرير مرضه ليل نهار من جديد، وعليّ الاعتراف بأنّني فقدت الأمل غير مرّة في شفائه. وقد أرسل إليه صاحب المدينة طبيبه، وهو زنجي هرم ذو لحية بيضاء ملتفّة حول وجهه كالطوق، وكان قد قرأ كتب المشارقة وكتب الأندلسيين. ووصف له حِمْية صارمة وجهّز عقاقير ليس في وسعي القول ما إذا كانت ناجعة ولا ما إذا لم تكن ضارّة وحسب، لأنّ حال خالي ظلّت ثلاثة أسابيع لا تعرف تحسّناً دائماً ولا تدهوراً قاضياً.

وحين أقبلت نهاية شهر شوّال عزم خالي على الرجوع إلى فاس بالرغم من ضعفه الشديد؛ فقد لاحت نُذُر حمارّة القيظ التي كانت ستمنعنا من اجتياز الصحراء قبل العام القادم. وعندما حاولتُ ثَنْيه عن عزمه أفهمني أنّه لا يستطيع التغيّب سنتين لمهمّة كان ينبغي أن تُنْجَزَ في خمسة أشهر أو ستّة، وأنّه قد أنفق كل المال الذي أُعْطِيَهُ، وحتّى ماله الخاص، وأنّه مهما يكن من أمر فإنّه إذا كان الله تعالى قد قدّر أن يستدعيه إليه فإنّه يفضّل الموت بين أهله على الموت في أرض غريبة.

هل كانت أسبابه صالحة؟ لا أسمح لنفسي بالحكم عليها بعد هذه السنوات الطويلة. بيد أنّي لا استطيع مع ذلك أن أُخفي أنّ العودة كانت عذاباً أليماً للقافلة بأسرها لأنّ خالي عجز منذ اليوم السابع عن التماسك على ظهر جمله. وقد كان لا يزال في مقدورنا أن نعود أدراجنا، لكنّه منعنا من ذلك. ولم يكن أمامنا غير أن نحمله على محفّة صُنعت كيفما اتّفق وتناوب على حملها الحرس والخدم. وفاضت روحه قبل وصولنا إلى «تغازة» وانبغى دفنه في الرمال المحرقة على جانب الطريق، تغمّده الله برحمته وأفسح له في جنّاته مثوى أورف ظلالاً!

عام الوصية

٩١٢ هـ (٢٤ أيّار «مايو» ١٥٠٦ م - ١٢ أيّار «مايو» ١٥٠٧ م)

كنتُ قد غادرت فاس في أمتعة خالي، من غير ما مهمّة سوى اقتفاء أثره والإصغاء إليه والحذو حذوه؛ وعدت إليها في ذلك العام مغلول اليدين بسفارة لم تكتمل وقافلة هائمة، وفوق ذلك بأجمل امرأة قد تكون نشأت في صحراء نُميدية.

لكنّ أثقل ما كان ينبغي حمله هو رسالة من الرسائل. وكنت قد رأيت خالي كتبها يومِ انطلاقنا من تومبكتو. فقد كان يستغلّ أدنى توقّف فيسحب من حزامه دواة وقلماً وينكبّ متمهلاً على التحرير بيد جعلتها الحمّى مرتجفة غير واثقة. وكان جميع رفاقنا يرقبونه من بعيد من غير أن يزعجوه قطّ معتقدين أنه كان يدوّن انطباعاته عن الرحلة لأجل السلطان. ولم اكتشف أمر الرسالة إلا بعد موته إذ كنت أفتّش في أوراقه فعثرت عليها ملفوفة ومربوطة بخيط مذهّب، وكانت تبدأ بهذه الكلمات:

«بسم الله الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الذي يبعث إلى من جاء أجلهم من الناس آيات في أبدانهم وعقولهم ليتهيّأوا للقاء وجهه الكريم».

«إليك يا حسن، يا ابن اختي، يا بنيّ، أتوجّه، أنت الذي لن أورّثه اسمي ولا ثروتي المتواضعة وإنما هواجسي وأخطائي ومطامحي غير المجدية».

كان أوّل ما خلّفه لي القافلة. «مواردها بدأت تنضب، وطريقها لا يزال طويلاً وقائدها يموت، وسوف يتوجّه الناس إليك، ومنك سينتظرون في كلّ لحظة أعدل الأوامر وأحكم الآراء وأن تقودهم إلى برّ الأمان. وعليك أن تضحّي بالغالي والرخيص كي تنتهي هذه الرحلة بما يليق».

وقد اقتضاني الأمر منذ الواحات الأولى أن أستبدل بثلاثة جمال معافاة ثلاثة مريضة، وأن أجدّد المؤن، وأدفع أجرة اثنين من الأدّلاء كانا سيتركاننا في سجلماسة، وأوزّع بعض الدراهم على الجنود للمساعدة على تلطيف المرحلة وتهدئة الخواطر حتى بلوغ المرحلة التالية، وأمنح بعض الهدايا للأعيان الذين كانوا يُنزلوننا في ضيافتهم، كلّ ذلك من صندوق لم يكن فيه سوى ثمانية عشر ديناراً رصيدِ مبلغ استدانه خالي من تاجر أندلسي كان قد قطع معنا قسماً من الطريق في ذهابنا. ولقد كان بإمكاني أن أستدين بدوري، لكنّ استعجالنا الانطلاق من تومبكتو لم يُتحِ لأيّ تاجر فرصة الانضمام إلينا، وعليه فقد كنت في إفلاسي أقلّ المسافرين فَقْراً. وكان عليّ أن أقرّر بيع مختلف الهدايا التي تلقّاها خالي في أثناء الرحلة، ولا سيّما الخادمين اللذين منحه إيّاهما صاحب «اورزازات» فجلبا لنا أربعين ديناراً. ولكي أُبقي هبة من غير أن أتعرّض للسخرية فقد أشعت أنها كانت حاملاً منّي، الأمر الذي لم أكن أعلم عنه شيئاً، غير أنّه كان عليّ أن أبيع جوادها الشبيه بعلبة المجوهرات التي لا خير فيها علاوة على أنّ من شأنه عرقلة المسيرة عند اجتياز الصحراء.

وأما الإرث الثاني فقد قدّمه إليّ خالي بشكل مَثَل من أمثال العصور القديمة: «سئلت أعرابية عن أحبّ أبنائها إليها فأجابت: المريض حتى يُشفى، والصغير حتى يكبر، والمسافر حتى يعود». وكنت أعلم انشغال خالي منذ زمن بمصير صغرى بناته فاطمة التي وُلدت في فاس قبل عام من وصولنا إليها وماتت أمّها، الزوجة الوحيدة التي عرفها خالي في حياته، وهي تضعها. وقد ربّت الـ لفلة جدّتي، وبعد وفاتها أمي، لأنّ خالي لم يشأ قطّ أن يتزوّج مرة ثانية خوفاً من جَوْر امرأة الأب المحتمل على بناته. وإذ كان عمر فاطمة اثنتي عشرة سنة عند موت أبيها فقد بدت لي على الدوام هزيلة شرسة لا نضارة فيها. ولم يحدث أن دعاني خالي يوماً إلى الزواج منها، لكنّني كنت أعرف أنها منذورة لي لأن منطق الأشياء ينصّ على أن يتّخذ ابن العم أو العمّة في كنفه إحدى بنات عمّه أو خاله، وقد تكون أجملهنّ في بعض الأحيان، ولكنْ كثيراً ما تكون التي يصعب زفافها إلى غريب.

وصدعت على هذا بالأمر لعلمي بأنّي أحقّق أعزّ الأماني على قلب خالي وهي عدم ترك أيّ من بناته بلا زوج. وأما بناته الأربع الأخريات فقد عمد فيهن إلى حُسنْ التدبير: نالت كُبراهن أوسع حجرة في البيت، ولم يكن لأخواتها من دور غير الاهتمام بها وكأنّهن خادماتها. وكان من حقّها وحدها أن تحصل على ثياب جديدة وحليّ إلى أن تزوّجت فخلفتها التي بعدها في الحجرة الكبيرة وحظيت بما كانت تحظى به من إجلال؛ ولحقت بهما الثنتان الباقيتان، ولم تشذّ سوى فاطمة التي كانت لا تزال صغيرة ومخصّصة لي.

«والإرث الثالث من حقّك لأنّه يتعلّق بأمك التي تعيش منذ عشر سنوات تحت سقفي وترفض مثلي الزواج ثانية. فهي لم تعُد شابّة، وقد تكون سعادتها الوحيدة أن يرجع أبوك إليها. وإني لأعلم أنّ في نيّته أن يفعل، لكنّ عيب محمّد أنه يتسرّع في القرارات الرديئة ويتريّث في الحسنة. ولقد كتمت عنك أنّني عشية سفرنا تخلّيت عن كل كبرياء وطرحت هذه المسألة على أبيك بلا مواربة. وقد أجابني بأنّه كان يفكّر في الأمر على الدوام مُذْ تصالحنا. حتى إنّه استفتى في ذلك فقيهاً فشرح له أنه ليس في وسعه استعادة مطلّقته ما لم تكن قد تزوجت بعد طلاقها منه. وقد اقترحتُ أن تعقد سلمى على أحد المقرّبين منا فيتعهّد بألاّ ينفّذ النكاح ويطلّقها على الأثر. ولقد قصصتُ عليه كذلك قصّة ذلك الأمير الأندلسي الذي شاء استرجاع مطلّقته ولم يكن يطيق رؤيتها ترتبط بأحد غيره، ولو صورياً. وقد سأل قاضياً من حاشيته فوجد له حلاً يليق بشاعر أكثر ممّا يليق بفقيه، إذ كان على المرأة أن تذهب ليلاً إلى الشاطىء وتستلقي عليه عارية تاركة لأمواج البحر أن تغمر جسدها وكأنها تستلم إلى معانقةَ رجل. وبعدها يستطيع الأمير استرجاعها من غير أن يكون قد تعدّى حرمة الشرع. وهكذا انتهى نقاشنا في غمرة من الضحك.

وبدلاً من أن أضحك ظللت بلا حراك ويدي متشبّثة بالرسالة. فأمام عينيّ الجاحظتين كانت تمرّ صور بعيدة رأيت فيها نفسي ولداً مع أمّي وسارة في دكان الوراق المنجّم الذي كانت كلماته تطنّ في أذنيّ.

سوف ينقضي الموت، ثم أمواج البحر،

وعندئذٍ تعود المرأة وثمرة أحشائها.

ولدى عودتي إلى فاس كان أبواي قد عادا زوجاً وزوجة، وقد عجبا وخاب ظنّهما لأنّني لم أدهش للنبأ. وقد تجنّبت جاهداً أن اسألهما بأيّ وسيلة استباحا المحظور.

* * *

وتابع خالي في رسالته يقول: «أترك بين يديك كذلك سفارتي بالرغم من أنّ أمرها لا يعود إليّ بل إلى السلطان الذي كلّفني إيّاها. وكنت آمل بفضلها أن أتقرّب منه، لكن، وحقّ تربة أبي، لم يكن ذلك من أجل الحظوة والغنى بقدر ما هو من أجل خير أهلي. ألم يكن تدخلّي لخير أختك سبب معرفتي بالأمير؟ وعليك أنت أيضاً أن تفكّر فيها وأنت تتقرّب من الملك. وعندما تَمْثُل أمامه قدّم إليه الهدايا العائدة له، وانقل إليه بكلام متخيّر ثمار ملاحظاتك عن تومبكتو؛ وقل له على الأخصّ إنّ الممالك كثيرة في بلاد الزنج وأنّها تتناحر باستمرار ولكنّها لا تسعى أبداً إلى أبعد من ذلك. وحين تشعر بأنّك استرعيت انتباهه وكسبت تقديره حدّثه عن مريم إلا إذا كان قد أُطلق سراحها في اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور».

لم يكن سراحها قد أُطلق على ما أخبرني هارون الذي جاء يستقبلني لدى وصول القافلة عند أبواب القصر. فهنا كان عليّ أن أُعيد المطايا إلى صاحب الجمال وأسلّم الهدايا إلى رئيس الحرس بانتظار مقابلتي العاهل. وإذ انتهت هذه الشكليّات فقد رجعت إلى منزلي سيراً على قدميّ وأنا أثرثر مع هارون قاصّاً عليه مرض خالي ثم موته، ناقلاً إليه ذكرياتي عن سجلماسة وتومبكتو من غير أن أنسى هبة التي كانت تتبعني على بُعْد خطوات لا بأس بها حاملة أمتعتي. ونقل إليّ «المنقّب» آخر أصداء فاس: كان «أستغفر الله» قد مات، ومات حمزة الحلاق، تغمّدهما الله برحمته! وكان أحمد الأعرج قد عاد إلى إقليمه جنوبي مراكش حيث ألّف مع أخيه جيشاً صغيراً من المجاهدين لمقاتلة البرتغاليين.

وفي بيت خالي كانت النسوة قد اتّشحن بالسواد إذ كان النبأ الأليم قد وصل قبل القافلة بكثير. وكانت سلمى هناك، وقد سرّها قدومي وبادرت إلى إخباري همساً بعودتها إلى أبي. وقد ظلّت في بيت خالي كيلا تترك ابنته الصبية وحدها، وربّما لكيلا تكون وورده تحت سقف واحد. وكان محمّد يوزّع أوقاته بين ثلاثة مساكن، مسكنيْ زوجتيه وبيته الريفيّ الذي ازدهرت حوله مزروعاته.

ورأيت كذلك فاطمة التي لم يجعلها الحِداد أقلّ تجهماً ولا أكثر طراوة، وقد رمقتني بنظرة مكتئبة. وبحركة غريزية التفتُّ لأرى إذا كانت هبة خلفي. ويا للإحساس العجيب، فقد ألفيتني أردّد حركات أبي محشوراً مثله بين امرأتين، جارية متهلّلة وابنة خال دامعة.

وانطلقت في اليوم التالي إلى القصر حيث حصلتُ على موعد للمقابلة في اليوم نفسه مراعاة للحِداد الذي لفّ أُسرتي. ومع ذلك فإنّي لم أُستقبل على حدة. فقد كان حول الملك رئيس الحرس وقاضي القضاة ورئيس الديوان والتشريفات وغيرهم من رجال الحاشية، وكلّهم في ثياب أبهى من ثياب الملك نفسه، يتحدّثون فيما بينهم مطمئنّين، في حين كنت ألقي متأثراً بعبارات جهدت كل الجهد في صياغتها واختيارها. وكان السلطان يُصيخ السمع بين الفينة والفينة إلى بعض الهمسات وهو يومىء إليّ بأنّ عليّ ألاّ أتوقّف عن الكلام. ونظراً للفائدة الجلّى التي كانت عباراتي تثيرها فقد اختصرتها قدر المستطاع وصمتُّ. وتنبّه الملك إلى صمتي بعد بضع همسات أخرى، وقال إنّه معجب ببلاغتي، وكان ذلك وسيلة لتذكيري بصغر سنّي. وسألني أن أقدّم تعازيه إلى ذويّ، وألقى إليّ ببضع كلمات عن خالي، «خادمنا الأمين»، وأنهى كلامه بالتمني بأن يراني في مناسبة أخرى. وكانت المقابلة قد انتهت. وظللتُ مع ذلك متشبّثاً على الرغم من تقطيبة رئيس التشريفات:

«حبّذا لو تكرّمت عليّ بهنيهة أخرى، فإني أودّ أن اتقدّم منك بالتماس».

وشرعت التحدّث عن أختي بأسرع ما يمكن لافظاً كلمة «ظلم» مرّتين أو ثلاثاً، مذكّراً بالوعد المقطوع لخالي. وكان السلطان ينظر إلى جهة أخرى؛ وأيقنت أنّه لم يكن يصغي إليّ؛ لكنّ كلمة منه كذّبت يقيني: «المجذومة»؟

وهمس قاضي القضاة كلمة في أذنه ثم خاطبني مربّتاً تربيتة خفيفة على كتفي:

«سوف أهتمّ بالأمر. لن يخيب رجاؤك. فلا تزعج جلالته بهذه القضية».

وقبّلت يد السلطان وخرجت. وكان هارون بانتظاري خارج السياج.

«هل تدري أنّك أثمت بحقّ شريعة الله؟»

كان قد أدرك منذ النظرة الأولى أنّه هُزىء بي، وكان يعمل على تعزيتي بطريقته. وحثثتُ الخطى من غير أن أنبس بكلمة. وألحف قائلاً:

«لقد سمعتُ حديثاً شيخاً جليلاً يقول إنّ معظم ملوك عصرنا، إن لم يكونوا كلّهم، يزيدون مداخيلهم بمكوس تحرّمها شريعة الله، وعليه فإنّهم جميعاً لصوص كَفَرة، وبالتالي فإنّ كلّ من يأكل على موائدهم أو يقبل منهم أقلّ الهدايا أو يوثّق معهم الروابط العائلية شريك لهم في سرقاتهم وكفرهم».

ورافق جوابي حركة صادرة عن غضب:

«لقد كانت مثل هذه الأحاديث بداية لجميع الحروب التي مزّقت دار الإسلام. وبعدُ فليطمئنّ بالك، فلم يدعُني السلطان إلى مائدته، ولا أعطاني أيّة هدية، ولا عرض عليّ أن أتزوّج بنته. وعليه فلست سارقاً ولا كافراً، ولا خطر عليّ من أن أحشر في نار جهنم. بيد أنّ أختي ما زالت عند المجذومين!»

وتجهّم وجه هارون وقال:

«أتذهب قريباً لرؤيتها؟

- انتظرُ جواباً من قاضي القضاة. وأفضلّ أن أراها بعد ذلك، فلعلّه يكون عندي نبأ أزفّه إليها».

وعدت خلال الأسابيع التي تلت إلى حضور بعض الحلقات في مدرسة «أبي إنانية» وسئلت أن أقصّ خبر رحلتي أمام رفاقي، وأن أصف لهم على الأخصّ بعض المساجد التي شاهدتها في بلاد الزنج، وبعض أضرحة الأولياء التي تمكّنت من زيارتها. وإذ كنت قد دوّنت ملاحظات دقيقة فقد استطعت أن أتكلّم طوال ساعتين، وأعجب الأستاذ بذلك أشدّ الإعجاب. ودعاني إلى منزله وشجّعني على تسجيل ملاحظاتي كما فعل قبلي ابن بطوطة وغيره من كتّاب الرحلات الذين يماثلونه شهرة. ووعدت بأن أفعل إذا شاء الله ذلك.

وسألني الأستاذ كذلك إذا كنت آمل أن أعمل لأنّ أخاه مدير مارستان المدينة يبحث عن تعيين طالب شابّ بصفة أمين بمرتّب شهري قدره ثلاثة دنانير. وقبلت

بحماسة لأن المستشفيات والمصحّات طالما أثارت فضولي؛ واتّفق على أن أبدأ العمل في الخريف.

* * *

وتركت شهرين ينقضيان قبل العودة إلى القصر، إذ لم أكن راغباً في إشعار قاضي القضاة بالمضايقة. وبدا لطيفاً للغاية وقال لي إنه ينتظرني منذ أسابيع، وقدّم إليّ شراباً وحدّثني دامع العين عن خالي الفقيد، ثم أخبرني بنبرة تقرب من المفاخرة بأنّه حصل على أن تفحص أربع نساء محلّفات أختي من جديد.

«تعلم جيّداً أيها الفتى أنّ سلطاننا على عظمته ونفوذه لا يمكن أن يسمح بأن يدخل قلب المدينة شخص يُرتاب في أنّه يحمل مرضاً بمثل هذه الفظاعة. وإذا أُعلن أنّ أختك سليمة خالية من الطفح فإن رسالة من الملك سوف تخرجها من «الحيّ» في اليوم نفسه».

وبدا لي الحلّ معقولاً وقرّرت أن أنقله إلى مريم بأقصى ما يمكن من التطمين لأجل إحياء الأمل في نفسها. وسألني هارون عمّا إذا كان يقدر أن يرافقني فأجبت بلا تردّد أنْ نعم، وذلك على الرغم من دهشتي.

وقالت مريم إنّها سعيدة لرؤيتي بصحّة جيدة بعد رحلة بمثل هذا الطول، بيد أنّها بدت لي أشدّ بُعداً ممّا كانت في لقائنا الأخير، وشاحبة شحوب الموتى. وتفرّست فيها قائلاً:

«وأنتِ كيف تشعرين بنفسك؟

ـ خيراً من معظم جيراني.

ـ كنت آمل أن تكوني قد خرجت لدى رجوعي.

ـ كان هنا عمل كثير عليّ أن أقوم به».

كانت حدّة السخرية المريرة التي أغاظتني كثيراً قبل عامين قد زادت.

«أتذكر قسمي؟

ـ إذا وفيتِ به، إذا لم تتزوّجي، فلن يكون لي أولاد ولا أبناء أخت».

كان هارون خلفي يتطلّع تارة إلى مجرى الماء وطوراً إلى الحارس. ولم يـوجّه إلى أختي غير تحيّة خجولة عـابرة، وكـان يُشْعِر بـأنّه لم يكن يُعـير حديثنـا أيّ اهتمام. وبغتة تنحنح بشدّة ونظر بلا مواربة في عيني مريم وقال:

«إذا تصرّفتِ على هذه الشاكلة واستسلمت لليأس خرجتِ من هنا مجنونة يجب تقييدها ولم يكن لتخليصك أي معنى. لقد أتى أخوك يزفّ إليك بشرى هي ثمرة مساعيه لدى البلاط».

وهـدأت لتـوّهـا عنـد سـماع هـذه الكلمات وأصغت إلى شروحي من غـير أن تُحرجني بالمزاح ولا بالتكشيرات الساخرة، وقالت:

«متى ينبغي أن يفحصْنني؟

ـ عمّا قريب جداً. كوني مستعدّة على الدوام.

ـ ما زلت سليمة معافاة. لن يعثرنَ على أقلّ طفح.

ـ لست ارتاب في ذلك. لسوف يسير كل شيء على ما يرام!»

* * *

ورميت هارون بنظرة متضرّعة ونحن نغادر ذلـك المكان اللعـين وقلت: «أتظن أنها ستنجو؟»

وبـدلاً من أن يجيب تابـع سيرة نـاظراً إلى الأرض بسهـوم عدة دقـائق. وفجأة تسمّر مكانه وألصق راحتيه بوجهه ثم أزاحهما محتفظاً بعينيه مغمضتين وقال:

«حسن، لقد قرّ عزمي. أريد أن تكون مريـم زوجتي، أمّ أولادي».

عام المارستان

٩١٣ هـ (١٣ أيّار «مايو» ١٥٠٧ م -
أول أيّار «مايو» ١٥٠٨ م)

في مارستان فاس ستةُ ممرّضين ومصابيحيٌّ واثنا عشر حارساً وطبّاخان وزبّالان وبستانيٌّ ومديرٌ ومساعدٌ وثلاثة أمناء، وجميعهم يتقاضون رواتب مجزية، كما أنّ فيه عدداً كبيراً من المرضى. ولكنْ يشهد الله أن ليس فيه طبيب واحد. وعندما يحضر مريض يوضع في حجرة بصحبة من يقوم على خدمته، من غير أن يُغْدِق عليه مع ذلك أدنى عناية، إلى أن يُشفى أو يموت.

وجميع المرضى الذين يأتون إليه غرباء لأن الفاسيين يفضّلون أن يُعتنى بهم في منازلهم. وأهل المدينة الوحيدون الموجودون فيه هم المجانين الذين خُصّصت لهم عدّة غرف. ولكيلا يرتكبوا بعض الإساءات تبقى أرجلهم مقيّدة على الدوام. ويقوم جناحهم في دهليز طويل مصفّح الجنبات بعوارض سميكة، ولا يجرؤ على الاقتراب منهم إلا حرّاس مجرّبون. والذي يقدّم لهم الطعام مسلّح بعصا غليظة، وعندما يرى أحدهم هائجاً ينهال عليه ضرباً فيهدّئه أو يصرعه.

وعندما بدأتُ العمل في المارستان حُذّرتُ تحذيراً قاطعاً من هؤلاء المنكودين. فعليّ ألاّ أوجّه إليهم كلمة قطّ، ولا حتّى أن أشعرهم بوجودي. ومع ذلك كان بعضهم يثيرون شفقتي، ولا سيّما رجل مسنّ هزيل نصف أصلع كان يقضي يومه في الصلاة والدعاء ويقبّل أبناءه بحنان عندما يحضرون لزيارته.

وذات مساء تأخّرتُ في مكتبي لإعادة نَسْخِ صفحات من سجّل كنت قد أرقت عليها سهواً قدحاً من الشراب. ولقد نظرُت، وأنا ذاهب، إلى ذلك الرجل. كان يبكي مرتفقاً نافذة غرفته الضيقة. وإذ رآني غطّى عينيه فتقدمت منه خطوة فأخذ يقصّ عليّ بأهدأ نبرة أنّه كان تاجراً يخاف الله وأنّه حُجر عليه بوشاية من منافس

حسـود، وأنّ أسرتهِ لم تتمكّن من إطـلاق سراحه لشـدّة نفوذ خصمـه وقـربـه من القصر.

لم يكن من الممكن ألاّ أتأثّر لحكايته، وتقدّمت منه أكـثر ناطقـاً بكلام يشـدّ من عزيمته، واعداً بالاستعـلام من غدٍ عن أمـره من المدير. وإذ أصبحت قريبـاً جدّاً منـه وثب عليّ فجـأة وأمسك بتـلابيبي بيد وأخـذ يمرّغ وجهي بـالأخرى بـالقذارة مرسلاً ضحكات مجنونة. وقد لامني الحرّاس الذين هُرعوا لنجدتي أشدّ اللوم عـلى حماقتي.

ومن حُسْن الحظّ جداً أن الحمّام القريب من المارستان كان فاتحاً أبوابه للرجـال في تلك الساعة. وقـد قضيت فيه سـاعة من الـزمن أدعك جسـدي ووجهي، ثم انطلقت إلى بيت هارون وكنت لا أزال مضطّرباً.

«لقد فهمتُ أخيراً بسبب مجنون!»

كانت كلماتي مقطّعة مشوّشة.

«لقد فهمت لماذا تراوح جميع مساعينا مكـانها، ولماذا كـانت نبرة قـاضي القضاة وهو يستقبلني متكلّفة اللطف وابتسامته شديدة التصنّع، ولماذا يقطع لي باستـمـرارٍ وعوداً لا يفي بها».

وظلّ صديقي على هدوئه فالتقطت أنفاسي وقلت:

«في هـذه المدينـة آلاف من الناس يتدخّلون بلا هـوادة لخير قـريب يزعمـون براءته ويكـون أحيانـاً أشدّ القتلة ضراوة، أو يـزعمون صحـة عقله ويكون غـالباً شبيهاً بالمجنون الذي خدعني، قريب يزعمون شفاءه من الجذام وقد يكون المرض نهشه حتى القلب. فكيف يمكن التمييز؟»

وتوقّعت أنْ يعارضني «المنقّب» على مألوف عادته، لكنّه لم يفعل شيئاً من هذا، بل كان صامتاً متفكّراً مغضّن الجبين، وجاء جوابه مصحوبـاً بسؤال:
«ما تقوله صحيح. ماذا ينبغي أن نفعل الآن؟».

إنـه لغريب ردّ فعله. فعنـدما لم تكن مـريم عنده سـوى أخت صـديق لم يكن

يتـردّد في المبادرة متجـاوزاً بلبلتي مستنجداً مثـلاً بـ «أستغفر الله» ومُحْـدِثـاً بـذلـك فضيحة مُحْكَمَة. وها هوذا الآن يبدو أقلّ ثقة بنفسه في الوقت الذي هـو فيه المعنيّ المبـاشر من بيننا بمصـير السجينة. والحقّ أنـه مُذْ أعلمني هـارون بنيّته الـزواج من أختي لم يُضع الوقت. فقد ترقّب رجوع أبي من الريف فقام بزيارته مرتديـاً الثياب التي يرتديها يوم الجمعـة وتقدّم منـه رسميّاً بـطلب يد مـريم. ولقد كـان من شأن محمّد الوزّان في غير هذه الـظروف أن يقدّر أنّ حمّـالاً لا يملك من مقوّمـات الغنى غير سُمعة جماعته الطيبة ليس كفؤاً لابنتـه. بيد أنّ مـريم كانت في التـاسعة عشرة من عمرها، وهو العمر الـذي لم تُزفّ فيـه بعدُ من جميـع نساء فـاس سوى بعض الجواري وبعض المومسـات. ولقد كـان هارون مخلصاً، ولولا أن تمنـع أبي عزّتـه لكان قبّل يديْ هذا الخطيب البطل. فبعد أيام عقد كاتبان بالعـدل كتاب القـران وفيه يدفع والد العروس إلى زوج ابنته المرتقب مئة دينـار. وفي اليوم التـالي ذهبت وردة تزفّ النبأ إلى مريم التي عادت منذ الحجر عليها إلى الأمل والابتسام.

بيـد أنّ هارون هـو الذي فَقَـد بين ليلة وضحـاها كـلّ مَـرَح وكـلّ بِشْر وكـلّ كياسة. فقد غدا جبينه ينمّ باستمرار عن قلقه وهواجسه. وفي ذلك المساء علمت أخيراً ما كان يجول في رأس صديقي. لقد كان يلحّ على نيل رأيي.

«ليس في وسعنا على كل حال أن نترك مريم إلى ما شاء الله عنـد المجذومـين! وإذ لم تنفع مساعينـا شيئاً حتى الآن فماذا تقترح أن نفعل في الوقت الحاضر؟»

لم أكن أعرف ما ينبغي فعله، ولذا كان جوابي حافلاً بالسخط:

«في كلّ مرّة أفكّـر فيها بهـا، هي الضحيّة منـذ أربع سنـوات لأفحش الظلم، تـراودني رغبة في الإمسـاك بخناق الـزروالّي وخنقه هـو وشريكه في المؤامـرة شيـخ المجذومين».

وأرفقت القول بالحركة. لكنْ لم يبدُ على هارون قطّ أنه تأثّر، واكتفى بالقول:

«حَجَرُك كبير جدّاً!».

ولم أدرك مغزى قوله فكرّر بشيء من نفاد الصبر في الصوت:

«أقول لك إنّ الحَجَر كبير جدّاً، كبير جدّاً جدّاً. فعندما أكون في الشارع مع غيري من الحمّالين فكثيراً ما أرى أناساً يصرخون ويتشاتمون ويُحدِثون تجمّعاً. وقد يلتقط أحدهم أحياناً حجراً فإذا كان الحجر بحجم الخوخة أو الإجّاصة وَجَبَ الإمساك بيد ذلك الرجل لأنّه يوشك أن يجرح خصمه جرحاً بليغاً. وأمّا إذا التقط بالمقابل حجراً بحجم البطيخة فإنه يكون في وسع الجَمْع الابتعاد مطمئنّين لأنّه ليس في نيّة هذا الرجل على الإطلاق أن يقذفه؛ إنّه في حاجة فقط إلى أن يشعر بثقلٍ ما في يديه العاريتين. والتهديدُ بخنق الزروالِيّ وشيخ المجذومين حَجَرٌ بحجم مئذنة، ولو كنتُ في الشارع لمضيتُ وأنا أهزّ كتفيّ».

ومن غير أن يلاحظ هارون احمرار وجهي من الارتباك تابع مباعداً بين كلماته وكأنّه يمرّر كلّاً منها في مصفاة راشحة:

«ينبغي إيجاد وسيلة لإبعاد مريم من سير أن يتمكّنوا من استعادتها ومن دون أن يزعجوا أسرتها. ولن تستطيع بالطبع العيش في فاس لبضع سنوات على الأقلّ، وإذ كان في نيّتي أن أتزوجها فيجب أن أهرب معها».

كنت أعرفه منذ ما يكفي من الوقت لأعلم أنّ خطّة كانت في سبيلها إلى الإنضاج في خَلَده، وأنّه لن يكشفها لي قبل أن يحين أوانها. ولم أكن في المقابل قادراً على فهم ما يدفعه إلى العمل على هذا النحو. وكان لزاماً عليّ باسم صداقتنا أن أفاتحه بذلك.

«كيف يمكنك أن تترك هكذا مختاراً مدينتك وأُسْرتك وجماعتك وتذهب للعيش وكأنّك مطرود أو مسيء يهرب من جبل إلى جبل خوفاً من أن يُعاد مُصَفَّداً، وكلّ ذلك من أجل فتاة لـم تخاطبها سوى مرّة واحدة في حياتك؟»

وألقى «المنقِّب» براحة يده اليمنى على قمّة رأسي كما كان يفعل عندما كنّا أصغر سنّاً قبل أن يكشف لي سرّاً من الأسرار وقال:

«هذا أمر لا أستطيع أن أخبرك به قبل الأوان، وبودّي أن تُقسِم لي اليوم بالذات على ألّا يُشعِرك بالمهانة».

وأقسمت خوفاً ممّا هو أسوأ، من بعض العار يلحق بعائلتي. كنّا جالسين في جنينة بيته. وأسند «المنقب» ظهره إلى الفسقية الحجرية التي لم يكن الماء يجري فيها ذلك اليوم وقال:

«أتذكر يوم دخلتُ بالخداع حمّام النساء؟»

كانت سبع سنوات أو ثمانٍ قد انقضت على ما أظنّ، بيد أنّي كنت لا أزال أذكر أدنى غمزة وأقلّ خفقة قلب. وأومأت إيجاباً بابتسامة.

«تذكر إذن أنّي رفضت رفضاً باتّاً في ذلك الوقت، على الرغم من إلحاحك، أن أقول لك ما رأيت. كنت قد دخلت مشتملاً مئزراً وقد ربطّت تحته حول شعري منديلاً وانتعلت قبقاباً من الخشب وتلفّعت بمنشفة. وكنت يومئذٍ في الحادية عشرة وليس في جسمي شعرة تشي بالجنس الذي أنتمي إليه. وبينما أنا أجول في الداخل عثرت على وردة ومريم. والتقت عينا هذه عينيّ وفهمت على الأثر أنها عرفتني. فقد طالما رأتنا معاً، وما كان يمكن أن تخطىء. وتلاشيتُ متوقّعاً أن أسمع زعقة، أن ألقى الويل، أن تنهال عليّ الضربات. لكنّ أختك لم تصرخ، وإنما تناولت منشفتها وأسرعت تلفّ بها جسدها في حين ارتسمت على شفتيها ابتسامة ماكرة ثم جرّت أمّها متذرّعة بأمرٍ ما إلى حجرة أخرى. وأسرعتُ بالخروج غير مصدّق أبداً بالنجاة. وتأسّفت في ذلك اليوم على أنْ لم تكن مريم أختي؛ وما هي إلا ثلاثة أعوام فقط حتى سعدت بأنّي لست سوى صديق أخيها، وبأنّ في وسعي أن أحلم بها كما يحلم رجل بامرأة. ثم بدأت المصائب تنهال على الفتاة ذات العينين الصامتتين».

واربدّ وجه «المنقِّب» الذي كان مشرقاً طوال الوقت إذ لفظ العبارة الأخيرة، قبل أن يعود إلى الانبساط وهو يقول:

«إنّه حتى لو تنكّر لها العالم بأسره لحالت ذكرى الحمّام بيني وبين التخلّي عنها. وهي اليوم زوجتي وسوف أنقذها كما أنقذتني ونجعل الأرض التي ستفتح لنا ذراعيها تخضوضر».

* * *

ومرّ هارون بعد أسبوع لوداعي، وكان كلّ متاعه بِذْرَتَيْن من صوف انتفخت إحداهما بذهب البائنة واحتوت الأخرى على مدّخراته المتواضعة.

«أصغرهما مخصّصة لحارس «الحيّ» لكي يغضّ النظر عندما تهرب مريم؛ وأكبرهما لنا، ما يكفي للعيش مدّة سنة بعون الله تعالى».

كان عليهما الذهاب إلى الريف على أمل الإقامة بعض الوقت في جبل بني الوليد أبسل رجال المملكة وأجودهم. كما أنّهم واسعو الغنى لأنّهم، على الرغم من خصب أرضهم، يأبون دفع درهم واحدٍ مكساً أو ضريبة. ومن يُطرد ظلماً من فاس يعرف أنّ في مقدوره أن يجد عندهم الملاذ والقِرى، وحتى أن يُتحمَّل عنه جزء من نفقاته، وأنّه إذا جدّ خصومه في ملاحقته فإنّ أهل الجبل سوف يواجهونهم.

وضممتُ هارون بقوة إلى صدري، لكنه سرعان ما تخلّص مني لفرط ما كان متشوّقاً إلى اكتشاف ما يخبّئه له القدر.

عام العروس

٩١٤ هـ (٢ أيّار «مايو» ١٥٠٨ م -
٢٠ نيسان «إبريل» ١٥٠٩ م)

في ذلك العام احتُفِل بأوّل زواج لي، ذاك الذي تمنّاه خالي وهو يموت ورغبتْ فيه أمي التي كان همّها أن تفصلني عن هبة، وكانت قد حظيت بأفضل مداعباتي على الرغم من أنّها لم تهبني صبيّاً ولا بنتاً طوال ثلاثة أعوام من الغرام. وكان عليّ كما درجت العادة أن أضع قدمي فوق قدم فاطمة بنت خالي وزوجي في حين كانت تدخل غرفة الزوجية، بينما كانت امرأة من الجوار تنتظر على عتبة الباب الخرقة المبلّلة بالدم التي سوف تنشرها ضاحكة ظافرة أمام أعين المدعوين أمارة على أنّ العروس كانت عذراء، وأن الزوج ليس عنّيناً، وأنّه يمكن أن تبدأ الاحتفالات.

وبدت لي هذه الأمور وكأنها لا تنتهي. فمنذ الصباح اجتمعت على فاطمة المُلْبِسات والماشطات والناتفات، ومن بينهنّ سارة التي لا يحلّ أحد محلّها، يطلين خدّيها بالأحمر ويخضبن يديها وقدميها بالحنّاء السوداء، ويرسمن بين حاجبيها مثلّثاً جميلاً، وتحت شفتها السفلى مثلثاً آخر ممطوطاً كورقة الزيتون. وإذ انتهى تزيينها وتبريجها على هذا النحو فقد أُجلِست فوق منصّة ليتمكّن كل إنسان من إبداء إعجابه بها في حين قُدّم الطعام إلى النساء اللائي برّجْنها. ولقد اجتمع منذ العصر الأصدقاء والأقارب أمام منزل خالي. وانتهى الأمر بالعروس إلى أن خرجت مضطربة أكثر ممّا هي مثيرة، وكانت على وشك التعثّر بأثوابها عند كل خطوة. ثم صعدت إلى نوع من صندوق خشبي مثمّن السطوح مفروش الداخل بالأقمشة الحريرية والديباج المقصّب فحمله أربعة حمّالين فتيان من أصدقاء هارون فوق رؤوسهم. وتحرّك الموكب بعد ذلك تتقدّمه المزامير والدفوف والطبلات وعدد كبير من المشاعل رفعها مستخدَمو المارستان ورفاقي القدامى في المدرسة العالية. وقد

مشى هؤلاء إلى جانبي أمام صندوق العروس؛ وكان وراءه أزواج أخواتها الأربع.

مشينا أوّلاً في الأسواق صاخبين - وكانت الدكاكين قد أغلقت أبوابها والشوارع قد بدأت تفرغ - قبل أن نتوقّف أمام المسجد الجامع حيث رشّنا بعض الأصدقاء بماء الورد. وعند هذا الحدّ من المسيرة همس لي أكبر عدلائي، وكان قد حلّ محلّ خالي في الاحتفال، أنْ حان لي أن أرحل. وعانقته قبل أن أهرع إلى بيت أبي حيث كانت قد جهّزت غرفة وزيّنت لليلة الدخلة. وكان عليّ أن انتظر فيها.

ولحق بي الموكب بعد ساعة. وكان قد عُهد إلى سلمى أمي بفاطمة، وهي التي قادتها بيدها إلى عتبة الغرفة مذكّرة إيّاي بغمزة من عينيها قبل أن تغادرنا بما يُفترض فيّ أن أفعل قبل كل شيء إذا كنت أنوي فرض سلطتي فَحْلاً من الوهلة الأولى. وعليه فقد مشيت بكلّ ثقلي على قدم زوجتي التي كان يحميها والحقّ يقال قبقاب، ثم أغلق الباب. وفي الخارج كانت تتعالى صيحات وضحكات بعضها قريب جداً، كما كانت تتعالى قعقعة قدور، إذ كان ينبغي تحضير أوّل وجبة من وجبات العرس في الوقت الذي كان يتمّ فيه تنفيذ الزواج.

كانت فاطمة اللابسة الأحمر والذهبي أمام ناظريّ شاحبة على الرغم من التطرية جامدة متحجّرة مختنقة جاهدة في التبسّم وعيناها تدعوان إلى الرثاء إلى حدّ أنّي جذبتها إليّ بشكل عفوي لأجل تهدئة خاطرها أكثر ممّا لهصرها. ودفنتْ رأسها في صدرها وانخرطت في البكاء. وضممتها لإسكاتها خوفاً من أن يسمعها أحد. والتصقت بي خانقةً دموعها شيئاً فشيئاً، بيد أنّ جسدها كان يرتعد، ثم ما لبثت أن انهارت على مهل. وسرعان ما لم تعُد أكثر من حزمة حطب تُمسك بها ذراعاي بشكل أخرق.

وكان أصدقائي قد انبأوني بأنّ كثيراً من البنات يجهدن ليلة عرسهنّ في التظاهر بأنهنّ أكثر جهلاً ممّا هنّ في الواقع، وأشدّ دهشة واستيحاشاً، غير أنّ أحداً لم يتحدّث عن الإغماء. ومن جهة ثانية فإنّي كثيراً ما سمعتهم يقولون في المارستان إنّ الأرامل والنساء المهجورات من زمن طويل يعانين من غيبوبات متكرّرة يعزوها بعضهم إلى الهستيريا؛ لكنْ لم أسمع بذلك عن بنات في الخامسة عشرة، ولا

سمعت بأنّه حدث وهنّ بين أذرع أزواجهن. وهززتُ فاطمة وحاولت رفعها فانكفأ رأسها إلى الخلف وظلّت عيناها مغمضتين وشفتاها منفرجتين. وبدأت ارتجف بدوري، وأعترف بأنّ دافع الخوف على بنت خالي كان أقلّ من دافع الخوف ممّا يمكن أن يلحق بي من هزء يتعذّر محوه طوال حياتي لو فتحت الباب فجأة وأنا أصرخ: «النجدة! لقد أغمي على العروس!»

لم يكن أمامي ما أفعله خيراً من جرّ بنت خالي إلى الفراش وإنامتها على ظهرها ونزع قبقابها وحلّ منديلها المربوط أسفل ذقنها. وكانت تُشْعِر بأنها نائمة وحسب إذ عاد تنفّسها طبيعياً بعد أن كان متقطّعاً. وجلست بقربها أرسم خططاً للهرب. وكان في وسعي أن أجرح اصبعي بدبوس وألطّخ الخرقة بالدم وأتناسى ليلة الدخلة إلى اليوم التالي. ولكنْ هل كنت سأعرف أن أبلل القماشة البيضاء بالطريقة التي ينبغي أن تكون عليها من غير أن تكتشف الجارة التي كانت شاهدة على عدد لا يُحصى من عمليات فضّ البكارة خديعتي؟ وأَجَلْتُ في فاطمة نظرات يائسة متضرّعة شاكية. وكان شعرها المحمّر قد انتشر على الوسادة. وخلّلتُ فيه يدي وقبضت على خصلة منه ثم أفلتها متنهّداً قبل أن أربّت على خدّها أسرع فأسرع وأقسى فأقسى. وارتسمت ابتسامة على شفتيها، لكنّها لم تصحُ من نومها. وهززت كتفها بحدّة أخذ السرير معها يموج بنا. ولم يظهر أنّها شعرت بالأمر؛ حتى ابتسامتها لم تَمَّحِ.

وإذ خارت قواي فقد تمدّدت وتمطّيت ولامستْ أصابعي الشمعدان. وفكّرت برهة قصيرة في إطفائه والنوم بدوري ولْيَكُنْ ما يكون. ولكنّني سمعت في اللحظة التي تلت حكّاً على الباب متسرّعاً طارئاً أو مُتخيَّلاً وحَسْبُ يذكّرني بما عليّ من واجب. وبدت لي الأصوات في الخارج بغتة أكثر استعجالاً وأشدّ إلحاحاً. ولم أكن أعلم كم من الوقت أمضيت في غرفة الكابوس هذه. ومن جديد وضعت يدي على فاطمة متلّمساً دقّات قلبها وأغمضت عينيّ. وأعاد عبق عنبر خفيف إلى مسمعي الموسيقى الزنجية في تومبكتو. وكانت هبة أمامي في ضوء القمر وقد انتهت رقصتها وانفرج ذراعاها، وكانت بشرتها ملساء تزلق اليد فوقها. وكانت معطّرة بعطر العنبر البحري. وارتجفت شفتاي بحرف الباء من اسمها وردّدت

ذراعاي حركات المصر نفسها، واستعاد جسدي ما كان قد عرفه من تيه وضياع، كما استعاد الصُّوى ذاتها والملاذات عينها.

وغدت فاطمة امرأة في غيبوبتها. وفتحت الباب فتلقّفت الجارة الخرقة الثمينة وأطلقت الزغاريد وتحرّك المدعوون وارتفع صوت الموسيقى وأخذت الأرض ترتجّ تحت أقدام الراقصين. ولم يلبثوا أن جاءوا يدعونني للانضمام بأسرع ما يمكن إلى الحفل. والحّوا، فأمامي متسع من الوقت لرؤية زوجتي، إذ تقضي التقاليد بأنّه عليّ ألا أغادر البيت قبل سبعة أيام.

* * *

وعندما استيقظتُ كانت العروس واقفة في صحن البيت وظهرها مسند إلى الفسقية، وكانت أمي مقرفصة بلا مبالاة على خطوتين منها منهمكة في تلميع صينية كبيرة من النحاس قبل وجبة العرس الثانية التي ستقدّم هذا المساء وتُدعى إليها حسب المألوف النساء وحدهن، وترقص في أثنائها الخوادم وحدهن. وكانت سلمى تتكلم بصوت خافت وجبينها ينمّ عن قلق. وإذ اقتربتُ فقد صمتت بغتة وازداد دعكها بعضَ النشاط. والتفتت فاطمة حينئذٍ فرأتني. وابتسمت ابتسامة حبور كما لو كنّا قد قضينا أروع ليالي الغرام. كانت حافية ترتدي الثوب الذي كانت ترتديه في العشيّة وقد تجعّد قليلاً، وكانت زينتها هي إيّاها وإنْ أقلَّ زَهْواً. وأبرزتُ بجلاء تكشيرة متقزّزة قبل أن أذهب وأجلس في غرفة الاستقبال بجانب أبي الذي ضمّني باعتزاز إليه وطلب بصوت مرتفع سلّة فاكهة. وأحضرتْها لنا أمي وقالت لي وهي تضعها هامسة بنبرة عتاب:

«اصبر على هذه البنت المسكينة!»

وفي السهرة ألممتُ إلمامة قصيرة بحفلة النساء، بما يكفي من الوقت للمح هبة التي كنت مفطوماً عنها مدّة أسبوع آخر. وعندما خرجتُ لحقت بي فاطمة إلى الغرفة بتحريض من أمي ولا شكّ. وتناولتْ يدي وغمرتها بالقبلات.

«لم أُرْقْ لك في الليلة الماضية».

ومن غير أن أجيب تمدّدتَ على الناحة اليسرى من السرير وأغمضت عينيّ. وانحنت فوقي وقالت بصوت متمتم متردّد يكاد يسمع:

«ألا تريد أن تزور أختي الصغيرة؟»

وأجفلت غير مصدِّق. لقد كانت هبة قد نقلت إليّ بتهكّم هذه العبارة التي تستخدمها بعض نساء هذا البلد للإشارة إلى مفاتنهنّ. ولكنْ كيف لي أن انتظر ذلك من فاطمة التي كان قد أُغمي عليها أمس بالذات لمجرّد رؤيتها غرفة عرسها؟ واستدرتُ نحوها. كانت يداها مبسوطتين على وجهها.

«من علّمك أن تقولي هذا؟»

كانت خجلى خائفة تبكي. وطمأنتها بضحكة طويلة وضممتها إليّ. لقد نالت المغفرة.

وانتهى الأسبوع بمأدبة تلقيتُ لإقامتها من عدلائي أربعة خِراف كاملة وبعض برنيّات الحلوى. وفي اليوم التالي خرجت أخيراً من البيت وتوجّهت رأساً إلى السوق لإنجاز آخر عمل في الاحتفال بالزواج الذي لا آخر له: شراء بعض السمكات وإعطاؤها إلى أمّي لتُلقي بها عند قدمي العروس متمنيّة لها الصحة والإنجاب.

* * *

قبل انتهاء ذلك العام كانت فاطمة حبلى، وشعرت على الفور بالحاجة إلى إيجاد عمل يوفّر لي دخلاً خيراً من دخل المارستان. وإذ كانت أمي ابنة ورّاق فقد الحّت عليّ أن أمارس التجارة، الأمر الذي لم يكن يروق لي قطّ نظراً لحبّي للأسفار. وزيّنتْ نصيحتها بنبوءة جعلتني في حينها أبتسم:

«كثير من الناس يكتشفون الدنيا الواسعة وهم يسعون إلى الغنى وحسب. أمّا أنت يا بنيّ فسوف تعثر على كنز وأنت تسعى إلى التعرّف على الدنيا».

عام الثروة

٩١٥ هـ (٢١ نيسان «إبريل» ١٥٠٩ م - ٩ نيسان «إبريل» ١٥١٠ م)

أنجبت لي فاطمة بنتاً في أيّام الصيف الأخيرة فأسميتها «ثروة» لأنّ ذلك العام كان قد شهد بداية ازدهاري. وإذا كان هذا الازدهار قصير الأمد فليس في وسعي الشكوى لأنّه أُخَذ منّي كما أُعْطِيتُه بمشيئة الله تعالى؛ ولم أكن قد أسهمت فيه بغير جهلي وصلفي وحبّي العارم للمغامرة.

كنت قد ذهبت قبل سلوك درب التجارة لزيارة السيد «توماسّو دو مارينو» العجوز الجَنَويّ الذي كنت قد تعرّفت إليه على طريق تومبكتو وكان أكثر التجّار الأغراب المقيمين في فاس تجلّة لحكمته واستقامته. وكنت أريد أن أسأله النصح، وربما طمحت إلى العمل بجانبه بعض الوقت ومرافقته في بعض الرحلات. وعلى الرغم من أنّه كان على فراش المرض فقد استقبلني مُبدياً أعظم آيات الصداقة مستذكراً معي سيرة خالي وبعض ذكريات القافلة الأشدّ بهجة.

وأغرقه سبب زيارتي في تفكير طويل؛ وبدا أنّ عينيه كانتا تروزاني متنقّلتين من طاقية اللبد الخضراء إلى لحيتي المُهَنْدَمَة، ثم إلى سترتي ذات الردنين الفضفاضين المهيبين؛ وكان حاجباه الأبيضان يَبْدُوانِ وكأنّهما ميزان يزن الحسنات والسيّئات؛ ثم إنّه، وقد تجاوز تردّده على ما يبدو، عرض عليّ عرضاً ما كنت لأرجوه.

«لقد بعثت بك السماء إليّ أيّها الصديق النبيل، فقد وصلتني للتوّ من أيطاليا وإسبانيا طلبيّتان مهمّتان من البرانس السوداء، تتألف إحداهما من ألف قطعة والأخرى من ثمانمئة، وينبغي تسليمها جميعاً في أوّل الخريف، وكما تعلم فإنّ أكثر البرانس تقديراً في أوروبا هي برانس «تفزة» التي كنت سأذهب بنفسي لإحضارها لو كنت في حالة صحيّة أفضل».

وشرح لي أمر الصفقة: يدفع إليّ ألفي دينار، منها ألف وثمانمئة لشراء البضاعة بمعدّل دينار واحد للقطعة بسعر الجملة، وما تبقّى لنفقات سفري ولقاء أتعابي. وإذا تمكّنت أن أحصل من الصنّاع على سعر أفضل فسوف تكون حصّتي أكبر؛ وإذا توجّب عليّ الشراء بأغلى اضطررت إلى الدفع من مالي الخاصّ.

ومن غير أن أدرك جيداً إذا كنت بصدد صفقة جيّدة أو رديئة قبلت متحمّساً. وعليه فقد دفع إليّ المبلغ بالقطع الذهبية وأعارني لرحلتي جواداً وخادمين وتسع بغلات وأوصاني بالإسراع والحذر.

ولكيلا أذهب بالمطايا بغير أحمال جمعت كل المال الذي كان في إمكاني التصرّف به، مدّخراتي ومدّخرات أمّي وجزء من ميراث خالي لفاطمة، فكان بأكمله أربعمئة دينار اشتريت بها أربعمئة سيف من أرخص السيوف، وبالضبط من تلك التي تعوّد الفاسيّون بيعها لأهل «تفزة». وعندما أخبرت أبي لدى رجوعي من السوق بضخامة ما حصلت عليه كاد يشق ثوبه من الارتياع والأسف وقال:

«تحتاج إلى سنة على الأقل لتصريف كل هذه السيوف في مدينة صغيرة! وإذ يعلم الناس أنّك مستعجل للعودة فسوف يشترونها منك بأبخس الأثمان!»

كانت كلماته معقولة، بيد أنّ الوقت للتراجع كان قد تأخرّ كثيراً لأنّي كنت قد جُلْتُ على جميع الحِرَفيين لجمع حمولتي التي دفعتُ ثمنها كلّها نقداً. وكان عليّ أن استسلم للعودة خاسراً من هذه الرحلة التجارية الأولى قائلاً لنفسي إنّه ما من أحد يتعلّم من غير أن يَرُضّ يديه أو كيسه.

وعشيّة رحيلي جاءت أمّي مذعورة تحمل إليّ شائعات سمعتْها في الحمّام: أحداث خطيرة تدور في «تفزة»، ويُحكى عن حملة يُعِدُّها جيش فاس لإعادة النظام إلى نصابه. ولكنْ، بدلاً من أن تَفُتَّ هذه الأخبار في عضدي أجّجت فضولي إلى حدّ أنّي رحلت عند شروق شمس اليوم التالي من غير حتى أن أسعى إلى الاستعلام. وبعد عشرة أيام بلغت غايتي بلا مضايقة. لأجد بلداً نهباً لأعظم غَلَيان.

ولم أكد اجتاز باب المدينة حتى تكأكأت الدهماء عليّ، يناديني بعضهم بفظاظة

ويُمطرني بعضهم الآخر بالأسئلة. وحاولت أن أحتفظ بهدوئي: لا، لم أرَ جيوش فاس تتقدّم بهذا الاتّجاه؛ نعم، كنت قد سمعت شائعات، بيد أنّي لم أُعرها اهتماماً. وبينما كنت أجهد في شقّ طريق لي اقترب مني رجل طويل القامة يرتدي ثياباً كثياب الأمراء؛ وابتعد الحشد في صمت ليفسح له مجال المرور. وحيّاني بحركة متّزنة من رأسه وقدّم لي نفسه على أنه رئيس المدينة المُبايَع. وشرح لي أن «تفزة» كانت قد عاشت حتى اليوم عيش الجمهورية يحكمها مجلس أعيان من غير ما حماية من سلطان أو قبيلة من البدو الرحّل، ولا تدفع ضريبة ولا جزية وتؤمّن رخاءها بفضل ما تبيعه من برانس الصوف المقدورة حقّ قدرها في العالم أجمع. غير أنّه منذ أن نشب نزاع دامٍ بين عشيرتين متنافستين والمعارك وتصفيات الحسابات القاتلة تتضاعف إلى حدٍّ أنّه قرّر المجلس إبعاد أفراد العشيرة المعتدين لوقف المذبحة. ولكي ينتقم المطرودون فقد استنجدوا بعاهل فاس واعدين إيّاه بتسليمه المكان. وعلى هذا فإنّ أهل المدينة يخشون هجوماً وشيكاً. وشكرت الرجل على شروحه وذكرت له اسمي وسبب زيارتي وكرّرت له القليل الذي كنت قد سمعته عن أحداث «تفزة» وأضفت أنّني لن أتأخّر كثيراً فيها، بل الوقت اللازم لبيع سيوفي وشراء البرانس والتهيّؤ للعودة.

وطلب مني الشخص أن أعذر مواطنيه على نزقهم وأمر الحشد بأن يفسحوا لي الطريق شارحاً باللغة البربرية أنّي لست جاسوساً ولا مبعوثاً لفاس وإنّما مجرّد تاجر أندلسي يعمل لحساب الجَنَويين. وهكذا تمكّنت من دخول المدينة والتوجّه إلى الفندق. ومع ذلك فإنّني قبل بلوغه رأيت بعُرْض الطريق رجلين بثياب فخمة يتناقشان بصوت مرتفع وهما ينظران إليّ. وإذ وصلت إليهما تكلّما في وقت واحد: رجاني كلّ منهما أن أشرّفه بالإقامة في منزله واعداً بأن يأخذ على عاتقه أيضاً أمر الخدم والبهائم. وإذ لم أكن راغباً في الإساءة إلى أيّ منهما فقد رفضت الدعوتين شاكراً لهما كرم ضيافتهما وأقمت في الفندق الذي لا تتوفّر فيه الراحة توفّرها في فنادق فاس؛ بيد أنّي لم أتذمّر منه لأنّني لم أعرف لعدّة ليالٍ من سقف سوى القبّة المزيّنة بالكواكب.

وما كدت أنزل في غرفتي حتى بدأ يتقاطر إليها أغنى أغنياء المدينة. وعرض عليّ أحد التجار الأثرياء أن يقايضني سيوفي الاربعمئة بثمانمئة برنس. وكدت أقبل حين

وثب تاجر آخر إلى أُذني وعرض عليّ بصوت خافت ألف برنس. وإذ لم أكن أملك شيئاً من التجربة فإنّي لم أفهم سبب هذا القدر من الاهتمام: لم يكن الأهالي يفكّرون لدى اقتراب الجيش المعادي إلا في التخلّص من إنتاجهم بأكمله لإزاحته من وجه النهب المحتوم الذي سيعقب الاستيلاء على المدينة. وعلاوة على ذلك فإن الأسلحة التي كنت أحملها ما كانت لتصل في لحظةٍ خيرٍ من هذه اللحظة التي احتشد فيها الشعب بأسره لمواجهة المهاجم. فقد كان يعود إليّ إذن أن أفرض شروطي: طالبت في مقايضة سيوفي بالحصول على ألف وثمانمئة برنس لا تنقص واحداً؛ وبعد عدّة مساومات قبِلَ تاجر يهودي بما عرضت. وهكذا حصلت في يوم قدومي بالذات على كلّ البضاعة التي طلبها السيد «دو مارينو» من دون أن أمسّ المال الذي كان قد عُهِد به إليّ.

وإذ لم يكن لديّ ما أبيعه فقد تهيّأت للعودة في اليوم التالي. بيد أنّ الحظّ، شأنه شأن عشيقة وسط الليل، أبي أن يفارقني. فقد توافد عليّ من جديد بعض تجّار «تفزة» عارضين النِيلة أو المسك، وآخرون عارضين العبيد أو الجلود أو حبّ الهال، وكل سلعة بعُشر ثمنها، الأمر الذي اضطرّني إلى تأمين أربعين بغلة لنقل كل شيء. وأخذتِ الأرقام تتراقص في رأسي؛ كنتُ قد أصبحت غنيّاً من جرّاء أوّل صفقة قمت بها.

كنت في اليوم الثالث من أعمالي التجارية عندما نادى المنادون بوصول جيش فاس، وكان عديده أَلْفَيْ خيّال وخمسمئة نبّال. وما إن رآه الأهالي حتى دبّ الفزع في نفوسهم وقرّروا المفاوضة. وإذ كنت الفاسيّ الوحيد في المدينة فقد رَجَوْني القيام بالوساطة، الأمر الذي أُعْتَرِفُ بأنّه بدا لي مسلّياً للغاية. ومنذ مقابلتي الأولى للضابط الذي كان يقود الجيش الملكي غدا صديقي. وكان رجلاً متنوّراً مرهفاً ومكلّفاً مع هذا بأفظع المهمّات: أن يُسْلِم المدينة وأعيانها إلى انتقام العشيرة المعادية. وحاولت ثَنْيَهُ عن ذلك.

«هؤلاء المطرودون خونة. اليوم سلّموا المدينة إلى السلطان، ولسوف يسلّمونها غداً إلى أعدائه. ومن الخير التعامل مع رجال بواسل يقدّرون ثمن الإخلاص والتضحية والأمانة».

كان في استطاعتي أن أقرأ في عينيه تسليمه بحججي، غير أنّ أوامره كانت

جليّة: الاستيلاء على المدينة ومعاقبة من كانوا يحملون السلاح في وجه السلطان وتسليم الحكم لرئيس العشيرة المطرودة وترك حامية لمساعدته. ومع ذلك كانت هناك حجة لم يكن في مقدوره دفعها:

«كم يأمل السلطان أن يحصل في مقابل حمايته؟

ـ لقد وعدتِ العشيرة المطرودة بعشرين ألف دينار في العام».

ودارت في رأسي عملية حساب صغيرة.

«يضمّ مجلس المدينة ثلاثين عَيّناً ينبغي أن يضاف إليهم اثنا عشر تاجراً يهودياً ثريّاً. ولو دفع كلّ منهم ألفي دينار لاجتمع أربعة وثمانون ألفاً...»

وقاطعني الضابط:

«دخل المملكة بأسرها لا يصل إلى ثلاثمئة ألف دينار. فكيف تريد أن تتمكّن مدينة صغيرة كهذه من جمع مثل هذا المبلغ؟

ـ في هذا البلد ثروات غير متوقّعة، بيد أن الناس يُخفونها ولا يَسْعَوْن إلى تثميرها، فهم يخافون أن ينهبهم الحكّام. وما السبب في اعتقادك بأنّ يهود هذا البلد متّهمون بالشحّ؟ لأنّ أدنى نفقة وأقلّ فخفخة قد تعرّض ثروتهم وحياتهم للخطر. وللسبب نفسه يضمحّل عدد من مدننا ويدبّ الفقر إلى مملكتنا».

لم يكن في وسع مخاطبي بوصفه ممثّل السلطان أن يَدَعَني أتكلّم على هذا النحو في حضرته. وطلب إليّ أن أخلص إلى الوقائع:

«إذا وعدتَ أعيان «تفزة» بالأمان في نفوسهم والمحافظة على تقاليد مدينتهم أقنعتُهم بدفع المبلغ».

وإذ حصلت على وعد الضابط فقد انطلقت لمقابلة الأعيان وأطلعتهم على الاتفاق. ولما رأيت تحفّظهم قلت لهم بأنّ كتاباً قد وصل من فاس ممهوراً بخاتم السلطان يقضي بمعاقبة جميع رجالات المدينة على الفور. وأخذوا بالشكوى والأنين، غير أنّه، كما قلت في كتابي «وصف إفريقية»، لم يمضِ يومان حتى نثروا الأربعة والثمانين ألف دينار على قدمي الضابط. ولم يكن قد سبق لي قطّ أن رأيت مثل هذه

الكمية من الذهب، ثم كان أن علمت فيما بعد من فم السلطان أنه لا أبوه ولا هو كانا قد اقتنيا في خزائنهما مثل هذا المبلغ.

* * *

وتلقّيت لدى مغادرتي «تفزة» هدايا نفيسة من الأعيان الذين سعدوا بإنقاذ أنفسهم ومدينتهم، كما حصلت على بعض المال من الضابط الذي وعدني بإخبار السلطان بالدور الذي قمت به في تلك القضية العجيبة؛ وقد زوّدني كذلك بثلّة من اثني عشر جندياً واكبوا قافلتي حتى فاس.

وقبل أن أذهب إلى بيتي بالذات مررت لرؤية السيد «دو مارينو» وسلّمته ما كان قد كلّفني من بضاعة، وأعدتُ إليه خَدَمَه وجواده وبغلاته؛ كما قدّمت إليه هدايا بمئتي دينار وقصصت عليه مغامرتي من غير أن أُغفل منها أيّ تفصيل، وأطلعته على البضاعة التي حصّلتها لحسابي الخاصّ فقدّرها بخمسة عشر ألف دينار على الأقلّ.

وقد قال لي من غير أن ألمح في حديثه شيئاً من الغيرة أو الحسد: «لقد لزمني ثلاثون عاماً لجمع مثل هذا المبلغ».

وشعرت بأنّ الدنيا بأسرها ملكي، وبأنّني لم أَعُدْ في حاجة إلى شيء ولا إلى أحد، وبأنّ الحظّ سوف يستجيب لي بعد اليوم استجابة اصبعي أو عيني. ولم أكن أسيرُ بل كنت أطير. وعندما ودّعت الجَنَويّ شدّ طويلاً على يدي مُكبّاً قليلاً إلى الأمام؛ وظللت منتصباً مرفوع الرأس شامخ الأنف. واحتفظ العجوز بيدي طويلاً في يده، أطول ممّا جرت به العادة، ثم نظر في عينيّ من غير أن يعتدل وقال:

«لقد ابتسم لك الحظّ يا صديقي الشابّ، وأنا سعيد لأجلك كما لو كنت ابني. ولكن احترس، فالثروة والسطوة عَدُوّا حصافة الرأي. وأنت حينما تتأمّل حقل قمح ألا ترى فيه سنابل منتصبة وأخرى مُحْنيّة؟ ذاك لأنّ الأُوليات فارغات! فاحتفظ إذن بذلك التواضع الذي قادك إليّ وفتح لك على هذا النحو بمشيئة الله تعالى سبل الغنى».

* * *

عرف ذلك العام أقوى عدوان سبق أن شنّه القشتاليون على المغرب. وقد

اسْتَوْلَوْا على مدينتين رئيسيتين من مدن الساحل، وهران في شهر المحرّم، وبوجي في شهر رمضان. ولسوف تسقط طرابلس الواقعة في بلاد البربر في العام التالي.

ولم يَسْتَعِدِ المسلمون أيّاً من تلك المدن الثلاث مذّاك.

عام القصرين

٩١٦ هـ (١٠ نيسان «إبريل» ١٥١٠ م - ٣٠ آذار «مارس» ١٥١١ م)

أزهرتُ وردةً في خدّيكِ
وفتّحتُ ابتسامة على شفتيكِ
لا تُبعديني فشريعتنا جليّة :
لكلِّ امرىءٍ أن يجني ما زرع.

كان في داخلي منذ ذلك الحين شاعر بلاط، وكنت متعشّقاً لخمري وجواريّ، متلّهفاً على ذهبي، كَلِفاً بالتغنّي بمزايا زوّاري، وبمزاياي بشكل خاصّ، في كل عيد ولدى كلّ رجوع من رحلة في قافلة، وحتى في أوقات الطعام العادية أحياناً، حين كان يجتمع حولي الأصدقاء والأقارب والمستخدَمون المخلصون والتجّار المنهمكون وعابرو السبيل من العلماء والبنّاؤون المقتَرِحون لبناء قصري.

فمنذ سفري إلى «تفزة» وثروتي تتضاعف، وعملائي يجوبون إفريقية من بادس إلى سجلماسة، ومن تلمسان إلى مرّاكش، محمّلين بالتمور والنيلة والحنّاء والزيوت والأقمشة؛ ولم أكن أتنقّل إلا من أجل القوافل الكبيرة. وكنت في سائر الأوقات أدير أعمالي من ديواني وأشرف، وفي يدي خيزرانة، على ورشة بناء منزلي على تلّة غير بعيد عن بيت خالي الذي أصبحتُ ربَّه مُذْ وُلِدَتِ ابنتي، وإنْ كان قد أخذ يبدو لي أضيق ممّا يتناسب وثروتي، وأكثر تواضعاً ممّا ينبغي وأقلّ ملاءمة. وكنت انتظر بفارغ الصبر اليوم الذي أستطيع فيه الإقامة في قصري، قصري الفخم الذي لا قرين له، قصري الذي كنت أحلم به وأحكي عنه بلا انقطاع وله وظّفت خير الحِرَفيين وكلّفتهم أن ينفذوا على أكمل وجه كلّ رغبة من رغباتي:

سقوف من الخشب المنحوت، وأقواس مفروشة بالفسيفساء، وفسقيّات من الرخام الأسود، كلّ ذلك من غير ما التفات إلى النفقات. وحينما كنت اتردّد أحياناً أمام رقم من الأرقام كان شاعري يُنشِد على الفور: «الحكمة في العشرين هي ألّا يكون المرء حكيماً». والحقّ أنّه كان يصوغ كلماته من ذهبي.

وكان اليوم الذي بدأت فيه الأعمال أجلّ أيام حياتي. فقد ذهبت في الغسق، وحولي ثلّة من الحاشية، أضع في البناء المقبل عند أركانه الأربعة طلّسمات نفيسة وشَعْر طفل قُصَّ بعناية من رأس ابنتي؛ وكنت قد غدوت فجأة متأثراً بأعمال السحر وأمور الطِيَرَة، وكنت أوّل المندهشين لذلك. فلا ريب أنّ هذا نصيب الأغنياء والأقوياء، فلمّا كانوا يدركون أن ثروتهم ترجع إلى الحظّ أكثر ممّا ترجع إلى مزاياهم فإنّهم يتغزّلون به وكأنه عشيقة، ويتعبّدون له وكأنه وَثَن.

وقد صدحت موسيقى جوقة أندلسية طوال الليل في بيت خالي الذي كان يهتزّ من خُطى الراقصات الصامتة، راقصات من الإماء اشتُريتِ اثنتان منهنّ للمناسبة. وأمّا هبة فقد منعتها من الرقص، لأنّني لم أكن أستطيع منذ أيام تومبكتو أن أسمح بتركها تعرض على الآخرين سحراً بمثل نشوة سحرها. ولقد أجلستها بقربي على أَنْعَم الطنافس وأحطت خصرها بذراعي. وكانت فاطمة قد دخلت غرفتها باكراً كما كان العُرف يقضي.

وكنت سعيداً بتأمّل هبة باشّة لا مبالية للمرّة الأولى منذ أشهر؛ فلقد شعرتْ بالهوان يوم مولد ابنتي، وكنت قد فاجأتها وأنا أدخل غرفتها ذات ليلة تمسح دمعة بطرف خمارها؛ وإذ خلّلت شعرها بيدي وأنا أداعب أُذُنها على عجل فقد أبعدتني بيد رفيقة، وإنْ ثابتة، وهي تهمس بصوت منكسر لم يكن لي به عهد:

«في بلدي لا تنتظر المرأة إذا كانت عاقراً حتى يطلّقها زوجها أو يهجرها، بل تبتعد وتختبىء وتجعله ينساها».

وجهدت في اتخاذ نبرة فكهة، النبرة التي كانت تستخدمها هي في العادة:

«كيف لك أن تعلمي أنّك لن تُنجبي لي صبياً جميلاً في رمضان القادم؟».

ولم تبتسم.

«لقد قال كاهن قبيلتي من قبل بلوغي إنّني لن أحمل قطّ. ولم أصدّقه، بيد أنّي معك منذ خمس سنوات، وقد أنجبتُ بنتاً من أخرى».

وإذ لم أكن أملك لذلك دفعاً فقد ضممتها إليّ؛ وتملّصت مني بتكشيرة تنمّ عن ألم وقالت:

«هل ترضى بأن تُعتقني؟

ـ أنت لي حبيبة لا جارية. لكنّي لا أوّد أن تخرجي عن ملك يميني».

وأطبقت يديّ على معصميها بقوّة وكأنّهما مِخْلَبان لأجذب راحَتَيْها الواحدة بعد الأخرى إلى شفتيّ.

«أنسيتِ ليلتنا في تومبكتو، أنسيت كلّ ليالينا وعهودنا بألاّ نفترق قطّ؟»

ونفذ هواء منعش من النافذة المفتوحة فأطفأ بنفخة شمعدان البرونز. وسادت العتمة وغدا المكان كئيباً ولم أكن أرى عيني هبة. وبلغني صوتها بعيداً مرتجّاً وكأنها تنسخ أغنية حزينة من الصحراء.

«كثيراً ما تتشبّك أيدي العشّاق ويحلمون معاً بالهناء في المستقبل. غير أنّهم مهما امتدّ بهم العمر فلن يكون هناؤهم غامراً قطّ كما في اللحظة التي تنعقد فيها أيديهم وتختلط أحلامهم».

وكان الأمر قد انتهى بها في تلك الليلة إلى أن فتحت لي ذراعيها. فهل كان ذلك من جراء الإعياء أو بدافع الواجب أو بفعل الذكرى، لست أدري. بيد أنّها لم تكن قد أزاحت من عينيها حجاباً رقيقاً من الحزن.

وعليه فقد كنت سعيداً برؤيتها تضحك من جديد وتصفّق بيديها على أنغام الجوقة الأندلسية. وفي منتصف الوجبة قام شاعري ليُنْشد من الذاكرة أبياتاً نظمها في مدحي. وما هو إلا المصراع الأول حتى كان قصري قصر الحمراء وحدائقه جنّات عدن.

«لتدخله في يوم تمامه المبارك وريثك فوق كتفيك!»

وسرت بغتة قشعريرة من هبة في ذراعي التي كانت تضمّها. وتنهّدت في أُذني قائلة:

«الله، لوددت أن أُنجبه لك، هذا الوريث!»

ونظر إليها الشاعر، وكأنّه سمعها، نظرة لا تقلّ رحمة عن الرغبة، وقطع إنشاده ليرتجل بيتين ألقاهما مترنّماً:

الحُبُّ ظمأ عند حافة بئر

الحُبُّ زهرة، ليس الحب ثمرة

وبحركة عفوية تناولت كيس نقودي ورميت به إليه. وكان ما فيه أكثر من خمسين ديناراً. غير أنّ البسمة التي أضاءت وجه هبة ما كانت لتقدّر بثمن. ولقد قضيت الليل بطوله أجنيها.

***

بعد ستة أشهر على تلك المأدبة زارني ضابط من الحرس الملكي: السلطان يستدعيني في اليوم بالذات بعد القيلولة. ولبست ثياباً تليق بالمناسبة وتوجّهت إلى القصر مبلبل الخاطر كثيراً وفي النفس ذرّة من قلق.

وتلقاني السلطان بفيض من الترحيب. وحذا خاصّته حذوه متحمّسين متصنّعين. واستذكر زيارتي الأولى لدى عودتي من تومبكتو ووساطتي في «تفزة» التي غلّت لخزينته في ذلك العام من الذهب أكثر ممّا تغلّه مدينة فاس بأسرها. وبعد أن مدح خالي وآبائي وغرناطة، شرع يعظّم لخاصّته ما أنا فيه من رخاء ويُسْر، ويمجّد بلاغتي وحذقي وسعة معارفي التي تلقّيتها في أشهر مدارس فاس.

«ألم تعرف أحمد الأعرج في المدرسة؟

ـ بلى يا مولاي.

ـ قيل لي إنّك كنت واحداً من خيرة أصحابه، والأوحد الذي كان يصغي إليه باحترام وانتباه».

وأدركت على الفور سبب استدعائي والمدائح غير المتوقَّعة. فلقد بدأ أحمد يصبح موضع اهتمام، إذ كان كثير من طلّاب فاس ومرّاكش الشبّان قد تركوا منازلهم وحملوا السلاح إلى جانبه في وجه الاجتياح البرتغالي البطيء الذي كان يتهدّد الساحل الأطلنطيقي بأسره. وكان الأعرج يجوب البلاد مع أنصاره ناقداً عاهل فاس نقداً لاذعاً أقلقه فأخذ يسعى إلى التفاوض مع الثائر الخطِر بوساطتي.

وقرّرت أن أستفيد من الفرصة لأصفّي بعض حسابات قديمة كانت تقبّض قلبي.

«كان الشريف أحمد كثيراً ما يزورني زمن المدرسة. ولقد تبدّى عن أخ صادق يوم حُجر على أختي في حيّ المجذومين. محا الله تلك الذكرى من حافظتي وحافظته!»

وتنحنح العاهل ليخفي ارتباكه وقال:

«ماذا حلّ بهذه المنكودة؟

- تزوّجها فتى طيّب، حمّال، ثم هرب معها إلى ناحيةٍ ما من غير أن يجرؤ على تسريب أقلّ نبأ وكأنّهما مجرمان.

- أتريد الحصول لهما على أمان؟ على إذن بالعفو؟ إنّ كاتبي سوف يحضّره.

- لا حدّ لسماحك، أطال الله عمرك!»

لقد كان عليّ أن أنطق بالعبارات المتعارَف عليها، بيد أنّي كنت مصمّماً على عدم التراخي. وانحنيت على أُذن الملك وقلت:

«لقد تأثّر صديقي الشريف أحمد كثيراً لما آلت إليه حال أختي من جَوْر ضحيّة انتقام الزروالّي الشنيع.

- لقد نُمي إليّ الدور الذي قام به هذا الرجل».

لم أدهش أدنى الدهشة لمعرفتي أنّ السلطان كان قد أُطْلِع على تلك الأحداث

بحذافيرها؛ ولم أسأله لماذا لم يفعل شيئاً في حينه لأنّي كنت أحرص على كسبه إلى جانبي. وعليه فقد تابعت بصوت خافت:

«كان الزروالِيّ قد غدا في نظر أحمد مثالاً لهذا الفساد الذي دبّ حسب قوله إلى أخلاق أهل فاس. حتى إنّي علمت أنّه كان قد تحدّث عن ذلك الرجل مِراراً في خطبه».

وأضفت بحذر كيلا يبدو أنّي أشاطر الأعرج آراءه:

«سدّد الله خطاه على درب الحقّ!»

وبدا السلطان متفكّراً متردّداً، ثم أصلح عمامته من غير أن يقول شيئاً واعتدل في جلسته.

«اريد أن تذهب لمقابلة أحمد».

وطأطأت رأسي علامة على الإصغاء فتابع يقول:

«ستسعى لتهدئته، لردّه إلى مشاعر أفضل نحوي، نحو سلالتنا ونحو مدينة فاس حفظها الله من الكفّار والطامعين! وإنّي لمستعدّ لمساعدة هذا الشريف الشابّ بالمال والسلاح في نضاله المجتاحين البرتغاليين، غير أنّي بحاجة إلى الأمان في جانبي حين يكون عليّ أن أندفع بدوري في المعركة لحماية مملكتي التي تعاني اليوم من الضعف. فطنجة في يد البرتغاليين، وكذلك أرزيلة وسبتة، ولراش والرباط وشلّة وسالة مهدّدات، وأنفة تهدّمت وأهلها يفرّون منها. وفي الشمال يستولي الإسبان على مدن الساحل واحدة بعد أخرى».

وجذبني إليه وخفض من صوته فابتعد خاصّته، ولكنّهم أصاخوا السمع بشكل خفي.

«سوف أرسل بعد بضعة أشهر جيشي من جديد لمحاربة طنجة وأرزيلة على أمل أن يؤيدني الله تعالى في هذه المرّة بنصرٍ من عنده. وأريد من الشريف أن يتصرّف في هذا الأمر تصرّف حليف، وبدلاً من أن يؤلّب الأقاليم على ملوك المسلمين فليهاجم البرتغاليين في الوقت الذي أهاجمهم فيه لأنّنا كلينا من

المجاهدين في سبيل الله. فهل لي أن أعهد إليك بهذه المهمّة؟

ـ أبذل ما في وسعي لأنّه ليس أعزّ على قلبي من اتحاد المسلمين. وما إن تأمرني حتى أنطلق إلى سوس للقاء أحمد، ولسوف أقوم بكل شيء لحثّه على المصالحة».

وربّت السلطان على كتفي علامة الرضا وطلب من رئيس الحرس وقاضي القضاة أن يقتربا وقال:

«ترسلان في هذا المساء بالذات رسولاً إلى بيت الزروالِيّ وتطلبان منه أن يتغيّب عن مدينتنا مُدّة عامين على الأقل. ليذهب للحجّ، ثم ليبق بعض الوقت في القرية التي وُلد فيها».

كان جميع رجال الحاشية يُصغون بنَهَم. وما هي إلا ساعات حتى يكون الخبر قد انتقل من فم إلى فم ودار على المدينة بأسرها. ولن يجرؤ أحد قطّ على تحية المطرود، ولا على زيارته، ولن يلبث العشب أن ينمو على الطريق إلى منزله. وتلذّذت بانتقامي العادل من غير أن أعلم أنّه سوف يجرّ على ذويّ مزيداً من الويل.

وعندما استأذنت السلطان للمغادرة أمرني بالعودة في اليوم التالي لأنّه يرغب في استشارتي بشأن أموال المملكة. ومذّاك غدوت بقربه في كلّ يوم، أحضر مجالسه، واتلقّى أحياناً الالتماسات بنفسي، الأمر الذي كان يثير حسد الآخرين من أصحاب المراتب. بيد أنّي ما كنت لأبالي قطّ بذلك إذ كنت أنوي الرحيل في مطلع الربيع إلى سوس، والاهتمام لدى عودتي بقوافلي، وعلى الأخصّ بقصري الذي كان يكبر في مخيّلتي ويحْلَوْلي، وإنْ كان لا يتقدّم العمل فيه على الأرض لأن الشهرين الأخيرين من ذلك العام كانا مَطيرَيْن باردَيْن، ولم تكن ورشة أحلامي غير مستنقع من الوحل.

عام الشريف الأعرج

٩١٧ هـ (٣١ آذار «مارس» ١٥١١ م - ١٨ آذار «مارس» ١٥١٢ م)

في ذلك العام شنّ كما كان مرسوماً كلّ من سلطان فاس من ناحيته والشريف الأعرج من جهته حملات على البرتغاليين، وكان الأوّل يرغب في استعادة طنجة والثاني يسعى لتخليص أغادير؛ وقد صُدّا كلاهما بخسائر جسيمة، الأمر الذي لا يُعثر على أثر له في القصائد التي نُظمت فيهما.

وكنت قد رتّبت أموري كي أكون حاضراً تلك الأيام من العراك موطّداً النفس على أن أدوّن ملاحظاتي عنها كلّ مساء. ولقد دهشت وأنا أعيد قراءتها في رومة بعد انقضاء بضع سنوات، من أنّني لم أكن قد خصصت سير المعارك بسطر واحد. فالشيء الوحيد الذي كان قد استرعى انتباهي هو سلوك الأمراء والمقرّبين منهم حيال الهزيمة، وهو سلوك أدهشني على الرغم من أنّ مخالطتي أهل البلاط كانت قد خلّصتني من بعض سذاجاتي. ولن أذكر سوى مقطع قصير من ملاحظتي على سبيل التعريف.

وقائع مدوّنة في ذلك اليوم، قبل اليوم الأخير من شهر ربيع الأول ٩١٧ هـ الموافق ليوم الأربعاء ٢٦ حزيران (يونية) من عام المسيح ١٥١١ م.

«أعيدت إلى المعسكر جثث الشهداء الثلاثمئة الذين سقطوا أمام طنجة. ولكي أهرب من هذا المشهد الذي يفتّت القلب فقد ذهبت إلى خيمة السلطان الذي وجدته مجتمعاً إلى قاضي القضاة. وإذ رآني العاهل فقد أشار إليّ بأن أقترب وقال لي: «اسمع ما يراه قاضينا في هذا اليوم!» وشرح لي هذا قائلاً: «كنت أقول لمولانا إنّ ما حدث ليس بالأمر الرديء لأنّنا أظهرنا للمسلمين حميّتنا في الجهاد من غير أن يشعر البرتغاليون بأنهم فُدحوا فيَسْعَوْا إلى الانتقام». وهززت رأسي وكأنّي

أشاطره الرأي قبل أن أسأل: «والقتلى، أصحيح أن عددهم بالمئات؟» وإذ أدرك القاضي النبرة الناقدة أو الساخرة فإنه لم ينبس بكلمة، غير أنّ السلطان نفسه كان هو الذي تولّى الردّ فقال: «ليس بين القتلى سوى عدد ضئيل من الخيّالة. وأمّا الآخرون فليسوا سوى مشاة وحفاة وغلاظ لا خير فيهم كالذين يُعدّون بمئات الألوف في مملكتي، أي أكثر بكثير ممّا في استطاعتي يوماً أن أسلّح!» وكانت نبرته تترجّح بين اللامبالاة والمرح. واختلقت عذراً واستأذنت تاركاً الخيمة. وفي الخارج كان بعض الجنود متجمّعين على ضوء مشعل حول جثّة كانوا قد أحضروها. وكان مقاتل عجوز بلحية تميل إلى الشقرة قد لمحني خارجاً فاقترب مني وقال: «قل للسلطان ألّا يبكي الذين قُتلوا لأن جزاءهم مضمون يوم الحساب». وسالت دموعه واختنق صوته فجأة وهو يقول: «لقد مات ابني البِكر، وأنا مستعدّ للّحاق به إلى الجنّة ما إن يأمرني مولاي بذلك!» وتعلّق بأرداني وكانت يداه المتشبّثتان قنوطاً تقولان غير ما كانت تقول شفتاه. وجاء أحد الحرّاس يُنْذِر الجندي بألّا يزعج مستشار السلطان؛ وغاب الرجل وهو ينتحب. ودخلت خيمتي».

كان عليّ أن أنطلق بعد أيام إلى سوس للقاء أحمد. وكان قد سبق لي أن التقيته في مطلع العام لأحمل له رسالة السلام من السلطان؛ وكان صاحب فاس يريد في هذه المرّة أن يُبلغ الأعرج بأنّه سقط للبرتغاليين من القتلى أكثر ممّا سقط لنا، وأنّ السلطان سالم برحمة وفضل من الله تعالى. وعندما التقيت الأعرج كان قد بدأ بمحاصرة أغادير، وكان رجاله يطفحون حماسة وحميّة. وكان كثير منهم طلّاباً حضروا من جميع أنحاء المغرب، وكانوا يتمنّون الشهادة كما لو كانوا يذوبون شوقاً إلى خطيبة خفيّة.

كانت المعركة لا تزال مُسْتَعِرَة بعد انقضاء ثلاثة أيّام، وكانت قد بعثت الحميّة في النفوس نشوةُ الدم والانتقام والفداء. وبغتة أمر أحمد وسط دهشة الجميع برفع الحصار. وقُطع على الفور رأس وهرانيّ شابّ كان قد انتقد بصوت مرتفع الأمر بالانسحاب. وإذ أبديت استغرابي رؤية الأعرج يخور بهذه السهولة ويستعجل التخلّي عمّا بدأه فقد هزّ كتفيه وقال:

«إذا كنت تريد التدخّل في السياسة ومفاوضة الأمراء فعليك أن تتعلّم

الاستهانة بظواهر الأمور».

وذكّرتني ضحكته الهازئة بمناقشاتنا المستفيضة أيام المدرسة. وإذ كنا وحدنا داخل خيمة حربيّة فقد ساءلته بلا مواربة. وأجابني بتؤدة:

«كان أهالي هذه المنطقة يريدون التخلّص من البرتغاليين الذين يحتلّون أغادير ويُغيرون على السهل المحيط بها بأكمله جاعلين أعمال الفلاحة مستحيلة. ولما كان صاحب فاس بعيداً وصاحب مرّاكش لا يخرج قطّ من قصره إلا للصيد الأسبوعي فقد اختاروا الاستنجاد بي؛ وقد جمعوا المبلغ اللازم لتجهيز خمسمئة فارس وعدّة آلاف من المشاة. وكان عليّ إذن أن أقوم بمحاولة حيال أغادير، بيد أنّني لم أكن أرجو قطّ الاستيلاء عليها لأنّني كنت سأخسر نصف جيشي في المعركة، وأخطر من هذا أنّه كان عليّ أن أقيم فيها بقية عساكري طوال أعوام للدفاع عنها في مواجهة هجمات البرتغاليين المتلاحقة. وعندي اليوم ما هو أفضل، ألا وهو حشد المغرب برمّته وتوحيده بالحيلة أو بقوّة سيفي من أجل مناضلة المجتاح».

وضممت قبضتي بأشدّ ما أستطيع من قوّة وأنا أردّد لنفسي أنّ عليّ ألّا أجيب؛ غير أنّني لم أكن قد أتممت العشرين فقلت وأنا أباعد بين كلماتي وكأنّني أسعى فقط إلى الفهم:

«أنت تريد على هذا مقاتلة البرتغاليين، ولكنّك لن ترمي بعساكرك في وجههم، فهؤلاء الرجال الذين لبّوا نداءك للجهاد تحتاج إليهم لغزو فاس ومكناس ومراكش»!

وأمسك بي أحمد من كتفي من غير أن يتوقّف عند سخرياتي وقال:

«بحق الله يا حسن، لا يبدو أنّك تدرك ما يجري! المغرب بأسره مضطرب. ولسوف تَبيد سلالات وتخرب أقاليم وتُدَمَّر مدن. انظر إليّ، تأمّلني، المسْ ذراعيّ ولحيتي وعمامتي لأنّك لن تستطيع غداً أن تحدجني بنظرة ولا أن تلامس وجهي بأصابعك. فأنا الذي يقطع الرؤوس في هذا الإقليم، واسمي هو الذي يرتجف له الفلّاحون وأهل المدن. وعمّا قريب ينحني هذا البلد بأسره عندما أمرّ، ولسوف تقصّ على ابنائك يوماً أنّ الشريف الأعرج كان صديقك، وأنّه زارك في بيتك،

وأنّه رثى لحال أختك. وأمّا أنا فسأكون قد نُسيت».

كنّا نرتعد كلانا، هو من الغضب والنزق، وأنا من الخوف. وشعرت بأنّي مهدّد لأنّي إذ كنت قد عرفته قبل مجده فقد كنت نوعاً ما مِلْكَ يمينه العزيزَ المحتقر المقيت، كما كان في نظريَ بُرْدي الأبيض القديم الذي كان مرقّعاً يوم حصلت على الغنى.

وعليه فقد قرّرت أنه حان الوقت لكي أبتعد عن هذا الرجل لأنّني لن أقدر قطّ على محادثته محادثة النِّد للنِّد، ولأنّه كان عليّ بعد اليوم أن أخلع عني ثوب عزّتي وكبريائي في الدهليز المؤدّي إلى غرفته.

* * *

وفي نهاية ذلك العام حدث حادث لم أطّلع على تفاصيله إلا بعد زمن طويل، ولكنّه سوف ينغّص بفداحةٍ حياةَ أهلي. وإنّي أقصّه كما تمكّنت من إعادة بنائه من غير أن أُغْفِل أيّ دقيقة من دقائقه تاركاً لله عزّ وجلّ أن يرسم الخطّ الفاصل بين الجريمة والجزاء الوفاق.

كان الزرواليّ قد ذهبَ لحجّ مكة كما تلقّى الأمر بذلك، ثم توجّه إلى مسقط رأسه جبل بني زروال في الريف لإكمال العامين المحدّدين لطرده. ولم يكن خوفه بالقليل من عودته إلى ذلك الإقليم الذي ارتكب فيه عدداً من أعمال الابتزاز في الماضي، بيد أنّه كان قد أجرى بعض الاتّصالات برؤساء العشائر الرئيسيين ووزّع بعض أكياس المال واصطحب في أثناء الرحلة أربعين حارساً مسلّحاً وأحد أبناء عمومة صاحب فاس، وهو أمير مدمن على شرب الخمر ورقيق الحال دعاه للإقامة بعض الوقت في بيته آملاً بذلك أن يوهم الجبليين بأنّه كان لا يزال حَسَنَ الصلة بالبلاط.

كان على القافلة لكي تبلغ بني زروال أن تمرّ في أرض بني الوليد. وهناك كان على طريق وعرة بين قريتين من قرى الرعاة طيف امرأة عجوز ينتظر مثل كتلة سوداء من التراب لا يبرز منها سوى راحة مفتوحة بكسل لسخاء المارّة. وعندما اقترب الزرواليّ على جواد مطهّم يتبعه عبد يغطّيه بمظلّة عريضة تقدّمت

المتسوّلة منه وشرعت تغمغم بكلمات الدعاء بصوت يكاد يُسمع. وصرخ أحد الحراس آمراً إيّاها بالابتعاد، غير أنّ مولاه أسكته. فقد كان بحاجة إلى أن يتزوّد بشيء من حُسْن السُمعة في هذا البلد الذي كان قد نهبه. وسحب من كيسه بعض القطع الذهبية ومدّ بها يده علانية متوقّعاً من العجوز أن تفتح يديها كالقصعة لتلقّيها. وفي طرفة عين أمسكت المتسوّلة بمعصم الزروالي وجرّته بعنف فوقع عن جواده وظلّت قدمه اليمنى عالقة في الرِكاب بحيث انقلب جسده وأخذت عمامته تكنس الأرض وعلى عنقه ظُبة خنجر.

وزعقت المتسوّلة المزعومة بصوت رجالي: «قل لرجالك ألاّ يتحرّكوا».

وصدع الزروالي بالأمر.

«مُرْهُمْ بالابتعاد حتى القرية التالية!»

وما هي إلا دقائق حتى لم يكن على طريق الجبل غير جواد نزق ورجلين ساكنين وخنجر معقوف. وشيئاً فشيئاً شرعا يتحرّكان. فقد أعان قاطعُ الطريق الزروالي على النهوض ثم قاده مشياً بعيداً عن الطريق بين الصخور كما يجرّ وحش فريسته بين شدقيه، واختفيا معاً. وعندها فقط قدّم المهاجمُ نفسَه إلى الذي كان يرتعد من جراء وقوعه ضحيّة بين يديه.

كان هارون «المنقِّب» يقيم منذ ثلاث سنوات في جبل بني الوليد الذين كانوا يحمونه وكأنّه واحد منهم. فهل كانت الرغبة في الانتقام هي وحدها التي حملته على التصرّف تصرّف قُطّاع الطرق أم الخوف من رؤية عدوّه مقيماً في الجوار منقضّاً من جديد عليه وعلى مريم وعلى الصبيّين اللذين أنجبتهما له؟ مهما يكن من أمر فقد كانت الطريقة طريقة مُنتقم.

وجرّ هارون ضحيّته إلى البيت. وإذ رأتهما أختي فقد أصابها من الفزع فوق ما أصاب الزروالي. ولم يكن زوجها قد أخبرها بمشروعه، ولا بقدوم خطيبها السابق إلى الريف. ولم تكن من جهة ثانية قد رأت قطّ العجوز، ولا قدرت أن تفهم شيئاً ممّا كان يجري.

وأمرها هارون: «اتركي الولدين هنا واتبعيني».

ودخل غرفة النوم مع أسيره. وانضمّت إليهما مريم بعد أن أرخت ستارة الصوف المستخدمة لإغلاق الحجرة.

«انظر إلى هذه المرأة يا زروالّي!»

ما إن سمعت أختي هذا الأسم حتى تفوّهت بلعنة. وشعر العجوز بنصل الخنجر يضغط على فكّه. وابتعد خِفْية من غير أن يفتح فمه.

«تَعَرَّيْ يا مريم!»

ونظرتْ إلى «المنقِّب» بعينين غير مصدّقتين ومفزّعتين. وزعق من جديد:

«أنا هارون زوجك آمرك بالتعرّي! أطيعي!».

وكشفت المسكينة عن خدّيها وشفتيها ثمّ عن شعرها بحركات خرقاء متقطّعة. وأغمض الزروالّي عينيه وطأطأ رأسه جِهاراً. فلو حدث أن رأى جسد هذه المرأة عارياً فإنّه يعلم أيّ مصير ينتظره.

«اعتدل وافتح عينيك!».

ورافق أمرَ هارون حركةٌ فظّة من الخنجر. واعتدل الزروالّي، لكنّه احتفظ بعينيه مغمضتين بإحكام.

وألحّ هارون قائلاً: «انظر!»، في حين كانت مريم تحلّ أثوابها بيد وتمسح دموعها بالأخرى.

وسقط ثوبها.

«انظر هذا الجسد! أترى أثراً للجذام؟ اذهب وتفحّصه عن كثب!»

وأخذ هارون يهزّ الزروالّي دافعاً إيّاه صوب مريم ثم معيداً إيّاه إلى الخلف قبل أن يدفعه كرّة أخرى بعنف مخلّياً إيّاه. وكاد العجوز ينهار عند قدمي أختي التي ندت عنها صرخة.

«كفى يا هارون، أتضرّع إليك!».

كانت ترقب تلك الخِرقة المسيئة القابعة عند قدميها بشفقة تعادل ذُعرها. فقد كانت عينا الزروالّي مفتوحتين، غير أنّه كان بلا حراك. واقترب هارون منه بحذر فجسّ نبضه ولمس أجفانه، ثم نهض من غير أن يبدو عليه الاضطّراب قطّ.

«كان هذا الرجل يستحقّ أن يموت كالكلب عند قدمي أكثر ضحاياه براءة».

وقبل المساء كان هارون قد دفن الزروالّي تحت شجرة تين من غير أن ينزع عنه ثوبه أو قبقابه أو حُلِيّه.

عام العاصفة

٩١٨ هـ (١٩ آذار «مارس» ١٥١٢ م - ٨ آذار «مارس» ١٥١٣ م)

في ذلك العام ماتت زوجتي فاطمة وهي تضع. وبكيتها طوال ثلاثة أيام بمثل مالم أكن قد أحببتها قطّ. ولم يعش المولود، وكان ذكراً.

واستدُعِيت إلى القصر قُبَيْل أسبوع الأربعين. وكان السلطان قد رجع لتوّه من حملته الصيفية الجديدة على البرتغاليين، وعلى الرغم من أنّه لم يسجّل فيها سوى المخازي فإنّني لم أستطع إدراك أمر الوجوه المتقبّضة التي تلقّتني ولم أكد اجتاز البوابة الكبيرة.

ولم يُظهر لي السلطان نفسه أيّ عِداء، لكنّ استقباله كان خِلواً من الحرارة، وصوته كان مصطَنع الوقار:

«لقد التمست منذ عامين العفو لنسيبك هارون الحمّال. وقد منحناك إيّاه. ولكنّه بدلاً من أن يُصلح هذا الرجل حاله ويُظهر عِرفانه فإنّه لم يرجع قط إلى فاس مفضّلاً أن يعيش في الريف عيش الخارجين على القانون، مترقّباً الفرص للانتقام من الزروالّي العجوز.

- ليس ما يثبت يا مولاي أن هارون هو المعتدي. فتلك الجبال ملأى بقطّاع...»

وكان قاضي القضاة هو الذي قاطعني بصوت أعلى من صوت السلطان:

«لقد عُثر على جثة الزروالّي مدفونة بالقرب من بيت كانت تسكنه أختك وزوجها. وقد تعرّف الجنود على المغدور به لأنّ حليّه لم تكن قد نُزعت. فهل تكون هذه جريمة مجرّد قاطع طريق؟»

ويجب أن أعترف بأنّه منذ ورود الأخبار الأولى عن اختفاء الزروالي إلى فاس قبل أربعة أشهر، وفي الوقت الذي لم أكن أعرف فيه أدنى تفصيل يُفصح عن ذلك، كان احتمال انتقام قام به هارون قد دار في خَلَدي. فقد كنت أعلم أن «المنقّب» قمين بمواصلة أحقاده حتى النهاية، ولم أكن أجهل أنّه كان قد اختار الإقامة في ذلك الجزء من الريف. وهكذا لم يكن سهلاً عليّ إعلان براءته. وكان عليّ مع ذلك أن أدافع عنه لأنّ أيّ تردّد يصدر عنّي كان سيرهقه.

«مولانا أعدل من أن يرضى بالحكم على إنسان لا يكون قادراً على الدفاع عن نفسه. ولا سيّما حين يتعلّق الأمر بفرد محترم من أفراد جماعة الحمّالين».

وبدا السلطان متضايقاً:

«لا يتعلّق الأمر بنسيبك يا حسن، بل بك أنت. فأنت مَنْ طالب بطرد الزروالي، وقد أمرنا بنفيه إلى قريته بناء على إلحاحك، وبذهابه إلى هناك هوجم وقُتل. إنّ مسؤوليتك لفادحة».

وفيما كان يتكلّم غامت عيناي وكأنّهما كانتا قد بدأتا تستسلمان لظلمة زنزانة. ورأيت ثروتي تُصادَر وأملاكي تُوزَّع وأسرتي تُهان وهبة تُباع في سوق النخاسة. وتراخت ساقاي وغمرني العَرَق، عَرَق العجز البارد. وجهدت مع ذلك في التفوّه بمشقّة، بانتحاب:

«وما تُهمتي؟»

وتدخّل قاضي القضاة من جديد وقد جعله ذُعري البادي للعيان أكثر مشاكسة فقال:

«التواطؤ أيّها الغرناطي! تركك مجرماً حرّاً طليقاً، إرسالك ضحيّته إلى الحتف، انتهاكك العفو السلطانيّ وتفريطك بعطف مولانا».

وحاولت أن أتمالك نفسي وقلت:

«وأنّى لي أن أعرف متى يعود الزروالي من حجّه، ومن أيّ طريق؟ وأمّا هارون

فإنّي لم أره منذ أربعة أعوام، ولا استطعت حتى أن أبلّغه إجراء العفو الذي حظي به».

والحقيقة أنّي كنت قد أوصلت إلى «المنقّب» البلاغ تلو البلاغ، لكنّه كان لفرط عناده قد أهمل الردّ على أيّ منها. ومع ذلك فإنّ دفاعي ما كان ليمرّ من غير أن يؤثر في الملك الذي استعاد بعض نبرات الودّ وهو يقول:

«لا ريب في أنك لست مذنباً في هذا يا حسن، غير أنّ المظاهر تدينك. والعدل يعتمد على المظاهر، في هذا العالم على الأقلّ، وفي عيون جمهرة الناس على الأقلّ. ولا يسعني في الوقت عينه أن أنسى أنّك خدمتني بإخلاص حين عهدت إليك في الماضي ببعض المهمّات».

وصَمَتَ. كان يدور في خلده قرار تمالكتُ أن أقطعه عليه لأنّي أحسست أنّه يميل إلى الرأفة. ومال عليه قاضي القضاة بنيّة واضحة للتأثير فيه، بيد أنّ السلطان ألزمه بجفاء أن يصمت قبل أن يُصْدِر قراره:

«لن يكون مصيرك مصير القاتل يا حسن، بل مصير الضحيّة. لقد حُكم عليك بالطرد كالزروالي. ولن تمْثُل خلال عامين كاملين في هذا القصر، ولن تقيم في فاس ولا في أيّ إقليم من الأقاليم التي أملكها. وكلّ من يراك اعتباراً من اليوم العشرين من شهر رجب داخل حدود المملكة سوف يأتي بك مصفّداً».

وعلى الرغم من قسوة الأقوال الأخيرة فقد كان عليّ أن أبذل جهدي كيلا يستشفّ أحد ارتياحي. فلقد نجوت من السجن والإفلاس، وما كانت رحلة طويلة مدّتها عامان لتخيفني قطّ. وعلاوة على ذلك فإنّني مُنحت مهلة شهر لتنظيم أموري.

* * *

كان خروجي من فاس مشهوداً، فقد أصررت على الذهاب إلى المنفى مرفوع الرأس مرتدياً الديباج، لا في الليل وإنّما في رابعة النهار، وأن أسلك الأزقّة الغاصّة وورائي قافلة فخمة: مئتا جمل محمّلة بأنواع البضائع وبعشرين ألف

دينار، وهي كنز كان يحميه خمسون حارساً مسلّحاً كسوتهم وقمت بنفقاتهم، وكان منظرهم كفيلاً بتثبيط همم اللصوص الذين يعيثون في الطرق فساداً. وتوقّفت ثلاث مرات، إحداهن أمام مدرسة أبي إنانية، والثانية في صحن مسجد الأندلسيين، والثالثة في شارع الخزّافين بجوار السور لأرشّ على المتسكّعين بضع حفنات من الذهب جانياً في المقابل المدائح والهتافات.

كنت أجازف وأنا أنظّم مثل ذلك العرض. فلو هُمِسَتْ بعض الأحاديث المغرضة في أُذن قاضي القضاة ثم أُذن السلطان لكان من الممكن أن أُعتقَل وأُتَّهم بأنّي حوّلت العِقاب السلطاني النازل بي إلى مهزلة. وكان عليّ مع ذلك أن أجازف تلك المجازفة، لا لكي أُرضي كبريائي وحسب، وإنّما من أجل أبي وأمي وبنتي وجميع أهلي أيضاً، فلا يعيشون في الخزي طوال مدّة طردي.

وتركت لهم بالطبع ما يقيهم شرّ العوز لسنوات طويلة طاعمين مخدومين لابسين على الدوام جديد الثياب.

وإذ أصبحت على بُعد ميلين من فاس على طريق سفرو موقناً بأن كلّ خطر قد زال منذ الساعة اقتربت من هبة القابعة على راحلتها في هودج مكسوّ بالأقمشة الحريرية وهتفتُ في حبور:

«لا يذكر فاسيّ أنه سبق لأحد أن شهد انسحاباً بمثل هذا الزَهْو».

وبدت قلقة وقالت:

«لا ينبغي تحدّي أحكام القدر، ولا ينبغي الاستخفاف بالخصومة».

وهززت كتفيّ من غير أن أتأثّر على الإطلاق وقلت:

«ألم أقسم بأن أعيدك إلى قبيلتك؟ سوف تكونين عندهم بعد شهر. إلا إذا لم تكوني راغبة في مرافقتي إلى تومبكتو، ثم إلى مصر».

واكتفت للإجابة بـ «إن شاء الله» غامضة مكروبة.

بعد أربعة أيام كنّا نعبر ممرّ الغربان في جوّ أبرد بكثير ممّا كنت أفترض في ذلك

الشهر من تشرين الأول (أوكتوبر). وعندما توجّب أن نتوقّف لقضاء الليل أقام الحرس المخيّم في وهدة صغيرة بين تلّتين راجين الاحتماء من رياح الأطلس القارسة. وكوّنوا دائرة مضحكة من الخيام انتصبت في وسطها خيمتي وكأنها قصر من القماش مزخرف الحواشي بالآيات القرآنية المخطوطة بشكل فنيّ.

وكان المفروض أن أنام هنا أنا وهبة. وكنت أنتظر تلك اللحظة بادي السرور، غير أنه عندما خيّم الظلام رفضت رفيقتي بعناد أن تنام في الخيمة من غير أن تبدي سبباً واضحاً، ولكنْ بذعر في النظرات جعلني أعدل عن كل احتجاج. وكانت قد لمحت على بُعد نصف ميل من المخيّم مغارة، وفيها سوف تنام لا في أيّ مكان خارجها.

أنقضي الليل في مغارة من مغاور الأطلس إلى جانب الضباع والأسود والفهود، وربما بجانب ثعابين ضخمة يقال إنّها تكثر في الجوار، وأنّها سامّة حتى ليكفي أن تلامس الجسم البشري لكي يتفتّت كالصلصال؟ كان من المستحيل إدخال هذا الخوف في روع هبة. فخيمتي الفخمة وحدها كانت مصدر رعبها في ذلك الليل الخريفي البارد.

وكان عليّ أن أستسلم. وتغلّبتُ على مخاوفي وانقدت إلى المغارة على الرغم من تأنيب الحرس ونظراتهم الشزرة. وكان منظر هبة المضحك، وهي تحمل كدسة كبيرة من الأغطية الصوفية وفانوساً وطستاً مليئاً بحليب النوق وعرجون بلح، يُشعرني بأنّ احترامي قد تزعزع.

وبدا مأوانا ضيّقاً أقرب إلى أن يكون فجوة في الصخر من أن يكون رواقاً حقيقياً، الأمر الذي سرّى عنّي لأنّه كان في وسعي أن ألمس آخره بيُسْر وأتأكّد من عدم وجود أي وحش فيه. باستثناء هبة التي لا يمكن ترويضها، والتي كان تصرّفها يزداد غرابة وهي تكوّم الحجارة لتضييق المدخل وتنكت الأرض بعناية فائقة وتغلّف بالصوف الطست والعرجون لحفظها من التجمّد بفعل الجليد، بينما كنت أنا متعطّلاً ساخراً لا أكفّ عن رشقها بالتهكم والتوبيخ من غير أن أنجح في فرج أساريرها أو إثارة غضبها، وأكثر من ذلك في إلهائها عن عملها الدائب الشبيه بصنيع النمل.

وانتهيت إلى السكوت، لا بفعل الإعياء، وإنّما بسبب الريح. فقد أخذت تزداد هبوباً بين لحظة وأخرى حتى غدت مُصِمّة. وكان يحوّم معها ثلج سميك مهدّداً بالنفاذ بدفقاتٍ كاملة إلى خلوتنا. وكانت هبة التي لم تنزعج قطّ تراقب الآن بعين خبيرة جهاز الدفاع والبقاء الذي أقامته.

يا لهبة الرائعة! ما كنت بالطبع لأنتظر ذلك الظرف لأبدأ بحبّها. بيد أنّها لم تكن قطّ في نظري غير جوهرة حريمي، الجوهرة المتلألئة ذات الغنج والدلال التي كانت تعرف كيف تظلّ بعيدة المنال من عناق إلى عناق. ومع هذا فإنّ امرأة أخرى كانت ستتبدّى وسط عاصفة الأطلس. فقد كان منزلي الوحيد في عينيها، في شفتيها، في يديها.

لقد كان الحياء يمنعني دائماً من قول «أحبّكِ»، غير أن قلبي لم يخجل يوماً من أن يحبّ. ولقد أحببت هبة، وحقّ الله العليّ القدير موزِّع العواصف والسَكَنات، ودعوتها «كنزي» من غير أن أدري أنّها كانت مذّاك كلّ ما أملك، ودعوتها «حياتي»، الأمر الذي لم يكن غير الحقّ لأن الله جنّبني الموت بفضل شفاعتها.

فقد ظلّت الريح تزمجر يومين وليلتين، وتراكم الثلج فسدّ سريعاً مدخل المغارة وتركنا حبيسين داخلها.

وفي اليوم الثالث حضر بعض الرعاة ففتحوا الفوهة لا بنيّة إنقاذنا وإنّما ليحتموا بالمغارة لتناول بعض الزاد. ولم يبدُ قطّ أنهم سُرّوا لرؤيتنا، ولا طال بي الزمن لمعرفة السبب الرهيب. فقد مات الحرس والجمال الذين فاجأتهم العاصفة تحت ركام الثلوج. وإذ اقتربتُ تبيّن لي أن الأرزاق وقعت فريسة النهّابين، والأجساد فريسة أكلة الجثث من السباع. ولم يكن مخيم قافلتي سوى خراب ويباب. وكان أن واتاني حضور الذهن فلا أبدو حزيناً على الرجال الذين استخدمتهم ولا على فقدان ثروتي. والحقّ أني كنت قد أدركت من الوهلة الأولى أنّ الرعاة لم يكونوا غرباء عن عملية النهب. وربما كانوا قد أجهزوا أيضاً على الجرحى. وكانت كلمة مني أو من هبة قمينة بجعلنا نلقى المصير نفسه. واتّخذت أقصى ما يمكن من مظاهر التجرّد وأنا أكظم كلّ ما يغلي في صدري من غلٍّ وقلت:

«ذلك هو حُكْم العليّ القدير!».

وإذ وافق مخاطبيّ بإزجاء مثل سائر فقد استطردت:

«هل نستطيع أن نسعد بضيافتكم بانتظار إكمال طريقنا؟»

لم أكن أجهل تقاليد هؤلاء الرحّل الغريبة. فهم لا يترددون في قتل مؤمن للاستحواذ على كيس نقود أو راحلة، غير أنه يكفي الاستنجاد بكرمهم ليتحوّلوا إلى مضيافين ودودين متلهّفين. وهناك مثل يقول إنّهم يحملون في أيديهم على الدوام خنجراً «إما لذبحك وإما لذبح شاة لإكرام وفادتك».

* * *

«ديناران ذهباً وخمسة دراهم فضّة عَدَدْتُها وراجعت عدّها ووزنتها وقلّبتها. تلك كلّ ما بقي من ثروتي العريضة، كلّ ما تبقّى لي لاجتياز الصحراء حتى بلاد النيل لبدء حياتي من جديد!».

واجهتْ هبة شكواي المكرّرة بابتسامة لا يُدْرَكُ مرماها، ابتسامة غنج ساخرة رقيقة معاً، ابتسامة لم يكن منها إلا أن أجّجت غضبي. وزعقت كرّة أخرى:

«ديناران ذهباً وخمسة دراهم فضة! حتى ولا راحلة ولا ثوب غير الذي أبلاه السفر!

ـ وأنا، ألست لك؟ لا بدّ أني أساوي خمسين قطعة ذهبية، وربما أكثر».

كان ما ينزع عن حديثها كل ريب في خسّةٍ الغمزةَ التي رافقته، ثمّ على الأخصّ المشهد الذي كانت هبة تعانقه بحركة سامية: حقل أشجار النيلة على ضفّتي نهر دارا عند مدخل القرية التي وُلدتْ فيها.

كان بعض الأطفال قد هُرعوا، ثم جاء دور زعيم القبيلة الأسود البشرة اللطيف القسمات ذي اللحية التي تشبه العِقد، وقد عرف على الفور رفيقتي على الرغم من غيابها عشر سنوات وضمّها إلى صدره. وخاطبني بالعربية قائلاً إنّه يشرّفه استضافتي في بيته المتواضع.

وقدّمته إليّ هبة بوصفه عمّها، وقالت عنّي إني سيّدها، الأمر الذي كان

صحيحاً في الواقع وإنْ لم يكن يعني شيئاً في ذلك الظرف. ألم أكن وحيداً مفلساً يحيط بي ذووها؟ وكنت على أهبة القول إنّها لم تكن في نظري جاريةً عندما ألزمتني الصمت بتقطيبة من حاجبيها. وإذ استسلمت لعدم التفوّه بكلمة فقد شاهدت بدهشة ولذّة مشهداً غريباً جداً.

فقد دخلت هبة منزل عمّها وجلسنا في حجرة واطئة، ولكن شديدة الاستطالة، على بساط من الصوف توزّع حوله عشرون من عجائز القبيلة لم يكن يبدو على وجوههم أبداً أنهم كانوا سعداء باللقية التي يُفترض فيهم الاحتفال بها.

وبدأت هبة الكلام فوصفتني بأنّني شخصية مرموقة في فاس ومنكبّة على الفقه والأدب، وأخبرت بالظروف التي وهبها فيها لي أمير «أورزازات»، وقصّت بأسلوب منّمق ومثير للمشاعر حادثة العاصفة الثلجية التي تسببّت في إفلاسي. وقبل أن تنهي كلامها بهذه الكلمات:

«وبدلاً من أن يبيعني هذا الرجل إلى بعض عابري السبيل فضّل أن يُعيدني إلى قريتي. وقد أقسمت له أنه لن يندم على ما فعل».

توجّهت بقحة لا توصف إلى أحد الأعيان وقالت:

«ما المبلغ الذي أنت مستعدّ لافتدائي به يا عبدالله؟»

وأجاب الرجل بارتباك:

ـ أنت أثمن ممّا أقدر عليه. وفي وسعي مع ذلك أن أسهم بعشرة دنانير.

وأجالت طرفها في الحضور باحثة عن فريستها الثانية:

وأنت يا أحمد؟»

ووبّخ المدعو أحمد باحتقار عبدالله قبل أن يعلن:

«منّي ثلاثون ديناراً لغسل العار عن القبيلة».

وأنهت حلقة الحضور على هذا النحو مستخدمة بنباهة ما بين الأُسَر والعشائر من حسد ومهاترات بشكل أتاح لها الحصول في كل مرّة على مساهمة أهمّ من التي

سبقت. وغدا ديناراي البائسان اثني عشر فاثنين وأربعين فاثنين وسبعين. . . وكان آخر المُستجار بهم عمّ هبة الذي كان عليه بوصفه زعيم القبيلة أن يبرّر رتبته بالارتفاع فوق أسخى أفراد الرعية. وهتف بزهو وكأنّه لا يخاطب شخصاً بعينه:

«مئتا دينار!».

لم أصدّق أُذُنيّ، بيد أنّ هبة جاءت في المساء لرؤيتي، وكنت مستلقياً في الغرفة التي دعاني الزعيم إلى قضاء الليل فيها، ومعها المبلغ بأكمله، أكثر من ألف وثمانمئة دينار.

«نوّريني يا هبة بحقّ من أسبغ عليك هذا القدر من الجمال! ما معنى هذه اللعبة؟ وكيف حدث أن كان للناس في هذه القرية كلّ هذا المال؟ ولماذا على الأخصّ يعطونني إيّاه؟

ـ لافتدائي!

ـ تعلمين جيّداً أنّ بإمكانهم الحصول على حرّيتك من غير أن يدفعوا نحاسة واحدة.

ـ ولافتداء أنفسهم أيضاً».

وإذ أبديت عدمَ فَهْمٍ مُطْبِقاً فقد وافقت أخيراً على أن تشرح لي:

«كانت قبيلتي تترحّل طوال أجيالٍ غربيَّ الصحراء إلى اليوم الذي بدأ فيه جدّي وقد أطمعه الربح يزرع النيلة ويتاجر بها. وهكذا تكسب هذه القرية من المال أكثر ممّا تحتاج إلى إنفاقه، وفي أرض كلّ كوخ صغير من الذهب المدفون أكثر ممّا في أجمل بيوت فاس. غير أنّ أهلي فقدوا باختيارهم عيش الحضر كلّ مزيّة حربية. وذات يوم، وكنت قد بلغت لتوّي الحلم. . .»

وجلست بجانبي مرجعة رأسها إلى الوراء قبل أن تتابع:

«وكنّا قد ذهبنا شباباً وشيباً، رجالاً ونساء، لزيارة ضريح وليّ على مسيرة يوم من هنا. وبغتة هجم علينا خيّالة من حرس أمير «اورزازات». كانوا أربعة في حين كنا أكثر من خمسين، منهم أكثر من عشرين رجلاً بكامل أسلحتهم. غير أنّ

أحداً من رفاقي لم يفكرّ في استعمالها، بل هربوا بلا استثناء تاركين لكلّ رجل من الأربعة أن يختار الفتاة التي تروق له. ولم يفعل شيوخ القبيلة خلال الحفل العجيب الذي شهدته منذ ساعات غير دفع دَيْنهم، غير إصلاح أمر كرامتهم وكرامة ابنائهم المهدورة».

وأسندت رأسها إلى كتفي وقالت:

«في وسعك أخذ هذا المال بلا خجل ولا ندم. فليس من رجل يستحقّه أكثر من سيّدي المعبود».

وقرّبت، وهي تتلفّظ بهذه الكلمات، شفتيها من شفتيّ. وإذ كان قلبي قد أخذ يقرع صدري قرعاً عنيفاً فقد كانت عيناي تنظران بقلق إلى الستارة الرقيقة التي كانت تفصلنا عن الحجرة المجاورة التي كان فيها عمّها.

ومن غير أيّ حرج حلّت هبة ثوبها واضعة جسدها الأبنوسي المصقول بمتناول ناظريّ ولمساتي وهمست قائلة:

«لقد ضاجعتني حتى الآن جاريةً، فضاجعْني اليوم حرّةً! للمرّة الأخيرة».

* * *

لم يكن يدفعني إلى الإسراع وأنا أغادر هبة سوى أمر واحد، هو أن أستعيد في تومبكتو ذكراها، بل ربّما بعض آثار منها في تلك الحجرة التي شهدت قُبلتنا الأولى. وكان المبنى لا يزال قائماً. وعلى الرغم من أنّه كان ملك أمير المدينة لاستضافة الزائرين المرموقين فقد فتح لي بابه دينارٌ واحد. فما إن أقبل المساء الأوّل لقدومي حتى كنت أرتفق النافذة نفسها عابّاً هواء الخارج مستعيداً فيه عبق العنبر الذي كان قد عطّره قبلاً، مترقّباً توقيعات الجوقة السوداء التي لم أكن أشكّ في أنّها لن تلبث أن تصدح في الشارع. وعندها أقدر أن التفت إلى وسط الحجرة وأرى طيف هبتي راقصاً. ورفعت ريح شديدة الستارة التي أخذت تحوّم وتتلوّى برشاقة.

وسُمعت في الخارج أصوات أقدام وبعض الصيحات وهي تقترب. أتكون

جوقة ذكرياتي؟ ولكنْ لماذا يحملها إليّ مثل هذا الصخب؟ وكان ارتباكي ويا للأسف قصير الأمد، فما لبثت الساحة أن ازدحمت فجأة كما تزدحم في رابعة النهار وقد اجتاحها حشد خليط هائج كان يشقّ بزعقاته عنان السماء. وكيف لي ألّا يساورني الخوف؟ وناديت من نافذتي عجوزاً كان ركضه أبطأ من ركض الآخرين. وتوقّف وقال لي بلغة البلد بضع كلمات لاهثة. وإذ رأى أنّي لم أفهم شيئاً فقد واصل جريه مشيراً إليّ أن أتبعه. وكنت لا أزال متردّداً عندما لمحت في الفضاء الومضات الأولى لحريق كان قد شبّ. وبعد أن تأكّدت من أنّ ذهبي كان معي قفزت من النافذة وأخذت أجري.

ولم تقلّ المدة التي قضيتها هائماً على هذا النحو عن ثلاث ساعات كنت راضخاً فيها لمزاج الحشد الذي طار صوابه، مستنبئاً عن الكارثة بالإشارات لا الكلمات في أكثر الأحيان. وكان أكثر من نصف تومبكتو قد احترق، ولم يكن يبدو أن شيئاً قادر على منع النار التي كانت تؤجّجها الريح من الانتشار عبر ما لا يُحصى من الأكواخ ذات السطوح المتَّخَذة من القش، القريبة بعضها من بعض بشكل خطِر. وكان عليّ أن أبتعد بأسرع ما يمكن عن تلك المحرقة الضخمة.

كنت قد سمعت البارحة أن قافلة تجّار من جميع الأجناس كانت مجتمعة خارج المدينة وعلى أهبة الانطلاق في الفجر فانضممت إليها. وقد كنّا حوالي أربعين مسافراً، وكان علينا أن نقضي الليل بطوله وقوفاً فوق كثيب ذاهلين لمشهد النار تتفطّر قلوبنا للجلبة المتصاعدة مع اللهب، جلبة انتهى بنا الأمر إلى أن كنا نميّز فيها صرخات المحروقين الرهيبة

ولن أستطيع يوماً تذكّر تومبكتو من غير أن تعاودني هذه الصورة الجهنّمية. ففي ساعة الرحيل كانت سحابة جِداد تغلّف وجهها، ويعذّب جبتدها عدد لا يُحصى من الفرقعات. وكان تمام امّحاق أجمل ذكرياتي.

* * *

عندما كان جغرافيّونا القدماء يتكلّمون على بلاد الزنج لم يكونوا يذكرون غانا ولا واحات صحراء ليبيا. ثم وصل الغزاة الملثّمون والوعّاظ والتجّار. وأنا نفسي،

وأعتبر آخر من يمكن ذكره في الرحّالين، أعرف أسماء ستين مملكة زنجية منها خمس عشرة اجتزت بها واحدة بعد أخرى في ذلك العام من النيجر إلى النيل. ولا وجود لبعضها في أيّ كتاب، ولكنّي أكذب إذا نسبت اكتشافها إلى شخصي لأنّي لم أزد على أن اتّبعت الطريق المألوفة من القوافل المنطلقة من جنّة أو مالي أو أوالاته أو تومبكتو إلى القاهرة.

ولم يلزمنا أكثر من اثني عشر يوماً من المسير بمحاذاة نهر النيجر لبلوغ مدينة «غاوو». ولم يكن بها أسوار، لكنّه لم يكن يجرؤ عدوّ على الاقتراب منها لذيوع صيت عاهلها الأسكيا محمّد أقوى رجل في بلاد الزنج. ولم يكن سرور تجّار القافلة بالتوقّف فيها بالقليل. وقد شرحوا لي أنّ أهل «غاوو» يملكون من الذهب ما يمكّن من بيعهم أتفه أنسجة أوروبا وبلاد البربر بما يساوي ثمنها مضاعفاً خمسة عشر أو عشرين ضعفاً. وبالمقابل فإنّ اللحم والأرزّ والخبز والقرع من الوفرة فيها بحيث تباع بأبخس الأثمان.

واجتزنا في المراحل التالية عدّة ممالك أذكر من بينها أوانغارة وزغزغ وكانو وبورنو، وهي أهم من السابقات، بيد أنّنا تجنّبنا المكوث طويلاً فيها. والحقّ أنّنا ما إن دخلنا عاصمتها حتى التقينا جماعة من التجّار الغرباء بادروا إلى إخبارنا بمصائبهم كما أوردت في كتابي «وصف إفريقية». فقد درج عاهل هذه البلاد على عادات غريبة جدّاً. وكان يشعر بلذّة كبرى في إظهار غِناه بحيث كانت عُدّة جياده جميعها من الذهب، وكذلك كلّ آنية قصره. حتى السلاسل التي تربط كلابه كانت كلّها من الذهب الخالص، وقد تحقّقت من ذلك بأمّ عيني! وإذ جذب هؤلاء التجارَ كلّ هذا القدر من البذخ وخلطوا لسوء حظّهم بين السخاء والتفاخر فقد جاءوا من فاس وسوس وجنوة ونابولي بسيوف منقوشة ومرصّعة بالجواهر، وبمطرّزات وخيول أصيلة، وبكل أصناف السلع النفيسة. وقال لي أحد أولئك المنكودين:

«سُرَّ الملك بذلك أيّما سرور وأخذ البضاعة برمّتها في الحال من غير حتى أن يناقش أو يساوم. وعمّنا الفرح. لكننا ما نزال مذّاك ننتظر قبض الثمن. ولقد انقضى أكثر من عام على وجودنا في بورنو نذهب كل يوم للشكوى في القصر.

وهناك نتلقى الوعود، فإذا ألححنا أجابونا بالتهديدات».

لم يكن هذا سلوك العاهل الذي زرناه بعد ذلك، أي صاحب «غاوغة». فقد كنت في قصره أقدّم له الإجلال عندما حضر تاجر مصري من مدينة دمياط يهديه حصاناً جميلاً وسيفاً تركياً ودرعاً من الزرد وبندقية عريضة الفوهة وعدداً من المرايا وسبحات المرجان وبعض السكاكين المنقوشة، أي ما قيمته خمسون ديناراً. وتقبّل العاهل الهدية ببشاشة، بيد أنه أعطاه في المقابل خمسة عبيد وخمسة جمال ومئة من أنياب الفيل الضخمة، وكأنّما كان كل ذلك غير كافٍ فأضاف بنقود بلاده ما يعادل خمسمئة دينار ذهباً.

وبمغادرتنا هذا الأمير السخيّ بلغنا مملكة النوبة حيث تقوم مدينة دنقلة الكبيرة على ضفة النيل. وكنت أنوي استئجار مركب منها للذهاب إلى القاهرة لكنّني أُخْبِرْتُ أنّ النهر لم يكن صالحاً للملاحة في ذلك المكان، وأنّ عليّ أن أحاذي الضفة حتى أصل إلى أسوان.

وفي اليوم الذي بلغت فيه بالذات تلك المدينة عرض عليّ بحريّ أن يأخذني على جرمه. وكان ينقل على هذا المركب المسطّح كمية كبيرة من الحبوب والماشية، بيد أنّه كان في وسعه، كما وعد، أن يخلي لي مكاناً مريحاً جدّاً.

وقبل أن يصعد إليه انبطحت على بطني عند الشاطىء وغمست وجهي طويلاً في ماء النيل. وفي اللحظة التي رفعته فيها كنت على يقين من أنّه بعد العاصفة التي أتلفت ثروتي ستنفتح لي في هذا البلد من مصر حياة جديدة مكوّنة من أهواء وأخطار وأمجاد.

وكنت متلّهفاً على اقتناصها.



كتاب القاهرة

كانت القاهرة عندما وصلت إليها يا بنيّ قد أصبحت منذ قرون عاصمة مهيبة لإمبراطورية، ومقرّاً لخلافة. ولم تكن عندما غادرتها سوى قصبة لإقليم. ولا ريب في أنّها لن تستعيد قطّ مجدها الغابر.

ولقد شاء الله أن أكون شاهداً على هذا الانحطاط كما على المحن التي سبقته. فقد كنت لا أزال مُبحراً فوق النيل أحلم بالمغامرات والغزوات السعيدة عندما لاحت نُذُر الشرّ. غير أنّني لم أكن قد تعلّمت بعد احترامها ولا فكّ رموز بلاغاتها.

كنت مستلقياً بكسل في الجِرم الواسع ورأسي مرفوع قليلاً على مسند من الخشب تهدهدني ثرثرة البحريين التي كانت تذوب متناغمة في بقبقة الماء، وكنت أرقب الشمس التي بدأت تحمرّ وهي على أهبة الغياب بعد ثلاث ساعات عند الضفّة الإفريقية. وهتف بي زنجي من ملّاحي المركب قائلاً:

«غدا عند الفجر نكون في مصر القديمة».

وأجبته بابتسامة في عرض ابتسامته، فلم تكن تفصلني بعد الآن عقبة عن القاهرة. ولا كان عليّ إلا أن أترك للزمن ولنهر النيل أن ينسابا بي انسيابهما المحتوم.

وكنت على وشك الإغفاء عندما تعالت أصوات البحريين واحتدم حديثهم. وإذ اعتدلت فقد شاهدت حرماً يعبر النهر ويصل إلى محاذاتنا. وقد احتجت إلى بعض الوقت لتمييز ما كان يستدعي الغرابة في ذلك المركب الذي لم ألحظ اقترابه. كان فيه نساء جميلات فاخرات الثياب مكدّسات مع أولادهن وقد علا الذعر وجوههم جميعاً وسط مئات من الخراف كانت رائحتها تزكم أنفي. وكانت بعض النسوة يزيّن جباههن بحليّ جعلنها كشرائط الزهر وعلى رؤوسهن طراطير عالية وضيقة بشكل أنبوب.

ويكفي في بعض الأحيان مشهد غير مألوف لتلوح مأساة. وتقدّم مني الملاّحون في صفّ ووجوهم ممطوطة وراحاتهم إلى السماء. وران صمت طويل، ثم خرجت من فم أكبرهم سنّاً كلمة تزحف.

«الطاعون!»

عام «العين الجليلة»

٩١٩ هـ (٩ آذار «مارس» ١٥١٣ م - ٢٥ شباط «فبراير» ١٥١٤ م)

كان الوباء قد انكشف منذ بداية ذلك العام غداة عاصفة عاتية ووابل من الأمطار، وكلّها عند القاهريين أمارات أكيدة على غضب السماء وعلى عقاب وشيك. ولقد أصيب أوّل مَنْ أصيب الأطفال، وأجلى علية القوم عائلاتهم على عجل، بعضهم إلى الطُّور جنوبي سيناء حيث الهواء صحيّ، وآخرون إلى الواحات، وفريق ثالث إلى مصر العليا إذا كانوا يملكون مسكناً فيها. ولم نلبث أن التقينا عدّة مراكب تحمل عثاكيل يُرثى لها من الهاربين.

ولقد كان من التهوّر التقدّم من غير الاطّلاع على مدى انتشار المرض. وعليه فقد توقّفنا عند الضفة الشرقية في مكان مقفر وقرّرنا البقاء المدّة اللازمة متقوّتين بالبضائع المنقولة، مغيّرين كل ليلة مكان وقوفنا لتضليل النهّابين المحتمَل قدومهم. وكنّا نتسقّط الأخبار خمس مرات أو ستّاً في اليوم مجذّفين إلى جوار الذين كانوا مبحرين في النيل بالاتجاه المعاكس لاتجاهنا لسؤالهم. كان الوباء يجتاح العاصمة، وكانت تسجّل كل يوم في سجلات النفوس الرسمية خمسون أو ستون وفاة؛ وكنّا نعلم مع هذا بالتجربة أنّه ينبغي حسبان عشرة أضعاف هذا العدد من الوَفَيات غير المعلنة. وكان كلّ مركب يحمل رقماً جديداً محدّداً دائماً، ومُرْفقاً أحياناً بشروح لا تحتمل أيّ نقاش. كما أنّ الأرض زلزلت يوم الاثنين الواقع فيه عيد الفصح المسيحيّ ثلاث مرات؛ وفي اليوم التالي سجّلت مئتان وأربع وسبعون وفاة.. ويوم الجمعة التالي هطل وابل من البَرَد لم يُسمع بمثله في مثل ذلك الفصل من السنة؛ وأُحصي في ذلك اليوم نفسه ثلاثمئة وخمس وستون وفاة. وعزم سلطان مصر، وهو مملوك جركسي عجوز يدعى قانصوه، أن يلبس بناء على نصيحة من طبيبه خاتمين من الياقوت ليحفظ نفسه من الطاعون؛ وأصدر كذلك قراراً بمنع

الخمر والحشيش وأعمال الدعارة. وأقيمت في جميع أحياء المدينة بِرَك جديدة لغسل الموق.

لم يكن جميع الضحايا بالطبع من الأطفال والخدم. وقد بدأ الجنود والضباط يتساقطون بالمئات. وبادر السلطان إلى الإعلان بأنّه هو الذي يرث أمتعتهم وتجهيزاتهم. وأمر بحجز أرامل جميع العسكر المتوفَّيْن ريثما يُسلِّمن إلى دار السلاح سيفاً مطعماً بالفضة ودرعاً من الزرد وخوذة وجعبة وجوادين أو ما يعادل ثمنهما. وعلاوة على ذلك قرّر قانصوه، وقد قدّر أن أهل القاهرة كانوا قد نقصوا نقصاً كبيراً، وأنّهم سوف يزداد تناقصهم، أن يقتطع من الغلّة الجديدة مقداراً كبيراً من القمح لا يلبث أن يرسله إلى دمشق أو حلب حيث يستطيع بيعه بثلاثة أضعاف سعره. وبين ليلة وضحاها أخذ ثمن الخبز والطحين يزداد بلا حساب.

وعندما غادر السلطان حصنه بعد إعلان هذه القرارات واجتاز شوارع المدينة للاطّلاع على عملية الترميم الباهظة الجارية في المدرسة التي ستحمل اسمه، وكان قد رسمها بنفسه وتصدّعت قبّتها للمرة الثالثة، هزىء به الناس وترامت إليه الصيحات تقول: «قاتل الله من يُجيعون المسلمين!» وفي طريق العودة تحاشى السلطان أن يجتاز حيّ باب زويلة الشعبي، وفضّل بلوغ القلعة من شوارع أقلّ ازدحاماً.

لقد نقل إليّ هذه الأخبار تاجر شاب ثريّ متعلّم توقّف بمحاذاتنا بمركبه الخاصّ الذي هرب به مع أسرته من العاصمة ولبث بضع ساعات قبل متابعة طريقه. وقد أبدى لي الصداقة من الوهلة الأولى واستعلم عن بلدي وآخر رحلاتي، وكانت أسئلته أحفل بالمعرفة من إجاباتي. وعندما رجعت بالحديث إلى مصر قال لي بصوت وادع:

«من حُسْن الطالع أن الملوك يشتطّون أحياناً، وإلا لما سقطوا قطّ».

وأضاف وعيناه تبرقان:

«جنون الأمراء حكمة القدر».

وخيّل إليّ أني فهمت فقلت:

«لن تلبث الفتنة أن تنشب، أليس كذلك؟

ـ لا وجود لهذه الكلمة عندنا. صحيح أنّ الناس يُظهرون شجاعة في الشوارع في زمن الوباء لأنّ قوة السلطان تبدو هزيلة بإزاء قوّته تعالى التي تحصد الجند أفواجاً. غير أنه ليس في البيوت أقلّ سلاح، فما هي إلا بضع سكاكين لقطع الجبنة. وعندما تأزف ساعة الانقلابات فإن مملوكاً جركسيّاً هو الذي يحلّ على الدوام محلّ مملوك جركسيّ آخر».

وقبل أن يستأنف التاجر رحلته عرض عليّ عرضاً غير متوقّع قبلته بكثير من العرفان، على الرغم من أني لم أكن قد قدّرت للتوّ مدى سخائه:

«سوف أقيم بضعة أشهر في مدينة أسيوط مسقط رأسي، ولا أريد أن يبقى بيتي في القاهرة مهجوراً طوال هذه المدة. وإنّه ليشرّفني أن تتمكّن من سكناه في غيبتي».

وإذ أبديت حركة مزدوجة للتعبير عن شكري ورفضي فقد أمسك بمعصمي وقال:

«ليست هذه حظوة أغمرك بها أيّها المسافر الكريم، لأنّه لو بقي منزلي بلا صاحب لكان فريسة للنهّابين، ولا سيّما في هذه الأيّام العصيبة. وإنّك بقبولك لتمُنّ عليّ وتحلّ مشكلة تشغل بالي».

لم يكن في وسعي في مثل هذه الظروف إلا الموافقة. فتابع بلهجة واثقة لرجل أطال إنضاج قراره:

«سأكتب لك صكاً يفيد بأنّك تستطيع التمتّع بملكي حتى عودتي».

وذهب إلى مركبه فأحضر ورقاً وقلماً ودواة ثم عاد فجثا إلى جانبي. وأخذ يستعلم وهو يكتب عن اسمي وكُنيتي ولقبي وعملي، وبدا راضياً وسلّمني الوثيقة ورُزمة مفاتيح ذكر لي كيفية توزيعها. وشرح لي أخيراً بعبارة واضحة أين أجد المنزل وكيف أتعرّف عليه.

«إنّه بناء أبيض تحيط به أشجار النخيل والجميّز. ويقوم على رابية صغيرة في الطرف الشمالي من المدينة القديمة على النيل مباشرة. وقد تركت فيه بُستانيّاً سوف يقوم بخدمتك».

وازداد فروغ صبري لبلوغ غايتي. وسألت مخاطبي عن الوقت الذي يُرجى فيه انتهاء الطاعون.

«جميع الأوبئة الماضية كانت نهايتها قبل أوّل «مسري».

ورجوته أن يعيد الكلمة الأخيرة التي ظننت أنّني أسأت سمعها، فابتسم ابتسامة لطيفة وقال:

«إن «مسري» هو في السنة القبطية الشهر الذي يبلغ فيه فيضان المياه مداه».

وهمست:

«لمصر فضل كبير في البقاء إسلامية بينما لا يزال النيل والطاعون يتبعان تقويم الفراعنة».

وفهمت من الطريقة التي غضّ بها من بصره، ومن ابتسامته المرتبكة أنه لم يكن هو نفسه مسلماً. ولم يلبث أن انهمك قائلاً:

«تأخّر الوقت، وأظنّ أنّ علينا نشر الأشرعة».

وتوجّه إلى أحد أولاده وكان لا يملّ الدوران حول نخلة وقال:

«اصعد إلى المركب يا سيزوسترس، إننا ننطلق!»

وشدّ على يدي للمرة الأخيرة، ولم ينس أن يضيف قائلاً:

«في البيت صليب وأيقونة. بإمكانك نزعهما إذا كانا يجرحان شعورك ووضعهما في صندوق حتى عودتي».

ووعدته بأنّه، على العكس ممّا يقول، لن يُزاح شيء من مكانه، وشكرته على اهتمامه البالغ.

بينما كنت أتحدّث إلى ذلك القبطي كان البحريّون قد وقفوا بعيداً وهم يقومون بحركات وإشارات حافلة بالحيوية والنشاط. وما إن ابتعد الرجل الذي أحسن إليّ حتى جاءوا يخبرونني عن عزمهم على الرحيل مُذْ غدٍ إلى العاصمة. ولم يكونوا يجهلون، على الرغم من كونهم جميعاً مسلمين، أنّ الطاعون لن يزول قبل «مسري». لكنّ أسباباً أخرى كانت تدفعهم إلى الانطلاق.

«لقد قال الرجل إنّ أثمان السلع قد زادت فجأة. وقد آن الأوان للذهاب إلى الميناء القديم وبيع حمولتنا والعودة إلى بيوتنا».

ولم أفكّر في الاحتجاج. فقد كنت أنا نفسي كالعاشق الذي أضناه أن ينام ليلة بعد ليلة على بُعْد أذرع من عشيقته.

* * *

ها هي ذي القاهرة أخيراً.

لا يمكن أن ينسى المرء في أيّة مدينة أخرى بهذه السرعة أنّه غريب. فما إن يصل المسافر حتى يلفّه إعصار من الشائعات والنوادر والثرثرات. فمئة مجهول يحيطون به ويهمسون في أذنه ويُشهدونه على ما يفعلون ويدفعونه من كتفه لدفعه جيداً إلى الشتيمة أو الضحك المنتظَرين. لقد أصبح شريكاً في الأسرار يمسك بطرف من حكاية خيالية ويلزمه معرفة تتمتّها، حتى وإن اقتضاه ذلك أن ينتظر القافلة التالية أو العيد المقبل أو موسم الفيضان. ولكنّ حكاية أخرى تكون قد بدأت.

وعندما نزلت في ذلك العام منهوكاً زائغ البصر على بُعْد ميل من منزلي الجديد كانت المدينة بأسرها، على الرغم من فتك الطاعون بها، تسخر بلا تحفّظ من «العين الجليلة»، أي عين السلطان. وإذ أدرك أوّل بائع شراب جهلي متلذّذاً به فقد رأى من واجبه، وقد أوقف جميع أعماله وأبْعَد بحركة تنمّ عن الاحتقار زبائنه المتعطّشين، أن ينوّرني. ولم يكن ما سرده الأعيانُ والتجّار على مسمعي ليختلف في شيء عمّا قاله لي ذلك الرجل. فقد قال:

«لقد بدأ كل شيء بمقابلةٍ عاصفةٍ جرت بين السلطان قانصوه والخليفة».

كان ذلك الخليفة عجوزاً لا مأخذ عليه يعيش وادعاً في حريمه. وكان السلطان قد جار عليه وطالبه بالاعتزال محتجّاً بأن نظره أخذ يضعف، وأنّ عينه اليسرى غدت شبه ضريرة، وأنّ توقيعاته على المراسيم أضحت جميعها رديئة ملطّخة. وكان قانصوه يريد في الظاهر إخافة أمير المؤمنين ليسلب منه بضع عشرات الآلاف من الدنانير في مقابل إبقائه في منصبه. ولكنّ العجوز لم يَسِرْ في اللعبة، بل أخذ ورقة مصقولة وكتب من غير أن يرتعش وثيقة تنازله لمصلحة ابنه.

وكان من الممكن أن تتوقّف القضية عند هذا الحدّ، ظلم يضاف إلى غيره وسرعان ما يُنسى، لو لم يشعر السلطان نفسه بعد مدّة بألم في عينه اليسرى. وقد حدث ذلك قبل شهرين من قدومي في الوقت الذي كان فيه الطاعون أشدّ ما يكون فتكاً. بيد أن العاهل لم يكن في حينها يهتمّ للوباء. وارتخى جفنه، ثم ما لبث أن غَمِض نهائياً فكان لزاماً عليه أن يرفعه بإصبعه لإلقاء أدنى نظرة. وشخّص طبيبه استرخاءً في الجفن ووصف عملية بَضْع.

كان مخاطبي قد قدّم لي طاساً من شراب الورد وعرض عليّ الجلوس على صندوق خشبي، الأمر الذي قمت به. ولم يكن حولنا أي تجمّع، واستمّرت الحكاية:

«وإذ رفض السلطان رفضاً باتّاً فقد أحضر الطبيب أمامه ضابطاً كبيراً، أميراً على ألف جندي، مصاباً بالمرض نفسه وأجرى له عملية في الحال. وعاد الرجل بعد أسبوع عارضاً عيناً استرجعت العافية بالتمام».

ولكنْ عبثاً. فقد فضّل السلطان كما أخبرني الذي قصّ عليّ الحكاية أن يستعين بمتطبِّبة تركية وعدته بالشفاء من غير إجراء جراحة وبدهن الجفن المريض بمرهم مصنوع من مسحوق الفولاذ. وما هي إلا ثلاثة أيام من العلاج حتى امتدّ المرض إلى العين اليمنى. وامتنع السلطان العجوز عن الخروج، وتوقّف عن كل عمل، ولم يعد قادراً حتى على اعتمار ناعورته، وهي الطاقية الثقيلة المقرّنة التي كان آخر سلاطين مصر المماليك قد درجوا على اعتمارها. حتى إنّ ضبّاطه المقرّبين أخذوا، وقد اقتنعوا بأنه لن يلبث أن يفقد البصر، يبحثون له عن خلف.

كانت شائعات عن مؤامرة قد أخذت تملأ المدينة عشيّة وصولي إلى القاهرة بالذات. وقد بلغت بالطبع مسامع السلطان الذي أصدر أمراً بمنع التجوّل من الغسق إلى الفجر.

وأشار بائع الشراب إلى الشمس عند الأفق وقال مُنْهياً حديثه:

«لهذا فإنّك تُحْسِنُ صنعاً إذا كان منزلك بعيداً بأن تركض إليه في الحال لأنّ من يُعثر عليه في الشارع بعد سبع درجات يُجلد علناً حتى تسيل دماؤه».

سبع درجات... كان ذلك يعني أقلّ من نصف ساعة. ونظرت حولي فلم أرَ عند جميع نواصي الشوارع غير جنود ينظرون بنزق إلى ناحية المغيب. وإذ لم أجرؤ على الجري ولا على السؤال عن طريقي خوفاً من إثارة الشكوك فقد اكتفيت بالسير بمحاذاة النهر حاثاً الخطى راجياً أن ينكشف لي المنزل بيُسر.

كان جندیان يتقدّمان منّي وخطوهما ونظراتهما تشي بالبحث والتحري عندما لمحت درباً على يميني فدخلت فيه من غير أن أفكّر لحظة واحدة، وخامرني شعور عجيب بأنّني كنت قد سرت فيه كلّ يوم من أيّام عمري.

ووجدت نفسي في بيتي. وكان البستانيّ جالساً على الأرض أمام الباب شارد النظرات. وسلّمت عليه بإشارة من يدي وأخرجت جهاراً مفاتيحي. ولم يَفُهْ بكلمة وابتعد مفسحاً لي طريق الدخول من غير أن يبدو عليه قطّ أنّه فوجىء برؤية غريب يدلف إلى دار سيّده. وكان عدم ارتباكي قد طمأنه. ولكنّني إذ شعرت مع ذلك بأنّي مضطّر إلى إبداء سبب وجودي فقد أخرجت من جيبي الصكّ الذي وقّعه القبطي. ولم ينظر الرجل إليه لأنّه لما كان يجهل القراءة فقد وثق بي وعاد إلى مكانه ولم يُبْدِ حراكاً.

***

وعندما خرجت في اليوم التالي كان لا يزال في موضعه من غير أن أتمكّن من معرفة ما إذا كان قد قضى ليلته فيه أم إذا كان قد عاد إلى نوبة الحراسة في الفجر. وقمت ببعض الخطى في شارعي الذي بدا لي مزدحماً جدّاً. بيد أن جميع المارّة

كانوا ينظرون إليّ. وعلى الرغم من هذه المضايقة التي يعرفها كلّ الذين يسافرون فقد شعرت بإلحاح غير مألوف أرجعته إلى زيّي المغربي. ولكنّ الأمر لم يكن كذلك. وقد ترك فاكهاني دكانه وجاء يُسدي إليّ النصح قائلاً:

«الناس مشدوهون لرؤية رجل من العلية متنقّلاً بتواضع على قدميه في الغبار».

ومن غير أن ينتظر جواباً أشار إلى مُكاريّ قدّم إليّ حماراً فارهاً مغطى ببردعة جليلة وترك معي صبيّاً ليسوسه.

وقمت راكباً على هذا النحو بجولة على المدينة القديمة متوقّفاً على الأخصّ عند مسجد عمرو وفي سوق القماش قبل أن أتوغّل قليلاً باتّجاه القاهرة الجديدة التي عدت منها مثقل الرأس بالوشوشات. ولسوف تكون تلك النزهة بعد الآن يوميّة تطول أو تقصر تبعاً لمزاجي ومشاغلي، ولكنّها مثمرة على الدوام لأنّني كنت أقابل في أثنائها أعياناً وضبّاطاً وموظفين كباراً في القصر، وأقوم ببعض الأعمال. وتدبّرت أمري منذ الشهر الأول لكي أرسل في قافلة من الجمال مؤجّرة إلى تجّار مغاربة حملاً من الحرير الهندي والتوابل إلى تاجر يهودي في تلمسان. وقد أرسل إليّ في العودة بناء على طلبي صندوقاً صغيراً من عنبر «مسّة».

وقد اطّلعت بين عمليتين على بعض الأسرار فعلمت بعد أسبوع على وصولي أنّ السلطان قد أصبح في خير حال. فإذ اقتنع بأنّ مرضه كان عِقاباً من الله تعالى فقد استدعى قضاة مصر الأربعة الكبار الذين يمثّلون مذاهب الفقه الأربعة آخذاً عليهم أنْ قد تركوه يرتكب ذلك القدر من الجرائم من غير أن يعنّفوه. ويقال إنه بكى أمام أولئك القضاه الذين بُهتوا: لقد كان السلطان في الحقّ رجلاً مهيباً طويل القامة ممتلئاً جدّاً ذا لحية جليلة مستديرة. وإذ أقسم أنه نادم مُرَّ الندم على تصرّفه حيال الخليفة العجوز فقد وعد بإصلاح الإساءة بلا إبطاء. وأملى على الفور رسالة إلى الخليفة المخلوع أرسلها توّاً إلى آمر القلعة وفيها: «أحمل إليك سلام السلطان المتوسّل بدعواتك متحلّلاً من مسؤوليته عن السلوك الذي سلكه تجاهك، راجياً ألاّ يستوجب عتابك ومؤاخذتك على اندفاعة متهوّرة لم يستطع لها دفعاً».

وفي اليوم نفسه نزل شيخ التجّار من القلعة يسبقه حَمَلَة المشاعل الذين انتشروا في المدينة مُعلنين: «بناء على مرسوم من جلالة مولانا السلطان تُلغى المكوس الشهرية والأسبوعية وجميع الضرائب غير المباشرة بلا استثناء، بما في ذلك الرسوم على مطاحن القاهرة».

لقد كان السلطان قد عزم، مهما يكن الثمن، على أن يستدّر على عينه رحمة الله تعالى. وأمر بأن يُجْمَع في ميدان الخيل كلُّ المتعطّلين عن العمل، رجالاً ونساء، وتصدّق على كل منهم بقطعتي نقود قيمة الواحدة نصف فضّة، فكان مجموع ما أنفق أربعمئة دينار. كما أنّه وزّع مبلغ ثلاثة آلاف دينار على الفقراء، ولا سيّما مَنْ يُقيمون في الجامع الأزهر والحُجُرات القائمة في مقابر القرافة.

وعلى أثر هذه التدابير استدعى قانصوه القضاة من جديد وطلب منهم أن يقيموا في جميع مساجد البلد ابتهالات من أجل شفاء العين الجليلة. وقد لبّى الدعوة ثلاثة منهم فقط لأنّه كان على الرابع، وهو القاضي المالكي، أن يدفن في ذلك اليوم اثنين من أبنائه الصغار ذهبا ضحية الطاعون.

وإذا كان السلطان قد تشبّث إلى هذا الحدّ بالابتهالات فلأنّه كان قد قبل آخر الأمر بإجراء الجراحة التي تمّت بناء على طلبه بعد صلاة الجمعة مباشرة. وقد لزم غرفته حتى يوم الجمعة التالي، وذهب بعدئذٍ إلى أروقة الأشرفيّة وأحضر المساجين المعتقلين في زنزانات برج القلعة الأربع، وفي الأركانة، سجن القصر الملكي، ووقّع عدداً كبيراً من أذون الإفراج، ولا سيّما عن المقرّبين الذين كان قد غضب عليهم ذات يوم. وكان أشهر المنتفعين بالعفو الملكيّ المزيّن كمال الدين الذي سرعان ما ذاع اسمه في المدينة مثيراً عدداً من التعليقات الساخرة.

فقد طالما كان ذلك الفتى الجميل، كمال الدين، حظيّ السلطان يدلّك له في العصر أخمص قدميه لهدهدته. حتى كان يوم أُصيب فيه السلطان بالتهاب في كيس الخصيتين اقتضى إجراء حِجامة فأشاع الفتى الخبر عبر المدينة مفصّلاً أدقّ التفصيل فاستحقّ عذاب سيده.

وأمّا الآن فكان قد غُفر له. ولم يكن قد غُفر له وحسب، بل إنّ السلطان

اعتذر عن إساءة معاملته وطلب منه، إذ كان ذلك عيبه، أن يذهب فيقصّ على المدينة بأسرها أنّ العين الجليلة قد شُفيت. والواقع أنّ الجفنين كانا لا يزالان مضمَّدين، بيد أنّ السلطان كان يشعر بما يكفي من النشاط لاستئناف مجالسه. حتى إنّ أحداثاً خطيرة بشكل استثنائي قد حدثت. فلقد استقبل في الواقع، واحداً بعد الآخر، مبعوثاً من شريف مكة وسفيراً هندياً كانا قد وصلا منذ قليل إلى العاصمة ليحدّثاه عن المشكلة عينها: لقد احتلّ البرتغاليون جزيرة قمران، وهم يتحكّمون بمدخل 'البحر الأحمر، ولقد أنزلوا جيوشاً على ساحل اليمن. وكان شريف مكة يخشى أن يهاجموا قوافل الحجّاج المصريين الذين ألفوا المرور بمينائي يَنْبُع وجُدَّة اللذين أصبحا مهدّدين بشكل مباشر. وأمّا المبعوث الهنديّ فكان قد حضر بكثير من الأبهّة يصحبه فيلان ضخمان مجلّلان بالمخمل الأحمر؛ وكان مشغولاً على الأخصّ بأمر التجارة بين الهند والإمبراطورية المملوكية، تلك التجارة التي توقّفت بسبب الاجتياح البرتغالي.

وأعلن السلطان عن تأثّره الشديد، ملاحظاً أنّه لا بدّ أن تكون النجوم غير مؤاتية أبداً للمسلمين هذا العام إذ حصل الطاعون وتهديد الأماكن المقدّسة ومرضه في آنٍ معاً. وأمر محتسب مخازن الغلال الأمير «كوشقدم» بمواكبة المبعوث الهنديّ حتى جُدَّة والبقاء فيها لإقامة مصلحة استخبارات عن نيّات البرتغاليين؛ كما وعد بتسليح أسطول وقيادته بنفسه إذا منّ الله عليه بالصحة.

* * *

لم يُشاهَد قانصوه معتمراً ناعورته الثقيلة قبل شهر شعبان. وعندها أدرك الناس أنه شفي تماماً، وتلقّت المدينة أمراً بإقامة الأفراح. ونُظّم موكب سار في طليعته الأطباء الملكيّون الأربعة وهم يرتدون طيالس من المخمل الأحمر مزيّنة بفِراء السمّور هدية من السلطان العارف بالجميل. وقد اتّشح كبار الموظفين بأوشحة من الحرير الأصفر، وتدلّت من النوافذ المطلّة على الشوارع التي اجتاز بها الموكب أقمشة باللون نفسه تدليلاً على الحبور. وكان كبار القضاة قد زيّنوا أبوابهم بالنسيج المَوْصِليّ المقلّم الموشّى بحبوب العنبر، وكانت الصنوج تصدح في جنبات القلعة. وإذ كان منع التجوّل قد رُفع فقد تعالت الموسيقى والأناشيد عند غروب

الشمس في جميع أرجاء المدينة. وبعد أن أظلمت الدنيا ارتفعت الألعاب النارية على ضفاف الماء وقابلها الناس بالهتافات الصاخبة.

واجتاحتني في غمرة الفرحة العامّة رغبة لا تقاوم في اتّخاذ الزيّ المصري. وهكذا تخلّيت عن ملابسي الفاسيّة ورتّبتها بعناية فائقة لليوم الذي سأرحل فيه، وارتديت ثوباً ضيّقاً مقلّماً بالأخضر مَخيطاً عند الصدر ثمّ منسدلاً باتّساعٍ حتى الأرض. وانتعلت نعلين على الطريقة القديمة، ولُثّتُ حول رأسي عمامة عريضةً من الحرير الهنديّ. وإذ تمّ لي هذا الهندام فقد رأيت حماراً يتّجه صوبي فركبته وشرعت أتهادى على ظهره في وسط الشارع وحولي ألف جارٍ لمتابعة الاحتفالات.

وأحسست بأنّ تلك المدينة كانت مدينتي، وشعرت لذلك برغد عارم. فما هي إلا بضعة أشهر حتى كنت قد أصبحت من أعيان القاهرة، وغدا لي مُكاريٌّ وفاكهانيٌّ وعطّاري وصائغي ووراّقي وأعمالٌ مزدهرة وصِلاتٌ بالقصر ومنزلٌ مطلّ على النيل.

وخيّل إليّ أنّي بلغت واحة الينابيع الباردة.

عام الجركسية

٩٢٠ هـ (٢٦ شباط «فبراير» ١٥١٤ م - ١٤ شباط «فبراير» ١٥١٥ م)

كان من الممكن أن أسترخي إلى الأبد في مباهج القاهرة وأهوالها لو لم تخترني امرأة في ذلك العام لمشاطرتها سِرَّها، وهو أخطر ما تكون الأسرار لأنّه كان قميناً بحرماني من الدنيا والآخرة معاً.

وقد بدأ اليوم الذي تعرّفت فيه إليها بداية شنيعة، إذ كان صبيّ المكاريّ قد حاد عن طريقنا المألوف قُبَيْل دخولنا المدينة الجديدة. ولّما كنت قد اعتقدت بأنّه يريد تحاشي بعض المضايقات فقد تركته يفعل. بيد أنّه قادني إلى وسط جمعٍ من الناس ووضع الرسن في يدي وغمغم بأحد الأعذار واختفى من غير حتى أن أتمكن من سؤاله. ولم يكن قد تصرّف قطّ على هذا النحو، وعاهدت نفسي على إخبار معلّمه بالأمر.

لم أتأخّر كثيراً في إدراك سبب كل ذلك الهياج. فقد كانت مفرزة من الجنود قادمة من شارع الصليبية يتقدّمها حَمَلَة طبول ومشاعل. وكان وسط الفرقة شخص يجرّ نفسه عاري الجذع ممدود اليدين إلى الأمام مربوطاً إلى حبل يشدّه خيّال. وقُرِىء إعلان مُفاده أنّ الرجل، وهو خادم متّهم بسرقة العمائم من الأسواق ليلاً، قد حُكم عليه بشطره نصفين. وكنت أعلم أن هذا العِقاب مخصّص للقَتَلَة، لكنّ سلسلة من السرقات كانت قد عُرفت في الأيام الأخيرة وطالب التجّار بعقوبة تكون عِبرة لمن يعتبر.

لم يكن المنكود يصرخ، بل اكتفى بالانتحاب بصوت خافت وهو يرجّح رأسه عندما أنقضّ عليه بغتة جنديان فأفقداه توازنه. وقبل أن ينطرح أرضاً أمسك به أحدهما بقوّة من إبطيه فيما كان الآخر يقيّد رجليه. وتقدّم الجلاد ممسكاً بكلتا يديه

سيفاً ثقيلاً وشطر الرجل بضربة واحدة شطرين من الجذع. وحوّلت بصري وقد أحسست في بطني بتقلّص كان من العنف بحيث كاد جسدي المشلول يسقط كُتلة واحدة. وارتفعت نحوي يدٌ مُسْعِفة تُسندني، كما ارتفع صوت عجوز قائلاً:

«لا ينبغي أن يُشاهِد المرء الموت من فوق مطيّته».

وبدلاً من أن أقفز إلى الأرض، الأمر الذي كنت أشعر بالعجز عن فعله، تشبّثت بحماري وأدرت الرسن وابتعدت مثيراً حولي احتجاجات الذين منعتْهم حركتي من متابعة بقيّة المشهد: لقد كانوا قد وضعوا على كومة من الجير الحيّ الجزء الأعلى من المحكوم عليه ووجهه إلى الجمهور، وكان سيُحتضر طوال دقائق قبل أن يهمد.

وعزمت في محاولة للنسيان على الانصراف إلى مشاغلي فأذهب للاستعلام عن مواعيد انطلاق القوافل ووصولها والاستماع إلى بعض الثرثرات. بيد أنّي كنت كلّما تقدّمت ازداد ثقل رأسي. وكنت كالمبهور أهيم على غير هدى من شارع إلى شارع، ومن سوق إلى سوق، مُغمىً عليّ نصف إغماء، مستنشقاً رائحة الزعفران والجبن المقليّ، سامعاً كما في جلبة بعيدة أصوات البائعين الذين كانوا يلحّون في اجتذابي. وأخذ حماري المحروم من سائسه، وكان هذا لا يزال يتابع المشهد الجنائزي، يجول على هواه وعاداته. وقد دام ذلك إلى اللحظة التي أخذ فيها أحد التجّار، وقد لاحظ توعّكي، الرسن من يدي وقدّم إليّ كوباً من الماء المحلّى المعطّر بالياسمين كان من حُسْن أثره أن حلّ عقدة أحشائي، لقد كنت في خان الخليلي، وكان المحسن إليّ أحدَ أغنى التجّار العجم في المحلّة، رجلاً يدعى أكبر، أفاء الله عليه نِعَمه! وأجلسني مُقسماً أنّه لن يدعني أذهب قبل أن أتمالك نفسي تماماً.

كنت هنالك منذ ساعة ولا ريب، وكان ذهني قد بدأ يخرج رويداً من ضبابه عندما دخلت الجركسيّة. ولا أدري ما الذي استرعى انتباهي أوّلاً. أكان وجهها الصبوح السافر، إذ لم يكن يغطّي شعرها الأشقر سوى خمار من الحرير الأسود؟ أيكون قدّها الدقيق في هذه المدينة التي لا يُقْدَر فيه حقَّ القَدْر غيرُ النساء الطاعمات إلى حدّ الكظّة؟ أم قد تكون الطريقة الغامضة المجامِلة ـ ولكنْ من غير ملاطَفة ـ التي قال بها أكبر: «أيتها الأميرة!».

لم يكن موكبها يتميّز بشيء عن موكب أدنى ثريّة: خادمة واحدة، قرويّة ذات حركات غنجة ومحيّا دائم الانبساط، كانت تحمل شيئاً مسطّحاً ملفوفاً لفّاً رديئاً في قماش عتيق بالٍ.

كانت نظراتي ملحاحة ولا شكّ لأن الجركسيّة أدارت وجهها علانية، الأمر الذي حمل أكبر وقد لاحظه على الاقتراب منّي والقول بنبرة أراد أن تكون احتفالية:

«إنّها صاحبة السمو الملكي الأميرة نور أرملة الأمير علاء الدين ابن أخي مولانا السلطان التركيّ المعظّم».

وجهدت في النظر بعيداً، ولكنّ فضولي ما كان إلا ليزداد. فلم يكن أحد في القاهرة يجهل مأساة علاء الدين ذاك. فقد اشترك في حرب الإخوة التي تَوَاجَهَ فيها ورثة السلطان بايزيد. حتى إنّه بدا منتصراً في وقت من الأوقات حين استولى على مدينة بورصة وهدّد بالاستيلاء على القسطنطية. ولكنّ عمّه سليماً هو الذي انتصر في النهاية. وإذ لم يكن قلب السلطان العثماني الجديد يعرف الرحمة فقد جعل أعوانه يخنقون أشقّاءه ويُبيدون عائلاتهم. ومع ذلك تمكّن علاء الدين من الفِرار واللجوء إلى القاهرة حيث استُقبِل بما يليق به من الترحاب. وقد أُعطي قصراً وخدماً، وقيل إنّه يستعدّ لإثارة انقلاب على عمّه بسند من الإمبراطورية المملوكية وملك العجم وقبائل تركيّة قوية من قلب الأناضول بالذات.

فهل كان بإمكان هذا التحالف النَّيلُ من سليم المرهوب الجانب؟ لن يُعرف ذلك قطّ، فما انقضت أربعة أشهر على وصول علاء الدين حتى قضى بالطاعون. ولم يكن قد بلغ الخامسة والعشرين، وكان قد تزوّج من عهد قريب جركسيّة جميلة تَدَلَّهَ بهواها، وكانت ابنة ضابط أُلحق بحرسه. ويقال إنّ سلطان مصر الذي أحزنه موت الأمير قد أَمَّ بنفسه صلاة الغائب. وقد تمّت مراسم الجنازة بفخامة، إذ جرت حسب الأعراف العثمانية التي لم تكن معروفة جيداً في القاهرة: كانت خيول علاء الدين تسير في المقدّمة مقصوصة الأذيال مقلوبة السروج؛ ووضعت فوق الحمّالة التي رُفع عليها الجسد عمامته وأقواسه التي كانت قد كُسرت.

وما إن انقضى شهران حتى استعاد صاحب القاهرة قصر علاء الدين فاستحقّ لوم الشعب على قراره. وأُسْكِنت أرملة العثماني بيتاً متواضعاً ومُنِحت دخلاً بلغ من قلّته أنْ حملها على بيع الأشياء الثمينة القليلة التي خلّفها لها زوجها في سوق الدلالة.

لقد نُقِلَتْ إليّ هذه الوقائع في حينها، ولكنْ لم يكن لها في نفسي مغزى خاصّ. وبينما كنت استرجعها في ذاكرتي بلغني صوت نور موجِعاً، ولكنْ وقوراً:

«الأمير يرسم الخطط في قصره من غير أن يدري أنّ أصابع حِرَفيّ تكون قد نسجت في الوقت نفسه داخل كوخٍ قماش كَفَنِه».

نطقت بهذه الكلمات بالعربية، ولكنْ بلكنة جركسيّة يعرفها أهل القاهرة جميعاً بلا عناء لأنّها لكنة السلاطين والقوّاد المماليك. وقبل أن أتمكّن من الإجابة كان التاجر قد رجع عارضاً سعراً:

«خمسة وسبعون ديناراً».

وشحب لونها وقالت:

«هذه القطعة فريدة في العالم»!

كانت سجّادة حائط مشغولة بالإبرة بدقّة نادرة، وقد أحاط بها إطار من الخشب المنحوت. وكانت تمثّل قطيعاً من الذئاب الراكضة نحو قمة جبل مجلّل بالثلج.

وأشهدني أكبر قائلاً:

«إنّ ما تقوله صاحبة السموّ هو الحقيقة بعينها، ولكنّ مخزني غاصّ بالأشياء النفيسة التي أنا مرغم على إرخاص أثمانها. فالمشترون نادرون».

وهززت رأسي بشكل غير ملحوظ بدافع التأدّب. وإذ ازداد ثقة بالنفس فقد استطرد قائلاً:

«كم تأملين أن تحصّلي بها؟

«هـذه السنة هي أسـوأ سنة مـذ بدأت العمـل قبل ثـلاثين عـاماً. فـالناس لا يجـرؤون على إظهـار أطراف دنـانيرهم خـوفاً من أن يُتّهمـوا بإخفـاء غناهم ويؤتى لمصـادرته منهم. ولقـد اعتُقِلت مغنّية في الأسبـوع المـاضي لمجـرّد وشـايـة، وقـام باستجوابها السلطان بنفسه بينما كان الحرس يضغطون قدميها. وبلغ ما سُلب منها مئة وخمسين قطعة ذهبية».

واستدرك قائلاً:

«لاحظ جيداً أنّي أدرك تماماً ما يُجْبِر سلطاننا حفـظه الله على التصرّف هكـذا. فعائدات الموانىء هي التي شحّت عليه، إذ لم تستقبل جُدَّة سفينة واحدة منـذ عام بسبب القراصنة الـبرتغاليـين. وليست الحال أحسن في دميـاط. وأمّا الاسكنـدرية فقد هجرها التجّار الطليان الذي لا يجدون فيها عملاً يقـومون بـه. ويتذكّـر المرء أنّه كان في هذه المدينة فيما مضى ستمئـة ألف ساكن، واثنـا عشر ألف دكّان بقـالة تظلّ مفتوحة الأبواب حتى الليل، وأربعون ألف يهودي يدفعون الجزيـة الشرعية! واليوم، وهذا واقع، تغلّ الاسكندرية للخزينة أقلّ ممّا تكّلفها. والنتيجة نراها كلّ يوم: لم يحصل الجيش على اللحم منذ سبعة أشهر، وأفواجه في غليان، والسلطان يبحث عن الذهب حيثما يظنّ أنّه يظفر به».

وقطع دخول زبون خطابه. فإذ لم يكن القادم الجديد يحمل في يـده شيئاً فقـد ظنّ أكبر أنه مُشترٍ وطلب إلينا أن نعذره بعض الوقت. وتهيّأت الأميرة للذهـاب، غير أنّني استوقفتها بقولي:

ـ ثلاثمئة دينار، لا أقلّ».

وسألتها أن تُريني القطعة. وكان قـراري قد اتُّخِـذ، بيد أنّني مـا كنت أستطيـع اقتناءها من غـير أن أنظر إليهـا خوفـاً من أن يبدو الشراء وكـأنّه صـدقة. ولم أكن راغبـاً أيضاً في تفحّصهـا عن كثب لئلا يُـظنّ أني أسعى إلى تحقيق عمل تجـاري. وهكذا ألقيت عليها نظرة خاطفة قبل أن أعلن بلهجة لا تشوبها شائبة:

«ثلاثمئة، يبدو لي السعر جيداً؛ اشتريت».

ولم تنخدع فقالت:

«لا تقبل المرأة هديّة من رجل لا تستطيع إظهار عرفانها له».

كانت الكلمات جازمة، ولكنّ النبرة لم تكن أقلّ جزماً، فأجبت متظاهراً بأنّ كرامتي أهينت:

«ليست هذه هديّة. إني اشتري هذا الشيء لأني متمسّك به!

ـ ولِمَ تتمسّك به؟

ـ إنه تذكار.

ـ لكنّك تراه للمرة الأولى!

ـ تكفي لمحة أحياناً لكي يغدو الشيء غير قابل لأن يُستبدل».

واحمّر وجهها، والتقت نظراتنا، وانفرجت شفاهنا. كنّا قد أصبحنا صديقين. وكانت الخادم التي بدت أكثر بِشراً من أيّ وقت مضى تجول بيننا حريصة على استقاء همساتنا. وضرب الموعد: الجمعة ظهراً في ميدان الأزبكية أمام مُرقّص الحمير.

* * *

لم أكن قد فوّت صلاة الجمعة الجامعة مرّة واحدة منذ وصولي إلى مصر. وأمّا في ذلك اليوم ففعلت غير نادم؛ وعلى كلّ حالٍ فإنّ الخالق هو الذي فطر هذه المرأة بذلك الجمال وهو الذي وضعها في طريقي.

وكان ميدان الأزبكية يزدحم بالتدريج كلّما خلت المساجد لأنّه كان من عادة القاهريين أن يتجمّعوا فيه بعد الصلاة للعب النرد وسماع قصص القصّاصين، أو للاختفاء أحياناً في الأزقّة المجاورة لبعض الحانات التي كانت تعرض على الناس طريقاً مختصراً إلى جنّات عدن.

لم أكن قد رأيت جركسيّتي بعدُ، ولكنّ مُرقّص الحمير كان واقفاً تحيط به ثلّة متزايدة من المتسكّعين. وانضممت إليهم وأنا ألقي نظرات متكرّرة على الوجوه المحيطة بي، وعلى الشمس آملاً في أن تتحرّك بضع درجات.

كان المشعوذ يرقص مع بهيمته من غير أن يُعْلَمَ مَنْ كان يحاكي منهما الآخر. ثم إنّه أخذ يكلّم حماره فأخبره أنّ السلطان كان قد نوى أن يشرع في بناء كبير، وأنّه وجب مصادرة جميع حمير القاهرة لنقل الجير والحجارة. وعلى الفور ارتمى الحمار أرضاً وانقلب على ظهره رافعاً قوائمه في الهواء ونفخ بطنه وأغمض عينيه. وشكا الرجل إلى الحاضرين أنّ حماره قد مات، وأخذ يجمع منهم النقود لشراء حمار آخر. وإذ جمع بضع عشرات القطع فقد قال:

«لا تصدّقوا أنّ حماري قد أسلم الروح. إنه شَرِهٌ، ولمّا كان عالماً بفقري فإنّه يمثّل الموت لأكسب بعض المال وأشتري له طعاماً».

وأخذ عصا غليظة وأنهال بها على البهيمة وهو يقول:

«هيّا انهض الآن!».

لكنّ الحمار لم يتحرّك، فتابع المشعوذ:

«يا أهل القاهرة، لقد أذاع السلطان منشوراً: على جميع الناس أن يخرجوا غداً لحضور دخوله المظفّر إلى المدينة. وسوف تُصادر الحمير لحمل سيّدات الطبقة العليا».

وعليه قفز الحيوان واقفاً على قوائمه وأخذ يختال مُبدياً سروراً كبيراً. وأخذ صاحبه يقهقه مثلما كان الجمهور يقهقه وقال:

«وهكذا فأنت تحبّ النساء الجميلات! لكنْ هنا كثيرات منهنّ فأيهّن تحبّ أن تحمل؟»

ودار الحمار على الحاضرين وتظاهر بالتردّد ثم توجّه رأساً إلى مُشاهِدةٍ طويلة القامة كانت تقف على بضع خطوات منّي. وكانت تغطّي وجهها بمنديل صفيق استحالت معه رؤيته. غير أنّي عرفت على الفور مشيتها. وإذ كانت الضحكات والأنظار قد أفزعتها فقد تشبّثت بذراعي. وبادرتُ الحمار قائلاً بنبرة مزاح: «لا، لن تحمل امرأتي!» قبل أن أبتعد وإيّاها رافع الرأس.

«ما كنت أتوقّع رؤيتك محجّبة. ولولا الحمار لما كنت عرفتك.

ـ لقد تحجّبت بالفعل كيلا يعرفني أحد. فنحن معاً في الشارع وسط جمهور فضوليّ ثرثار، وما من أحد سيدرك أنّني لست امرأتك».

وأضافت مداعبة:

«أُسْفِر عن وجهي إذا رغبتُ في إعجاب جميع الرجال بي، وأُسْدِل الحجاب إذا شئتُ ألا أُعجِب غير رجل واحد.

ـ أكره بعد الآن أن تكوني سافرة.

ـ ألا تريد أبداً أن تتأمّله؟»

الحقّ أنّه ما كان بإمكاننا أن نكون معاً في بيت، لا بيتي ولا بيتها، وأنّه كان علينا أن نكتفي بالتجوّل في المدينة جنباً إلى جنب. وقد ألحّت نور في يوم موعدنا الأول على أن نذهب لزيارة الحديقة المحرّمة. وأوضحت قائلة:

«يُطْلَق عليها هذا الاسم لأنّه تكتنفها أسوار عالية، ولأنّ السلطان منع دخولها للحفاظ على إحدى عجائب الطبيعة: الشجرة الوحيدة في العالم التي تعطي صمغ البلسم الحقيقيّ».

وأتاحت لنا قطعة فضية رُميت في يد الحارس أن ندخلها. وانحنت نور فوق شجرة البلسم وأزاحت نقابها وظلّت برهة طويلة جامدة مذهولة حالمة. وردّدتْ وكأنها تحدّث نفسها:

«ليس في العالم أجمع سوى هذه الشتلة. وهي دقيقة جدّاً وهشّة جداً، ومع ذلك فإنها ثمينة جدّاً!»

وكانت الشجرة تبدو لعينيّ عادية جدّاً. فأوراقها شبيهة بأوراق الكرمة وأصغر منها. وكانت مغروسة في قلب عين من الماء.

«يُقال إنها إذا سُقيت بماء غيره يبست في الحال».

وبدت متأثّرة بهذه الزيارة من غير أن أدرك سبب ذلك التأثّر. ولكنّنا كنّا منذ اليوم التالي معاً من جديد، وبدت لي مرِحة شديدة الاهتمام. ومذّاك أصبحت

نـزهاتنـا يوميّـة أو تكاد لأنّها لم تكن قطّ طليقـة يومي الاثنـين والثلاثـاء. وعندمـا أشرت إلى ذلك بعد مرور شهر كان ردّها حادّاً:

«كان من الممكن ألا تراني قطّ، أو أن تـراني مرّة في الشهـر. والآن وأنا معـك يومين أو ثلاثة أو خمسة في الأسبوع تعتب عليّ غيابي.

ـ أنا لا أحسب الأيام التي أراك فيها. والأيام الأخرى هي التي تبدو لي وكـأنها لا تنتهي».

كـان اليوم يـوم أحد وكنّـا بالقـرب من مسجد ابن طـولون أمـام حمّام النسـاء وكانت نور تتهيّأ لدخوله. وبدت متردّدة وقالت:

«هل أنت مستعدّ لمرافقتي من غير أن تطرح أدنى سؤال؟

ـ إلى الصين إذا اقتضى الأمر!

ـ انتظرني إذن غداً صباحاً ومعك جَمَلان وقِرَبٌ ملأى أمام جامع الجيزة».

***

وإذ كنت قد عزمت على الوفاء بوعدي فإنّي لم أسـألها عن وجهتنـا، حتى إننا لم نكن قد تبادلنـا بعد سـاعتين من المسـير سوى بضـع كلمات. ولكنّني لم أحكم مع ذلك بأنّ من المخالف لاتفاقنا أن ألاحظ قائلاً:

«لا أظنّ أن الأهرام بعيدة من هنا.

ـ بالضبط!»

وإذ شجّعني هذا الإيضاح فقد تابعت:

«هل نحن ذاهبان إليها؟

ـ بالضبط!

ـ أمن أجل رؤية هذه الأبنية المدوّرة تأتين كلّ أسبوع إلى هنا؟»

واستـولى عليها ضحـك خالص غـير مشجّع لم أستـطع معـه إلا الشعـور بـأنّي

جُـرحت. ولكي أسجل استهجـاني نزلت عن جمـلي ووقفت سـيره، فلم تلبث أن رجعت إليّ وقالت:

«اعذرني على أن ضحكتُ، وذلك لأنّك قلت إنها مدوّرة.

ـ أنا لم اخترع ذلك، فابن بطوطة الـرحّالـة العظيم يقـول بالحـرف إن الأهرام «مستديرة الأشكال».

ـ ذلك لأنّه لم يـرها قطّ، أو إذا كـان قد رآهـا فمن بعيد، وفي الليـل، سامحـه الله! لكن لا تلُمْه. فعندما يقصّ مسافر مآثره يغدو سجين تهليلات سامعيه. وهو لا يجرؤ على القول «لست أدري» أو «لم أشاهد» خوفاً من أن يفقد مكانته. وهناك أكاذيب تتحمّل أوزارها الآذان أكثر ممّا يتحمّلها الفم».

واستأنفنا مسيرتنا فاستطردت قائلة:

«وماذا يقول ابن بطوطة هذا غير ذلك عن الأهرام؟

ـ يقـول إنّ الذي بنـاها عـالم خبير بحـركـات النجـوم، وأنـه كـان قـد تنبّأ بـالطوفـان؛ ولذلـك فإنّـه بنى هذه الأهـرام التي صوّر عليهـا كل الفنـون والعلوم لحفظها من التلف والنسيان».

وإذ خشيتُ تهكّمات أخرى فقد أسرعت أضيف:

«إنّ ابن بطوطة يؤكّد على كلّ حال بأنّ هذه ليست إلا افتراضات، وأنّـه ما من أحد يعرف حقّاً ما الذي نُذرتْ هذه المباني له.

ـ أمّـا عندي فالأهرام لم تُبْنَ إلا لتكـون جميلة وجليلة، لتكـون أُولى أعـاجيب العالم. ولا ريب في أنّه عُهِد إليها بعمـلٍ ما، ولكنّـه لم يكن إلا ذريعة تـذرّع بها أمير ذلك الحين».

كنّا قد بلغنا تلّة، وكانت الأهرام قد أخذ ينفصل بعضها عن بعض بجلاء عند الأفق. ولجمتْ راحلتهـا ومدّت يـدها نحـو الشرق في حركـة بلغ من تأثّـرهـا أن غدت حركة احتفالية:

«سوف تبقى هذه الأهرام طويلاً بعد أن تندثر منازلنا وقصورنا ونندثر نحن. أفلا يعني هذا أنّها أنفع الأشياء في عين الحيّ الباقي؟»

ووضعت يدي فوق يدها وقلت:

«إنّنا الآن أحياء. ونحن معاً. ووحيدان».

وقالت بغتة بنبرة كيّسة وهي تجيل نظراتها حواليها:

«إيه! الحقّ أننا وحدنا!»

وألصقت راحلتها براحلتي وأزاحت نقابها وطبعت قبلة على شفتيّ. يا لله! كان من الممكن أن أبقى على تلك الحال إلى يوم الحشر!

لم أكن أنا الذي ترك شفتيها، ولا كانت هي التي انفصلت عنّي. كان الذنب ذنب جَمَلَيْنا اللذين ابتعد كلّ منهما عن الآخر بسرعة مهدّدين بإفقادنا توازننا.

«لقد تأخر الوقت. ماذا لو استرحنا؟

ـ فوق الأهرام؟

ـ لا، أَبْعَدَ قليلاً. فعلى بُعْد بضعة أميال قرية صغيرة تُقيم فيها الحاضنة التي ربّتني. إنّها تنتظرني مساء كل اثنين».

وبعيداً قليلاً من القرية كان يقوم كوخ فلّاحٍ غائصاً في الوحل في نهاية درب صغير سلكته نور وهي تناشدني ألا أتبعها. وغابت في المسكن. وانتظرتها مستنداً إلى نخلة. وكانت الدنيا قد أدغشت عندما رجعتْ بصحبه فلّاحة عجوز بدينة طيّبة.

«أقدّم لك زوجي الجديد يا خَضْرا».

وأجفلتُ. والتقت عيناي الجاحظتان تقطيبة من حاجبي نور فيما كانت الحاضنة تتضرّع إلى السماء قائلة:

«أرملة في الثامنة عشرة! أرجو أن يكون حظّ أميرتي أحسن هذه المرّة».

وصحتُ تلقائياً:

«أرجو ذلك أنا أيضاً!»

وابتسمت نور، وتمتمت خَضْرا دعاءً قبل أن تقودنا إلى بناء من اللِبِن قريب من بيتها وأضيق منه.

«ليس هـذا قصراً، ولكنّـه يقي من الرطـوبة، ولن يـوقظكـما فيـه أحـد. وإذا احتجتما إليّ فناديانى من الشبّاك».

لم يكن هنـاك سوى حجـرة واحدة مستـطيلة تضيئها شمعـة مترنّحـة. وكـانت رائحـة بخور خفيفـة تسبح من حـولنا. ومن النـافذة التي لا مصراعـين لهـا كـان يـترامى إلينا خـوار جامـوسة طـويـل. وأزلجت جـركسيّتي البـاب واستنـدت إليـه بظهرها.

وسقط أول ما سقط شعرهـا المحلول ثم ثوبهـا. وكان يحيط بنحـرها عقـد من الياقوت تترجّح واسطته بفخار بين ثدييها؛ وحول خصرها العاري حزام دقيق من خيـوط الذهب المضفـورة. ولم تكن عيناي قـد تأمّلتـا قطّ امرأةً عُـرْيُها بمثـل هـذا الثراء. وأقبلت تهمس في أُذُني:

«يحـدث أن تعرض نسـاءٌ غيري أوّل مـا يعـرضنَ حُلِيّهن الخـاصّـة. وأمّـا أنـا فأحتفظ بها. البيوت والأثاث تباع، وأمّا الجسد وزينته فلا».

وضممتها إليّ وقلت:

«كُتب عـليّ منذ هـذا الصباح أن انتقـل من مفـاجـأة إلى مفـاجـأة. الأهـرام، وقُبلتـك، وهذه القـرية، والإعـلان عن زواجنا، ثم هـذه الغرفـة، وهذه الليلة، وحُليّك، وجسدك، وشفتاك...»

وأخذتُ أقبلّها فاقد الرشد، الأمر الذي أعفاها من الاعـتراف بأنّني لم أكن قـد سمعت من المفاجآت بعدُ غير «بسم الله..»، وأن بقيّة الدُّعاء آتية.

لكنّ ذلك لم يحدث إلا آخر الليل الذي طال وطال بشكل لذيذ للغـاية. وكنّـا مستلقيين جنباً إلى جنب، قريبين إلى حدّ أنّ شفتيّ كانتا ترتجفان لهمساتها. وكانت

ساقاها المطويّتان تشكلان هَرَماً؛ وكانت ركبتاها الملتصقتان قمّته. ولمستهما فانفرجتا وكأنهما كانت قد تشاجرتا.

جركسيّتي! إن يديّ ما تزالان حتى الآن تنحتان في بعض الأحيان أشكال جسدها. ولم تنسَ شفتاي شيئاً.

* * *

عندما استيقظت كانت نور واقفة مستندة بظهرها إلى الباب كما في بداية الليل. غير أنّ ذراعيها كانتا ثقيلتين، وكانت الضحكة في عينيها مصطنعة.

«ها هوذا ابني بايزيد الذي أحبّه وكأنّه ابن العار!»

وتقدّمتْ فوضعتْه، وكأنه قربان، فوق راحتيَّ المستسلمتين.

عام العصاة

٩٢١ هـ (١٥ شباط «فبراير» ١٥١٥ م - ٤ شباط «فبراير» ١٥١٦ م)

لم يكن ذلك الابن من دمي، ولكنّه كان قد ظهر ليبارك صنيع لحمي أو ليلعنه. وعلى هذا كان ابني، وكان عليّ أن أتمتّع بشجاعة إبراهيم لأضحّي به باسم الدين. أليست الأديان السماوية موجودة في نصل الخنجر الذي كان خليل الله ينتضيه فوق محرقة؟ وما جرؤت على ارتكاب هذه الجريمة المقدسّة التي احتفل بذكراها كل عام في عيد الأضحى. ومع ذلك فإنّ الواجب كان يقتضي منّي في ذلك العام أن أرتكبها من غير مواربة لأنّ امبراطورية إسلامية كانت تولد أمام ناظريّ، وكان هذا الطفل يهدّدها.

«سوف يزعزع بايزيد بن علاء الدين عرش العثمانيين في يوم من الأيام. فهو وحده القادر، بوصفه آخر الأحياء من سلالته، على إثارة قبائل الأناضول. وهو وحده القادرة على أن يجمع حوله المماليك الجراكسة والصفويين الفرس للقضاء على السلطان التركيّ المعظّم. هو وحده. إلا إذا خنقه جواسيس السلطان سليم».

كانت نور منحنية فوق مهد ابنها من غير أن تدري بالعذاب الذي تُكبّدني إياه أقوالها. فتلك الإمبراطورية التي كانت تتنبّأ بتحطيمها على هذا النحو كنت أدعو لها حتّى من قبل أن أتعلّم الصلاة لأنّي كنت انتظر طوال حياتي خلاص غرناطة على يديها.

والحقّ أنّها كانت هنا في طريق تكوّنها تحت بصري. وكانت قد فتحت القسطنطينية وبلاد الصرب والأناضول؛ وكانت تستعدّ لاجتياح بلاد الشام والعراق وبلاد العرب من قاحل ومزروع وصخري، وكذلك مصر. وغداً تكون صاحبة بلاد البربر والأندلس وربّما صقلّية. وسيصبح جميع المسلمين متّحدين من

جديد كما في أيّام الأمويين في ظلّ خلافة واحدة مزدهرة مرهوبة الجانب تفرض شريعتها على الكافرين. فهل أكون في خدمة تلك الامبراطورية، حلم أحلامي وأمل آمالي؟ هل أسهم في بروزها؟ أبداً. لقد حُكم عليّ أن أحاربها أو أفرّ منها. ففي مواجهة سليم الفاتح وقد ذبح أباه وإخوته وذُرّيتهم من غير أن تردّه يد الله، ولن يلبث أن يضحّي بأبنائه الثلاثة، في مواجهة هذا السيف من سيوف الغضب الإلهي، كان هناك طفل كنت قد صمّمت على حمايته وتغذيته من صدري حتى يغدو رجلاً وأميراً ودافن امبراطورية، وحتى يقتل بدوره تبعاً لقانون عِرقه. ولم أكن قد اخترت شيئاً من كل ذلك؛ كانت الحياة هي التي اختارت عنّي، كما اختار عنّي مزاجي.

كان عليّ مذّاك أن أترك مصر حيث كان بايزيد وأمّه في خطر. فقد احتفظت نور بحملها سرّاً لا يعرفه غير خَضْرا التي ساعدتها على الوضع ورعت الطفل منذ اليوم الأوّل لولادته. ويكفي أن تموت الحاضنة، وهي اليوم عجوز، لينحتّم إعادة الطفل إلى القاهرة فلا تلبث هويّته أن تُكتشَف. وعندها يصبح تحت رحمة جواسيس سليم وهم كُثُر في مصر؛ وقد يسلّمه السلطان قانصوه بالذات، فهو إذ يحاذر كل المحاذرة من العثمانيين أخْوَفُ من أن يرفض تسليمهم رأس طفل.

وكان حلّ مشكلتي جاهزاً: الزواج من نور والرحيل مع الطفل إلى فاس حيث في وسعي تقديمه على أنّه ابني لأتمكّن من العودة إلى مصر عندما يكبر ولا يكون ممكناً أن يفضح عمرُه أصلَه.

جرى الزواج بيسر وبساطة لأنّ نوراً كانت أرملة. فقد التقى في منزلي لتناول الطعام بعض الأصدقاء والجيران وفيهم كاتب بالعدل من أصل أندلسيّ. وفي لحظة كتابة العقد لاحظ هذا وجود الأيقونة والصليب على الجدار ورجاني أن انزعهما فقلت:

«لا استطيع ذلك. فقد وعدت صاحب هذا المنزل بأن لا أمسّهما حتى يعود».

وبدا الحرج على الرجل وسائر المدعوين إلى أن تدخلّت نور قائلة:

«إذا كنّا لا نستطيع نزع هذين الشيئين فلا ما يمنع من تغطيتهما».

ومن غير أن تنتظر جواباً قرّبت من الجدار ساتراً مكسوّاً بالدمقس فَسُرَّ الكاتب بالعدل وبدأ عمله.

لم نمكث أكثر من ليلتين في المنزل الذي غادرته آسفاً. فقد منحتنيه الصدفة وتركته في عهدتي سنتين لأنّ القبطي لم يظهر قطّ ولا أُعْلَمَ بأخباره. ولكنّي كنت قد علمت بأنّ وباء الطاعون حلّ بأسيوط ومنطقتها مُهلكاً قسماً كبيراً من السكّان، وتصوّرت أنّ المحسن إليّ كان قد ذهب ضحيّته ولا ريب. وإنّي لأرجو الله أن أكون مخطئاً، بيد أنّي لا أرى تفسيراً آخر لغيابه، ولا على الأخصّ لصمته. ومع ذلك فقد عهدت قبل رحيلي بالمفاتيح إلى صائغي داود الحلبي. وإذ كان شقيق يعقوب صاحب بيت المال ومقرّباً من السلطان فقد كان في وسعه أكثرْ من أيّ شخص آخر مَنْعُ بعض المماليك من امتلاك المنزل الخالي.

* * *

بدأت رحلتنا في شهر صَفَر عشيّة عيد الفصح المسيحي. وكانت المرحلة الأولى كوخ خَضْرا بالقرب من الجيزة حيث قضينا ليلة قبل أن نعود ببايزيد، وكان عمره حينذاك ستة عشر شهراً، باتّجاه بولاق ميناء القاهرة النهريّ الكبير. وتمكنّا بفضل حُلوانٍ سخيّ من الإقلاع بلا إبطاء على متن جرم كان يحمل إلى الإسكندرية شحنة من السكّر النقيّ الخارج من مصنع السلطان الشخصيّ. وقد كانت المراكب كثيرة في بولاق، وكان بعضها مريحاً للغاية، غير أني أصررت على الوصول إلى ميناء الإسكندرية تحت راية السلطان، إذ كان بَعض الأصدقاء قد حذّروني من الصعوبات التي تعترض المرء في الجمارك. فقد كان موظّفون مُدقّقون يفتّشون بعض المسافرين حتى يصلوا إلى سراويلهم، ولا يكتفون بالمكوس على البضاعة وإنما يفرضونها أيضاً على الدنانير.

وإذ تفاديت هذا الإزعاج فقد ازداد إكباري لعظمة تلك المدينة القديمة التي أنشأها الإسكندر الكبير، وهو مَلِك يذكره القرآن بعبارات حسنة وقبره مزار لأهل التُقى. والحقّ أن المدينة ليست إلا طيفاً لما كانت عليه من قبل. فما يزال السكّان يتذكّرون الأيّام التي كانت ترسو فيها على الدوام في هذا الميناء مئات السفن قادمة من بلاد الفلاندر ومن إنكلترا وبسكاية والبرتغال وبولية وصقلّية، وعلى الأخصّ

من البندقية وجنوة ورغوسة وبلاد اليونان التركيّة. وفي ذلك العام كانت الذكريات وحدها لا تزال تزدحم على المرسى.

تقوم في وسط المدينة قبالة الميناء تلّة يقال إنها لم تكن موجودة في عهد الأقدمين وأنّها لم تتشكّل إلا من تراكم الأطلال. ويُعْثَر فيها لدى التنقيب في كثير من الأحيان على الأواني وغيرها من الأشياء النفيسة. وقد بُني على هذا المرتفَع برج صغير يقيم فيه ليل نهار متربِّصٌ مهمّته مراقبة السفن المارّة. وفي كل مرّة يعلن فيها لموظفي المكوس عن واحدة ينال مكافأة. وعليه في المقابل إذا نام أو ترك مكانه ووصلت سفينة ولم يُعْلِن عن وصولها أن يدفع غرامة قدرها ضعفا مكافأته.

وفي وسع المرء أن يرى كذلك في ظاهر المدينة أطلالاً ذات شأن يرتفع في وسطها عمود ضخم جداً وعالٍ جداً تقول الكتب القديمة إنّ عالماً اسمه بطليموس كان قد بناه. وقد وضع في أعلاه مرآة كبيرة من الفولاذ كانت تُحْرِق على ما يقال كلَّ سفينة معادية تحاول الاقتراب من الساحل.

وكان هناك بالطبع أشياء كثيرة للزيارة، بيد أنّنا كنّا جميعاً نستعجل السفر على أمل العودة يوماً إلى الإسكندرية ناعمي البال. وعليه فقد أبحرنا في سفينة مصرية منطلقة إلى تلمسان التي استرحنا فيها أسبوعاً كاملاً قبل أن نسلك طريق البرّ.

***

كنت قد عدت إلى ارتداء ملابسي المغربية، وإذ كنّا نجتاز أسوار فاس فقد غطّيت وجهي بطيلسان. فما كنت أريد أن يعرف أحد بقدومي قبل أن ألتقي ذويّ. وأعني بذويَّ أبي وأمّي ووردة وثروة بنتي ذات الأعوام الستّة، وكذلك هارون ومريم اللذين لم أكن أرجو لقاءهما وإنما تسقّط أخبارٍ عنهما.

ومع ذلك فإنّي لم أستطع الامتناع عن التوقّف أمام ورشة بناء قصري. وقد كانت كما تركتها بالضبط، إلا أن العشب كان قد نما مغطّياً الجدران التي لم تكتمل. وسرعان ما أدرت ناظريَّ وناظريْن أكثر جفافاً هما ناظرا بغلتي التي وجّهتها نحو بيت خالي على بضع خطوات من هناكّ. وقرعت الباب فأجابني من الداخل صوت امرأة لم أعرفه. وناديت أمّي باسمها فقال لي الصوت:

«إنها لم تعد تسكن هنا!»

وكان الانفعال قد خنق صوتي فلم أتمكن من طرح سؤال آخر. وانطلقت إلى منزل أبي.

كانت سلمى عند الباب فضمّتني إلى صدرها كما ضمّت نوراً وبايزيد الذي غمرته بالقبلات من غير أن تُخفي دهشتها من أن أُطْلِق على ابني اسماً قلّما سمع به أحد، وأن أورثه بشرة بهذا البياض. ولكنّها لم تقل شيئاً، وكانت عيناها وحدهما هما اللتان تتكلّمان، وفيهما رأيت أنّ أبي كان قد مات. وأكّدت لي الأمر بدمعة. بيد أنّها لم تكن تريد أن تبدأ من هنا:

«أمامنا قليل من الوقت. ويجب أن تصغي إلى ما سأقوله لك قبل أن ترحل.

ـ لكنْ ليس في نيّتي أن أرحل!

ـ أصغِ إليّ فتفهم».

وهكذا تكلّمت أكثر من ساعة، بل ربّما ساعتين، من غير أن تتلعثم أو تتوقّف، وكأنّها كانت قد راجعت ألف مرّة ما كانت ستقوله لي في يوم عودتي.

«لا أودّ أن ألعن هارون، ولكنّ أعماله جلبت علينا جميعاً اللعنة. إنّ أحداً في فاس لم يَلُمْه على موت الزروالي. غير أنّ أعماله لم تقف مع الأسف عند هذا الحدّ!»

وشرحت لي أنّ السلطان كان قد أرسل بعد طردي بقليل مئتي جنديّ للقبض على «المنقّب»، بيد أنّ أهل الجبل تضامنوا معه. وقد قُتل ستة عشر من العسكر في كمين. وعندما ذاع الخبر تُلي في شوارع فاس وأُلْصِق في ميادينها بلاغ يعلن عن ثمنٍ لرأس هارون. ووضعتْ منازلنا تحت رقابة الشرطة. وكان هناك ليل نهار جواسيس يطرحون الأسئلة عن كثب على كلّ زائر، حتى تردّد أقرب الأصدقاء في إعلان صلة القربى بينهم وبين المُبْعَد. ومذّاك يُتلى كلّ أسبوع بلاغ جديد يتّهم هارون وعصابته بمهاجمة رَكْبٍ، أو بنهْب قافلة، أو بذبح مسافرين.

وقلت مستنكراً: «هذا غير صحيح! إنّي أعرف هارون. فمن الممكن أن يكون

قد قَتَل للانتقام أو للدفاع عن نفسه، وأما للسّرقة فلا!

ـ ما هو صحيح لا يهمّ غير الله؛ وأمّا نحن فالمهمّ عندنا هو ما يعتقده الناس. لقد فكّر أبوك في أن يهاجر من جديد إلى تونس أو إلى غيرها من المدن حين سكت قلبه فجأة في رمضان من العام الماضي».

وتنفّست سلمى طويلاً قبل أن تتابع قائلة:

«كان قد دعا بعض الناس للإفطار معه، لكنّ أحداً لم يتجرّأ على اجتياز هذا الباب. وأصبحت الحياة في نظره ثقيلة لا تُطاق. وفي اليوم التالي استيقظتُ من القيلولة على صوت شيء يسقط. وكان ممدّداً على الأرض في الفِناء الذي كان يذرعه ضيِّق الصدر منذ الصباح. وقد اصطدم رأسه بحافة البركة، ولم يكن يتنفّس».

واجتاح صدري حرّ فظيع، وأخفيت وجهي. وتابعت أمّي من غير أن تنظر إليّ:

«عند الخصومة تخضع النساء وينكسر الرجال. لقد كان أبوك أسير كبريائه. وأما أنا فكانوا قد علّموني الخضوع.

ـ ووردة؟

ـ لقد تركتنا بعد موت محمّد. فلم يكن لها أحد في هذا البلد من غير زوجها ومن غير ابنتها. وأظنّ أنها عادت إلى قريتها في قشتالة لتنهي حياتها بين ذويها».

ثم أضافت بصوت خافت:

«ما كان ينبغي أبداً أن نغادر غرناطة.

ـ ربّما عدنا إليها».

لم تكلّف نفسها الإجابة. وكنست يدُها الريحَ من أمام عينيها وكأنها تطرد ذبابة ملحاحة وقالت:

«اسألني بالحري عن أخبار ابنتك».

وأشرق وجهها وأشرق معه وجهي وقلت:

«كنت أنتظر أن تحدّثيني عنها، ولم أجسر على سؤالك. لقد تركتها صغيرة جداً!

ـ إنها ممتلئة الوجه ووقحة. وهي الآن عند سارة التي تأخذها أحياناً للّعب مع أحفادها».

ووصلتا كلتاهما بعد ساعتين. وخلافاً لما كنت أتوقّع كانت المبرقشة هي التي تعلّقت بعنقي في حين ظلّت بنتي على مسافة لا بأس بها. وتوجّب على هذا اللجوء إلى التقديم. وإذ كانت أمّي شديدة التأثّر فقد تولّت العملية سارة فقالت:

«ثروة، هذا أبوكِ».

وخطت البنت نحوي خطوة ثم توقّفت وقالت:

«كنت في تومبـ. . .

ـ لا، لم أكن في تومبكتو، وإنما في مصر، وقد أتيتك بأخٍ صغير».

وأجلستها على ركبتيّ وغمرتها بالقبلات مستنشقاً بعمق عبق شعرها الأسود الناعم، مداعباً نحرها وأنا أحلم. وخامرني شعور بأنّي أكرّر على وجه التقريب مشهداً كنت قد رأيته بحذافيره مئة مرة: أبي فوق طنفسة ومعه أختي.

«هل هناك أخبار عن مريم؟»

وكانت سارة هي التي أجابت:

«يقال إنّها شوهدت وبيدها سيف إلى جوار زوجها. لكنْ هناك أساطير كثيرة عنها. . .

ـ وأنت، هل تصدّقين أن هارون لصّ؟

ـ في كلّ طائفة عصاة يُلعنون في العلن ويُدعى لهم في السرّ. حتى من اليهود. ففي هذا البلد من لا يدفعون الجزية ويركبون الخيل ويشهرون السلاح. ونحن نسمّيهم «الكراييم». أنت تعرف ذلك ولا ريب».

وأكدّتْ قائلاً:

«يُعدّون بالمئات، وهم منظّمون وكأنهم جيش ويعيشون في جبال دمنسرة وهنتاتة بالقرب من مرّاكش».

بيد أني كنت راغباً في العودة إلى ما كان يشغل بالي أوّلاً فقلت:

«أتظنّين حقاً أنّ في فاس من يدعو بالسرّ لهارون ومريم؟»

وكانت سلمى هي التي انفجرت قائلة:

«لو لم يكن هارون إلا لصّاً لما كانوا هاجوا عليه إلى هذا الحدّ بلاغاً إثر بلاغ. فقد كاد يصبح بطلاً عندما هاجم الزورواليّ فأرادوا إظهاره على أنّه لصّ. فالذهب أكثر تدنيساً من الدم في نظر العامّة».

ثم قالت بصوت أكثر تمهّلاً وكأنّ شخصاً آخر يتكلّم فيها:

«إنّ تبرير نسيبك لا يفيد شيئاً. وإذا سعيت إلى الدفاع عنه عوملت مرّة أخرى بوصفك متواطئاً معه».

كانت أمّي تخشى أن تدفعني رغبتي في مساعدة هارون ومريم إلى ارتكاب حماقات جديدة. ولا ريب في أنّها كانت على حقّ، ولكنْ كان عليّ أن أحاول. وكانت الطريقة التي تقرّر بها طردي هي التي تدفعني بالذات إلى الاعتقاد بأن سلطان فاس سوف يصغي إليّ الآن.

كان السلطان يقود في ذلك الحين حملة على البرتغاليين ناحية «بولعوان». وقد طفتُ البلاد خلال أشهر اتتبّع الجيش السلطانيّ حاملاً السلاح في بعض الأحيان ومشاركاً في بعض المناوشات. وكنت مستعدّاً للقيام بكلّ شيء في سبيل انتزاع عفو. وكنت أقابل بين معركتين العاهل وإخوته وعدداً من مستشاريهم. ولكنْ لماذا الدخول في التفاصيل عندما تكون النتيجة مخيّبة إلى هذا الحدّ؟ فقد انتهى الأمر بأحد المقرّبين من السلطان إلى الاعتراف لي بأنّ كثيراً من الجرائم نُسبتْ ظُلماً إلى هارون. ثم أضاف بنبرة إخلاص جعلتني يُسقط في يدي:

«حتى لو استطعنا أن نغفر لنسيبك ما صنع، فكيف نستطيع أن نغفر له ما نتّهمه به؟»

وذات يوم عزمت بغتة على وقف مساعيّ. ولم أكن قد حصلت بالطبع على ما كنت أرجوه، غير أنّني كنت قد تلقّفت مصادفة في أثناء محادثاتي خبراً رغبت في التحقّق منه. ورجعت إلى فاس وأخذت سلمى ونوراً وثروة وبايزيد من غير أن أكشف لهم عن نيّاتي وسلكت طريق السفر من غير أن ألتفت خلفي. فما كنت أملك في فاس غير ورشة، غير طلل عامر بالحسرات خالٍ من الذكريات.

* * *

وامتدّت رحلتنا أسابيع من غير أن أكشف عن الغاية التي لم تكن مكاناً بل كانت رَجُلاً: عروج القرصان المدعوّ ذو اللحية الحمراء. فلقد كنت سمعت في الواقع أنّ هارون كان إلى جانبه. وعليه فقد توجّهت توّاً إلى تلمسان ثم تابعت الطريق الساحلية صوب الشرق متحاشياً المرور بالمدن التي يحتلّها القشتاليون كوهران والمرسى الكبير، متوقّفاً في الأماكن التي استطيع أن ألتقي فيها بغرناطيين، في مدينة الجزائر مثلاً، وعلى الأخصّ في «شرشل» التي يتكوّن سكّانها أومعظمهم من اللاجئين الأندلسيين.

وكان ذو اللحية الحمراء قد اتّخذ قاعدة له مدينة «جلجل» الصغيرة الشعبية بعد أن انتزعها من أيدي الجَنَويّين في العام السابق. ومع ذلك فقد علمت قبل أن أبلغها أنّه كان يحاصر حامية «بوجي» القشتالية. وإذ كانت تلك المدينة على طريقي فقد عزمت على الذهاب إليها تاركاً أهلي مع هذا على بُعد بضعة أميال من هناك في عهدة إمام مسجد صغير في قرية، واعداً نفسي بالعودة لأخذهم بعد القيام بمراقبة ساحة القتال.

ولقد التقيت ذا اللحية الحمراء في «بوجي» كما أذكر في كتابي «وصف إفريقية». وبالفعل كانت لحيته شديدة الشُقرة بلونها الطبيعي، ولكنْ من جرّاء الحنّاء كذلك لأن الرجل كان قد تجاوز الخمسين من العمر، ويبدو أكثر من ذلك أيضاً، وما كان يبقيه واقفاً على ما يظهر غيرُ جنون الانتصار على أعدائه. وكان

يظلع في مشيته حتى ليلامس الأرض، وكـانت يـده اليسرى من فضّة. فلقد فقـد ذراعـه في «بوجي» بـالذات خـلال حصار سـابق انتهى بكارثـة. وكـان يبـدو أنّ المعـركة أعـدّت هذه المـرّة خيراً ممّـا في السابق. ولقـد احتلّ قلعـة المدينـة العتيقة واستعدّ لمهاجمة قلعة أخرى قريبة من الشاطىء كان القشتاليون صامدين فيها.

في يـوم وصولي كـان القتال متـوقّفاً لبعض الـوقت. وكان أمـام خيمـة القيـادة حرّاسٌ أَحَدُهُمْ من أصل مـالقيّ. وهو الذي جرى ينادي هارون باحـترام فهمت منـه أن «المنقّب» كان معـاون ذي اللحية الحمـراء. وبالفعـل فقـد جـاء يحفّ بـه تركيّان أبعدهما بحـركة واثقـة قبل أن يـرتمي عليّ. وظللنـا برهـة طويلة متعـانقين نتبادل تربيتات قويّة كانت تُفْصِحُ عن كلّ ما بيننا من مـودّة ودهشة وألم نـاجم عن الفراق. وأدخلني هارون أوّلاً الخيمة وقدّمني إلى عروج على أنّي شاعر وسفـير ذائع الصيت، الأمر الذي لم أفهم الدافع إليه إلا فيها بعـد. فقد كـان القرصـان يتكلّم وكأنّه مَلِكٌ، بعبارات قصيرة وجازمة معناها الظاهر مبتذل ومغزاهـا الخفيّ تصعب الإحاطة بـه. وعلى هـذا النحو ذكـر انتصارات سليم العثماني وصَلَفَ القشتاليـين المتزايد، ملاحظاً بأسى أنّ شمس الإسلام تُشْرِقُ من المشرق وتَغْرُبُ في المغرب.

وبعد أن استأذنّا قادني هـارون إلى خيمته الخـاصة، وهي أقـل اتّساعـاً وزينة، وإنْ كانت مؤهّلة على كل حـال لاستيعـاب عشرة زوّار ومـزوّدة جيّـداً بـالأشربـة والفاكهة. ولم أحتج إلى طرح أسئلتي لكي يبدأ «المنقّب» بالإجابة عنها.

«لم أقتـل سوى قَتَلَة ولا نهبتُ سـوى لصوص. ومـا انقطعتُ لحـظة عن خشية الله. لقـد انقطعتُ فقط عن الخـوف من الأغنياء والمتنفّـذين. وهنا أقـاتل الكَفَـرَةَ الذين يجاملهم أمراؤنا وأحمي المـدن التي يُخْلُونها. ورفاقي من المـطرودين والمُبْعَدين والمشاغبين من جميع الأنحاء. ولكنْ ألا يخرج العنبر البحريّ من أحشاء الحوت؟»

لقد نطق بهـذه الكلمات على التـوالي وكأنّـه يقرأ فـاتحة الكتـاب. ثم قال بنـبرة مختلفة:

«لقد كانت أختك رائعة. لبؤة من الأطلس. إنها في منزلي في جلجل عـلى بُعْد ستين ميلاً من هنا مع ابنائنا الثلاثة، واسم أصغرهم حسن».

ولم أَسْعَ إلى إخفاء تأثّري وقلت:

«ما شككت لحظة في أمرك».

لقد طالما بادرت إلى التسليم لهارون خلال مناقشاتنا مُذ كنّا صبيّين. لكنّني كنت مُجْبَراً هذه المرّة على أن أشرح له كيف أساءت أعمالُه إلى قَرابتنا، فاربدّ وجهه وقال:

«في فاس كنتُ مصدر عذاب لهم. أمّا هنا فسأكون حاميهم».

وبعد أسبوع كنّا جميعاً في جلجلٍ. وقد التمّ شعث أسرتي، عشرة لاجئين تحت سقف قرصان. ومع ذلك فإني أتذكّر الأمر تذكّري لحظة سعادة نادرة وددت مختاراً لو أطيلها.

عام السلطان التركي المعظم

٩٢٢ هـ (٥ شباط «فبراير» ١٥١٦ م - ٢٣ كانون الثاني «يناير» ١٥١٧ م)

وجدت نفسي في ذلك العام، أنا الذي كان يجول العالم لتجنيب بايزيد انتقام العثمانين، مع امرأة وطفل في قلب القسطنطينية بالذات، وفي موقف من المواقف التي لا يمكن قطّ أن تصدّق: منحنياً على يد سليم الرهيب وهو يُنْعِمُ عليّ بهزّة رأس مُطَمْئِنة وبطيف ابتسامة. ويُقال إنّ الفريسة كثيراً ما تجذبها المخالب التي تتهيّأ لتمزيقها. وربّما كان هذا تفسيراً لجسارتي الجنونية. غير إنّي لم أكن أراها كذلك في تلك اللحظة. فقد اكتفيت بأن أتبع حسب خير وجوه تفكيري مجرى الأحداث، جاهداً في إعادة تنظيم حياتي على القليل من الأرض التي لم أكن أشعر فوقها بأنّي مطرود. ولكنْ عليّ أن أقول كيف.

كان ذو اللحية الحمراء يزدهر على امتداد البصر، كما كان هارون يزدهر في ظلّه. وكان الهجوم على «بوجي» قد أخفق، بيد أنّ القرصان كان قد نجح في الأيّام الأولى من العام في الاستيلاء على مدينة الجزائر بعد أن قتل بيده صاحبها الأوّل بينما كان جسده يُدلّك في حمّامه.

لم تكن مدينة الجزائر بالطبع في مثل اتّساع وهران أو «بوجي»، ولا كانت لتشكل حيّاً واحداً من أحياء تلمسان، ولكنّ مظهرها كان مع ذلك مظهر مدينة بأضوائها الأربعة آلاف، وأسواقها المنظّمة بحسب المِهَن، وجادّاتها التي تحفّ بها البيوت الجميلة، وحمّاماتها، وفنادقها، ولا سيّما بأسوارها الرائعة المبنيّة بحجارة ضخمة والممتدّة من جهة الشاطىء بشكل فِناء فسيح. وقد اتّخذ منها ذو اللحية الحمراء عاصمة له كما اتّخذ لقباً ملكياً وانتوى أن يُعَرِّف جميع أمراء المسلمين بنفسه.

وأمّا أنا فقد استأنفتُ السفر بعد اجتماع الشمل في جلجل. وإذ كنت قد تعبت من الضرب على غير هدى وأرهقتني تجربتي القاهرية التي انبتّت بشكل مفاجىء فقد رجوت أن ألقي مرساتي في تونس لبضع سنوات على الأقلّ. وتهندمت على التوّ بهندام البلد واعتمرت عمامة فوقها منديل وأخذت أَطْعَمُ البَزان، وحتى البَسيس في بعض الأحيان، وذهبت إلى حدّ ازدراء أكلة مؤذية اسمها الحشيش، وهي خليط من المخدِّرِ والسكّر يُغْدِق على متذوّقه النشوة والمرح والشهوة إلى الطعام. وهي كذلك منشّط للشهوة إلى الجِماع يقدّره أبو عبدالله عاهل تونس أيّما تقدير.

وقد تمكّنت من العثور بسهولة على منزل في ضاحية باق البحر بفضل هارون الذي كانت له علاقات وثيقة ببعض شخصيات المدينة، ومن بينهم المزوار أمير الجند، وبدأت أتّصل ببعض صانعي القماش بقصد إقامة متجر صغير.

ولم يُتَحْ لي الوقت قطّ لذلك. فبعد أقلّ من شهر على وصولي جاء هارون يقرع الباب يصحبه ثلاثة آخرون من معاوني ذي اللحية الحمراء بينهم تركيّ كنت قد حيّيته في خيمة القرصان في «بوجي». وكان «المنقّب» وقوراً مثل قاضٍ. وقد قال:

«معنا رسالة لك من صاحب العظمة المظفّر القائم بأمر الله».

كان ذلك هو اللقب الذي استحقّه ذو اللحية الحمراء عندما ذبح أمير مدينة الجزائر. وقد طلب منّي أن أذهب إلى القسطنطينية لحمل رسالة إلى السلطان ينبئه فيها بقيام مملكة الجزائر ويعاهده على الطاعة والإخلاص ويناشده الدعم في محاربة القشتاليين الذين لا يزالون يحتلّون حصناً بحرياً عند مدخل ميناء الجزائر.

«إنّ هذا القدر من الثقة ليشرّفني. لكنّكم منذ الآن أربعة، فما حاجتكم إليّ؟

ـ لا يرضى السلطان سليم أن يستقبل سفيراً لا يكون شاعراً يقول فيه أبيات المديح والشكر.

ـ في وسعي نظم قصيدة تُنْشِدها بنفسك.

ـ لا، نحن جميعاً هنا محاربون، في حين أنّه سبق لـك أن قمت بمهمّات سفـير. وفي مقدورك أن تقدّم خيراً ممّا نقـدّم، وهذا مهمّ: ينبغي أن يـظهر سيّـدنا بمـظهر الملك لا بمظهر القرصان».

وسكتُّ مفتّشـاً عن ذريعة أتملّص بهـا من سُخـرة بمثـل هـذا الخـطر، بيـد أن هارون كان يحشرني بـلا هوادة. وبـدا صوتـه وكأنّـه صادر رأسـاً عن وجداني أنـا بالذات.

«لا يحقّ لـك أن تتردّد. إنّ إمـبراطوريـة إسلاميـة تولـد في المشرق، ونحن في المغـرب علينا أن نمـدّ لها يـدنا. ولقـد خضعنـا حتى الآن لشريعـة الكفّـار الـذين استولوا على غرناطة ومـالقة، ثم عـلى طنجة ومليلة ووهـران وطرابلس وبـوجي؛ ولسـوف يستحوذون غـداً على تلمسـان والجـزائـر وتـونس. ونحن بحـاجـة لكي نواجههم إلى مولانا السلطان المعظّم. وإننا نطلب إليك مساعـدتنا في هـذه المهمّة ولا يسعـك أن ترفض. وأيّـاً يكن ما ستقـوم به هنـا فلن يكون أهم ممّـا نـطلب. وأسرتك في أمان. أضف إلى ذلك أنّنا سنقوم بكامـل نفقاتـك ونرتّب لـك أجزل العطاء».

ولم يَفُتْهُ أن يضيف وعلى أطراف شفتيه ابتسامة قرصان:

«لا أنا بالـطبع ولا رفـاقي سنتجاسر عـلى أن نقول لـذي اللحية الحمـراء إنّك رفضت».

لقد كان لي من حريّة التصرّف ما لعصفور صغير يطارده صقـر. وإذ لم يكن في وسعي الكشف عن سبب تردّدي الحقيقي من غير أن أهتك سرّ نور فإني لم أتمكن من الحِجاج.

«متى ينبغي أن أبحر؟

ـ في هذه الليلة بالـذات. ينتظرنـا الأسطول في القنـاة، وقد درنـا هذه الـدورة لأخذك».

وطلبتُ، وكأنّني انطق بآخر ما يرغب فيه محكوم عليه بالإعدام، أن اتحدث إلى نور.

وكان ردّها رائعاً، فلم يكن ردّ زوجة الرجل الميسور التي كانت قد أصبحتها بفعل زواجنا، وإنّما ردّ ابنة الجنديّ التي كانتها طوال حياتها. وردّ أمّ السلطان التي كانت ترجو أن تصير إليها. وكانت واقفة في غرفتنا مكشوفة الوجه والشعر مرفوعة الرأس مستقيمة النظرات. قالت:

«وهل ينبغي أن تذهب إلى هناك؟»

كان قولها في منتصف الطريق بين السؤال والتقرير، فقلت فقط: «أجل».

ـ أتظنّ أن في الأمر أحبولة؟

ـ على الإطلاق. وأنا مستعدّ للمراهنة على قطع رأسي!

ـ هذا بالضبط ما ينبغي تحاشيه. لكنْ إذا كنت واثقاً كلّ هذه الثقة بهارون فلنذهب جميعاً إلى هناك».

لم أكن متأكّداً من أنني فهمت. وشرحت لي بصوت جازم.

«ينبغي أن تتمكّن عينا بايزيد من تأمّل مدينته وقصره. فربّما لم تسنح له فرصة أخرى في شبابه. إنّ السفر في البحر ينطوي بالتأكيد على مخاطر، لكنْ يجب على ابني أن يألفها. ويرجع إلى الله أن يحفظه أو أن يُميته».

وكانت واثقة من نفسها إلى حدّ أني لم أجرؤ على مناقشة أسبابها، وفضّلتُ المواربة قائلاً:

«لن يقبل هارون قطّ أن يصحب امرأة وصبيّاً.

ـ إذا قبلتَ طلبه فلا يستطيع رفض طلبك. كلّمه، باستطاعتك أن تجد الكلمات».

وفي الفجر كنّا قد قطعنا قمّار. ولقد ساعد دوار البحر على أن يستحوذ عليّ الشعور بأنّني كنت أبحر في قلب كابوس.

* * *

مدينة غريبة هي القسطنطينية. إنها مثقلة جدّاً بالتاريخ، وهي مع ذلك جديدة جدّاً بحجرها وبشرها. ففي أقلّ من ستين سنة من الاحتلال التركيّ كان وجهها قد تغيّر تماماً. لا تزال هناك بالطبع آيا ـ صوفيا التي تحوّلت من كاتدرائية إلى مسجد من عادة السلطان الذهاب إليه في موكب يوم الجمعة. غير أنّ معظم المباني كان الفاتحون الجدد قد أزالوها، وهناك مبانٍ ترتفع كل يوم قصوراً ومساجد ومدارس، بل حتّى مجرد أكواخ خشبية يتكوّم فيها آلاف الأتراك القادمين حديثاً من السهوب التي كانوا يترحّلون فيها.

وعلى الرغم من هذا النزوح فقد بقي الشعب الغازي في عاصمته أقلّية بين أقلّيات أخرى، وليست أكثر الأقلّيات يُسراً، باستثناء الأسرة الحاكمة. ففي أجمل الدارات، وفي أكثر دكاكين الأسواق رواجاً، يُرى على الأخصّ الأرمن واليونان والطليان واليهود الذين كان بعضهم قد أتى من الأندلس بعد سقوط غرناطة. ولا يقلّ عددهم عن أربعين ألفاً، وهم متوافقون على امتياح عدل مولانا السلطان. وفي الأسواق تتراصف عمائم الأتراك مع قلنسوات المسيحيين واليهود بلا ضغينة ولا بغضاء. وشوارع المدينة باستثناء بعضها القليل ضيّقة موحلة إلى حدّ أنّ عِلية القوم لا يستطيعون التجوّل إلا محمولين على الظهور البشرية. وآلاف من الناس يمتهنون هذه المهنة الشاقّة، ومعظمهم من القادمين الجدد الذين لمّا يجدوا عملاً خيراً من هذا العمل.

في يوم نزولنا كان التعب قد أنهكنا جميعاً إلى حدٍّ عجزنا معه عن اجتياز حيّز الميناء. فقد تمّت الرحلة في الفصل الرديء لأنّه كان ينبغي بلوغ القسطنطينية قبل أن يغادرها السلطان من أجل حملة الربيع. وعلى هذا فقد أمضينا الليلة الأولى في فندق يديره يوناني من قَنْدِيَة هو ابن عمّ بعيد لذي اللحية الحمراء. ومن الغد مثلنا في السراي مقرِّ السلطان. وقد ظلّت نور خارج السياج تتحدّث بصوت خافت في أُذن بايزيد غير مبالية بسنّه، ولا بنخراته بين الفينة والفينة، ولا بضحكاته الصادرة لغير ما سبب. واني لأرتاب في أنّها كانت تقصّ عليه بجدّ في ذلك اليوم حكاية سلالته الدموية والمجيدة حتّى يوم ولادته قبل عامين.

أمّا أنا فكنت على بُعْد خطوات من الجهة الأخرى للباب الأعظم وعليّ بُرد من الحرير الموشّى بالذهب وأنا اقرأ بعينيّ وأعيد القصيدة التي كان عليّ إنشادها في حضرة السلطان، وكنت قد نظمتها في البحر بين دُوَارَيْن. وكان حولي ألوف من الجنود والموظفين وأهل المدينة من مختلف الرُتَب، وكانوا جميعاً صامتين إجلالاً لشخص السلطان. وانتظرت أكثر من ساعتين وأنا مقتنع بأنهم سيطلبون مني الرجوع فيما بعد.

وكان ذلك سوء تقدير لأهميّة ذي اللحية الحمراء وللاهتمام الذي كان يكنّه العثمانيّ له. فسرعان ما حضر غلام فأخذني وهارون وصحبه وقادنا عَبْرَ باب الوسط إلى فِناء الديوان، وهو حديقة فسيحة زاهرة رأيت فيها نَعامات تجري. ورأيت عن كثب منّي صفاً من الفرسان بلا حراك فوق جيادهم المطهّمة. وغامت عيناي بغتة وأخذت أُذُناي بالطنين وانطبق حلقي بشدّة شعرت معها بالعجز عن نطق أدنى كلمة. أهو الخوف؟ أهو عناء السفر؟ أم هو القرب فقط من السلطان؟ ولم أكن أرى وأنا اجتاز بالصفّ غير شرر. وجهدت في الاحتفاظ بخطو طبيعي حاكيت فيه خطو الغلام الذي كان يتقدّمني، لكنّني شعرت بأنّي كنت على وشك التعثّر والانهيار؛ وكان أخشى ما أخشاه أن أجد نفسي أبكم عند قَدَمَيْ سليم الرهيب.

كان هناك، جالساً أمامي هَرَماً من الحرير على زرابيّ من الديباج، وظهوراً متوقَّعاً، وهو مع ذلك مباغت بدّد بنظرة باردة الضباب من عينيّ من غير أن يفرخ روعي. ولم أكن غير إنسان مسلوب الإرادة وإنْ كان يعمل بإيماءات محدَّدة بدا أن السلطان الهادىء كان يمليها عليه. وعندها انبثقت قصيدتي من حافظتي من غير بلاغة، ولكنْ من غير فأفأة، مصحوبةً في أبياتها الأخيرة ببعض الحركات الخجولة التي كلفتني جهوداً وعَرَقاً. وكان السلطان يهزّ رأسه متبادلاً من حين إلى حين كلمات مع بعض خاصّته. ولم تكن له لحية بل شاربان طويلان كان لاينِي يفتلهما؛ وبدت لي بشرته بلون الرماد وعيناه كبيرتين جدّاً بالقياس إلى وجهه ومشدودتي الطرفين قليلاً. وكان فوق عمامته الصغيرة المشدودة ياقوتة ترصِّع زهرة من الذهب. وكانت تتدلى من أُذُنه اليمنى لؤلؤة بشكل إجّاصة.

وإذ انتهيت من قصيدتي انحنيت على اليد الجليلة وقبّلتها. وكان في إصبع سليم خاتم فضّة غير متقن الصنع قيل لي إنه هديّة من منجّمه. وبينما كنت أنهض خلع عليّ غلام عباءة من وبر الجمل ودعاني إلى اللحاق به. كانت المقابلة قد انتهت، وكان في الإمكان بدء المحادثات في غرفة أخرى مع المستشارين. ولم أشارك فيها إلا بالنزر اليسير، إذ كان علي أن أعرض لا أن أفاوض على الإطلاق، لأنّ المحادثات التي كانت قد بدأت بالعربية لم تلبث أن استُكملت بالتركية، وهي لغة لم أكن أجيدها قبل إقامتي في رومة.

وقد تمكّنت مع ذلك من التقاط نبأ في غاية الخطورة بفضل خطأ ارتكبه أحد المستشارين. فلقد قال عليّ كرّم الله وجهه: «ليس شرّاً للإنسان من لسان زلول». وكان لسان ذلك الوجيه لا ينفكّ يزلّ. فبينما كان الحديث عن قلعة الجزائر التي يحتلّها الكفّار لم يفتأ ذلك الرجل يقول «قلعة القاهرة»، وقد بلغ به الأمر إلى الكلام على الجراكسة بدلاً من القشتاليين، حتّى كان أن حدجه مستشار آخر أصغر منه سنّاً بكثير بنظرة بلغ من غضبها أن بهت الآخر وقد شعر برأسه يترجّح فوق كتفيه. ولقد كان من أمر تلك النظرة وذلك الشحوب أن أفهماني أكثر ممّا أفهمتني زلّات اللسان أنّ أمراً خطيراً جدّاً كان قد كُشف. والحقّ أن السلطان سليم كان يريد في ذلك العام أن يوهم بأن استعداداته للحرب كانت موجّهة لصاحب فاس؛ بل إنّه دعا صاحب القاهرة إلى الانضمام إليه لمحاربة الهراطقة. في حين أنّ العثمانيّ كان قد عزم في الحقيقة على منازلة الإمبراطورية المملوكية.

ما إن انتهت المحادثات حتى أسرعتُ أخبر نور بما جرى، الأمر الذي كان منّي شرّاً من زلة لسان. وكما كان عليّ أن أتوقّع فقد التهبت جركسيّتي ناراً، لا في الظاهر وإنّما من داخل القلب. فلقد أرادت مهما كلّف الأمر تحذير إخوتها في العِرق من الخطر المحيق بهم.

«السلطان قانصوه عجوز مريض متردّد، وسوف يظلّ يستمع مغتبطاً إلى وعود سليم الودّية إلى اليوم الذي يحزّ فيه السيف العثمانيّ رقبته ورقبة جميع الجراكسة. لقد كان ولا ريب جنديّاً باسلاً في أيّام شبابه، وأمّا اليوم فليس ما يشغله غير العناية بأجفانه، وغير سلب رعيّته أموالهم. وينبغي تحذيره من نيّات

القسطنطينية؛ ونحن وحدنا القادران على ذلك لأنّنا وحدنا العارفان بها.

ـ أتعلمين ما الذي تقترحينه عليّ؟ أن أقوم بالتجسّس، أن أخرج من ديوان سليم وأذهب فأقصّ على قانصوه ما قيل فيه. أتعلمين أن ما يدور بيننا هنا في هذه الغرفة كافٍ لقطع رأسينا؟

ـ لا تحاول إخافتي! إنّني وحدي معك، وأنا أتكلّم بصوت خافت.

ـ لأجلك تركت مصر، وها أنت تطلبين مني العودة إليها!

ـ كان ينبغي أن نرحل للحفاظ على حياة بايزيد؛ واليوم ينبغي أن نعود لإنقاذ إخوتي ومستقبل ابني. لسوف يُباد جميع الجراكسة. ولسوف يفاجئهم السلطان سليم ويستولي على أراضيهم ويقيم امبراطورية من القوّة والاتّساع بحيث لا يمكن أن يطمع فيها ولدي قطّ. وإذا كان هناك ما يمكن محاولته فعليّ أن أفعل ولو كلّفني ذلك حياتي. في وسعنا الذهاب إلى «غلاطة» واستقلال أوّل سفينة إلى الإسكندرية. وبعدُ فإنّ الامبراطوريتين لمّا تشنّا الحرب، بل يُفترض أنّهما حليفتان.

ـ وإذا قلت لك لا؟

ـ قل لي: «لا، لن تسعَيْ إلى إنقاذ بني قومك من الذبح»، «لا، لن تجاهدي ليصبح ابنك يوماً سيّد القسطنطينية»، قل لي هذه الكلمات وسوف أطيع. غير أنّي سأفقد طعم الحياة والحبّ».

ولم أقل شيئاً. وأضافت:

«من أيّ طينة أنت لكي ترضى بفقد مدينة بعد أخرى، بفقد وطن بعد آخر، بفقد امرأة بعد أخرى، من غير أن تنافح أبداً، ومن غير أن تندم أبداً، ومن غير أن تلتفت وراءك أبداً؟

ـ ليست الحياة بين الأندلس التي غادرتها والجنّة التي وُعِدْتها غير رحلة. وأنا لا أقصد أيّ مكان ولا أطمع في شيء ولا أتشبّث بشيء، وأنا مطمئنّ إلى شهوتي للعيش، إلى غريزتي للسعادة، كما أنّي مطمئنّ لعدل السماء. أليس هذا هو الذي

جمع بيننا؟ إنّي لم أتردّد في ترك مدينة ومنزل وعيش لأسلك سبيلك واعتنق عنادك.

ـ والآن، لماذا توقّفت عن اللحاق بي؟

ـ لقد أضنتني الهواجس. ولن أدعك بالطبع هنا محاطة بالأعداء. وسوف أقودك إلى قومك لتتمكّني من إنذارهم، بيد أنّ طريقينا سيفترقان عند هذا الحدّ».

لم أكن واثقاً من أنّني عقدت اتّفاقاً حسناً، ولا من أنّني أملك الشجاعة للوفاء به. غير أنّي اعتقدت على الأقلّ أنّني حدّدت لذاتي حدود المغامرة التي تركت نفسي أخوضها. وأمّا نور فبدت لي مشرقة كل الإشراق. وما كانت تحفّظاتي لتهمّ ما دامت لا تعترض سبيلها. ولم تسمع من كلّ كلامي المفصّل غاية التفصيل سوى «نَعَمْ» التي لم أكن حتى قد لفظتها. ومن غير أن تنتظر، وفيما كنت أنسج في ذهني الكذبة التي سأقدّمها إلى هارون للتخلّي عنه، كانت قد أخذت في الحديث عن السفن والمراسي والأمتعة.

***

عندما سألني، لدى عودتي إلى بلاد النيل، عامل المكوس في ميناء الاسكندرية بين تفتيشين عمّا إذا كان صحيحاً أنّ العثمانيين يستعدّون لاجتياح بلاد الشام ومصر أجبتَ لاعناً جميع نساء الأرض، ولا سيّما الشقراوات الجركسيّات، الأمر الذي وافق عليه لدهشتي الكبرى مخاطبي، وكأنّ ذلك كان التفسير البديهيّ للمصائب القادمة.

ولقد كان على نور أن تتحمّل طوال الرحلة إلى القاهرة مآخذي وتهكّماتي. ولكنْ ما إن مرّ اليوم الثالث على وجودنا في العاصمة حتى كان عليّ أن أوافق على أنّها لم تكن مخطئة تماماً في مساعاها الخطِر. فالشائعات السارية كانت من التناقض بحيث كانت البلبلة الكاملة تسود خواطر الناس، لا من العامّة وحسب، وإنما في القلعة كذلك. فالسلطان كان قد عزم على الذهاب إلى بلاد الشام لملاقاة الجيوش العثمانية، ثم ألغى الحملة بناء على معلومات مُطَمئِنة. وكان قد طَلب من الفيالق التي أُمرت بالاستعداد للسفر أن تعود إلى ثكناتها. وطُلب كذلك مرتين إلى الخليفة والقضاة الأربعة أن يستعدّوا لمرافقة السلطان إلى حلب؛ وسلك موكبهم مرتين

طـريق القلعة تمهيـداً للرحيل الأكـبر؛ وقيل لهم مـرّتـين إنّ عليهم أن يعـودوا إلى منازلهم.

وقـد زاد في الطين بلّة مجيء مـفـوّض عثماني مـطلق الصلاحيـة لتجديـد عهود السلام والصداقة مقترحاً مرّة أخرى حِلفاً حيال المراطقة والكفّار. وكـان من شأن مثـل هذا الانتـظار وتلك الحيرة أن يَفُـلّا من روح القتال لـدى الجيش، وهذا ولا ريب هو ما كان يهدف إليه مولانا السلطان المعظّم من وراء كلامه المعسول. وعلى هذا كان مهمّاً أنْ تفتح عيونَ المسؤولين شهادةٌ قادمة من القسطنطينية. ولكنْ كـان ينبغي نقلها بطريقة توحي بالثقة من غير أن يُكشف عن مصدرها.

وفكّرت نور في كتابة رسالة والذهاب لإيداعها مختومة في منـزل الأمير طـومان باي، الرجل الثاني في السلطنة وأكثر قادة مصر شعبية. وقالت في نفسها إنّ رسالة من امرأة جركسية سوف تُنْقَل بلا إبطاء إلى المملوك الكبير.

وفي الليلة نفسهـا قُرع بـابي. كان طـومان بـاي قد جـاء وحده، وهـذا أمر لا يُصدَّق في هذه المدينة التي لم يكن أصغر آمرٍ لعشرة أنفار يفكّر فيها بالتنقّل من غير أن تـواكبه ثلّة كبـيرة وصاحبـة من الحرس. وكـان رجلاً في الأربعـين من عمـره، طويلاً أنيقاً أبيض البشرة، طويلِ الشاربين على الطريقة الجـركسية، قصـيرِ اللحية مقصوصها بعنـاية. ومـا إن رحّبتُ به حتى تجهّم وجهـه إذ رابتْه لكنتي لأنّ جمـاعة المغاربة في القاهرة كانوا معروفين بولائهم للعثمانيين. وبادرتُ إلى استدعاء نور إلى جانبي فتقدّمت سافرة الـوجه. وعـرفها طـومان بـاي. وإذ كانت أختـاً من قومـه وأرملة مناوىء لسليم فما كان من الممكن إلا أن توحي له بالثقة التامّة.

جلس الأمـير إذن من غير احتفـال يسمع قصّتي. وكـرّرت عليـه مـا كنت قـد سمعتـه من غير تنميق، ومن غـير أن أُغفِـل أيّ تفصيـل. وعنـدمـا صمتٌّ شرع يطمئنني قائلاً:

« ليست المسألة مسألة شهادة أذكرها. فالمهمّ هو اقتناع الحكّام الشخصيّ. وأمّا أنا فقد حصل اقتناعي، وسأناضـل بعد الـذي سمعته بعـزم يفوق عـزمي السابق لكي أجعل السـلطان يشاطرني إيّاه».

وبدا عليه أنه مغرق في التفكير، وارتسمت برطمة على شفتيه وقال وكأنه يُتِمّ حديثاً دار داخل ذاته:

«لكنْ لا شيء سهل أبداً مع سلطان. فإنْ الححت عليه كثيراً قال في نفسه إنّني أسعى لإبعاده عن القاهرة، ولم يشأ قطّ أن يسير».

وشجّعني بَوْحُه فقالت:

«لِمَ لا تسير أنت نفسك بالجيش؟ ألا يقلّ عمرك ثلاثين عاماً عن عمره؟

ـ إذا أنا ظفرتُ خشي رجوعي على رأس الجيوش».

لمح الأمير وهو يجيل ناظريه حوله الأيقونة والصليب القبطي على الجدار فابتسم وهو يحكّ رأسه بشكل ظاهر. وكان له ملء الحقّ في أن يثور فضوله: مغربيّ بزيّ مصريّ متزوج من جركسيّة أرملة أمير عثمانيّ يزيّن منزله على الطراز المسيحي! وهممت بأن أقصّ عليه كيف حصلتُ على هذه الدار عندما قاطعني قائلاً:

«إنّ منظر هذين الشيئين لا يضايقني. وإذا كان صحيحاً أنّني مسلم بفضل من الله فإنّني ولدت مسيحياً وعُمّدتُ مثلي مثل السلطان وجميع المماليك».

وإذ قال هذه الكلمات فقد هبّ واقفاً واستأذن مكرّراً شكره.

لم تكن نور الجالسة في زاوية مظلمة من الحجرة قد شاركت في الحديث. بيد أنّها بدت راضية عنه إذ قالت:

«لو لم يكن مجيئي من ذلك المكان البعيد إلا لهذه المقابلة ما ندمتُ عليه».

وسرعان ما بدا من سير الأحداث أنّها كانت مُحِقّة. فقد عُلم بالفعل أنّ السلطان قد عزم في النهاية على المسير، ورؤيت كتيبته تخرج من المضمار وتجتاز ميدان الرميلة قبل أن تمرّ بطلعة الثيران وشارع الصليبة حيث كنت قد ذهبت لاستطلاع المشهد. وعندما مرّ السلطان تحت وابل من الهتاف على بضع خطوات منّي لاحظت أنّ عصفور الذهب المخرّم، شعار المماليك، قد استبدل به في قمة مظلّته هلال من الذهب، وكان يُهمس من حولي بأنّ التبديل كان قد أُمر به على أثر رسالة من العثمانيّ تشكّك في حميّة قانصوه الدينية.

كان يتقدّم الموكبَ السلطانيَّ الذي لا نهاية له خمسة عشر جملاً مزيناً بخصلات من الخيوط الموشّاة بالذهب، وخمسة عشر أخرى مزيّنة بخصلات من خيوط مخملية متعدّدة الألوان؛ مرّت بعد ذلك الخيّالة مؤلّفة من مئة فرس للقتال مجلّلة بسروج فولاذية مرصّعة بالذهب. وأبعد من ذلك كانت تُرى هوادج فوق بغال مجلّلة بأغطية من الحرير الأصفر ومُعدّة لنقل الأسرة السلطانية.

وكان طومان باي قد عُيّن في العشيّة قائماً عامّاً بشؤون مصر كاملَ الصلاحيات؛ لكنّ الشائعات كانت تسري بأنّ السلطان حمل معه جميع أموال الخزينة، وهي بضعة ملايين من الدنانير، كما حمل النفائس المكدّسة في المخازن السلطانيّة.

وكنت قد سألت نوراً أن تصحبني لحضور الحدث الذي سعت لتحقيقه. ورجتني أن أذهب وحدي مؤكّدة أنّها لم تكن على ما يُرام. وأظنّ أنها كانت راغبة في تفادي الظهور أمام الناس ما أمكن؛ ولم يطل بي الأمر لمعرفة أنها كانت حاملاً. ولم أجسر على السرور كثيراً بذلك لأنّني وإنْ كنت راغباً رغبة عارمة وأنا على أبواب الثلاثين في أن يكون لي ابن من صلبي فإنّي لم أكن لأجهل أن حال نور سوف تمنعني بعد الآن من تركها، أو حتّى من الهرب من القاهرة بصحبتها، وهذا ما كانت الحكمة تقضي بأن أفعله.

ومرّت ثلاثة أشهر كانت تترامى إلينا فيها الأخبار عن تقدّم السلطان: غزّة وطبريّة ثم دمشق التي سُجّل فيها حادث مؤسف. فقد ألقى خازن بيت المال كما هي العادة قطعاً فضّية حديثة السكّ عند قدمي السلطان وقت وصوله المظفّر إلى المدينة. وعندها هجم حراس قانصوه للمّ النقود هجمة كاد السلطان معها يقع عن جواده لشدّة الزحام عليه.

وعُلم أنّ السلطان ذهب من بعد دمشق إلى حماة ثم إلى حلب. ثم ساد الصمت. أكثر من ثلاثة أسابيع. صمتٌ لم تعكّره في البدء أدنى شائعة. واستمرت الحال إلى يوم السبت السادس عشر من شعبان (الرابع عشر من أيلول «سبتمبر» ١٥١٦ م) عندما وصل رسول إلى القلعة لاهثاً معفّراً: جرت معركة في مرج دابق غير بعيد من حلب. وقد شارك فيها السلطان معتمراً طاقيته الصغيرة

مرتدياً عباءة بيضاء رافعاً بلطته على كتفه وحوله الخليفة والقضاة وأربعون من حملة القرآن. وكانت الغلبة في البداية للجيش المصري فاستحوذ من العدو على سبع رايات ومدافع كبيرة محمولة على عربات. ولكنّ خيانة ارتُكبت بحق السلطان، ولا سيّما من خاير بك حاكم حلب الذي كان متواطئاً مع العثمانيين. فبينما كان يقود الميسرة استدار، ولم يلبث صنيعه أن أثار الخَوَر في الجيش بأسره. وإذ أدرك قانصوه ما كان يجري فقد أصيب بفالج شقّي ووقع عن حصانه ومات للتوّ. حتى إنّه لم يُعثر في الهرْج على جثته.

ودبّ الهلع في قلوب أهل القاهرة إذ سرعان ما توالت الشائعات عن تقدّم العثمانيين الذين كانوا يسلكون بالاتجاه المعاكس طريق سير الجيش المصري، وهكذا سقطت في أيديهم حلب ثم حماة. وفي خان الخليلي نهبت بعض المخازن العائدة إلى أتراك من آسية الصغرى وإلى مغاربة، بيد أنّ النظام ما لبث أن أعيد بقوّة على يد طومان باي الذي أعلن بقصد التخفيف من وطأة هذه الأخبار المفجعة إلغاء جميع المكوس والضرائب، وأَرْخَصَ أسعار السلع الضرورية ضرورة قصوى.

وعلى الرغم من تمكّن الأمير من الإمساك بزمام الموقف فقد انتظر شهراً قبل أن يعلن نفسه سلطاناً. وفي ذلك اليوم سقطت دمشق بدورها في يد سليم، وما لبثت أن تبعتها غزّة. وإذ كانت تنقص طومان باي القوات النظامية فقد أمر بإنشاء فرق شعبية مسلّحة للدفاع عن العاصمة؛ ولقد أخلى السجون وأعلن أن العفو سيصدر عن جميع الجرائم، بما فيها القتل، لمن ينخرطون في تلك الفرق. وعندما اقتربت الجيوش العثمانية في الأيّام الأخيرة من العام جمع السلطان المملوكي جيوشه في مخيّم الريدانية شرقيّ العاصمة؛ وضمّ إليها عدداً من الأفيال ومدافع صُهرت حديثاً؛ وحفر خندقاً طويلاً وعميقاً على أمل الصمود لحصار طويل.

لكنّ مثل هذا لم يكن وارداً في حسبان العثمانيّ. فبعد أن ترك سليم لرجاله مدّة يومين للراحة من رحلة سيناء الطويلة أمر بهجوم عامّ بِفَيْضٍ كبير من المدافع وغالبية عددية ساحقة بحيث تشتّت شمل الجيش المصري في بضع ساعات.

وعلى هذا دخل مولانا السلطان المعظّم القاهرة في اليوم الأخير من العام دخول

الفاتحين يتقدّمه المنادون واعدين أهل المدينة بالأمان والاطمئنان، داعين إيّاهم للعودة من غدٍ إلى أعمالهم. وكان اليوم يوم جمعة، وكان الخليفة الذي أُسر في بلاد الشام وأعيد في حاشية الفاتح هو الذي أمر بأن يُخطب في جميع مساجد العاصمة باسم «السلطان ابن السلطان مالك البرّين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفّر سليم شاه».

كانت عينا نور بلون الدم. فقد غمّها انتصار السلطان العثمانيّ إلى حدّ أنّي خفت على حياة الجنين الذي كانت حاملة به. وإذ كانت على بضعة أيام من الوضع فقد حلّفتها أن تبقى هادئة في فراشها. وأمّا أنا فقد هدّأت نفسي بالوعد بأن أغادر هذا البلد عندما تتعافى بعد الوضع. وكان جميع الأعيان الساكنين في الشارع الذي كنت أقيم فيه قد خبّأوا ما عندهم من النفائس والأقمشة في أقبية بيوتهم خوفاً من النهب.

ومع هذا فقد حضر في ذلك اليوم إلى بابي سائسي وحماره كالعادة لحملي إلى المدينة. وروى لي الصبيّ مقهقهاً أنّه عثر وهو قادم إليّ برأس ضابط مملوكي مقطوع. وإذ رآني لا أضحك قطّ فقد أجاز لنفسه أن يقول لي إنّي أحمل الأمور كثيراً على محمل الجدّ، الأمر الذي استحقّ عليه صفعة من ظاهر يدي. ووبّخته قائلاً بنبرة أبوية:

«لقد احتُلّت مدينتك، واجتيحت بلادك، وحكّامها جميعاً بين قتيل وهارب، وقد حلّ محلّهم آخرون جاءوا من آخر الدنيا، وأنت تأخذ عليّ أنّي أحمل الأمور كثيراً على محمل الجدّ؟»

وكان ردّه الوحيد هزّة من كتفيه وهذه العبارة الدالة على خضوع أبدي: «كلّ من تزوّج أمّي أصبح عمّي».

ثم عاد إلى الضحك.

ومع ذلك فإنّ رجلاً ظلّ لا يستسلم أبداً. إنّه طومان باي. وكان يتهيّأ لكتابة أعظم الصفحات بطولة في تاريخ القاهرة.

عام طومان باي

٩٢٣ هـ (٢٤ كانون الثاني «يناير» ١٥١٧ م - ١٢ كانون الثاني «يناير» ١٥١٨ م)

كان السلطان العثماني وقد أصبح مالك القاهرة يطوف فيها وكأنه يريد أن يطمس بطبفه الذي لا يمحي كلّ مكان مقدّس وكلّ حيّ وكلّ باب وكلّ نظرة مذعورة. وكان يتقدّمه الرسّل الذين لم يكونوا ينفكّون عن الإعلان للناس أن يطمئنوا إلى سلامتهم وسلامة أرزاقهم، في حين كانت تتواصل المذابح وعمليّات السلب والنهب، وعلى بضع خطوات من الموكب السلطاني في بعض الأحيان.

وكان الجراكسة أوّل الضحايا. وسواء كانوا مماليك أو من نسل المماليك فقد كانوا يُطارَدون بلا هوادة. وعندما كان يُقبَض على أحد الأعيان من العهد القديم كان يُركَب على حمار ووجهه إلى مؤخّرته وعلى رأسه عمامة زرقاء وحول عنقه عدد من الجلاجل. وكان يُطاف به بهذا الزيّ في الشوارع قبل أن يُفصل رأسه. ثم يُعلّق الرأس على عصا طويلة في حين يرمى بالجسد إلى الكلاب. وكانت مئات العصيّ الطويلة قد زرعت في أرض كل مخيّم من المخيّمات العثمانية على هذا النحو الواحدة بجانب الأخرى مؤلّفة غابة جنائزية كان سليم يحبّ الطواف فيها.

ولم يلبث الجراكسة الذين خُدِعوا بعض الوقت بالوعود العثمانية أن تخلّصوا بالطبع ممّا كانوا يعتمرونه من عمائم خفيفة وطواقي واعتمروا عمائم كبيرة ليذوبوا في مجموع الشعب. وبعد ذلك أخذ الجنود العثمانيون يعتقلون جميع المارّة بلا تمييز متّهمين إيّاهم بأنّهم جراكسة متنكّرون مطالبينهم بدفع جزية لإخلاء سبيلهم. وعندما كانت الشوارع تخلو كانوا يكبسون البيوت ويقومون، بحجة إخراج الجراكسة الهاربين من مخابئهم، بالنهب واغتصاب النساء.

وفي اليوم الرابع من ذلك العام كان السلطان سليم في ضاحية بولاق حيث

نصب عسكره أكبر مخيّماته. وكان قد شهد إعدام بعض الضبّاط ثم أمر بـأن يُلقى بمئات الجثث التي فُصلت رؤوسها وكانت تزحم المعسكر في النيل على الفور. ثم انتقل إلى الحمّام ليتطهّر قبل الذهـاب لصلاة المغـرب في مسجد قـريب من الميناء. وما إن خيّم الليل حتى عاد إلى المعسكر واستدعى إليه بعض معاونيه.

كان الاجتماع قد بدأ للتوّ عندما تعالى صخب غير مألوف: كانت مئـات الجمال المحمّلة بمشَاقات مشتعلة قد هجمت على المواقع العثمانية مُضْـرِمَةً النـار في الخيم. وكان الظلام قد أسدل ستاره فاجتاح آلاف من المسلّحين المعسكر يساعـدهم على ذلك الذعرُ الذي دبّ فيه. وكان عـلى رأسهم طومـان باي. وكـان عسكره يضم جنوداً بالطبع، لكنّه كان يضمّ على الأخصّ أناساً من العامّـة والبّحارة والسقّـائين وبعض الـذين كان قـد حُكم عليهم والتحقوا بـالفِرق الشعبيـة المسلّحـة. وكـان بعضهم يحمل خناجـر، ولم يكن مع بعضهم الآخـر سوى المقـاليع أو الهـراوات. ومـع دلك فقـد زرعوا المـوت في صفوف العثـمانيين يسـاعدهم عـلى ذلـك الليـلُ والمبـاغتة. وفي خضمّ المعـركة حـوصر سليم نفسه من كـل صوب وكـانت ضراوة حرسه وحدها هي التي أتاحت له شقّ طريق إلى الخارج. وأمسى المعسكر في يدي طومان باي الذي أمر أنصاره من غير أن يضيع لحظة واحدة بـأن يلاحقـوا عسكر الاحتلال في جميع أحياء القاهرة، وبألّا يأخذوا أسيراً واحداً.

ولقد استعيدت العاصمة شارعاً بعد شارع. وأخذ الجراكسـة يطاردون الجنـود العثمانيين بمساعدة الشعب النشِطة. وإذ غدا الضحايا جلّادين فقد بَدَوا بلا رحمة. ولقد رأيت بنفسي غير بعيد من منزلي مصرع سبعـة من الأتراك كـانوا قـد احتموا بالمسجد. فإذ كان حوالي العشرين قاهرياً يـلاحقونهم فقـد لجأوا إلى أعـلى المئذنـة وشرعوا يطلقون نار بنادقهم على الحشـد. لكنّهم ما لبثـوا أن قُبض عليهم وذبحوا ورُموا مسربلين بدمائهم من أعلى المبنى.

كانت المعركة قد بدأت مساء الثلاثاء. ويوم الخميس نزل طومان باي في جامع شيخو بشارع الصليبة واتّخذ منه مقراً لقيادته. وبدا أنه غدا سيّد المدينة، حتّى إنّـه خُطب له مجدّداً في الغداة من فوق المنابر.

بيد أنّ وضعه لم يكن أقـلّ هشاشـة من ذي قبل. فـما إن انقضى هول المبـاغتة

حتى كـان العثمانيـون قد تمـالكوا أنفسهم فـاستعادوا بـولاق وتسرّبوا إلى القـاهـرة القديمة حتى أطراف الشارع الذي أنا فيه وملكوا شبراً فشبراً ما كانـوا قد فقـدوه. وكان طومان باي يسيطر بشكل أساسي على الأحياء الشعبية في الوسط، وقد منـع الوصول إليها بحفر خنادق على عجل وبإقامة السواتر والحواجز.

كان يوم الجمعة ذاك هو اليـوم الذي اختـارته نـور من جميع الأيـام التي خلقها الله للإحساس بآلام المخاض. وكان عليّ أن أخـرج زاحفاً وانـدسّ عبر حـديقتي لاستدعاء قابلة من الجوار رفضت الانتقال إلا بعد سـاعة من التضرّع وبـذل أجر مرتفع: ديناران إذا كان المولود أنثى وأربعة إذا كان ذكراً.

وإذ شاهدتِ الشقّ الهزيل الورديّ بين سـاقي المولـود المتنفختين فقـد صرخت محنقة: «ديناران!»

وأجبتها قائلاً: «إذا تمّ كل شيء بسلام فسوف تحصلين رغم ذلك على أربعة!»

ووعدت وقد غمرها الفرح لهذا القـدر من السخاء بـأن تعود بعـد بضعة أيـام للختان بلا مقابل. ورجوتها ألا تفعل شيئاً شارحاً لها بأنّه لا وجود لهذه العملية في بلدي، الأمر الذي أدهشها وأمضّها.

وبدت لي ابنتي في جمال أمّها وبياضها. وأسميتها «حياة» إذ لم أكن أتمنّى لها، كما لجميع أسرتي، خيراً من الخـروج سليمة من عـربدة القـاهرة القـاتلة التي كـانت تتواجد فيها إمبراطوريتان، إحـداهما نشـوى بنصرها والثـانية معـانِدة في الصمـود للموت.

وفي الشوارع كان القتال لا يزال ضارياً. وكان العثمانيون يحاولون وقد اسـتردوا السيادة على معظم الضواحي أن يسيروا نحو القلب، لكنّهم لم يكونوا يتقدّمون إلاّ ببطء وهم يتلقّون أفدح الخسائر. ومع ذلك فـإنّه لم يكن هنـاك من ريب في نتيجة المعركة. فقد أخذ العسكر والمسلّحون من الفرق الشعبية يفرّون شيئاً فشيئـاً من معسكر طومـان باي، بينـما ظلّ السلطان المملوكي يقـاتل نهاراً بـطوله عـلى رأس حفنة من المخلصين وبعض رماة البنادق والجراكسة من حرسه الخاصّ. وعزم ليل السبت عـلى مغادرة المـدينة من غـير أن يفقـد مـع ذلـك شيئـاً من تصميمـه عـلى

الصمود. وأشاع أنّه سوف يعود عمّا قريب بمزيد من القوى لإخراج المجتاحين.

كيف السبيل إلى وصف ما فعله العثمانيون عندما تمكّنوا من النفاذ مجدّداً إلى أحياء القاهرة؟ فلم يكن الأمر في نظرهم كما كان عند انتصارهم الأوّل، أي شلّ العسكر الجراكسة الذين قاوموهم، بل كان بعد الآن معاقبة جميع أهل القاهرة. فقد انتشر جنود السلطان العثماني في الشوارع حاملين أمراً بقتل كلّ ما يتنفّس. ولم يكن في وسع أحد مغادرة المدينة الملعونة لأنّ جميع الطرق كانت مقطوعة؛ ولا كان في وسع أحد أن يجد ملاذاً لأنّ المقابر نفسها والجوامع تحوّلت إلى ساحات قتال. وقد ارغم الناس على الاختباء في منازلهم ريثما يهدأ الإعصار. وسقط في ذلك اليوم من الفجر إلى الهزيع الأخير من الليل أكثر من ثمانية آلاف قتيل. وكانت الشوارع ملأى بجثث الرجال والنساء والأطفال والخيول والحمير مختلطة في موكب دموي لا نهاية له.

وفي الغداة نصب سليم في معسكرة رايتين إحداهما بيضاء والأخرى حمراء وهي إشارة لرجاله بوقف الاقتصاص ورفع السيف عن أهل المدينة. وكان الوقت قد حان لذلك لأنّه لو امتدّ الثأر بضعة أيام أخرى بالعنف نفسه لما كان السلطان العثماني استولى في ذلك البلد على غير مدفن عِظام كبير.

لم تنقطع نور طوال تلك الأيام الدامية عن الدعاء لطومان باي بالنصر. ولم تكن مشاعري الخاصّة لتختلف. فإذ كنت قد استقبلت السلطان المملوكيّ في بيتي ذات يوم فقد كنت متحمساً لإقدامه. ولا سيّما أنّه كان هناك بايزيد. فلسوف تُسْلِمه وجميع أفراد أسرته إلى العثمانيين عاجلاً أو آجلاً ريبة أو وشاية أو ثرثرة. وكان ينبغي لسلامة الطفل الشريد وسلامتنا أن ينتصر طومان باي. وعندما أدركتُ يوم الأحد أنّه كان قد خسر المعركة إلى الأبد انفجرتُ غضباً عليه بدافع الخيبة والخوف والغيظ المكبوت معلناً أنه ما كان ينبغي قطّ أن يندفع في عمل بهذا التهوّر، وأن يجرّ الشعب إلى صفّه ويجرّ عليه نقمة سليم.

وبالرغم من أن نوراً كانت لا تزال متعبة فإنها انتصبت واقفة وكأنّها استيقظت

من حلم مزعج. ولم يكن يُرى في وجهها المتقنع سوى عينيها اللتين لم تكونا تنظران إلى شيء.

«تذكر الأهرام! كم من رجل ماتوا في سبيل بنائها وكان في وسعهم العيش سنين أطول يفلحون الأرض ويأكلون وينجبون الأولاد! وربما ماتوا بعدئذٍ بالطاعون ولم يتركوا أثراً. ولقد بنوا وفقاً لرغبة فرعون نُصُباً سوف يخلّد طيفُه إلى الأبد ذكرى عملهم وآلامهم وأشرف تطلّعاتهم. ولم يفعل طومان باي غير ذلك. ألا تساوي أربعة أيام من البسالة والكرامة والتحدّي أكثر من أربعة قرون من الخضوع والاستسلام والدناءة؟ لقد قدّم طومان باي للقاهرة وشعبها أجمل هدية ممكنة: نار مقدّسة سوف تنير الليل الطويل الذي بدأ وتدفئه».

ولم تقنعني كلمات نور سوى نصف إقناع، لكنّني لم أَسْعَ إلى معارضة أقوالها، واكتفيت بإحاطتها برفق بذراعيّ لإعادتها إلى الاستلقاء. فلقد كانت تتحدّث لغة قومها، ولم يكن لي من طموح سوى البقاء على قيد الحياة أنا وذويّ لأحكي ذات يوم على ورق صقيل قصّة سقوط القاهرة، وسقوط إمبراطوريتها، وسقوط آخر أبطالها.

* * *

لم يكن في مقدوري مغادرة المدينة قبل عدّة أسابيع، الوقت الكافي لتتمكّن نور من السفر. وبانتظار ذلك كانت الحياة في القاهرة قد أصبحت أصعب فأصعب. فقد قلّت السلع إلى حدّ الندرة. ولم يكن يُعثر على الأجبان ولا الزبد ولا الفواكه، وكان ثمن الحنطة إلى ارتفاع. وكان يقال إنّ طومان باي قرّر إجاعة الحامية العثمانية بمنع وصول المؤن إلى المدينة من طريق الأقاليم التي كانت لا تزال تحت سيطرته؛ وأنّه تفاهم علاوة على ذلك مع قبائل البدو الرحّل العربية التي لم تخضع يوماً لأيّ نفوذ مصري على الإتيان إلى نواحي العاصمة لغزوها ونهبها. وكان الناس يؤكدّون في الوقت نفسه أنّ طومان باي استقدم من الإسكندرية عتاداً حربياً من سهام وأقواس وبارود، وأنه حشد عساكر لم ينهكها القتال، وأنه يستعدّ لهجوم جديد. والحقّ أن المواجهات تضاعفت، ولا سيّما من ناحية الجيزة، بحيث تعذّر سلوك طريق الأهرام التي كان علينا سلوكها لاستعادة بايزيد.

هل كان علينا مع ذلك كلّه أن نحاول الهرب معرّضين أنفسنا لخطر الوقوع في قبضة دوريّة عثمانية أو بعض المماليك الفارّين أو عصابة من النهّابين؟ وتردّدت في القيام بذلك إلى أن علمت أنّ السلطان سليم كان قد عزم على ترحيل عدّة آلاف من السكّان إلى القسطنطينية. ودار الحديث أوّلاً عن الخليفة والمماليك الأعيان وأسَرهم. لكنّ اللائحة لم تنفكّ تطول: بنّاؤن ونجّارون وقاطعو رخام وبلّاطون وحدّادون وعمّال من جميع الاختصاصات. ولم ألبث أن علمت بأنّ الموظفين العثمانيين كانوا بصدد إعداد لوائح اسمية بجميع المغاربة واليهود في المدينة لترحيلهم.

وصدر قراري. وإذ منّيت النفس بالرحيل في الأيام الثلاثة القادمة فقد قمت بجولة أخيرة في المدينة لتنظيم بعض الأمور، وإذ بي أسمع أنّ طومان باي قد أُسر بسبب خيانة من زعيم قبيلة بدوية.

وحوالي الظهر دوّت صيحات مختلطة بأصوات الأذان للصلاة. ولُفِظ اسم بالقرب مني، باب زويلة. وبالفعل فقد كان آلاف الأهالي، رجالاً ونساء، شبّاناً وشيباً، يهرعون باتّجاه ذلك الباب. وفعلت فعلهم. وكان جمع غفير لا ينفكّ يتزايد ويلفت النظر بصمته شبه التام. وفجأة انشقّ الجمع فاتحاً الطريق لرتل عثمانيّ ضمّ نحو مئتي خيّال وضِعْفَهما من المشاة. وأداروا ظهورهم للناس مشكلين ثلاث دوائر بعضها داخل بعض وفي الوسط رجل على حصان. ولم يكن من اليسير التعرّف في ذلك الطيف على طومان باي. فقد كان حاسر الرأس أشعث اللحية، ولم يكن عليه من الثياب سوى مِزق من القماش الأحمر تُسيء سَتْرَها عباءةٌ بيضاء. ولم يكن في قدميه غير لفافتين من جوخ أزرق.

ونزل السلطان عن حصانه بناء على طلب من ضابط عثمانيّ. وحُلَّ وثاقُ يديه، غير أنّ اثني عشر جندياً لم يلبثوا أن أحاطوا به شاهري السيوف. مع أنّه لم يكن يبدو عليه أنه يفكّر في الهرب. وحيّا بيديه الطليقتين الناس الذين هتفوا له بشجاعة. واتّجهت جميع الأنظار، بما فيها نظره، ناحية الباب الشهير الذي كان الجلّاد يدلّي من فوقه حبلاً.

وبدت الدهشة على وجه طومان باي، بيد أن البسمة لم تفارق شفتيه. وأمّا

نظراته فكانت وحدها التي فقدت اتّقادها. وهتف بالناس قائلاً: «اقرأوا لي سورة الفاتحة ثلاث مرّات!»

وتعالت آلاف الغمغمات وكأنها دويّ يزداد زلزلة في كل لحظة: «الحمد لله ربّ العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين. . .»

وكان لفظ «آمين» صرخة ممدودة خانقة ثائرة. ثم لا شيء، وران الصمت. وبدا العثمانيون أنفسهم مشدوهين، وكان طومان باي هو الذي حرّكهم بقوله:

«أيّها الجلّاد، قم بعملك!»

ولُفّ الحبل حول عنق المحكوم عليه، وشُدّ من الطرف الآخر. وارتفع السلطان مقدار قدم ثم سقط على الأرض. لقد انقطع الحبل. وأُعيد ربطه وشَدَّه الجلاد ومعاونوه من جديد، وكرّة أخرى انقطع. ولم يَعُدِ التوتّر لِيُحتمل. وبدا السلطان وحده مرِحاً وكأنّه يشعر بأنّه أصبح في مكان آخر، مكان يُجزى فيه الإقدام جزاء يختلف اختلافاً تامّاً عن هذا الجزاء. وأعاد الجلاد ربط الحبل للمرّة الثالثة، ولم ينقطع. وتعالت صرخة ممزوجة بالدموع والنحيب والدعاء. فلقد قضي آخر أباطرة مصر، أبسل من حكم وادي النيل طرّاً، مشنوقاً على باب زويلة وكأنّه سارق خيول وضيع.

* * *

ظلّت صورة المشنوق ماثلة طوال الليل أمام ناظريّ. بيد أنّي سلكت في الصباح طريق الأهرام تهيب بي اللوعة والأرق وعدم الإحساس بالأخطار.

ومن غير أن أعلم كنت قد اخترت أحسن وقت للفرار. فقد تخلّى العثمانيون عن حذرهم يحدوهم الاطمئنان الناتج عن القضاء على عدوّهم، في حين هام أصدقاء طومان باي على وجوههم وقد نالت منهم هزيمتهم. ولا ريب في أنّه كان علينا أن نتوقّف خمس مرّات أو ستّاً للإجابة عن بعض الأسئلة النامّة عن الارتياب. بيد أنّنا لم نُرهق ولم نُسلب، ووجدنا أنفسنا في الليل نائمين بسلام عند خَضْرا في كوخ غرامنا الأول.

وهناك انقضت شهور من الهناء اليسير غير المأمول. فلم تكن قرية الحاضنة لصغرها وبؤسها لتستثير الأطماع، وكانت تعيش على هامش الحروب والانقلابات. غير أنّ هذا العيش الهادىء الرتيب ما كان ليكون عندي سوى واحة وارفة الظلال بين مرحلتين طويلتين من السفر. وكانت أصوات البعيد تناديني، وكان مكتوباً لي ألاّ أصِمّ أُذنيّ طويلاً عن إغراءاتها.

عام الاختطاف

٩٢٤ هـ (١٣ كانون الثاني «يناير» ١٥١٨ م ـ
٢ كانون الثاني «يناير» ١٥١٩ م)

برزت غير متيقّن من شيء من عزلتي الريفيّة الطويلة الموشّاة مع ذلك بالتأمّلات والنزهات الصامتة. فجميع المدن قابلة للهلاك؛ وجميع الإمبراطوريات ضارية، والعناية الإلهية لا تُسبر أغوارها. وكان فيضان النيل ودورة النجوم وولادة صغار الجاموس الموسميّة هي وحدها التي تشدّ من عزيمتي.

وعندما أزفت ساعة الرحيل وجّهت وجهي نحو مكّة. وكان حجّ يفرض نفسه على حياتي. وإذ كانت نور تحذر من السفر بصحبة طفلين أحدهما في العام الأول من العمر والثاني في الرابعة فقد طلبتُ من خَضْرا مرافقتنا، الأمر الذي سرّها كثيراً مُقسِمة أنّها ما كانت لتتوقّع أجراً خيراً من إسلام الروح في البلاد المقدّسة.

والتَقَطَنا مركبٌ شراعي على الضفّة الإفريقية من النهر على مسيرة نصف يوم من الجيزة نحو الجنوب. وكان يملكه صانع طحينة غنيّ بحمل بضاعته باتّجاه مصر العالية، متوقفاً يوماً أو يومين في كل مدينةٍ على شيء من الأهمية. وهكذا زرنا على التوالي بني سويف والمنية ومنفلوط حيث انضمّ إلينا رجل. وفي الليلة نفسها جلست للكتابة على نور شمعدانٍ مستفيداً من السكون ومن نوم الطفلين فناداني الراكب الجديد قائلاً:

«هيه! أنت! اذهب وأيقظ أحد البحريين. إنّي أرى في الماء قطعة كبيرة من الخشب سوف تنفعنا غداً في صنع طعامنا!»

ولم تعجبني لكنته الإنكشارية ولا صوته الأجشّ ولا عرضه في منتصف الليل. ومع ذلك فقد أجبته من غير ما قِحَةٍ نظراً لسنّه:

«إنه منتصف الليل، ومن الخير عدم إيقاظ أحد. ولكنْ في وسعي ولا شكّ أن أعاونك أنا نفسي».

ووضعت قلمي جانباً بشيء من الأسف وخطوت بضع خطوات من الرجل. لكنّه قال لي بنزق:

«لست بحاجة إلى أحد. يمكنني عمل ذلك وحدي!»

وكان قد انحنى من فوق المركب ممسكاً بيده حبلاً حاول أن يربط به اللوح العائم عندما برز بغتة من الماء ذنب طويل فالتفّ عليه ورماه في النيل. وشرعت أصرخ منتزعاً بقسوة من النوم الركّاب والبحريين. وطُوي الشراع لوقف المركب الذي احتُفِظ به مربوطاً ساعة كاملة إلى الضفّة فيما ألقى بعض البحّارة البواسل أنفسهم في الماء. ولكن بلا جدوى. وأجمعوا كلّهم على أن تمساحاً قد افترس المنكود.

وحُكيتْ لي خلال ما تبقّى من الرحلة أعجب القصص عن هذه الحراذين الضخمة التي تُرهب مصر العليا. ويبدو أنّه في أيّام الفراعنة، ثم في أيّام الرومان، وحتّى في بداية الفتح الإسلامي كانت أضرار التماسيح قليلة. بيد أنّه في القرن الثالث الهجري جرى حدث من أعجب الأحداث: عُثر في مغارة قريبة من منفلوط على تمثال من الرصاص يمثّل أحد هذه الحيوانات بالحجم الطبيعي تغطّيه كتابات فرعونيّة. وإذ قدّر والي مصر في تلك الأيام، واسمه ابن طولون، أن التمثال وثن من الأوثان فقد أمر بإتلافه. وبين ليلة وضحاها انفلتت التماسيح تهاجم الناس بحقد زارعة الهلع والموت. وعندها فُهم أنّ التمثال كان قد رُفع تبعاً لقران بين النجوم لترويض تلك الحيوانات. ولْحُسن الحظّ أنّ البلاء لم يُصِبْ إلا مصر العَليا. فالتماسيح هبوطاً إلى القاهرة لم تكن تغتذي قطّ بلحوم البشر، وذلك ولا ريب لأنّ التمثال الذي يمنعها من أن تفعل لم يُعثر عليه قطّ.

ومررنا بعد منفلوط بأسيوط من غير أن نتوقّف فيها لأنّه أُعلن عن انتشار طاعون جديد. وكانت محطتنا التالية في المنشيّة التي زرت فيها الأمير البربري الذي يحكمها. ثم كان دور الخِيام، وهي مدينة صغيرة سكّانها جميعهم نصارى باستثناء صاحب الشرطة. وبعد يومين كنا في قِنا، وهي بلدة كبيرة يحيط بها سور من اللِبن

يتدلّى منه بأبّهة ثلاثمئة رأس من رؤوس التماسيح. ومن هناك سلكنا طريق البرّ إلى ميناء القُصَيْر على البحر الأحمر مزوّدين بقِرَب ملأى بالماء لأنّه لا يُعثر من النيل إلى الساحل على عين ماء واحدة. ولم نحتج إلى أكثر من أسبوع لبلوغ يُنْبُع ميناء بلاد العرب القفراء حيث دَنَوْنا من الشاطىء مع ظهور هلال ربيع الثاني وقد شارف موسم الحج السنوي على نهايته؛ وما هي إلا ستة أيام حتى كنّا في جُدَّة.

وفي هذا الميناء الذي بينه وبين الازدهار خصام، قليلةٌ هي الأشياء التي تستحقّ الزيارة. فمعظم البيوت أكواخ خشبية باستثناء مسجدين قديمين وبعض الفنادق. وتنبغي الإشارة أيضاً إلى قبّة متواضعة يُزْعَم أنّ أمّنا حواء قضت فيها بضع ليالٍ. وكان يحكم المدينة في تلك السنة أميرُ بحرٍ عثمانيٌّ كان قد تخلّص من الوالي القديم المخلص للمماليك برميه من مركب حربيّ في منطقة مليئة بأسماك القرش. وكان الأهالي، وهم فقراء في مجموعهم، ينتظرون من الحكم الجديد أن يبطش بالكفّار الذين كانوا يزعجون التجارة في البحر الأحمر.

ولم نمكث في جُدَّة غير يومين، أي الوقت اللازم للاتّصال بقافلة ذاهبة إلى مكّة. وفي منتصف الطريق لبست ثوب الإحرام وشفتاي تردّدان بلا انقطاع هتاف الحجّاج: «لبيّك اللهمّ، لبيّك اللهمّ». وبحثت عيناي عن مكة عند الأفق، ولكنّي لم أرَ المدينة المقدّسة إلا في نهاية نهار جديد من السفر، وعندما حاذيت أسوارها فقط. فمسقط رأس النبي صلى الله عليه وسلّم قائم في الواقع عند أسفل وادٍ تحيط به جبال تحفظه من الأنظار.

ودخلتها من باب العُمرة، وهو أكثر أبوابها الثلاثة عبوراً. وبدت لي الشوارع ضيّقة جدّاً والمنازل ملتصقاً بعضها ببعض، وإنْ تكن أحسن بناء وأشدّ غنى من منازل جُدَّة. وكانت الأسواق ملأى بالفاكهة الطازجة على الرغم من جفاف الأرض في الجوار.

وكنت كلّما تقدّمت شعرت بأنّني انتقلت إلى عالم من الأحلام: إنّ هذه المدينة المبنيّة على هذه الأراضي الجدباء يبدو أنّها لم يكن لها يوماً من مصير غير الخشوع؛ ففي وسطها الحرم الشريف بيت إبراهيم؛ وفي القلب حول الحرم الكعبة، هذا البناء المهيب الذي يودّي الطواف حوله إلى حدّ الإنهاك والذي يحمل كل ركن من

أركانه اسماً: ركن العراق وركن الشام وركن اليمن والركن الأسود، وهو أكثرها جلالاً وموجّه جهة الشرق. وفي هذا الركن يقوم الحجر الأسود. وكانوا قد علموني أنّه بلمسه إنّما ألمس يمين الخالق. ويتهالك عليه الناس في العادة بحيث يستحيل تأمّله طويلاً. غير أنّه ما إن مرّت موجات الحجّاج الكبيرة حتى تمكّنت من الاقتراب على هواي من الحجر الأسود وغمره بالقبلات والدموع.

عندما أصبح عليّ أن أُخلي المكان لنور التي كانت تتبعني على مسافة معيّنة، ذهبت أشرب تحت قبّة قريبة من الكعبة من ماء زمزم المبارك. وإذ لاحظت أن باب الكعبة قد فتح لزائر مرموق فقد أسرعت في ولوجه لإقامة صلاة. كانت الكعبة مفروشة بالمرمر الأبيض المشرب بالحمرة والزرقة، وقد علّقت على طول الجدران ستائر من الحرير الأسود.

وعدت في اليوم التالي إلى الأمكنة عينها وقمت بالمناسك نفسها في حماسة وحميّة، ثم جلست ساعات مستنداً بظهري إلى حرم المسجد غير شاعر بما حولي. ولم أكن أسعى إلى التفكير. فقد كان عقلي متفتّحاً ببساطة للتفكير في الله تفتّح وردة لندى الصباح، وكنت من الهناء والرغد بحيث غدت كلّ كلمة وكلّ حركة وكلّ نظرة بلا قيمة. وكنت أنهض آسفاً عند زوال كلّ نهار وأرجع جذلان في كل غداة.

وكثيراً ما كانت تعاودني في أثناء تأمّلي آيات من القرآن، ولا سيّما آيات سورة البقرة التي تستفيض في ذكر الكعبة. ﴿وإذ جعلنا البيت مَثابةً للناس وأمناً، واتّخِذوا من مقام إبراهيم مُصلّى﴾. وكانت شفتاي تتمتمان بكلمات الله تعالى، كما في أيام ختم القرآن من غير تلعثم ولا تحوير. ﴿قولوا آمنّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيّون من ربّهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾.

* * *

وتركت مكّة بعد شهر انقضى بأسرع ممّا تنقضي ليلة غرام. وكانت عيناي لا تزالان ممتلئتين سكينة، وكانت نور تُبعِد عني صَخَبَ الطفلين. وكنّا قد توجّهنا شمالاً لزيارة قبر رسول الله في المدينة قبل أن نبلغ تبوك فالعقبة فغزّة حيث عرض علينا تاجر من سوس أن يُقلّنا على مركبه، وهو مركب سريع راسٍ في خليج صغير

غربيّ المدينة. وكنت قد التقيت هذا الرجل خلال المرحلة الأخيرة من الرحلة، وكنّا كثيراً ما نُخيِّل جنباً إلى جنب. وكان اسمه عبّاد، وهو في مثل عمري وقامتي وحبّي للتجارة والأسفار، بيد أنّه حيثما كنت أشعر بالكرب لم يكن يُبدي غير راحة بال وطمأنينة. والحقّ أنّه كان قد قرأ قليلاً من الكتب واحتفظ بجهل مطبق لبعض الأمور التي كنت قد فقدت الجهل بها في سنّ مبكّرة جداً.

كنّا قد اصبحنا في عُرض البحر عندما سألتني نور للمرّة الأولى: «إلى أين نحن ذاهبون؟»

وكان ينبغي أن يكون الجواب بديهياً لي ولها. أفلم أكن أملك منزلاً في تونس تنتظرني فيه أمّي وابنتي الكبرى؟ ومع ذلك فقد ظللت صامتاً وعلى وجهي ابتسامة ملغّزة. وألحت جركسيّتي:

«ماذا قلت لصديقك؟

ـ سوف يجتاز مركبه البحر المتوسط بأسره قبل النزول بعد طنجة على طول الساحل الأطلنطيقي. ولسوف ننزل حيثما يحلو لنا».

وبدلاً من أن تكشف نور عن قلقها اتّخذت صوتاً مترنّماً وقالت:

«لا في مصر، ولا في الشام، ولا في قندية...»

وتابعتُ فرِحاً بهذه اللعبة:

«ولا في مملكة فاس، ولا في سوس...

ـ ولا في بورصة، ولا في القسطنطينية...

ـ ولا في الجزائر...

ـ ولا في بلاد الجركس...

ـ ولا في الأندلس...»

وانطلقنا كلانا في ضحكة طويلة مصطنَعة يرقب فيها كلّ منا من طرف عينه الآخر ليعرف أيّنا سوف يستسلم أوّلاً لشعور المنفيّ بالحنين المكتوم. وكان عليّ أن انتظر عشرة أيام أخرى قبل أن أرى دموعاً سوداء من الغبار وكبريت الرصاص تفضح مخاوف نور وهلعها..

كنّا قد توقّفنا في الإسكندرية لتجديد مؤننا، وفي اللحظة التي كنا نتأهّب فيها

للإقلاع صعد إلى متن المركب ضابط من الحامية العثمانية لإجراء تفتيش أخير، الأمر الذي لم يكن بحدّ ذاته شيئاً غير مألوف. وما كان الرجل ليفكّر بالتأكيد في غير الشكوك التي تتطلّبها وظيفته. بيد أنّ طريقته في التفرّس في الوجوه كانت تُشعر كلّ أحد بأنّه قد أذنب وأنّه فارّ وأنّه قد ضُبط.

وبغتة أفلت ابن نور من خَضْرا التي كانت تمسك به وجرى رأساً نحو العسكري وصرخت الحاضنة: «بايزيد!»

وإذ سمع العثماني هذا الاسم فقد انحنى على الطفل ورفعه بذراعيه إليه وشرع يديره متفحّصاً بإلحاح شعره ويديه وعنقه. وسأله:

«ما اسمك؟
- بَزِيد.
- ابن من؟»

وهتفتُ في نفسي قائلاً: «لقد قلت لك ذلك كثيراً أيّتها المنكودة!» فلقد كنت قد فاجأت نوراً مرّتين وهي تعلّم ابنها أنّه بايزيد بن علاء الدين العثماني، ولمتها لوماً شديداً وأنا أشرح لها أنّه من الممكن في عمره أن يفضح نفسه. ومن غير أن تخطّئني ردّت بأنّه ينبغي أن يعرف الطفل هويّته ويتهيّأ لتحمّل مصيره، وأنّها تخشى أن تموت يوماً من غير أن تكون قد أخبرته بسرّه. وفي هذه اللحظة كانت ترتعد وتتصبّب عرقاً، وأنا كذلك.

وأجاب بايزيد: «ابن علاء الدين».

ومدّ في الوقت نفسه اصبعاً متردّداً نحو المكان الذي كنت جالساً فيه. ووقفت لدى إشارته وتقدّمت من الضابط وعلى شفتيّ ابتسامة عريضة ويدي ممدودة وقلت:

«اسمي علاء الدين حسن بن الوزّان، تاجر من فاس ومولدي في غرناطة أعادها الله إلينا بسيف العثمانيين!»

وارتمى بايزيد عليّ وقد عراه الخجل، وخبّأ رأسه في كتفي. وتركه الضابط قائلاً لي:

«طفل جميل! إنّ اسمه اسم ولدي البِكر! لم أره منذ سبعة أشهر»

وارتجف شارباه. ولم يكن في نظرته ما يُرعب. واستدار وسلك العبّارة وهو يشير إلى عبّاد بأنّ في وسعه الإقلاع.

وما إن أصبحنا على بُعد نصف ميل من الرصيف حتى دخلت نور قمرتنا وذرفت جميع الدموع التي كانت قد حبستها حتّى ذلك الحين.

* * *

وبعد شهر من هذا عرفت نور ذُعرها الثاني، وكان ذلك في جَرْبة. بيد أنّني لم أرها تبكي في هذه المرة.

كنّا قد توقّفنا لقضاء الليل، وغادرتُ مسروراً الألواح المترجّحة لأسير بعض الوقت مع عبّاد فوق اليابسة. ثم إنّي كنت متشوّقاً إلى التعرّف قليلاً على هذه الجزيرة التي كثيراً ما أشادوا لي برغد العيش فيها. فقد ملكها طويلاً ملوك تونس، لكنّ أهلها قرّروا في نهاية القرن أن يستقلّوا بها وأن يدمّروا الجسر الذي كان يربطهم بالقارّة. وكان لديهم ما يقوم بأَوَدِهم بتصدير الزيت والصوف والزبيب، ولكنْ سرعان ما اندلعت حرب أهلية بين مختلف العشائر وأدمت الجزيرة عمليات القتل المتتابعة. وفُقدتْ شيئاً فشيئاً كلُّ سلطة.

غير أنّ ذلك لم يمنع عبّاداً من التوقّف فيها أكثر ما أمكن من المرّات. وقد قال ملاحظاً: «سريعاً ما تتزاوج الفوضى والفرح بالعيش!».

وكان يعرف حانة للبّحارة لطيفة جدّاً. «يقدّمون فيها أَلْحَمَ ما في الساحل من سمك وأجودَ الخمور».

ولم يكن في نيّتي قطّ أنْ أُطْعَم، وكانت رغبتي في السُكر بعد الرجوع من الحجّ أقلّ من ذلك أيضاً. ولكنّ حُفيلة كانت تفرض نفسها بعد أسابيع طويلة من ركوب البحر.

وما كدنا ندخل ونبحث بأعيننا عن ركن نحتلّه في إحدى الموائد حتّى أجفلتُ لنهاية عبارة. وأصخت السمع. فقد كان بحّار يحكي أنّه رأى رأس عروج ذي اللحية الحمراء مقطوعاً ومعروضاً في ميدانٍ بوهران، وأنّ القشتاليين هم الذي قتلوه وأخذوا يتنقّلون بغنيمتهم الجنائزية من ميناء إلى ميناء.

وبعد أن جلسنا شرعت أقصّ على عبّاد ذكرياتي عن القرصان، والزيارة التي قمت بها إلى معسكره، والسفارة التي تولّيتها باسمه إلى القسطنطينية. وبغتة أشار إليّ رفيقي بأن أخفض صوتي. وهمس لي قائلاً:

«خلفك بحّاران صقلّيان، شاب وعجوز، يُصغيان إليك بأكثر ممّا ينبغي من الاهتمام».

واستدرت بشكل خاطف. ولم تكن هيئة جارينا لتُطَمْئِن على الإطلاق. وعندها غيّرنا مجرى الحديث. ونعمنا بالاً ونحن نراهما يذهبان.

وما هي إلا ساعة حتى خرجنا بدورنا مرِحين شبعانين سعيدين بالمشي على طول الشاطىء فوق الرمل المبلول وتحت قمر متألّق.

وما كدنا نجتاز ببضعة من أكواخ الصيادين حتى رأينا فجأة ظلالاً تمتدّ أمامنا. وفي لحظة كان يحيط بنا زهاء عشرة رجال مدجّجين بالسيوف والخناجر عرفت منهم بيسر جارينا على المائدة. وبصق أحدهما بعض عبارات التعجّب بعربية رديئة؛ وفهمت مع ذلك أنّه كان ينبغي عدم الكلام أو الحراك إذا كنّا لا نريد أن نُطعن. وفي اللحظة التالية كنا طريحين على الأرض.

وآخر صورة ما زلت احتفظ بها صورة قبضة انهالت أمام ناظري على نحر عبّاد. ثم غبت في ليل طويل مضطرب خانق مُغْرِق.

أكان بوسعي أن أخمّن أنّ أغرب رحلاتي كانت قد بدأت على هذا النحو؟

كتاب رومة

لم أكن الأرض ولا البحر ولا السماء ولا نهاية الرحلة. وكان لساني شديدَ المرارة، ورأسي حافلاً بالغثيان والضباب والآلام. وكانت تتصاعد من قعر القبو الذي رميت فيه رائحة الجرذان الميتة وألواح التبطين العفِنة وأجساد الأسرى الذين عَمَروه قبلي.

وهكذا كنتُ عبداً يا بنيّ، وقد سرى العار في دمي. فأنا الذي وطئتْ أقدامُ أجداده أرض أوروبا فاتحين سوف أباع إلى أمير من الأمراء، إلى تاجر ثريّ من تجّار پالرمو أو ناپولي أو راغوسة، أو ـ وذاك أشنع ـ إلى واحد من قشتالة يجرّعني في كلّ لحظة جميع هوان غرناطة.

وبقربي كان عبّاد السوسي مُقيّداً بمثل قيودي وفي قدميه مثل ما في قدميّ من أثقال، وكان ملقى على الغبار شأنه شأن أحقر الخدم. وتأمّلتُه، لقد كان مرآة انحطاطي أنا. فبالأمس كان لا يزال يرعد مزهوّاً على متن مركبه السريع موزّعاً الضحكات والركلات، ولم يكن البحر بأسره فسيحاً بالقدر الذي يكفيه، ولا اصطخاب الموج جامحاً بالقدر الذي يُرضيه.

وزفرت بصوت مسموع فردّ رفيق بؤسي الذي كنت أظنّه نائماً، من غير حتّى أن يفتح عينيه وقال: «الحمدلله. الحمدلله! لِنَحْمَدِ الله على جميع نِعَمه!»

لم يكن الوقت في نظري وقت تجديف قطّ. وعليه فقد اكتفيت بالقول:

«لِنَحْمَدْه في كل حين. ولكنْ علامَ تريد أن تحمده في هذه اللحظة بالذات؟

ـ على أنه أعفاني من التجذيف كهؤلاء المنكودين المحكوم عليهم بالتجذيف وأَسْمَعُ زفيرهم المتحب. وأحمده كذلك على أنّه تركني أحيا، وقدّر لي صحبة طيّبة. أليست تلك ثلاثة أسباب واضحة للقول: «الحمدلله!».

واعتدل جالساً وقال:

«لا أطلب قطّ من الله أن تجنّبني المصـائب؛ أطلب إليه فقط أن يجنّبني القنوط. اطْمئِنّ، فعندما يتخلّى الله عنك بيد يمسكك بالأخرى».

كان عبّاد يقول الحقّ يا بنيّ، بل كان يقول أصدق ممّا كان يعتقد، أفلم أكن قد تركت في مكّة يمين الله؟ ولسوف أعيش في رومة في قبضة يسراه!

عام القدّيس أنجلو

٩٢٥ هـ (٣ كانون الثاني «يناير» ١٥١٩ م - ٢٢ كانون الأول «ديسمبر» ١٥١٩ م)

كان لخاطفي شهرة وتخوّفات ورعة. فالقرصان الصقلّي الجليل «بيترو بوڤاديليا» الذي أصبح في الستين من عمره، وكان قد ارتكب القتل عدّة مرات ويخشى أن تفيض روحه وهو يسلب وينهب، شعر بالحاجة إلى إصلاح جرائمه بتقديم قربان إلى الله. أو بالحري تقديم هديّة إلى ممثّله على هذا الشاطىء من البحر المتوسط، ليون العاشر حَبْر رومة الأعظم وأمير النصارى.

وكانت الهديّة إلى البابا أنا نفسي، وقد قُدِّمتُ باحتفال يوم الأحد ١٤ شباط (فبراير) بمناسبة عيد القديس «ڤالنتينو». وكنتُ قد أُخطِرتُ بالأمر في العشيّة فبقيتُ إلى الفجر مستنداً بظهري إلى جدار زنزانتي لا أجد إلى النوم سبيلاً وأصيخ إلى أصوات المدينة العاديّة، ضحكة حارس، أو سقوط شيء في نهر التيبر، أو صرخات وليد متقطّعة في هدأة الظلام. وكنت أعاني الأرق في كثير من الأحيان منذ وصولي إلى رومة، وانتهى بي الأمر إلى تخمين ما كان يجعل الساعات مضنية إلى هذا الحدّ: كان ذلك أشدّ من غياب الحريّة، وأشدّ من غياب المرأة، كان غياب المؤذّن. فلم يسبق لي قطّ أن عشت هكذا، أسبوعاً تلو أسبوع، في مدينة لا يرتفع فيها النداء داعياً إلى الصلاة محدّداً الزمان مالئاً الفضاء مُطَمْئِناً الناس والجدران.

كان قد مرّ شهر على حبسي في القصر. وبعد الرحلة الشاقّة ووقفات لا تُحصى أُنزلت من غير عبّاد على أحد أرصفة ناپولي أكثر المدن الإيطالية ازدحاماً. ثم اقتادوني وحيداً إلى رومة بطريق البرّ. ولم يقدّر لي أن أرى رفيقي كرّة أخرى إلا بعد ثلاث سنوات في ظروف عجيبة.

وكنت لا أزال مُوثَقاً، لكنّ «بوڤاديليا» رأى، ويا لدهشتي الكبيرة، أنّ من المناسب أن يعتذر عن ذلك بقوله:

«إننا في أرض إسبانية. ولو رأى الجنود عربيّاً غير مقيّد فإنّهم سوف ينقضّون عليه».

وجعلتني نبرة الاحترام آمل في أن أعامل بعد اليوم معاملة أقلّ قسوة. وهو شعور تأكدّ منذ وصولي إلى قصر القدّيس أنجلو، وهو قلعة أسطوانية ضخمة أوصلوني إليها عبر درج حلزوني. وأُجْلسْتُ في حجرة صغيرة مؤثّثة بسرير وكرسي وصندوق خشبيّ، وكأنّ القضية قضية فندق متواضع لا قضية سجن، إذا استثنينا الباب الثقيل المحكم الإزلاج من الخارج.

وبعد عشرة أيام استقبلتُ زائراً. وإذ رأيت الإجلال الذي أبداه الحرس عند استقباله فقد أدركت أنّه أحد المقرّبين من البابا. وحيّاني باحترام وقدّم نفسه. وكان فلورنسياً اسمه السيّد «فرانشسكو غويتشارديني»، حاكم «مودين» وسفير في خدمة قداسته. وصرّحت بدوري باسمي وألقابي ونشاطاتي البارزة من غير أن أُغفِل أيّة سفارة، مهما كانت معرَّضة للخطر، من تومبكتو إلى القسطنطينية. وبدا مسروراً لذلك. وتحدّثنا باللغة القشتالية التي كنت أفهمها إلى حدٍّ ما وإنْ كنت أعبّر بها بصعوبة. واقتضاني الأمر أن اتحدّث على مهل، وإذ كنت أبدي بأدب أسفي لعدم اللياقة الناجمة عن جهلي فقد أجاب بكثير من المجاملة:

«أنا نفسي أجهل العربيّة، مع أنها محكيّةٌ حول البحر المتوسّط. وعليّ كذلك أن اقدّم لك الأعذار».

وإذ شجّعني موقفه فقد تلفّظت على خير ما أمكنني ببعض الكلمات الطليانية العامية، أي التوسكانية، ضحكنا لها معاً. ووعدته بعد ذلك بلهجة تحدٍّ وديّ قائلاً:

«سوف اتحدّث لغتك قبل نهاية العام. ولن أجيدها كما تجيدها، ولكنْ بما يكفي لإفهام مرادي».

وسجّل ذلك بهزّة من رأسه، في حين تابعت قائلاً:

«وهناك مع ذلك عادات يلزمني وقت لاكتسابها. ولا سيّما تلك الخاصّة بتوجّه الأوروبيين إلى مخاطبهم بقولهم «أنتم» وكأنّه عدّة أشخاص، أو «هي» وكأنه امرأة غائبة. ففي العربيّة يقول المرء «أنتَ» لكل الناس، أمراء كانوا أو خدماً».

وتوقّف السفير عن الكلام، ولم يكن الدافع إلى توقّفه على ما بدا لي هو التفكير بقدر ما كان إحاطة الكلمات التي سيتلفّظ بها بهالة من الفخامة. وكان يجلس على الكرسي الوحيد في الغرفة معتمراً قلنسوة حمراء على قدّ رأسه كانت تضفي عليه هيئة متآمر. وكنت جالساً فوق الصندوق على قيد خطوة منه. وانحنى موجّهاً إليّ أنفاً مخاتلاً وقال:

«يا سيّد حَسَن، إنّ قدومك إلى هنا مهمّ، مهمّ للغاية. وليس في وسعي أن أقول لك أكثر من هذا لأنّ السرّ يعود إلى الأب الأقدس، وهو وحده يستطيع كشفه عندما يرى الأمر مناسباً. ولكنْ لا تظنّ أنّ حكايتك مردّها إلى الصدفة الخالصة، أو إلى نزوة قرصان».

واستدرك قائلاً:

«لا أريد أن أقول إنّ «بوڤاديليا» الطيّب هذا قد جاب البحار بحثاً عنك. لا، على الإطلاق. بيد أنّه كان يعرف أيّ نوع من العرب عليه أن يقدّم للأب الأقدس: رحّالة مستنير. ولقد عثر فوق ذلك على سفير. وما كنّا لنرجو كلّ هذا».

هل كان عليّ أن أفخر بأنّي صيد بهذا القدر من الجودة؟ وعلى كل حالٍ فإنّي لم أُبْدِ فرحاً ولا امتعاضاً. فقد كنت على الأخصّ متحيّراً ومصمّماً على أن أعرف المزيد. غير أنّ «غويتشارديني» كان قد نهض.

وما إن خرج حتّى أقبل ضابط من الحرس على زنزانتي يسألني إذا كنت في حاجة إلى شيء. وطالبت بشجاعة بملابس نظيفة ومنضدة صغيرة ومصباح وأدوات للكتابة، وقد حصلت عليها جميعاً في اليوم نفسه. وفي المساء كان الغذاء المألوف قد تبدّل، فعوضاً عن الفول والعدس قُدِّم إليّ لحم ولازانيا ونبيذ أحمر مصنوع في

«تربياتو» شربت منه دونما إفراط.

* * *

لم يبطىء الفلورانسي في أن يوصل إليّ الخبر الذي كنت أرجوه: سوف يستقبلني البابا من يديْ «بيترو بوڤاديليا».

وفي يوم القدّيس «ڤالنتينو» حضر القرصان والسفير معاً إلى زنزانتي. وكان البابا ينتظرنا في القصر بالذات، في المكتبة. وارتمى «بوڤاديليا» على قدميه بحميّة فأعانه «غويتشارديني» على النهوض، مكتفياً هو بتقبيل يد البابا بإجلال وإن بشكل مختصر. واقتربت بدوري. وكان البابا ساكناً فوق أريكته ووجهه أمرد مستدير ومعجِب، وذقنه تحفره غمّازة، وشفتاه مُلحمتان، ولا سيّما السفلى، وعيناه مُطَمْئِنتان ومتسائلتان في آن معاً، وأصابعه ملساء مثل أصابع من لم يسبق له قطّ أن عمل بيديه. وقد وقف خلفه كاهن اتضّح أنه ترجمان.

ووضع البابا يديه على ظهري المنحني، علامة على الحنان أو الامتلاك، لست أدري، قبل أن يخاطب القرصان ببعض كلمات الشكر. وكنت لا ازال جاثياً وقد ابقاني مولاي الجديد على هذه الحال عمداً، ولم يسمح لي بالنهوض إلا عندما جرّ الفلورنسيُّ خاطفي إلى الخارج. وكانت المقابلة فيما يخصّهما قد انتهت، وفيما يخصّني كانت قد بدأت للتوّ. ونقل إليّ الترجمان بعربيّة يشوبها كثير من التراكيب القشتالية ما يلي:

«إنّ رجلاً يملك الفنّ والمعرفة هو دائماً على الرحب والسعة عندنا، لا بوصفه خادماً بل بوصفه مُحْمّياً. والحقّ أنّ قدومك إلى هذا المنزل قد تمّ خلافاً لإرادتك وبوسائل لا يمكننا أن نُقِرّها. بيد أنّ العالم مخلوق هكذا بحيث كثيراً ما تكون الرذيلة ساعِدَ الفضيلة، وكثيراً ما تتمّ أجلّ الأعمال لأسوأ الأسباب، وأسوأ الأعمال لأجلّ الأسباب. وعلى هذا لجأ سلفنا البابا يوليوس إلى الفتح لتزويد كنيستنا المقدّسة بملكيّة تشعر فيها بأنّها في أمان...»

وتوقّف وقد أدرك أنّه سوف يُحيل على جدل كنت أجهل أوّل كلمة فيه. واستغللت الفرصة مُجازِفاً بإبداء رأيٍ خجول فقلت:

«ليس في هـذا ما يشين في رأيي. فخلفاء النبيّ طـالما قـادوا جيـوشـاً وأداروا دُوَلاً.»

واستمع إلى ترجمة ما قلت بعناية غير متوقَّعة، وبادر إلى سؤالي:

«هل كان الأمر يجري هكذا على الدوام؟

ـ إلى الوقت الذي حلّ فيه محلّهم السلاطين. وعندها فُرِض على الخلفاء أن لا يتعدَّوْا حدود قصورهم.

ـ وهل هذا حَسَن؟».

وبدا أنّ البابا علّق أهمية كبرى على رأيي. وفكّرت مليّاً قبل أن أقول:

«لا أظنّ أنّ ذلك كان خيراً. فطالما كان الخلفاء هم الحكّام كـانت دار الإسلام تتألّق ثقافـة. وكان الـدين يتحكّم بوداعـة في أمور هـذه الدنيـا. ومذّاك أصبحت القوّة هي الحاكمة، ولم يَعُدِ الدين في معظم الأحيان غير سيف في يد السلطان».

وكان مخاطبي راضياً إلى حدٍّ أنّه أشهد ترجماني على ما قلت، وقال بدوره:

«لقد كنت أفكّر على الدوام بأن سلفي المجيد كان على حقّ. فالبابا كان سيظلّ من غير جيش خاصّ به مُجَرَّدَ كـاهنٍ عند الملك الـذي هو الأقـوى. والمرء مضـطر أحياناً إلى استخدام أسلحة خصومه نفسها. والتلوّث بما يلوّثهم».

وأشار بسبّابته إليّ وقال:

«إنّ ما تقولـه يعزّينـا. لقد كـانت يد «بـوفاديليـا» مباركـة. فهل أنت مستعـدّ لخدمتنا؟».

وغمغمت عبـارة تدلّ عـلى الموافقـة. وسجّل ذلـك راسماً عـلى شفتيـه تكشـيرة ساخرة وقال:

«فلنخضع لأحكام العناية الإلّهية!»

ثم أضاف بكلام متسارع شقّ على الترجمان متابعته:

«لقد قال لك مستشارنا السيد «غويتشارديني» بضع كلمات عن أهمية ما نتوقّعه منك. ولسوف نعود إلى محادثتك به عندما يحين وقته. اعلم فقط أنّك وصلت إلى هذه المدينة المقدّسة في أحلك ساعات تاريخها. فرومة مهدّدة بالدمار. وستشعر غداً عندما تجوب هذه المدينة بأنّها تتنامى وتَحْلَوْلي كما تنمو على غصن شجرة عتيقة جليلة، لكنّها يابسة، بضعة براعم وبضع أوراق خضراء وبضع أزهار متألّقة بالنور. ففي كلّ مكان يُنْتِجُ أفضلُ الرسّامين، وأفضلُ النحّاتين، وكتّابٌ وموسيقيّون وحِرَفيّون في كنفنا أجمل الروائع. وها قد بدأ الربيع للتوّ، ولكنّ الشتاء يقترب. وقد بدأ الموت يتربّص. إنّه يتربّص بنا من كلّ صوب. فمن أيّ جهة سوف يُصيبنا؟ وبأيّ سيف سوف يضربنا؟ الله وحده يعلم، إلا إذا شاء أن يُبعِد عن شفاهنا كأساً بمثل هذه المرارة».

وقلت تلقائياً: «الله أكبر!».

وأمّن البابا وقد انفرجت أسارير وجهه بغتة:

«وقانا الله من جميع السلاطين!»

لم تذهب المقابلة في هذا اليوم إلى أبعد من ذلك. ولقد وعد ليون العاشر باستدعائي من جديد. وإذ بلغتُ زنزانتي فقد اكتشفتُ أنّ تعليمات جديدة قد أُعطيتْ بشأني: لا يُزلج بابي قبل هبوط الليل، وأستطيع أن أجول في حرم القصر على هواي.

وعندما قابلت البابا بعد أسبوع كان قد حضّر لي برنامجاً حافلاً: سوف أُقْسِمُ وقتي بعد اليوم بين الدراسة والتعليم. فلسوف يعلّمني كاهن اللاتينية، وآخر التعليم المسيحي، وثالث الإنجيل واللغة العبرية؛ وسوف يتولّى كاهن أرمني إعطائي في كل صباح درساً في اللغة التركية. وكان عليّ أن أُعَلِّم بدوري سبعة طلاب اللغة العربية. وسأتقاضي عن هذا العمل أجراً مقداره «دوكا» ذهبية في الشهر. ومن غير أن أكون قد عبّرت عن أدنى احتجاج اعترف وليّ نعمتي ضاحكاً أنّ الأمر كان صيغة ملطّفة عن الأشغال الشاقّة، مُضيفاً مع ذلك أنّ هذا البرنامج

يُعَبِّر عن حماسته حيالي. وشكرتُه ووعدته ببذل ما في وسعي كيلا أقصّر في استحقاق فضله.

وكان أن أخذ يستدعيني مذّاك كلّ شهر، وحيداً أو مع معلّميّ للتّحقّق من معلوماتي، ولا سيّما في التعليم المسيحي. والحقّ أنّ موعد تعميدي والاسم الذي سوف أحمله كانا قد تحدّدا في ذهنه.

* * *

كان عام أسري إذن بلا مشقّة على جسدي ونافعاً جدّاً لعقلي. وأخذت أشعر يوماً بعد يوم باتّساع معارفي، لا في الموادّ التي أَدْرُسُها فحسب، وإنّما بفضل احتكاكي أيضاً بأساتذتي وطلّابي، وكان اثنان منهم اراغونيّين، واثنان فرنسيين، واثنان من البندقيّة، وواحد ألمانياً من الساكس. وكان هذا أوّل من ذكر أمامي الخصام المتفاقم الذي كان بين ليون العاشر والراهب لوثر، وهو حدث كان قد بدأ يهدّد بإغراق أوروبا بأسرها بالنار والدم، ولسوف يجرّ على رومة أبشع الكوارث.

عام الهراطقة

٩٢٦ هـ (٢٣ كانون الأول «ديسمبر» ١٥١٩ م - ١٢ كانون الأول «ديسمبر» ١٥٢٠ م)

ما نفع البابا؟ وما نفع الكرادلة؟ وأيّ إله يُعبد في مدينة رومة هذه المنصرفة إلى بذخها ولذّاتها؟

تلك كانت كلمات تلميذي الألماني هانز، واسمه في الدين الأخ أوغسطين، الذي كان يلحق بي إلى الردهة المؤدية إلى حجرة ليون العاشر ليكْسِبَني إلى عقيدة الراهب لوثر، في حين كنت أتوسّل إليه أن يصمت إذا لم يكن يريد أن يقضي فوق محرقة.

وكان هانز الأشقر النحيل العنيد يُخْرِج من جعبته بعد كل درس مقالة نقدية أو كتيّباً فيتجشّم ترجمتها والتعليق عليها مُلْحِفاً عليّ بلا هوادة لمعرفة رأيي فيهما. وكان جوابي هو إيّاه على الدوام:

«مهما يكن شعوري فليس في استطاعتي خيانة من يحميني».

وكان هانز يبدو أسِفاً، بيد أنّه لم يكن قطّ ليُسْقَط في يده، وكان يعود إلى ما هو فيه منذ الدرس التالي.

وذلك لأنّه أدرك أنّي كنت لا أمتعض من الإصغاء إلى أحاديثه. وكان بعضها على الأقلّ يعيد إلى ذاكرتي أحياناً بعض أحاديث النبيّ صلى الله عليه وسلّم! ألم يكن لوثر يوصي برفع جميع التماثيل من أمكنة العبادة معتبراً أنها أشياء وثنيّة؟ وقد قال رسول الله في الصحيح: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة». ألا يؤكّد لوثر أنّ العالم المسيحي هو جماعة المؤمنين وأنّه ينبغي ألا يخضع لتراتُب كنيسة؟ ألا يؤكّد أنّ الكتاب المقدّس هو وحده أساس الدين؟ ألا يهزأ بعدم زواج

الكهنة؟ ألا يُعلَم أنّه ليس في مقدور إنسان أن يفرّ ممّا قدّره له خالقه؟ إنّ النبي لم يقل غير ذلك للمسلمين.

وعلى الرغم من هذه التوافقات فإنّه كان يستحيل عليّ أن أتّبع في ذلك نَزَعات فكري. فقد كانت مبارزة ضارية قد نشبت بين لوثر وليون العاشر، ولم يكن في مقدوري أن أوافق مجهولاً على حساب الرجل الذي أخذني إلى كنفه وكان يعاملني مذّاك وكأنّه قد أنجبني.

ولم أكن بالطبع الوحيد الذي كان البابا يقول له «ابني»، لكنّه كان يقولها لي بشكل مختلف. وكان قد أعطاني اسميْه، يوحنّا وليون، واسم عائلته المهيبة، آل مدتشي، كلّ ذلك بفخامة وأبّهة في السادس من كانون الثاني (يناير) عام ١٥٢٠ م، وكان اليوم يوم جمعة في كاتدرائية القديس بطرس الجديدة التي لم يكن بناؤها قد اكتمل. وكانت هذه تغصّ بالكرادلة والمطارنة والسفراء وعدد من مَحْمِيّي ليون العاشر من الشعراء والرسّامين والنحّاتين متألّقين في الديباج واللآلىء والأحجار الكريمة. حتى رافايلّو الأوروبيني، رفايلّو السماوي كما كان يلقّبه المعجبون بفنّه، كان هناك من غير أن يبدو قطّ مُوهَناً بفعل المرض الذي سوف يقضي عليه بعد ذلك بثلاثة أشهر.

كان البابا مزدهياً تحت تاجه وهو يقول:

«في عيد الغِطاس هذا الذي نحتفل فيه بعمادة المسيح بيديْ يوحنا المعمدان، رنحتفل أيضاً، بحسب السنّة المتبعة، بالمجوس الثلاثة الذين أتوا من بلاد العرب لعبادة ربّنا، أيّة سعادة تفوق سعادة استقبالنا في حضن كنيستنا المقدّسة مرزُباناً جديداً قادماً من أطراف بلاد البربر لتقديم قربانه في بيت بطرس!»

وإذ كنت جاثياً قبالة المذبح مرتدياً عباءة طويلة من الصوف الأبيض فقد أذهلتني رائحة البخور وسحقني كلّ هذا التشريف الذي لا استحقّه. فجميع الأشخاص المحتشدين في هذا المكان ما كانوا ليجهلوا أنّ هذا «المرزبان» كان قد أُسر ذات ليلة صيفية على يد قرصان على شاطىء «جربة» واقتيد عبداً إلى رومة. وكان كلّ ما يقال بحقّي وما يحدث لي عجيباً جدّاً ومُفرِطاً جدّاً ومضحكاً جدّاً! ألم

أكن ضحية حلم مزعج، أو ضحية سراب؟ ألم أكن كما في كل جُمُعة في مسجد من مساجد فاس أو القاهرة أو تومبكتو وأفكاري مبلبلة من جرّاء سهر ليل طويل؟ وبغتة ارتفع من قلب شكّي صوت الحَبْر يخاطبني من جديد قائلاً:

«وأنت يا ابننا الحبيب، أنت يا يوحنّا ـ ليون الذي أشارت به العناية الإلٓهية من بين جميع الناس. . .»

يوحنّا ـ ليون يوهانّس ليو! لم يسبق يوماً أن دُعي شخص من أُسرتي على هذا النحو! وظللت طويلاً بعد انتهاء الاحتفال أقلّب وأقلّب الحروف والمقاطع في رأسي وفي فمي، باللاتينية تارة والإيطالية طوراً. ليو، ليوني. ما أعجب عادة البشر في التسمّي هكذا بأسماء الضواري التي تُرهِبهم، ونادراً بأسماء الحيوانات المُخْلِصة لهم. فالمرء يرغب جيّداً في أن يُسمّى ذئباً، وأمّا أن يُسمّى كلباً فلا. فهل يأتي عليّ يوم أنسى فيه «حسناً» وأنظر إلى المرآة وأنا أقول لنفسي: «عيناك غائرتان يا ليون»؟ ولكي أُروِّض اسمي الجديد لم ألبث أن عرّبته فغدا يوهانس ليو «يوحنّا الأسد». وذلك هو التوقيع الممكن رؤيته في ختام الأعمال التي كتبتها في رومة وبولونية. غير أن المتردّدين على البلاط البابوي الذين أدهشهم أن يولد متأخّراً واحد من آل مدتشي أسمر جَعْد الشعر لم يلبثوا أن أضافوا إلى اسمي لقب «الإفريقي» لتمييزي من أبي المقدّس بالتبنّي. وربّما ليتجنبوا أيضاً تسميتي بالكردينال مثل سائر أبناء عمّه، وبعضهم منذ بلوغهم الرابعة عشرة.

واستدعاني البابا مساء يوم التعميد. وبدأ بأن أعلن أنّي أصبحت بعد اليوم حرّاً، بيد أنّ في وسعي الاستمرار بالعيش في القصر إلى أن أجد مسكناً في الخارج، وأضاف أنّه يُصِرّ عل أن أتابع دروسي وتدريسي بالمواظبة عينها. ثم تناول من على منضدة كتاباً منمنماً وضعه في راحة يدي المبسوطة وكأنّه قربان. وإذ فتحته فقد وجدته مكتوباً بالعربية.

«اقرأ بصوت مرتفع يا بنيّ!»

ونفّذت الأمر وأنا أقلّب الصفحات بحيطة وحذر كبيرين:

«كتاب دُعاء الأيام.. انجز في ١٢ أيلول «سبتمبر» ١٥١٤ م... في مدينة فانو في كنف قداسة البابا ليون...»

وقاطعني حامِيَّ بصوت مرتجف غير واثق بقوله:

«هذا أوّل كتاب باللغة العربية خرج من مطبعة. وعندما ترجع إلى أهلك أحمله معك بعناية فائقة».

ورأيت في عينيه أنّه يعلم أنّني سأرحل ذات يوم. وبدا من التأثّر بحيث لم أتمكن من منع دموعي أن تسيل. ونهض. وانحنيت لتقبيل يده، فضمّني إليه بقوة ضمّة أب حقيقي. واللهِ لقد أحببته منذ تلك اللحظة على الرغم من الاحتفال الذي فرضه عليّ قبل قليل. فَلَأَنْ تهتزّ مشاعر رجل بهذا النفوذ، وبهذا الإجلال من نصارى أوروبا والبلاد التي خارجها، لرؤية كتاب صغير بالعربية وقد خرج من مُحْتَرَف طبّاع يهودي، فذاك ما بدا لي جديراً بخلفاء ما قبل عصور الانحطاط، كالمأمون بن هارون الرشيد تغمّدهما الله برحمته!

وعندما خرجت غداة هذه المقابلة حرّاً طليق اليدين للمرّة الأولى من نطاق سجني ومشيت على جسر القديس أنجلو باتّجاه حي «الجسر»، لم أكن أحتفظ من أسْري بأيّة مرارة ولا بأيّ غلّ. فما هي إلا بضعة أسابيع من القيود الثقيلة، وبضعة أشهر من العبودية الناعمة، حتى عدت رحّالة، مخلوقاً مهاجراً، كما في جميع البلدان التي أقمت فيها وحصلت زمناً على اللذات والأمجاد. فكم من شارع وكم من نُصُب وكم من رجل ومن امرأة كنت متعطشاً لأن اكتشف أنا الذي لم يكن قد عرف من رومة خلال عام غير طيف قصر القديس أنجلو الأسطوانيّ والرواق الذي يربطه بالڤاتيكان ولا يكاد ينتهي!

***

لقد أخطأت ولا ريب في أن أصحب في زيارتي الأولى هانز الذي لا يوصف. وتوجّهت أوّل ما توجّهت إلى شارع المصارف القديمة قبل أن أدخل على اليسار شارع «پلّيغرينو» الشهير لأتأمل فيه واجهات الصاغة ومعروضات باعة الحرير. وكان من الممكن أن أبقى فيه ساعات لولا نفاد صبر صاحبي الألمانيّ. فقد انتهى

به الأمر إلى أن شدّني من ردني شأن طفلٍ متضوّر من الجوع. واحتملت عنفه، بل ذهبت إلى حدّ الاعتذار عن طيشي وخفّتي. ألم يكن بجوارنا كثير من الكنائس والقصور والأنصاب التي تستحق التفرّج؟ أم أنه قد يكون أراد أن يقودني إلى ساحة «ناڤونا» القريبة حيث يقال إنّ الألعاب لم تكن لتنقطع في جميع الفصول، وعلى الأقل ألعاب الحواة والمشعوذين؟

ما كان هانز يفكّر في كلّ ذلك. فقد جرّني عبر أزقّة ضيّقة لم يكن بالإمكان المرور فيها من غير القفز فوق أكوام النفايات. ثم إنّه توقّف في أحلك الأمكنة وأكرهها روائح. وكان قد أحاط بنا متسكّعون قذرون شديدو الهُزال. ونادتني امرأة من إحدى النوافذ لملاقاتها لقاء بعض «الرُبْعيّات». وشعرت بأنّي على أسوأ حال، غير أن هانز لم يتحرّك. وإذ نظرت إليه شزراً فقد ظنّ أنّ من المناسب أن يوضح لي الأمر فقال:

«أردت أن يبقى ماثلاً لعينيك على الدوام مشهد البؤس هذا عندما ترى كيف يعيش أمراء الكنيسة، جميع أولئك الكرادلة الذين يملك كلّ منهم ثلاثة قصور يتنافسون فيها جاهاً ومجوناً ويقيمون وليمة إثر وليمة من اثني عشر طبقاً من السمك، وثمانية أطباق من السَلَطَة، وخمسة أنواع من الحلوى. والبابا نفسه؟ أرأيته يعرض أمام الناس بفخر الفيل الذي أهداه إيّاه ملك البرتغال؟ أرأيته ينثر قطع الذهب على مهرّجيه؟ أرأيته يصيد في أرضه الشاسعة في «ماليانا» منتعلاً حذاءين طويلين من الجلد، مخيِّلاً وراء دبّ أو خنزير برّي وحوله ثمانية وستون كلباً؟ أرأيت صقوره وبُزاته المجلوبة بأغلى الأثمان من قندية وأرمينية؟

كنت أدرك انفعاله وتأثّره بيد أنّ وسيلته كانت تُخْنِقني، فقلت:

«أرِني بدلاً من ذلك أنصاب رومة القديمة التي تحدّث عنها شيشرون وتيت ـ ليڤ!»

وبدا على صديقي الشاب أنّه فاز. ومن غير أن يقول شيئاً عاد يسير بخطى ثابتة وجدت معها عناء في اللحاق به. وعندما قرّر أن يتوقّف للاستراحة بعد

نصف ساعة كنّا قد خلّفنا بعيداً آخر الشوارع المأهولة. كنّا في وسط أرض مشاع فسيحة.

«هنا كان ميدان رومة القديمة تحيط به أحياء مكتظّة بالسكان؛ ويُدعى اليوم حقل البقر! وهل ترى أمامنا جبل «پالاتان»، وهناك إلى الشرق جبل «أسكويلان» خلف «الكوليزيه»؟ لقد أُخْلِيتْ كلّها منذ قرون! ولم تعُد رومة سوى بلدة كبير قائمة على خُطّة مدينة مهيبة. هل تعرف ما عدد سكّانها اليوم؟ ثمانية آلاف أسرة، تسعة آلاف على الأكثر».

كان ذلك العدد أقلّ ممّا في فاس أو تونس أو تلمسان.

وبعودتنا إلى التصر لاحظت أنّ الشمس كانت لا تزال مرتفعة في السماء، وعليه فقد ظننت من الخير أن أقترح على مرافقي أن نقوم بجولة باتّجاه كنيسة القديس بطرس مروراً بحيّ «بورغو» الجميل. وما كدنا نصل إلى الكنيسة حتى انطلق هانز من جديد في نقد لاذع مجنون:

«أتعرف بأيّ وسيلة يريد البابا إنجاز بناء هذه الكنيسة؟ بأخذ مال الألمان». وكان بعض المارّة قد تجمّعوا حولنا فقلت متضرّعاً:

«لقد زرنا ما فيه الكفاية من الأنصاب اليوم! سوف نعود مرّة أخرى».

ومن غير أن انتظر هرعت ألوذ بسكون سجني القديم مُقْسِماً بألّا أتنزّه قطّ في رومة برفقة دليل لوثريّ.

وكان من حسن حظّي أن صحبني في زيارتي التالية «غويتشارديني» الذي كان قد عاد من إقامة طويلة في «مودين». وأخبرته بخيبة أملي العميقة، ولا سيّما بعد زيارتي لحقل البقر. ولم يبدُ عليه أيّ تأثر، وقال باستسلام حكيم:

«مدينة خالدة هي رومة، ولكنْ مع بعض النواقص».

واستطرد:

«مدينة مقدّسة، ولكنْ مع بعض الزندقات؛ مدينة متعطّلة، ولكنّها تقدّم إلى العالم كلّ يوم رائعة من الروائع».

كان لذّة للنفس السير إلى جانب «غويتشارديني» وتلقُّف أحاسيسه وتعليقاته وبوحه بأسراره. وكان هناك مع ذلك بعض المزعجات: فللذّهاب مثلاً من قصر القديس أنجلو إلى قصر الكردينال «فرنيز» الجديد الكائن على بُعْد أقلّ من ميل لزمنا من الوقت ساعتان لفرط وجاهة رفيقي. وإذا كان بعضهم قد حيّاه تحية عابرة فإنّ آخرين كانوا يترجّلون للدخول معه في حديث طويل على انفراد. وكان الفلورنسي يعود إليّ في كل مرّة يتخلّص فيها ويعتذر قائلاً: «إنّه مواطن لي جاء حديثاً للإقامة في رومة»، أو: «هذا مؤرّخ وثائق كبير النفوذ»، «هذا صاحب بريد ملك فرنسا»، أو حتّى، وقد قالها في مناسبتين: «هذا نَغْلُ الكردينال فلان».

ولم أُبْدِ أيّة دهشة. فقد سبق لهانز أن أخبرني أن لعشيقات أمراء الكنيسة في عاصمة البابوات الغاصّة برجال الدين والراهبات والحجّاج من جميع البلاد قصوراً وخدماً، وأنّ نَسْلَهُنّ كان منذوراً لأرفع المناصب، وأن لأقلّ الكهّان رتبة عشيقات أو مومسات يظهرون معهنّ بلا حرج في الشارع.

وقد قال «غويتشارديني» وكأنّه كان يتابع أفكاري:

«إن العار في الشبق أقلّ ممّا هو في الترف».

وأضاف:

«إنّ نمط حياة أساقفة رومة يكلّف مبالغ طائلة في حين لا يُنتَج شيء في مدينة رجال الدين هذه! وجميع الأشياء تُشترى من فلورنسة والبندقية وميلانو ومن الخارج. ولكي يموّل البابوات حماقات هذه المدينة فقد شرعوا يبيعون المناصب الكهنوتية: عشرة آلاف، عشرون ألفاً، ثلاثون ألف «دوكا» للكردينال الواحد. وهنا يُباع كل شيء، حتى منصب نائب البابا! ولمّا كان ذلك لا يكفي أبداً فقد أخذوا يبيعون الرأفة للمساكين الألمان! فإنْ دفعتَ غُفرت لك خطاياك! وباختصار فإنّ الأب الأقدس يسعى إلى بيع الجنّة. وهكذا بدأ الخصام مع لوثر.

ـ لقد كان ذلك الراهب على حقّ إذن.

ـ بمعنىً ما، أجل. لكنّني لم أتمالك عن التفكير في أن المال المجموع بطريقة مريبة جدّاً ينبغي أن يُستعمل لإنجاز كنيسة القديس بطرس، وأنّ جزءاً منه

مخصّص لأنبل المبتدعات البشرية، لا للقصف والشراب. فمئات الكتّاب والفنّانين هم الآن في رومة بصدد إنتاج روائع كان من الممكن أن يشحب القدماء أمامها من الحسد. إنّ عالماً في طريقه إلى الانبعاث والنهضة بنظرة جديدة وطموح جديد وجمال جديد. إنّه في طريقه إلى الانبعاث والنهضة هنا، الآن، في رومة هذه الفاسدة الزنديقة التي تُباع وتُشترى، وذلك بالمال المسلوب من الألمان. أليس في هذا تبذير مفيد جدّاً؟»

لم أكن أدري كيف أفكّر. فقد كان الخير والشر، والصدق والكذب، والجمال والعَفَن، مختلطةً جدّاً في ذهني! ولكنْ ربّما كانت ذلك كلّه رومةُ ليون العاشر، رومةُ ليون الإفريقي. وردّدت بصوت مرتفع عبارات «غويتشارديني» لأحفرها في ذاكرتي:

«المدينة المتعطّلة... المدينة المقدّسة... المدينة الخالدة...» وقاطعني بصوت أضحى بغتة مُرْهَقاً:

«المدينة المعلونة أيضاً».

وفيما كنت أنظر إليه متوقّعاً بعض التوضيح سحب من جيبه ورقة مدعوكة وقال:

«لقد نسختُ للتوّ هذه الأسطر التي كتبها لوثر لبابانا».

وقرأ بصوت خافت:

«إيه يا ليون، يا أتعس الناس، إنّك جالس على أخطر العروش. لقد كانت رومة فيما مضى باباً من أبواب الجنّة، وها هي ذي اليوم هاوية الجحيم الفاغرة».

عام «المرْتَدَّة»

٩٢٧ هـ (١٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٢٠ م - ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٢١ م)

كان السادس من نيسان (إبريل) من ذلك العام يوم سَبْتٍ طافحٍ بالسعادة من أيام حياتي! ومع ذلك فقد كان البابا غاضباً. وكان يُرعد إرعاداً شديداً جعلني أظلّ طويلاً بلا حراك في الممرّ المؤدّي إلى حجرته يحميني من صياحه مِصْراعا الباب الثقيلان المنقوشان. بيد أنّ الحاجب الذي كان يرافقني كان مزوّداً بالأوامر. فقد فتح باب المكتب من غير أن يقرعه ودفعني تقريباً دفعاً إلى الداخل وأغلقه ورائي.

وما إن رآني البابا حتّى توقّف عن الصراخ. لكنّ حاجبيه ظلّا مقطّبين، وكانت شفته السفلى لا تزال ترتجف. وأشار إليّ بأصابعه الملساء التي كانت تقرع الطاولة بعصبيّة أنِ اقْتَرِبْ. وانكببت على يده ثم على يد الشخص الذي كان واقفاً إلى يمينه.

«أتعرف يا ليون ابن عمنا الكردينال يوليوس؟

- كيف كان من الممكن أن أعيش في رومة من غير أن أعرفه؟»

لمْ يكن هذا خير جواب في المناسبة. فقد كان «يوليوس دومدتشي» ولا ريب أكثر أمراء الكنيسة تألّقاً، وكان موضع ثقة البابا. بيد أنّ هذا كان يأخذ عليه منذ بعض الوقت تصرّفاته الطائشة وحبّه للتباهي وغراميّاته الصاخبة، الأمور التي جعلت منه غرض اللوثريين الأفضل. وكان «غويتشارديني» قد أثنى بالمقابل على يوليوس قائلاً: «إنّ يوليوس يتحلّى بجميع صفات النبيل الكامل ونصير الأدب والعلم والمتسامح والعشير. فلماذا يصرّون بحقّ الجحيم على أن يجعلوا منه رجل دين؟»

كان ابن عم البابا بطيلسانه وقلنسوته الأحمرين وخصلة من شعره الأسود على امتداد جبينه يبدو غارقاً في تفكّر شاقّ.

«إنّ على الكردينال أن يحدّثك يا بنيّ. اجلسا معاً على ذينك المقعدين هناك. أمّا أنا فلديّ بريد أقرأه».

ولا إخالني مخطئاً إذا أكدّت أنّه لم يَفُت البابا في ذلك اليوم كلمة واحدة من حديثنا لأنّه لم يقلب صفحة واحدة من النصّ الذي كان بين يديه.

وبدا يوليوس منزعجاً باحثاً في عينيّ عن شيء من وميض التواطؤ. وتنحنح بتكتّم وقال:

«لقد دخلت شابّة في خدمتي، وهي فاضلة وجميلة وذكيّة. ويرغب الأب الأقدس في أن تتّخذها زوجة. إنّ اسمها مادالينا».

وإذ تلّفظ بهذه الكلمات التي بدا جليّاً أنّها كانت تُرْهِقه فقد انتقل إلى موضوعات أخرى فسألني عن ماضيّ وأسفاري وعيشي في رومة. واكتشفت فيه ما لابن عمّه من شهوة إلى المعرفة، والحبور نفسه لدى سماع أسماء تومبكتو وفاس والقاهرة، والإجلال نفسه لأمور الفكر. وحلّفني أن أدّون يوماً قصّة أسفاري واعداً بأن يكون أشدّ قرائي تحمّساً.

ومع ذلك فإنّ السرور البالغ المتحصّل من هذه المحادثة لم يقلّل شيئاً من ارتيابي العميق حيال العرض الذي عُرض عليّ. ولكي أعبّر عن الأمور كما كنت قد فكّرت فيها أقول إنّي لم تكن بي رغبة قطّ في أن أجد نفسي زوجاً متأخّراً لمراهِقة سوف يكون حَمْلُها المبكّر حديث مدينة رومة بأسرها. ومع هذا كان من العسير عليّ قول «لا» بكلمة واحدة للبابا وابن عمّه. وعليه فقد صُغْتُ ردّي بعبارات يكفي التواؤها لاستشفاف مشاعري فقلت:

«إنّي أعهد إلى قداسته وإلى نيافته اللذين يعرفان أفضل ممّا أعرف ما هو خير لجسدي وروحي».

وأجفلتني ضحكة البابا. فقد التفت بكلّيته صوبنا تاركاً بريده وقال:

«سيذهب ليون لرؤية هذه الفتاة اليوم بالذات بعد القدّاس المخصّص للصلاة لراحة الموتى».

* * *

وبالفعل كان يجب أن يُحتفل في ذلك العام في كنيسة «سكستين» بالذكرى الأولى لوفاة رافايلّو المولود في «أوربينو» الذي كان ليون العاشر يحبّه أكثر من جميع محَمِيّيه. وكان كثيراً ما يتذكّره بتأثّر غيرِ مُصْطَنَع، جاعلاً إيّاي آسف لأنّي لم أعرفه حقّ المعرفة.

والواقع أنّ طول انزوائي لم يُتح لي لقاء رافايلّو إلا مرتين: الأول سريع في أحد أروقة الڤاتيكان، والثاني يوم تعميدي. فقد جاء بعد الحفلة شأنه شأن الآخرين يقدّم التهاني إلى البابا الذي أجلسه بجانبي. وكان سؤالٌ يحرّق شفتيه.

«أصحيح أنّه ليس في بلادك رسّامون ولا نحّاتون؟

ـ يحدث أن يرسم بعض الناس أو ينحتوا، لكنّ أية صورة محكوم عليها ومذمومة. وتعتبر تحدّياً للخالق.

ـ إنّه لشرف كبير لفنّنا أن يُعْتَقَد بأنّه ينافس الخليقة».

وكانت قد ارتسمت على شفتيه برطمة متعجِّبة قليلة التعجرف بعض الشيء. وشعرت بأنّي مُجْبَر على الردّ:

«أليس صحيحاً أنّ مايكلو أنجلو بعد أن نحت تمثال موسى أمره بأن يمشي ويتكّلم؟»

وابتسم رافايلّو بخبث وقال:

«لقد رُوي هذا.

ـ وهذا ما يحاول أهل بلادي تجنّبه. أن يطمح إنسان إلى الحلول محلّ الخالق.

ـ والأمير الذي يقرّر الحياة أو الموت، ألا يحلّ محلّ الله بشكل أشدّ كُفْراً من الذي يعمد إليه الرسّام؟ والمولى الذي يملك عبيداً ويبيعهم ويشتريهم؟»

كان صوت الرسّام قد ارتفع درجة. وجهدت في تهدئته بالقول:

«أودّ زيارة مرسمك ذات يوم.

ـ وإذا قرّرتُ أن أرسم رسمك. فهل يكون ذلك تجديفاً؟

ـ أبداً. في رأيي أنّ ذلك سيكون كما لو نظم أبلغ شعرائنا قصيدة في مدحي».

لم أكن قد وجدت خيراً من هذا التشبيه. ولقد رضي به.

«حسناً جداً. تعال إلى منزلي متى شئت».

وكنت قد عاهدت نفسي على أن أفعل، ولكنّ الموت كان الأسرع. ولم يكن قد تبقّى لي من رافايلّو سوى بعض الكلمات، وغير برطمة وابتسامة ووعد. وكان من واجبي أن أفكّر في ذلك في يوم الذكرى هذا. ولكنْ سرعان ما اتّجهت أفكاري، وقبل انتهاء الحفل بكثير، إلى مادالينا.

وحاولت تخيّلها، شعرها، صوتها، قامتها؛ وتساءلت في أيّة لغة سوف أكلّمها، وبأيّة كلمات سأبدأ. وكنت أحاول كذلك أن أحزر ما يمكن أن يكون قد قاله كلّ من ليون العاشر وابن عمّه للآخر قبل أن يستدعياني. إنّ البابا كان قد عرف ولا ريب أنّ الكردينال قد ضمّ إلى حاشيته الكبيرة امرأة شابة جميلة، وإذ كان يخشى فضيحة جديدة فقد أمره بالتخلّص منها سريعاً وبشكل لائق. وهكذا لن يكون في مقدور أحد الادّعاء بأن الكردينال يوليوس ينظر إلى تلك الفتاة نظرات أثيمة؛ فهمّه الأوحد كان أن يجد امرأة لابن عمّه ليون الإفريقي!

وقدّم إليّ كاهن من معارفي لَمْحْته وأنا خارج من الكنيسة عناصر أخرى قوّت من افتراضاتي: لقد عاشت مادالينا طويلاً في أحد الأديرة. وكان الكردينال قد لاحظ وجودها خلال إحدى زيارته، وفي لحظة رجوعه في آخر النهار كان قد حملها معه ببساطة ضمن أمتعته. ولقد أحدثت الوسيلة صدمة، ووصلت الشكوى إلى مسمع ليون العاشر، فما لبث أن ثار بوصفه زعيم الكنيسة ورئيس آل مديتشي.

وهكذا ظننت أنّي حصلت على لبّ الحقيقية، بيد أنّي لم أكن أمسك منها بغير قشرة رقيقة.

* * *

«أصحيح أنّك مثلي من غرناطة؟ وأنك مرتدّ مثلي؟»

لقد كنت قد عوّلت كثيراً على قواي وعلى دَعَتي. وعندما نفذت بخطى بطيئة إلى غرفة الاستقبال المفروشة باللبد التي أجلسني الكردينال فيها فقدتُ للحال كلّ رغبة في مساءلتها خشية أن تَضْطرَّني كلمة منها إلى الابتعاد. فلقد كانت الحقيقة عن مادالينا إذّاك هي مادالينا. ولم تكن بي سوى رغبة واحدة هي الرغبة في أن أتأمّل إلى الأبد حركاتها وألوانها. فقد كانت تتفوّق على جميع نساء رومة فتوراً في المشية والصوت، وكذلك في النظرة التي كانت غازية ومستسلمة للألم في آن. وكان شعرها أسود حالكاً من ذلك السواد الذي تعرف الأندلس وحدها كيف تصفّيه بكيمياء من الظلّ البارد والأرضِ المحروقة. وبانتظار أن تصبح امرأتي كانت قد أصبحت أختي، وكنت قد أُلِفْتُ أنفاسها.

وقبل أن تجلس بدأت تقصّ قصّتها، كلّ قصّتها. وكانت قد قررت أن تجيب عن الأسئلة التي كنت قد عدلت عن طرحها. فجدّها كان ينتمي إلى فرع افتقر ونُسي من عائلة يهودية هي عائلة «أبرابانل». وإذ كان حدّاداً متواضعاً في ضاحية نجد جنوبي المدينة التي وُلدتُ فيها فإنّه لم يكن يعي أبداً الخطر الذي كان يهدّد ذويه إلى أن كانت اللحظة التي سُنَّ فيها مرسوم الطرد. وعندها هاجر مع أولاده الستة إلى تطوان حيث عاش على شفير البؤس، ولم تكن له من فرحة في الوجود غير رؤية ابنائه يكتسبون بعض المعرفة وبناته يترعرعن في ظلّ الجهال. ولسوف تكون إحداهنّ أمّ «المُرْتَدّة».

وشرحت لي قائلة: «كان والداي قد قرّرا أن يأتيا للإقامة في «فيرّاري» حيث كانت أحوال بعض أبناء العم قد ازدهرت. غير أنّ الطاعون كان قد ظهر على المركب الذي أقلّنا فاتكاً بالبحّارة والركّاب. وعندما حاذينا ساحل «بيزا» وجدتُ نفسي وحيدة، إذ كان أبي وأمّي وأخي الصغير قد هلكوا. وكان عمري ثماني سنوات. واحتضنتني راهبة عجوز واصطحبتني إلى دير كانت رئيسته وبادرت إلى تعميدي مطلقة عليّ اسم مادالينا، في حين كان أبي قد سمّاني جوديت. وعلى الرغم من فقدي أعزّ الناس فقد تمنّعت عن لعن القدر لأنّني كنت آكل حتى

الشبع وأتعلّم القراءة ولا أنال من الجَلْد إلا ما كان مُسَوَّغاً. إلى أن كان اليوم الذي ماتت فيه مَنْ أحسنت إليّ. وكانت التي حلّت محلّها ابنة غير شرعية لأحد أمراء إسبانيا. وقد حُبست هناك للتكفير عن خطيئة والديها، ولم تكن ترى في ذلك الدير الجميل غير مَطْهَرٍ لها وللأخريات. ومع ذلك فقد كانت تهيمن عليه هيمنة مطلقة موزِّعة فيه النِعَم والنكبات. وكانت تحتفظ لي بشرّ ما في قلبها. ولقد كنت خلال سبع سنوات مسيحيّة تزداد حماسة واندفاعاً. ومع ذلك فإنّني لم أكن في نظرها إلا «مرتدّة» غير نقيّة الدم سوف يجلب وجودها على الدير شرّ اللعنات. وأحسست تحت وابل الإهانات التي كانت تنهال عليّ ظلماً بأنّني عدت إلى ديانتي الأصلية. فبدأ لحم الخنزير الذي كنت آكله يصيبني بالغثيان وأمست لياليّ مضطربة من جرّاء ذلك. وبدأت أرسم الخطط للهرب. غير أنّ محاولتي الوحيدة انتهت بشكل يُرثى له. فلم يسبق لي أن ركضت بمثل هذه السرعة، ولا سيّما في ثوب راهبة. وقد قبض البستاني عليّ وأعادني إلى الدير وهو يلوي ذراعي وكأنّني سارقة دجاج. ثم رُمِيتُ في زنزانة وجُلِدْتُ حتى سال دمي».

ولقد احتفظت ببعض آثار الضرب، غير أنّها لم تنقص شيئاً من جمالها ولا من كمال جسدها اللطيف.

«وعندما سُمح لي بالخروج بعد أسبوعين كنت قد قرّرت تبديل سلوكي. فأبديت ندماً شديداً وأظهرت ورعاً وطاعة وعدم تأثّر بالمذلّة. وكنت أترقّب ساعتي. وقد حانت بزيارة الكردينال يوليوس. فلقد كانت الرئيسة مُجْبَرَة على تلقيّه بالإجلال على الرغم من أنها كانت تُرسل به إلى المحرقة لو ملكت القدرة على ذلك. فقد كانت تجعلنا نصلّي أحياناً من أجل توبة أمراء الكنيسة، ولم تكن تتحفّظ في انتقاداتها «حياة آل مديتشي المنحلّة»، لا في العلن، وإنّما أمام بعض الراهبات من حاشيتها، بيد أنّ هؤلاء ما كنّ يتأخرّن في نقلها. ولا ريب في أنّ ما كان الكردينال متّهماً به من المثالب هو الذي جعلني أعقد أملي عليه».
ووافقتها قائلاً:

«تغدو الفضيلة مرضاً إن لم تُلطَّف ببعض الحَيْد، ويُصبح الإيمان جائراً إن لم تخفّف بعض الشكوك من حدّته».

ولمست مادالينا كتفي لمساً خفيفاً أمارة على الثقة قبل أن تتابع قصّتها قائلة:

«عندما وصل الأسقف حضرنا صفّاً لتقبيل يده. وكنت انتظر دوري بفارغ الصبر. وكانت خطّتي جاهزة، وكانت أصابع الكردينال المزيّنة بخاتمين ممدودة بسموّ إليّ. وتناولتها وضغطت عليها بقوة أكبر ممّا ينبغي وحبستها بزيادة ثانيتين عن الوقت اللازم. وكان ذلك كافياً لاسترعاء انتباهه. ورفعت رأسي ليتمكّن من تأمّل وجهي. «إنّي بحاجة إلى الاعتراف لك». قلت هذا بصوت مرتفع ليكون الالتماس رسمياً ومسموعاً من حاشية الكردينال والرئيسة. واتّخذتْ هذه نبرة متلاطفة وقالت: «ابتعدي يا صغيرتي، إنك تزعجين نيافته، وأخواتك ينتظرن». ومرّت لحظة من التردّد. هل أجد نفسي من جديد في زنزانة الانتقام؟ هل أستطيع التشبّث بيد منقذ؟ كان تنفّسي قد توقّف، وكانت عيناي ضارعتين. ثم هبط الحُكم: «انتظريني هنا! سوف أسمع اعترافك!» وسال دمعي فاضحاً سعادتي. غير أنيّ حين جثوت في قفص الاعتراف كان صوتي قد استعاد ثباته فلفظت بلا خطأ الكلمات التي كنت قد ردّدتها مئة مرّة. وأصغى الكردينال بصمت إلى صرخة القنوط الطويلة التي أطلقتها مكتفياً بهزّ الرأس لتشجيعي على المتابعة. وعندما سكتُّ قال لي: «لا أظنّ يا ابنتي أن حياة الدير قد جُعلت لك». وكنت قد تحرّرت».

وسالت دموعها من جديد لتذكُّر الأمر. ووضعت يدي فوق يدها وضغطت بحنان، ثم سحبتها عندما عادت إلى خيوط حكايتها:

«لقد حملني الكردينال معه إلى رومة. وكان ذلك منذ شهر. ولم تكن الرئيسة راغبة في تركي أرحل. لكنّ حاميّ لم يُعِر اعتراضاتها انتباهاً. ولقد دبّرتْ دسيسة للانتقام منه فتدخّلت عند الكرادلة الإسبان الذين توجّهوا بدورهم إلى البابا. وقد شاعت أبشع التُّهم بحقّ نيافته وحقّي...»

وتوقّفتْ إذ نهضتُ واثباً. فلم أكن أريد سماع الكلمة الأولى من تلك الافتراءات، حتّى من فم مادالينا الشهيّ. فلم يعُد يهمّ بعد الآن سوى الحبّ الذي وُلِد في قلبي وقلب «المرتدّة». وعندما نهضتُ لوداعي كان في عينيها قلق.

فلقد أفزعها رخيلي المتعجّل بعض الفزع. وكان عليها أن تتغلّب على حيائها لتقول لي:

«هل يرى أحدنا الآخر بعدُ من حين إلى آخر؟

ـ حتى آخر عمري».

ولامست شفتاي شفتيها. وكانت عيناها مفزّعتين من جديد، ولكنْ من جرّاء السعادة وجرّاء دُوار الرجاء.

عام أدريان

٩٢٨ هـ (أول كانون الأول «ديسمبر» ١٥٢١ م - ١٩ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٥٢٢ م).

مات البابا ليون من قرحة في اليوم الأول من هذا العام، وظننت لبعض الوقت أنّ عليّ مغادرة رومة التي أصبحت فجأة غير مضيافة من غير هذا العرّاب المتيقّظ، من غير هذا الحامي السمْح، الذي أغدقت عليه السماوات نِعَمها بلا حساب على مثل ما كان هو على الدوام!

ولم أكن الوحيد الذي نوى الرحيل، فقد نفى الكردينال يوليوس نفسَه إلى فلورنسا، ولاذ «غويتشارديني» بـ«مودين»، وأخذ من حولي مئات من أشهر الكتّاب والرسّامين والنحّاتين والتجّار يفرّون من المدينة وكأنها أصيبت بالطاعون. والواقع أنه حدث وباء قصير الأمد، لكنّ الطاعون الحقيقي كان غير ذلك. وقد جُهر باسمه من «بورغو» إلى ساحة «نافوني» مُرفَقاً بنعت لا يتغيّر: «أدريان البربريّ».

وكان الكرادلة قد انتخبوه وكأنّما للتكفير والتوبة. فقد كيل كثير من التُّهم للبابوية في عهدها الأخير، حتى إنّ أقاليم ألمانيّة كاملة كانت قد اعتنقت أطاريح لوثر، واعتُبر ليون العاشر مسؤولاً عن كلّ ذلك. وعليه فقد أُريدَ تغيير وجه الكنيسة: وهكذا أتوا بعد الفلورنسي، بعد المديتشي الذي أصبح بابا وهو في الثامنة والثلاثين ونقل إلى رومة حبّه للبذخ والجمال، بمتقشّف هولندي في الثالثة والستين، «رجل قديس فاضل مضجّر أصلع أبرص.» والوصف صادر عن مادالينا التي لم ترحم لحظة زعيم المسيحيين الجديد.

«إنه يذكّرني كثيراً برئيسة الدير التي اضطهدتني. فهو يملك النظرة الضيّقة

نفسهـا، والرغبـة نفسها في جعـل الحياة، حيـاته وحيـاة الآخرين، صـومـاً كبيـراً أبديّاً».

وكان رأيي في البداية أقلّ حسـماً. وإذا كنت على الـدوام مخلصاً لمن أحسن إليّ فإنّ بعض مظاهر الحياة الرومانية كانت تصدم عقيدتي الحميمـة. فَلأَنْ يؤكّـد أحد الباباوات، كما كان أدريان يفعل، أنّه «يستلذّ الفقر»، فـما كان ذلـك ليغمّني، ولا كانت الحكاية التي أثارت سخرية الحاشية منذ الأسبوع الأوّل عـلى ولايته لتجعلني أقهقه. فلقد صاح الحَبْر الجديد بالفعل وهو يدخل كنيسة سكستين ويطالعه مشهد القبّة التي رسمها ميكلانجلو: «ليست هذه كنيسة بل غرفة تجفيف في حمّام غاصّـة بالعُري!» وأضاف أنّه سوف يغطّي بالجير هـذه التصاويـر الناضحـة بالكفـر. لقد كـان من الممكن والله أن أطلق الصيحة نفسهـا! وكانت عشرتي للرومـانيـين قـد نـزعت مني بعض التحفّظات بصـدد الرسم والأجسـاد العاريـة والنحت. وأمّا في أمـاكن العبادة فـلا. تلكم كانت مشـاعري عنـد تسنّم أدريان السـادس الكـرسي البابوي. والحقّ أنّني ما كنت أعرف بعدُ أنّ هذا المؤدِّب قديماً للإمبراطور شارلكان قد كان قبل وصوله إلى رومة مفتّشاً في«أراغون» و«ناڤار». وما هي إلا أسابيـع حتّى جعل منّي فرداً خالصاً من أسرة مديتشي، إن لم يكن من حيث نبل أصـولي، فعلى الأقلّ من حيث نبل تطلّعاتي.

وقد بدأ هذا البابا بإلغاء جميع الرواتب التي كان ليون العاشر قـد أجراهـا، بما في ذلك راتبي. وعلّق كذلك جميع طلبات الرسوم والمنحوتات والكتب، كما أوقف كل أعمال البناء. وكان يصبّ في كل عظة جام غضبه على الفنّ، فنّ القدماء وفنّ المعـاصرين، وعـلى الاحتفـالات والملذّات والنفقـات. وأصبحت رومـة بـين ليلة وضحاها مدينة ميتة لا يُبْدَع فيها شيء ولا يُبنى شيء ولا يُباع شيء. ولكي يسـوّغ البابا قراره فقد تذرّع بالديون التي كدّسها سلفه ذاهباً إلى أنّ المـال كان قـد بُذِّر. وكان خاصّةُ أدريان يقولون: «إنّه بالمبالغ التي ابتلعتهـا إعادة بنـاء كنيسة القـديس بطرس كان بـالإمكان تسليـح حملة صليبية عـلى الأتراك، وبالمبـالغ المـدفوعـة إلى رفايلّو كان بالإمكان تجهيز فوج من الخيّالة».

وكنت منذ وصولي إلى رومة كثيراً ما سمعت بالحملات الصليبية، حتّى من فم ليون العاشر بالذات، ولكن ذلك كان بالطبع نوعاً من شعار بغير طائل يشبه إلى حدّ كبير ما يرفعه بعض الأمراء المسلمين عندما يتحدّثون عن الجهاد لإزعاج خصم أو تهدئة مُراءٍ. وكان الأمر مختلفاً جدّاً مع أدريان لعنه الله وجميع المفرطين في الغيرة! فقد كان يعتقد جازماً أنّه بحشد المسيحية لمحاربة الإسلام يضع حدّاً لانشقاق لوثر ويصالح الإمبراطور شارل وملك فرنسا.

إلغاء راتبي والدعوة إلى التذابح الشامل: لقد كان هناك بالتأكيد ما ينتزع منّي كلّ رغبة في التهليل لهذا البابا! وما يحرّضني على مغادرة رومة بأسرع ما يمكن إلى فلورنسا حيث كان الكردينال يوليوس يشجّعني على اللحاق به.

ولقد كنت لحقت به ولا ريب لو لم تكن مادالينا حاملاً. وكنت قد استأجرت في حيّ «الجسر» منزلاً بثلاث طبقات. وكان في الأخيرة منها مطبخ، وفي الثانية غرفة جلوسٍ بها منضدة عملي الكبيرة، وفي الأولى حجرة فسيحة تطلّ على حديقة للخُضَر. وفي هذه الحجرة وُلد ذات مساء من تموز «يولية» ابني الأول الذي اسميته جوسپ، أي يوسف، على اسم ابن يعقوب واسم السلطان صلاح الدين. ولم يكن لسروري من حدود، وكانت مادالينا تسخر منّي بعض الشيء، ولكنّ وجهها المتورّم كان يتألّق بالسعادة. وكنت أظلّ ساعات ألاطف الطفل وأمّه وأتأمّل حركاتهما اليومية، ولا سيّما الرضاع الذي كان منظره لا يفتأ يهزّ مشاعري. وهكذا فإنّه لم تكن بي أيّة رغبة في جرّهما على دروب المنفى الشاقّة. لا إلى فلورنسا، ولا حتى إلى تونس كما اقتُرح عليّ ذلك العام في ظروف غريبة.

* * *

كنت في ذلك اليوم عند الكردينال يوليوس قبل رحيله إلى «توسكانا» حيث مَثَلَ أمامه رسّام شاب. وكان اسمه على ما أظن «مانولو»، وكان قادماً من ناپولي حيث حاز بعض الشهرة. وكان يرجو أن يبيع لوحاته قبل العودة إلى مدينته. ولم يكن من النادر أن يأتي فنّان من بعيد لرؤية المديتشي، إذ كان كلّ من يقرع بابه واثقاً من عدم الرجوع خالي الوفاض. وهكذافكّ ذلك الناپوليتاني بضع لوحات خيّل إليّ أنّها متفاوتة الجودة. وكنت أنظر إليها بعين شاردة عندما أجفلت بغتة. فقد

مرّت أمامي صورة لشخص سرعان ما أعاد «مانولو» توضيبها بحركة تدلّ على انزعاج.

وسألت:

«هل لي برؤية هذه اللوحة كرّة أخرى؟

ـ بالتأكيد، ولكنّها ليست للبيع. لقد حملتها خطأ. فهي من جملة لوحات أوصاني تاجر بأن أعِدَّها له، وعليّ أن أسلّمه إيّاها».

تلك الاستدارات، وتلك البشرة الكامدة، وتلك اللحية، وتلك الابتسامة الدائمة الرضى... لا مجال للخطأ! وكان عليّ مع ذلك أن أسأل:

«ما اسم هذا الرجل؟

ـ السيد عبّادو. إنه أحد أغنى صانعي السفن في ناپولي».

عبّاد السوسي! وغمغمت لعنة خيِّرة، وقلت:

«أوَستراه قريباً؟

ـ غالباً ما يكون مسافراً من شهر أيّار (مايو) إلى شهر أيلول (سبتمبر)، بيد أنّه يمضي فصل الشتاء في دارته من ناحية (سانتا لوشيا)».

وأخذت ورقة وسوّدت بيد مضطربة رسالة إلى رفيقي. وبعد شهرين وصل عبّاد إلى منزلي في عربة يتبعه ثلاثة خدم. ولو كان شقيقي لما سعدت مثل هذه السعادة بضمّه إلى صدري!

«لقد تركتك مقيّداً في قعر قبو؛ وها أنا ذا أجدك موسراً ومتألقاً.

ـ الحمدلله! الحمدلله! لقد كان الله كريماً معي!

ـ لا أكثر ممّا تستحقّ! وإنّي لأشهد بأنّه لم تصدر منك كلمة سوء واحدة بحق العناية الإلهية حتى في أحلك اللحظات».

وكنت صادقاً. وما كنت لأحتفظ بفضولي كلّه غير منقوص فقلت:

«كيف نجحت في الخروج من مأزقك بهذه السرعة؟

- بفضل أمّي بارك الله تُربتها! كانت تُردِّد عليّ دائماً هـذه العبارة التي أنتهيت إلى حفظها: لا يكون الإنسان معدماً قطّ ما دام في فمه لسان. صحيح أنّهم باعوني عبداً مُقيَّد اليدين مُثقلَ الرجلين، غير أنّ لساني لم يكن مُقيَّداً. واشتراني تاجر خدمته بإخلاص مغدقاً عليه النصيحة تلو النصيحة، متيحاً له الاستفادة من تجربتي في البحر المتوسط. وقد ربح كثيراً من المال حتى إنّه أعتقني في نهاية السنة الأولى وأشركني في تجارته».

وإذ بدا أنّي دهِش لسير الأمور بهذه البساطة فقد هزّ كتفيه، وقال:

«عندما يستطيع المرء أن يصبح غنيّاً في بلد فإنّه يسهل عليه أن يصبح كذلك مرة جديدة في أيّ مكان آخر. إنّ أعمالنا هي اليوم من أكثر الأعمال ازدهاراً في ناپولي. الحمد لله! ولنا في كل ميناء وكيل وعشرة مكاتب للمشتريات أزورها بانتظام.

- وهل يحدث أن تعرّج على تونس؟

- سأذهب إليها في الصيف. وسأمرّ لرؤية ذويك. هل عليّ أن أقول لهم إنّك مسرور بالإقامة هنا؟».

وكان عليّ أن اعترف بأنّني من غير أن أجمع ثروة لم أكابد قطّ مشقّات الأسر. وأنّ رومة أذاقتني سعادتين حقيقيتين: السعادة بمدينة قديمة تنبعث من جديد نشوى بالجمال؛ والسعادة بابن كان نائماً على ركبتي المرأة التي أحبّها.

وبدا صديقي راضياً. ومع ذلك فقد أضاف قائلاً:

«إذا انقطعت هذه المدينة يوماً عن إغداق السعادة عليك فاعلم أنّ منزلي مفتوح لك ولأسرتك، وأنّ مراكبي قادرة على نقلك إلى المدى الذي ترغب في الوصول إليه».

ولم أظهِر رغبة في ترك رومة، واعداً عبّاداً باستقباله فيها لدى عودته من تونس وبإقامة مأدبة فخمة لِقراه.

* * *

لم أكن أريد إبداء الشكوى والأنين لصديقي، غير أنّ الأشياء كانت في نظري قد بدأت تفسد: كان أدريان قد انتوى إطلاق حملة لمكافحة الملتحين. وقد رسم أنّ اللحية «لا تليق إلا بالجنود»، وأمر جميع رجال الدين بحلقها. ولم أكن معنيّاً بشكل مباشر، ولكنّ مواظبتي في التردّد على قصر الفاتيكان مع عنادي في الاحتفاظ بهذه الحلية كان سيُظهِر هذا العناد وكأنّه إثبات وقح لأصولي العربية وتحدٍّ للبابا ومظهر كذلك، ولا ريب، من مظاهر عدم التُقى. ولم تكن اللحية فاشية عند من كنت ألتقيهم من الإيطاليين، بل كانت علامة على الطرافة مخصّصة للفنّانين، وهي طرافة أنيقة لدى بعضهم وفضفاضة عند بعض. وكان بعضهم متمسّكاً بهذا النعت، وكان بعض آخر مستعدّاً للتخلّص منه بدلاً من رؤية نفسه ممنوعاً من دخول البلاط. وما كان للأمر عندي إلا معنى آخر. فاللحية في بلادي مشروعة، ويُتسامح في خلوّ وجه منها، ولا سيما إذا كان صاحبه غريباً. وحَلْقُها بعد التزيّن بها سنوات طوالاً علامة على الانحدار والمهانة. ولم يكن في نيّتي قطّ أن احتمل مثل هذه الإهانة.

أيصدّقني أحد إذا قلت إنّني كنت مستعدّاً في ذلك العام للموت في سبيل لحيتي؟ وليس في سبيل لحيتي فقط لأنّ جميع المعارك كانت مختلطة في ذهني كما في ذهن البابا: لحية رجال الدين، والأثداء العارية على قبّة كنيسة سكستين، وتمثال موسى بنظرته الصاعقة وشفتيه المرتجفتين.

ومن غير أن أسعى إلى ذلك غدوت محور مقاومة عنيدة لأدريان ورمزاً لها. فقد كان الرومانيون، حتى المُرْدُ منهم، يغمغمون بإعجابهم وهم يمرّون بي وأنا أمسّد شعر ذقني الكثّ بفخار. وكانت جميع المناشير المكتوبة ضد البابا تصل أوّلاً إلى يدي قبل أن تُزلق تحت أبواب وجهاء المدينة. ولم تكن بعض النصوص غير نسيج من الشتائم: «بربري، أبرص، خنزير»، وأسوأ من ذلك أيضاً. وكانت نصوص أخرى تتوجّه إلى عزّة الرومانيين: «لن يأتي قطّ شخص غير إيطالي للتربّع على

عـرش بـطرس!» وكنت قـد وقفت كـل تعليم وكـل دراسـة لأخصّص وقتي لهـذه المعـركة. والحقّ أنّي كنت أجـزى على ذلـك أحسن الجزاء. فقـد كان الكـردينـال يوليوس يرسل إليّ مبالغ كبيرة من المال مـرفقة بـرسائـل التشجيع؛ ويعِـد بإظهـار مدى امتنانه وعرفانه بجميلي ما إن يدول الزمان وتتبدّل الأمور.

وكنت أنتظر هذه الساعة بفارغ الصبر إذ أصبح وضعي في رومة هشّـاً. وكان كاهن من أصدقائي، وهو كاتب منشور نيراني، قد حُبس في قصر القـديس أنجلو بعد ساعتين من زيارتـه إيّاي. وكـان رهبان إسبـانيون قـد أرهقوا صـديقاً آخـر. وشعـرت أنا نفسي بـأنني مراقب بـاستمرار. ولم أكن أخـرج من منـزلي إلا لبعض المشتريات السريعة في الحيّ. وكنت أحسّ كل ليلة بأنّي أنام للمرّة الأخيرة بجانب مادالينا. وكنت أضمّها في كلّ مرّة ضمّاً أشد من السابق.

عام سليمان

٩٢٩ هـ (٢٠ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٥٢٢ م - ٩ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٥٢٣ م)

في هذا العام اقتضى أن يستعيد السلطان التركي المعظّم مكانتـه في نظري. ولم يعلم بالطبع شيئاً من ذلك قطّ، ولكن ما همّ؟ ففي داخلي أنا نشب الخصام، وفي داخلي أنا كان ينبغي أن يتلاشى.

لقـد كان عـليّ أن أفرّ من الامـبراطوريـة الإسلاميـة القويّـة لأخلّص طفلاً من انتقام عاهل دموي، وعثرت في رومة المسيحيـة على الخليفـة الذي طـالما أردت أن أعيش في كنفـه في بغداد أو في قـرطبة. وكـانت هذه المفـارقة تلذّ لعقـلي، بيد أنّ وجداني ما كان ليطمئنّ. فهل صمّم على المجيء الزمنُ الذي أستطيع فيـه الفخار بذويّ من غير أن يكون فخاري تبّجحاً يستدعي الرثاء؟

ثم إنّه كان هناك أدريان. ثم إنّه كان هناك سليمان. وكـان هناك عـلى الأخصّ تلك الزيارة التي قـام بها عبّـاد. فلدى رجوعـه من تونس مـرّ لرؤيتي بـارّاً بوعده، وكـانت عيناه تـرثيان لي حتّى قبـل أن تنفرج شفتـاه للكلام. وإذ كـان متـردّداً في لطمي بما كان قد عرف فقد كان عليّ أن أطمئنه بقولي:

«لا يمكن مؤاخذة الرسول بما تكون العناية الإلّهية مسؤولة عنه».

وأضفت بابتسامة متكلّفة:

«عندما يكون المرء قد غادر أسرته من أعوام فليس في مقدوره أن يتوقّـع أيّ نبأ سارّ. فحتى لو قلت لي إن نوراً قد أنجبت طفلاً فسيكون ذلك مصيبة».

وإذ قدّر صديقي أنّ مهمته سوف تزداد صعوبة إذا تركني أُغـرِقِ في المزاح فقـد عزم على الكلام:

«لم تنتظرك امرأتك. فهي لم تُقِم غير بضعة أشهر في بيتك بتونس».

ونضحت يداي بالعرق.

«لقد رحلت وتركت لك هذا».

وناولني رسالة ففضضتها. وكان الخطّ الذي كتبت به جيداً، وهو ولا شك خطّ كاتب عام مأجور. ولكنّ الكلمات كانت كلمات نور:

«لو كان الأمر لا يتعلّق إلا بسعادتي لانتظرتك سنوات طوالاً، حتى وإن رأيت شعري يمسي بلون الفضّة في وحدة الليالي. ولكنّني لا أحيا إلا من أجل ابني، من أجل مصيره الذي سيكتمل يوماً إن شاء الله. وعندها ندعوك إلينا لمشاطرتنا الأمجاد كما شاطرتنا المخاطر. وإلى أن يتحقّق ذلك فسوف أكون في فارس التي وإن لم يكن لبايزيد فيها أصدقاء، إلا أنّه سيكون إلى جانب أعداء لمن يطاردونه.

أترك لك «حياة». ولقد حملت ابنتك كما حملت سرّي، وقد آن الأوان لأن يستعيد كلٌّ ما يخصّه. ولسوف يقول بعضهم إنني أمّ فظّة، وأما أنت فتعرف أنّي تركتها لأجل خيرها، ولكي أجنّبها الأخطار المرتبطة بخطاي وخطى أخيها. وإني لأتركها لك هديّة تتسلّمها لدى عودتك، ولسوف تشبهني عندما تكبر وتذكّرك في كلّ لحظة بأميرة شقراء أحببتها وأحبّتك. وستحبّك على الدوام في أعماق منفاها الجديد.

وسواء كان مصيري الموت أو كان المجد فلا تدع صورتي تبهت في قلبك!»

ما إن شاهد عبّاد أوّل دمعة تسيل من عيني حتى ارتفق النافذة متظاهراً بالاستغراق في مشهدٍ ما في الحديقة. وتركت نفسي أزلق إلى الأرض زائغ البصر متجاهلاً ما يحيط بي من مقاعد. ووجّهت إلى نور وكأنها كانت أمامي همسة حانقة:

«إلامَ يحلم الإنسان بقصرْ إذا كان في وسعه الحصول على السعادة في كوخ عند سفح الأهرام!»

وما هي إلا دقائق حتى كان عبّاد يجلس إلى جانبي.

«أمّك وأختك بخير، وهارون يرسل إليهما في كل شهر المال والمؤن».

وبعد زفرتينْ مددت إليه يدي بالرسالة. وقام بحركة لدفعها، غير أنّي ألححت. ومن غير أن أفكّر طويلاً أصررت على أن يقرأها. فربّما كنت أريد أن يستنكف عن إدانة نور. وربما كنت أريد أن أتحاشى بدافع من الكبرياء أن ينظر إليّ بشفقة وكأنّي زوج من عامّة الناس هجرته زوجة أضناها طول الانتظار. ولقد كنت ولا ريب في حاجة إلى أن يشاطرني صديق سرّاً كان عليّ بعد اليوم أن أحمله وحدي.

وعليه فقد سمعتُني أقصّ بالتفصيل حكاية جركسيّتي بدءاً باللقاء الفجائي عند تاجر في خان الخليلي.

«ها أنا ذا أفهم الآن هلعك عندما رفع الضابط التركيّ بايزيد بين ذراعيه في ميناء الإسكندرية».

وضحكت. وتابع عبّاد وقد سرّه جداً أن يكون قد سرّى عنّي:

«ما كنت لأجد تفسيراً لإمكان أن يخاف غرناطي إلى هذا الحدّ العثمانيين وهم الوحيدون الذين يَعِدون بأن يُرْجِعوا إليه مدينته ذات يوم.

ـ ومادالينا أيضاً ليس في وسعها أن تفهم. فهي تريد أن يفرح الأندلسيون، يهوداً أو مسلمين، فرحتها هي في كل مرّة يرِد فيه خبر عن انتصار عثماني. وإنّها لتعجب من رؤيتي بارد العاطفة حيال ذلك.

ـ وهل ستبصّرها الآن بالأمر؟»

كان عبّاد قد تكلّم بصوت خافت فأجبت بالنبرة نفسها:

«سوف أخبرها بكل شيء على دفعات صغيرة. فلم يكن في مقدوري قبلاً أن أكشف لها عن وجود نور».

والتفتّ إلى صديقي، وكان صوتي أشدّ ضعفاً وتفكّراً وقلت:

«هل لاحظت إلى أيّ حدّ تغيّرنا منذ وصولنا إلى هذا البلد؟ فما كنت لأتحدّث

هكذا في فاس عن نسائي، حتى إلى أقرب الأصدقاء. فلو فعلت ذلك لاحمرّ خجلاً حتى قمّة عمامته».

ووافقني عبّاد وهو يضحك.

«أنا نفسي كنت أستخدم ألفَ عبارةِ اعتذارٍ وعبارةً لأسأل جاري عن حال زوجته، وكان هو يتأكّد قبل الإجابة من أنّ أحداً لا يسمعنا خوفاً من تعرّض شرفه لسوء».

وبعد ضحكة طويلة وبضع لحظات من الصمت بدأ رفيقي عبارة ثم توقّف متردّداً مُحْرَجاً.

«ماذا كنت ستقول؟

ـ لم يئن الأوان بعدُ ولا شكّ.

ـ لقد أطلعتك على كثير من الأسرار لتخفي عني هكذا نصف ما تفكّر فيه!»

وصدع بالأمر، وقال:

«كنت سأقول إنك حرّ بعد اليوم في أن تحبّ العثمانيين لأنّ بايزيد لم يعُد ابنك، ولأن امرأتك لم تعُد جركسيّة، ولأن حاميك في رومة قد أخلى كرسيّه لمفتّش، ولأنّ سليم الجائر قد مات في القسطنطينية منذ سنتين وحلّ محلّه سليمان».

كان ما قاله عبّاد صحيحاً بمعنى من المعاني. فقد أصبحت حرّاً بعد اليوم في مشاعري وحماستي، حرّاً في الانضمام إلى جَيَشان مادالينا العفويّ. فيا للسعادة ويا لراحة البال في أن يستطيع المرء أن يخطّ وسط حدثان الدهر خطّاً فاصلاً بين دواعي الأفراح ودواعي الأتراح! ومع ذلك فقد كنت أعلم أن هذه السعادة محظورة عليّ بفعل طبيعتي بالذات.

وأضاف عبّاد من غير أن ينظر إليّ:

«ولكنّي أعرفك. فأنت لا تعلم كيف تبلغ بالفرح إلى غايته».

وفكّر لحظة وقال:

«أظنّك بكل بساطة لا تحبّ الأمراء، وأقلّ من حبّك لهم حبّك للسلاطين. فما إن ينتصرُ أحدهم حتى تجد نفسك على التوّ في معسكر أعدائه، وعندما يبجّلهم أحد البلهاء ترى في تبجيله سبباً يدفعك إلى مقتهم».

في هذه المرّة أيضاً كان ما قاله عبّاد صحيحاً ولا ريب. وإذ رآني لا أدافع عن نفسي فقد لاحقني بقوله:

«لماذا ستناصب سليمان العداء؟».

كان يحدّثني بقدر من السذاجة المثيرة لم أتمالك معه من الابتسام. وفي هذه اللحظة دخلت مادالينا الحجرة. وسمعت عبارة صديقي فبادر إلى ترجمتها لها بالإيطالية علما منه بأنّها لن تلبث أن تسانده. وهذا ما فعلته بحميّة:

«لمَ تناصب، بحقّ الجحيم، سليمان العداء؟»

وتقدّمت منا وهي ما تزال ملاصقة الجدار كما يفعل الطلّاب وهم يرتلّون سورة النساء الطويلة. واعتدل عبّاد وعلى لسانه كلمة غامضة. وظللت في مكاني متفكّراً متحيّراً. وكأنّما أرادت مادالينا أن ترافق تفكيري فاندفعت في مديح مشغوف للسلطان التركي المعظّم:

«لقد وضع سليمان منذ تسلّمه الحكم حدّاً لممارسات أبيه الدموية، فلم يذبح أخاً ولا ابناً ولا ابن عمّ. وقد أعيد الأعيان المنفيّون في مصر إلى منازلهم. وأخليت السجون. والقسطنطينية تتغنّى بمدح العاهل الشابّ مشبّهة عمله بالندى الخيّر؛ ولم تعُد القاهرة تحيا في الخوف والحِداد.

ـ سلطان عثماني ولا يَقْتُل!»

كانت نبرتي تنضح بالشكّ فصحّح عبّاد قائلاً:

«ينبغي على كلّ أمير أن يَقتُل . وكلّ ما يُطلب هو ألاّ يجد في القتل لذّته، كما كانت الحال مع السلطان العجوز. إنّ سليمان ينتمي حقّاً إلى بني عثمان، وهو لا يقلّ في الفتح شأناً عن أبيه. إنّه يحاصر منذ شهرين فرسان جزيرة رودس بأكبر أسطول عرفه الإسلام يوماً. ومن بين الضبّاط المحيطين به نسيبك هارون وابنه البكر الذي سيتزوج يوماً ابنتك ثروة، بنت خاله. وسواء شئت أو أبيت فإنّ أَهْلَكَ

في المعمعة. أفلا ينبغي عليك، حتى وإن لم تكن بك رغبة على الإطلاق في الانضمام إليهم، أن تتمنى لهم النصر على الأقل؟»

والتفتُّ إلى مادالينا التي بدت مفتونة بحديث صديقي وسألتها بشيء من الفخامة:

«لو قرّرت أنّه آن الأوان أن نسلك الطريق إلى تونس ومعنا ابننا فماذا تقولين؟

ـ ليس عليك إلا أن تقول كلمة وأذهبُ بسرور بعيداً عن هذا البابا المفتّش الذي لا يفتأ ينتظر فرصة سانحة للقبض عليك!»

كان عبّاد أكثرنا نحن الثلاثة هياجاً:

«ليس هنا ما يحبسكم. ارحلوا معي على الفور!»

وهدّأته قائلاً:

ـ لسنا إلا في شهر كانون الأول (ديسمبر). وإذا كان علينا أن نركب البحر فلا يمكن أن يكون ذلك قبل ثلاثة أشهر.

ـ تعالوا معي إلى نابولي، ومن هناك تركبون إلى تونس في الأيام الأولى من الربيع.

قلت متفكّراً: «يبدو لي هذا ممكناً».

لكنّي أسرعت أضيف: «سوف أفكّر!»

لم يسمع عبّاد القسم الأخير من عبارتي. ولكي يحتفل بقبولي الخجول ويتفادى أن أغيّر رأيي فقد نادى من النافذة اثنين من خدمه فأمر أحدهما أن يذهب لشراء زجاجتين من أفضل الخمور اليونانية، وطلب من الآخر أن يحشو له غليوناً بالتبغ.

«هل سبق لك أن ذقت هذا السمّ اللطيف الآتي من العالم الجديد؟

ـ مرّة، منذ سنتين، عند كردينال فلورنسي.

ـ ألا يُباع في رومة؟

ـ لا يوجد إلا في بعض الحانات. بيد أنّ مصرّفي التبغ الذين يديرونها هم أسوأ

أهل المدينة سُمْعة.

ـ لن يلبث العالم أن يمتلىء بمصرّفي التبـغ، ولن تكون سمعتهم أسـوأ من سمعة البقّـالين أو العـطّارين. وأنا نفسي استـورد من إشبيلية شحنـات كـاملة من التبـغ وأبيعها في بورصة والقسطنطينية».

ومججت منه نَفَساً. واستنشقتْ مادالينا عبقه لكنّها رفضتْ تجربته.

«أخاف كثيراً أن أختنق بدخانه!»

ونصحها السوسيّ بأن تغلي بعض الماء فتشرب التبغ مغليّاً مع قليل من السكّر.

* * *

عندما غادرنا عبّاد في ذلك اليوم تعلّقت مادالينا على الفور برقبتي وقـالت: «إني سعيدة بالرحيل. لا نتأخرنْ هنا!

ـ تأهّبي! وعندما يعود صديقي نسافر جميعاً».

كـان عبّاد ذاهبـاً إلى «أنكونـه» لبعض الأعمال، وقـد وعد بـالرجـوع قبل عشرة أيّام. ووفى بوعده، غير أنّ الذي استقبله كان مادالينا دامعة منتحبة.

كنت قد اعتُقلت في العشيّة، في ٢١ كانون الأول (ديسمـبر)، وكان يـوم أحد، وكنت أحمل بتهوّر شديد منشوراً كان راهب فرنسي قد دسّه في جيبي لدى خروجي من كنيسة «سان جيوڤاني دي فيورانتيني».

وسواء أكان الأمر مصادفة أم كان مكيدة مدبّـرة فقد اقتـادوني إلى قصر القديس أنجلو وحبسوني في الزنـزانة التي شغلتهـا منذ مـا يقارب السنتـين. بيد أنّني لم أكن لأخشى في ذلك الزمن غير الأسر، في حين كان من الممكن في هذه المـرّة أن أحاكم ويُحكم عـليّ بقضاء مـدة عقـوبـة في سجن بعيـد أو حتى في سفينـة من السفن التي يجذّف فيها الأسرى راسفين في الأغلال.

ما كنت ولا ريب لأتأثـر كل هـذا التأثّـر لو لم أكن قـد خطّطت للرحيـل. ومع ذلـك فقد كـانت الأيام الأولى من الاعتقـال أقلّ قسـوة ممّا كنت أوجس. حتى إنّـه أمكن أن أتلقّى في شهـر شباط (فـبراير) هـديّة من عبّـاد بدت لي فخمـة في ذلـك

الظرف؛ عباءة من الصوف وكعكعة بالتمر ومعهما رسالة يخبرني فيها بشبه كنايات عن استيلاء سليمان على رودس: «لقد حمل البحر أهلنا إلى قمّة الصخرة، وزُلْزِلَتِ الأرض من صيحات انتصارنا».

وإذ كنت أنظر إلى الحدث من زنزانتي فقد بدا لي وكأنّه ثأر شخصيّ من أدريان وأحلامه الصليبية. وعندما ازداد اعتقالي في الأشهر التالية صرامة، ولم أعد أملك ما أقرأه، ولا ما أكتب به من قلم أو مداد أو ورق، ولا حتّى أدنى سراج يبدّد الظلمة التي كانت تجثم منذ العصر، وعندما فقدت كل اتّصال بالعالم الخارجي، وتظاهر حارسي بعدم فهم أية لغة، باستثناء لهجة جرمانية ما أنزل الله بها من سلطان، أخذت أنظر إلى رسالة عبّاد وكأنها ذخيرة من عباد الله الصالحين، وأردّد كلماتها الخاصة بالاستيلاء على رودس وكأنّها أنشودة دينيّة.

وحلمت ذات ليلة بسليمان وتحت عمامته وجه طفل، وجه بايزيد. وكان ينحدر من فوق جبل قادماً لإطلاق سراحي، لكنّه قبل أن يتمكّن من الوصول إليّ كنت قد استيقظت فوجدت أنّي لا أزال في زنزانتي عاجزاً عن العودة إلى النوم لعلّي أدرك نهاية الحلم.

الظلام، البرد، الأرق، القنوط، الصمت... ولكيلا أصاب بالجنون فقد استرجعت عادة الصلاة، خمس مرّات في اليوم، لربٍّ طفولتي.

وكنت انتظر قدوم اليد التي ستحرّرني من القسطنطينية. بيد أنّ مخلّصي كان أقرب من ذلك بكثير، كان الله تعالى بعونه في المحنة التي هي اليوم من نصيبه!

العام الرحيم

٩٣٠ هـ (١٠ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٥٢٣ م - ٢٨ تشرين الأول «أوكتوبر» ١٥٢٤ م)

ضجة خطى وحشد أصوات، ثم مئة قعقعة صلبة باردة لمفتاح يدور وباب يَصِرّ رويداً على مفصّلاته الصدئة. ووقفت بقرب سريري أدعك عينيّ متربّصاً بالأطياف التي سوف تلوح على النور المنبعث من الخارج.

ودخل رجل. وإذ عرفت فيه «غويتشارديني» فقد خطوت نحوه متهيّئاً للتعلّق برقبته، بيد أنّي توقّفت للتوّ. بل تأخرت وكأني مدفوع بقوة خفيّة. لعلّه وجهه الرخاميّ، أو ربّما هو صمته بضع لحظات طويلة، أو صرامة مظهره غير المعهودة. وخيّل إليّ أنّي أرى في العتمة تباشير ابتسامة على شفتيه، غير أنّه عندما تكلّم كان صوته متحفّظاً، بل إنّه بدا لي بالغ الندم:

«يرغب قداسته في رؤيتك».

أكان عليّ أن أتشكّى أم أن أغتبط؟ لماذا يريد أدريان أن يراني؟ لماذا أرسل إليّ «غويتشارديني» بعينه؟ ومنعني وجه الفلورنسي المقطّب من أن أسأله. ونظرت إلى السماء. لا بدّ أنها السادسة أو السابعة صباحاً، ولكن من أيّ يوم؟ ومن أيّ شهر؟ وسألت عن ذلك أحد الحرّاس ونحن نعبر الرواق باتجاه الفاتيكان. وكان «غويتشارديني» هو الذي أجاب بأقسى ما يمكن من جفاء:

كان قد بلغ أحد الأبواب. وقرع ودخل مشيراً إليّ أن أتبعه. وكان كل الأثاث ثلاثة مقاعد حمراء خالية. وجلس من غير أن يدعوني إلى أن أحذو حذوه.

كنت عاجزاً عن تفسير سلوكه. هو الذي كان صديقاً قريباً جدّاً وبائحاً بالأسرار، هو الذي كنت متأكّداً من أنه يقدّر رفقتي، والذي بادلني المزاح والنقد اللاذع...

ونهض فجأة وقال:

«أيّهال الأب الأقدس، ها هو ذا السجين!»

كان البابا قد دخل بلا ضجّة من الباب الصغير الذي خلفي. والتفتّ لأراه.

«يا لعدل السماء! يا لعدل السماء! يا لعدل السماء!»

كنت عاجزاً عن النطق بغير هذه الكلمات. وجثوت على ركبتيّ، وبدلاً من أن أقبّل يد الحَبْر الأعظم تناولتها وضغطت بها على جبيني، وعلى وجهي المبلل بالدمع، وعلى شفتيّ المرتجفتين.

وتخلّص من غير خشونة وقال:

«عليّ أن أذهب لإقامة القدّاس سوف أعود بعد ساعة».

وخرج تاركاً إيّاي على الأرض. وانفجر «غويتشارديني» ضاحكاً. ونهضت وتقدّمت منه بهيئة من يتوعّد وقلت:

«أعليّ أن أقبّلك أم أن أنهال عليك ضرباً؟»

وضحك من صميم فؤاده. وتهالكت على أريكة من غير أن يدعوني إلى ذلك.

«قل لي يا فرانشسكو، هل كنت أحلم؟ أهو الكردينال يوليوس حقّاً الذي مرّ في هذه الحجرة متلفّعاً بالبياض؟ أهي حقّاً يده التي قبّلتُها؟

ـ لم يعُد للكردينال يوليوس دو مديتشي من وجود. لقد انتُخب أمس لعرش القديس بطرس واختار اسم كليمان، وهو سابع من تسمّى بهذا الاسم.

ـ يا لعدل السماء! يا لعدل السماء!»

كانت دموعي تفيض بلا انقطاع. وتمكّنت مع ذلك من القول بين انتحابين:

«وأدريان؟

ـ ما كنت لأظنّ أن غيابه سيؤثّر فيك إلى هذا الحدّ!»

وضربته بقبضتي على كتفه ضربة لم يحاول حتى تفاديها لفرط علمه بأنّه كان يستحقّها.

«لقد فارقنا البابا أدريان منذ شهرين. ويقال إنّه مات مسموماً. وعندما شاع خبر موته علّق مجهولون حبال الزينة على باب طبيبه لشكره على أن أنقذ رومة».

وغمغم عبارة إنكار لا بدّ منها قبل أن يتابع قائلاً:

«وعندها اندلع خصام في مجمع الكرادلة بين الكردينال «فرنيز» والكردينال يوليوس وبدا أنّ الأول يتمتّع بعدد أكبر من الأصوات، غير أنّ أمراء الكنيسة كانوا راغبين بعد المحنة التي اجتازوها في استعادة سماحة فرد من آل مديتشي على رأس هذه المدينة. وبعد عدد من دورات الاقتراع انتخب صديقنا. وعلى الفور قام العيد في الشوارع. ومن بين الخواطر الأولى التي مرّت ببال الحَبْر الأعظم تفكيره فيك، وأنا على ذلك شهيد. فقد كان يرغب في الإفراج عنك بلا إبطاء، ولكنّني استأذنته في القيام بهذا الإخراج المسرحي. فهل تغفر لي؟

- بصعوبة!»

وضممته إلى صدري في عناق حارّ.

«لم تحتج مادالينا ولا جوسب إلى شيء. وكان بودّي أن أقول لك أن تذهب لرؤيتهما، ولكنْ ينبغي انتظار البابا».

ما كاد الفلورنسي ينتهي من إخباري بكلّ ما حدث منذ اعتقالي حتى كان كليمان السابع قد عاد. وقد طلب أن لا يزعجه أحد وجلس بأبسط ما في الدنيا من طرق على الأريكة التي كنّا قد حفظناها له.

«كنت أظنّ أنّ أفضل الدعابات في رومة هي دعابات المأسوف عليه الكردينال «ببيينا». غير أنّ اكتشافات السيد «غويتشارديني» ينبغي أن تُحفظ».

واعتدل قليلاً في جلسته وغدا وجهه ساهماً على حين غرة. وحدّق بي وقال:

«لقد تحدّثنا طويلاً الليلة الماضية أنا وفرانشسكو. إنّه ليس في استطاعته أن يُسْدِيَ إليّ كثيراً من النصح في موضوع الدين، ولكنّ العناية الإلهية قد أضافت إلى منصبي أمر إدارة «دولة» والحفاظ على عرش بطرس من تطاولات القوى الزمنية. ونصائح فرانشسكو لي في هذا المجال ثمينة، كما هي ثمينة نصائحك يا ليون».

وبنظرةٍ نَقَل مهمّة الكلام إلى السفير فقال:

«لقد طالما تساءلتَ يا ليون عن سبب إبعادك الحقيقي إلى رومة، ولماذا قرّرنا ذات يوم أن نجعل «بيترو بوڤاديليا» يخطف مستنيراً عربيّاً على سواحل بلاد البربر. لقد كان هناك مخطّط لم يُتح قطّ للمرحوم البابا ليون أن يكشف لك عنه. وها قد حانت الساعة اليوم للكشف عنه».

وصمت «غويتشارديني» وعقّب كليمان وكأنّهما يتلوان النصّ نفسه:

«لنلاحظ هذا العالم الذي نحيا فيه. في الشرق إمبراطورية مهولة يحدوها دين ليس ديننا، امبراطورية مبنية على النظام والانضباط الأعمى وماهرة في صهر المدافع وبناء الأساطيل. وجيوشها تتقدّم نحو قلب أوروبا. و«بودا» و«پست» مهدّدتان، وستكون «ڤينا» مهدّدة عمّا قريب. وفي الغرب إمبراطورية مسيحية ولكنّها ليست أقلّ هولاً لأنّها قد أخذت تمتدّ من العالم الجديد إلى ناپولي وتحلم بالهيمنة الشاملة. وتحلم على الأخصّ بإخضاع رومة لمشيئتها. وعلى أراضيها الإسبانية تزدهر محاكم التفتيش، وعلى أراضيها الألمانية تزدهر هرطقة لوثر».

وأكّد السفير تُشَجِّعُه انحناءات رأس البابا المؤمِّنة على كلامه:

«من جهةٍ سليمانُ السلطان وخليفة المسلمين، وهو شابّ طموح يتمتّع بنفوذ مطلق، ولكنّه حريص على أن يمحو من الأذهان ذكرى جرائم أبيه، وعلى الظهور بمظهر الرجل الخيِّر. ومن الأخرى شارل ملك إسبانيا، وهو أكثر فتوّة وليس أقلّ طموحاً، وقد بذل ثمناً فادحاً لكي يُنتخب لعرش الإمبراطورية المقدّسة. وفي وجه هذين الرجلين اللذين هما أقوى رجال الدنيا، هناك الدولة البابوية بالصليب العملاق والسيف القزم».

وأضاف بعد استراحة قصيرة:

«ليس الكرسي البابوي بالطبع الوحيد الذي يخاف هذه المزاوجة. فهناك الملك فرانسوا الذي يكافح كيلا تتقطّع أوصال مملكة فرنسا. وهناك أيضاً هنري ملك إنكلترا المخلص بكلّيته لقداسته ولكنّه بعيد جدّاً لكي يقدّم عوناً ما».

ظللت غير مدرك لما يمكن أن يقدّمه شخصي المتواضع من نفع في هذه الجوقة

من المتوَّجين. بيد أنّي تحاشيت مقاطعة الفلورانسي.

«إنّ هذا الوضع الدقيق الذي لمح إليه الأب الأقدس ليون أمامك كان موضوع مناقشات عدّة بيني وبين الكردينال يوليوس. ونحن مقتنعان اليوم كما في الأمس بضرورة العمل في مختلف الاتجاهات لإبعاد الأخطار. وينبغي قبل كل شيء مصالحة فرانسوا، وهو أمر ليس باليسير. فمنذ ثلاثين عاماً وملوك فرنسا يسعون لغزو إيطاليا. ويُعتبرون بحقّ مسؤولين عن المصائب النازلة بشبه الجزيرة، وجيوشهم متّهمة بنقل الأوبئة والخراب. ويجب كذلك إقناع البندقية وميلانو وفلورنسا بتناسي خصوماتها للوقوف جبهة في وجه الإمبرياليين».

وأخذ صوتاً أكثر نعومة وانحنى إلى أمام كما يفعل في كل مرّة يودّ فيها البوح بسرّ وقال:

«لقد قدّرنا كذلك أنّه ينبغي فتح محادثات مع العثمانيين. بأيّة طريقة؟ لسنا ندري. ونجهل أكثر من ذلك ما يمكن أن نحصل عليه. التخفيف من تدفّق الإنكشارية على الأراضي المسيحية في أوروبا الوسطى؟ وقف أعمال السلب والتخريب التي يقوم بها القراصنة؟»

وأجاب عن تساؤلاته ببرطمة تفيد الشكّ. وقفّى كليمان قائلاً:

«إنّ ما هو مؤكّد أنّه آن الأوان لإقامة جسر بين رومة والقسطنطينية. بيد أنّي لست سلطاناً. وإذا ارتأيت أن أتعجّل الأمور أحاطت بي ألوف الانتقادات من إسبانيا وألمانيا، ومن زملائي أنفسهم».

وابتسم لزلة لسانه وقال:

«أقصد من الكرادلة. يجب العمل بحذر شديد وانتظار الفرص المؤاتية والنظر إلى كيفية تصرّف الفرنسيين والبنادقة والقوى المسيحية الأخرى. ولسوف تؤلفان كلاكما فريقاً. إنّ ليون يعرف الآن التركية بالإضافة إلى العربية؛ ويعرف على الأخصّ العثمانيين وطريقة تفكيرهم وتصرّفهم؛ بل إنّه كان في سفارة إلى القسطنطينية؛ وفرانشسكو يعرف كل شيء عن سياستنا وفي وسعه المفاوضة باسمنا».

وأضاف وكأنّه يحدّث نفسه:

«لوددت فقط لو كان أحد المبعوثيْن كاهناً...»

ثم بصوت أعلى وشيء من التهكّم:

«لقد رفض السيد «غويتشارديني» دائماً دخول الكهنوت. وأمّا أنت يا ليون فإنّي لأعجب أن لا يكون ابن عمنا الغالي وسلفنا المجيد قد أوحى أبداً إليك بأن تكرّس حياتك للدين».

وتحيّرت: لماذا طرح عليّ الرجل الذي قدّمني إلى مادالينا مثل هذا السؤال؟ وتطلّعت صوب «غويتشارديني» فبدا لي ساهماً. وخلصت إلى أنّ البابا كان يسعى إلى التحقّق من قناعاتي الدينية قبل أن يعهد إليّ بمهمّة عند المسلمين. وإذ رآني أبطىء في الجواب فقد ألحّ قائلاً:

«ألم يكن الدين أفضل السبل لرجل من رجال المعرفة وسعة الاطلاع مثلك؟»

وراوغت في الجواب:

«الحديث عن الدين في حضرة قداسته كالحديث عن خطيبة بحضور الوالد».

وابتسم كليمان، من غير أن يُفلتني مع ذلك:

«وماذا كنت تقول عن الخطيبة لو لم يكن الوالد هنا؟»

واخترت عدم المخاتلة:

«لو لم يكن زعيم الكنيسة يُصغي إليّ لقلت إنّ الدين يُعَلِّم الناس التواضع، غير أنّه هو لا يملك أيّ تواضع. ولقلت إنّ جميع الأديان قد انتجت قدّيسين وقتلة بالمستوى نفسه من حسن الإدراك. وإنّ في حياة هذه المدينة سنوات كليمانتية (رحيمة) وسنوات أدريانية (قاسية) لا يسمح الدين بالاختيار بينها.

- أتسمح الديانة الإسلامية باختيار أفضل؟

وكدت أقول «نحن»، ولكنّني استدركت في الوقت المناسب:

«يتعلّم المسلمون أنّ «خير الناس أنفعهم للناس» بيد أنّه على الرغم من هذا

القول يحدث لهم أن يمجّدوا المرائين أكثر من تمجيدهم المحسنين.

ـ والحقيقة في كل هذا؟

ـ هذا سؤال لا أطرحه على نفسي أبداً: لقد سبق لي أن اخترت بين الحقيقة والحياة.

ـ لا بدّ من إيمان حقيقي.

ـ ليس ما يوحّد بين المؤمنين هو الإيمان المشترك بقدر ما هي الأعمال التي يشتركون في القيام بها.

ـ هل الأمر هكذا؟»

لم يكن من الممكن سبر غور النبرة التي استخدمها البابا. فهل كان يفكّر في إعادة النظر في المهمّة التي عهد بها إليّ؟ لقد خشي غويتشارديني ذلك فأسرع بالتدخّل بأكثر الابتسامات انبساطاً:

«يريد ليون أن يقول إنّ الحقيقة لا تخصّ إلا الله، وأنّه لا يمكن إلا أن يشوّهها الناس ويحطّوا من شأنها ويخضعوها لإرادتهم».

وهمست بما يكفي لأن أُسْمَع، وكأنّما لأوافقه على ما قال:

«لِيُفْرِجْ عن الحقيقة من يمسكون بزمامها!»

وضحك كليمان ضحكة مرتبكة ثم استدرك قائلاً:

«لنختصر ما قلنا. إنّ الأخ ليون لن يدخل في الدين؛ سوف يدخل فقط في أمور السفارة كالأخ فرانشسكو».

وإذ أطمأنّ هذا الأخير فقد شبك يديه واتّخذ هيئة ورعة وقال بصوت مضحك:

«إذا كان الأخ ليون يقشعرّ من الحقيقة فليفرخ روعه: إنه لن يصادفها كثيراً في أخويّتنا».

وختمتُ بالنبرة نفسها: «آمين».

* * *

اجتمع في منزلي أصدقاء كثيرون للاحتفال بالإفراج عني، وكان قد شاع خبره منذ الفجر. وتوافق الجيران والتلاميذ والأصدقاء جميعاً على القول بأنّني كنت قد تغيّرت قليلاً في عام واحد من الحبس. جميعاً إلا جوسپ الذي أبى في عناد أن يتعرّف عليّ واستغرق في الحرد ثلاثة أيام كاملة قبل أن يقول لي للمرة الأولى «أبي»!

وما لبث عبّاد أن وصل من ناپولي ليحيّي عودتي، ولكنْ ليحثّني كذلك على ترك رومة بلا إبطاء. ولم يكن ذلك وارداً في خاطري على الإطلاق.

«أمتأكّد أنت من أنّك لو أردت الرحيل في المرّة القادمة فلن تكون سجيناً في قصر القديس أنجلو؟

ـ سيختار الله أن يدعني هنا أو يجعلني أرحل».

وغدا صوت عبّاد صارماً بغتة:

«لقد سبق أن اختار الله. ألم يقل إنّه ينبغي عدم البقاء طوعاً في دار الكفر»؟

وألقيت عليه نظرة مثقلة بالعتاب. وأسرع يعتذر:

«أعرف أنّه ليس من حقّي أن أعظك أنا الذي يعيش في ناپولي ويقدّم الهدايا مرّتين في السنة إلى كنيسة «سان جانڤييه» التي يشرف على أمورها البسكاويون والقشتاليون. ولكنّي أخاف عليك وحقِّ القرآن! إني لأشعر أنّك انخرطت في خصومات لم تُجعل لنا. إنّك تنطلق في حرب مع أحد الباباوات ولا تنجو إلا بموته.

ـ هذه المدينة هي اليوم مدينتي، ولأنْ أكون قد عرفت فيها السجن فلا أراني إلا ازددت تعلّقاً بمصيرها ومصير الناس الذين يصرّفون شؤونها. إنّهم ينظرون إليّ كصديق، وليس في وسعي أن أعاملهم على أنّهم ليسوا سوى «روم».

ـ لكنّ أهلك في مكان آخر، وأنت تتجاهلهم وكأنّ ثلاثين عاماً من حياتك وحياتهم لم تكن قطّ».

واتخذ استراحة قصيرة قبل أن يصفعني بهذا الخبر:

«لقد ماتت أمّك هذا الصيف».

وإذ وضح أن مادالينا كانت على علم بالأمر فقد أقبلت تدفّىء يدي بقبلة مواسية. وتابع عبّاد:

«كنت في تونس أثناء مرضها الأخير. وقد طالبتْ بحضورك.

ـ هل قلت لها إنّني كنت في الحبس؟

ـ أجل! لقد فضّلتُ أن تحتفظ لك بجزعها الأخير على أن تحتفظ بملامتها الأخيرة».

* * *

ولكي يطلب عبّاد الصفح عن كونه مرة جديدة نذير شؤم فقد أحضر لي من تونس صندوقاً صغيراً يحتوي على الأوراق الكبيرة الحجم التي كنت قد دوّنت فيها ملاحظاتي عن أسفاري، والتي سوف أتمكن بها من كتابة العمل الذي كثيراً ما طولبت به منذ وصولي إلى رومة: وصف لإفريقية وما فيها من أشياء مهمّة.

ولم أكن قد خططت السطر الأول بعدُ حين استحوذ على ساعاتي المخصّصة للكتابة مشروع غير معقول ولكنّه خلّاب كان قد اقترُح عليّ أثناء زيارة قام بها إليّ تلميذي القديم هانز بعد عام من خروجي من السجن. فإذ كان قد عزم على العودة إلى ساكس فقد جاء يودّعني ويردّد على مسامعي عرفانه وتقديره للتعليم الذي كنت قد اغدقته عليه ويقدّم لي بالمناسبة أحد أصدقائه، وهو طبّاع ساكسوني مثله ولكنّه مقيم في رومة منذ خمسة عشر عاماً.

وبالعكس من هانز لم يكن الرجل لوثرياً. وكان يقول إنه مريد لمفكّر هولندي كان «غويتشارديني» قد حدّثني عنه: «أيرَزْم». وكان هذا الأخير هو الذي أوحى إليه بهذه الفكرة المجنونة التي جعلها فكرته.

ويتلخص الموضوع في معجم ضخم تثبت فيه كل كلمة بعدد من اللغات من بينها اللاتينية والعربية والعبرية واليونانية والمانيّة ساكس والإيطالبة والفرنسية والقشتالية والتركية وغيرها كثير. وتعهّدت من جهتي بأن أقدّم الأقسام الخاصة بالعربية والعبرية بناء على قائمة طويلة بالكلمات اللاتينية.

وعبّر الطبّاع عن رأيه بحميّة مؤثرة قائلاً:

«لا ريب في أن هذا المشروع لن يرى النور قطّ، في حياتي على الأقل وبالشكل الذي أطمح إليه. ومع هذا فأنا على استعداد لأن أخصّص له وجودي ومالي. فَلأَنْ يعمل المرء على أن يتمكّن جميع الناس من أن يتفاهموا، أفليس هذا أشرف المُثُل؟»

ولقد سمّى الطبّاع الساكسوني هذا الحلم الضخم، هذا الجنون الرائع: «عكس بابل».

عام ملك فرنسا

٩٣١ هـ (٢٩ تشرين الأول «أوكتوبر» ١٥٢٤ م - ١٧ تشرين الأول (أوكتوبر» ١٥٢٥ م)

تساقط الثلج، رسولُ الموتِ والهزيمةِ الباردُ، للمرة الثالثة على طريقي في هذا العام. وكما في غرناطة في بعض فصول الشتاء أيّام طفولتي، وكما في الأطلس في الخريف أيام سعدي، فقد عاد بشكل عاصفة، بشكل نفحة مدمّرة، بشكل همسة مشؤومة من همسات القدر.

وكنت عائداً من «پاڤية» بصحبة «غويتشارديني» بعد أن أنجزنا أغرب السفارات وأكثرها سريّة أيضاً لأنّه من بين جميع أمراء المسيحية كان البابا هو وحده الذي ينبغي أن يعرف مضمونها، وكان ملك فرنسا وحده هو الذي أُخبِر بها حسب الأصول.

وفي الظاهر كان الفلورانسي مكلّفاً من كليمان السابع بمهمّة للمساعي الحميدة. فالشهور الأخيرة كانت دامية. فقد حاولت جيوش الإمبراطور الاستيلاء على مرسيليه صابّة على المدينة مئات قذائف المدافع. بلا جدوى. فقد ردّ الملك فرانسوا بالاستيلاء على ميلانو ومحاصرة «پاڤية». وكان الجيشان يهدّدان بالمواجهة في «لومباردية»، وكان من واجب البابا أن يقي من حدوث معركة دامية. وقد أوضح لي «غويتشارديني» أنّ ذلك كان من واجبه، ولكنّه لم يكن في مصلحته لأنّ المنافسة وحدها بين القوتين المسيحيتين كانت تزوّد الكرسي البابويّ بحيّز ما للاستقلال. «ولكي نتأكّد من أنّ السلام لن يحلّ كان علينا أن نكون وسيطيه».

والمهمّة الأخرى الأكثر شأناً هي التي كنت مَعْنِيّاً بها. فقد علم البابا أنّ أحد سفراء السلطان التركي المعظّم كان في الطريق إلى معسكر الملك فرانسوا. أفلم تكن فرصة طالما تحيّناها لمشافهة العثمانيين؟ وكان ينبغي أن نكون أنا و«غويتشارديني» عند أسوار «پاڤية» في الوقت الذي يكون فيه هذا المبعوث قد

وصل إليها وأن ندنو منه وننقل إليه رسالة شفوية من كليمان السابع.

وعلى الرغم من البرد فقد بلغنا الخطوط الفرنسية في أقلّ من أسبوع. وكان أوّل من استقبلنا نبيلٌ عجوز عالي المقام هو الماريشال «شابان» سيّد «لاپاليس» الذي كان يعرف «غويتشارديني» معرفة وطيدة. وقد أبدى دهشته لزيارتنا نظراً لأنَّ مبعوثاً آخر من البابا هو مؤرّخ الوثائق «ماتيو جيبرتي» كان قد وصل قبل أسبوع. ومن غير أن يُسقَط في يد رفيقي أجاب بنبرة نصفها تلميح ونصفها هزل أنّه من الطبيعي أن «يُسبَق المسيح بيوحنّا المعمدان».

وكانت حذلقة مفيدة في الظاهر لأنّ الملك استقبل الفلورانسي في اليوم نفسه. وأمّا أنا فلم يُسمح لي بحضور المقابلة، غير أنّي استطعت تقبيل يد الملك، وهذا ما لم أكد احتاج فيه إلى الانحناء لأنّه كان يطاولني بشبر كامل. وانزلقت عيناه عليّ انزلاق ظلّ تحدثه قصبة، وذلك قبل أن تتبعثر نظراتها في ألف بريق خاطف، فيما كانت عيناي تحدّقان بافتتان في نقطة محدّدة من وجهه حيث كان الأنف الضخم يحمي الشاربين الدقيقين النازلين ببسالة من فوق الشفتين. ولا ريب في أن هذا التعقيد هو السبب في أن ابتسامة فرانسوا تبدو متهكّمة حتّى حين يريد أن يكون عطوفاً.

خرج «غويتشارديني» متهلّلاً من الخيمة المستديرة التي جرت فيها المقابلة. فقد أكّد له الملك أنّ العثماني سيصل في اليوم التالي وأبدى اغتباطه لاتصال يتمّ بين رومة والقسطنطينية. وعلّق الفلورانسي على ذلك بقوله:

«ماذا في وسعه أن يرجو خيراً من مباركة الأب الأقدس في الوقت الذي يقيم فيه حلفاً مع الكفّار؟»

ثم أضاف بادِيَ الحبور لأنّه أخذني هكذا على حين غرة:

«لقد أخبرتُ بوجودك معي كما بمعرفتك اللغة التركية. وقد سألني جلالته عمّا إذا كنت تستطيع القيام بمهمّة الترجمان».

ومع ذلك فإنّه عندما دخل المبعوث العثماني وأخذ بالكلام بقيت صامتاً عاجزاً عن فتح شفتيّ، بل عاجزاً حتى عن التنحنح. ورمقني الملك بنظرة قاتلة، واحمرّ

«غويتشارديني» من الغضب والارتباك. ومن حسن الحظّ أنّه كان مع الزائر ترجمانه الخاصّ الذي كان يعرف فوق ذلك لغة فرانسوا.

رجل واحد من بين جميع الحاضرين كان قد فهم بلبالي وشاطرني إيّاه على الرغم من أنّ منصبه كان يحتّم عليه ألا يدع شيئاً يُستشفّ، على الأقلّ حتى يكون قد أنجز احتفال التقديم الخطير. وما إن قرأ السفير رسالة السلطان بصوت مرتفع وتبادل مع الملك بعض الأحاديث البهيجة حتّى اقترب منّي وضمّني بحرارة إليه وهو يقول عالياً:

«كنت أعلم أني سأجد في هذا المعسكر أصدقاء وحلفاء، بيد أنّني ما كنت أتوقّع قطّ أن أجد فيه أخاً فقدته منذ سنوات طويلة».

وعندما نقل مترجم الوفد العثماني هذه الأقوال توجّهت أنظار الحضور إليّ وتنفّس «غويتشارديني» من جديد. وأمّا أنا فلم يكن على شفتيّ غير كلمة مذهولة غير مصدّقة. «هارون!»

لقد قيل لي في العشيّة إن سفير السلطان التركي المعظّم يُدعى هارون باشا، غير أنّي لم أكن قد رأيت في لحظة ما أدنى رابطة بينه وبين أعزّ أصدقائي، بينه وبين أقرب الناس صلة قربى منّي، بينه وبين شبه شقيق لي.

وكان علينا أن ننتظر المساء ليتسنّى لنا اللقاء وحيدين تحت الخيمة الفخمة التي نصبتْها له حاشيته. وكان سعادة «المنقِّب» يعتمر عمامة عالية ثقيلة من الحرير الأبيض مزيّنة بياقوتة كبيرة وريشة طاووس. لكنّه لم يلبث أن خلع ذلك كلّه بحركة تنمّ عن التخلّص كاشفاً عن رأس قلّ شعره ووخطه المشيب.

وسعى من غير مواربة إلى إشباع فضولي البديهيّ بقوله:

«كثيراً ما اجتزت بعد رحلتنا المشتركة إلى القسطنطينية الباب العالي مبعوثاً من عروج ذي اللحية الحمراء رحمه الله! ثمّ من أخيه خير الدين. وتعلّمت التركية وكلام أهل البلاط، واصطفيت لنفسي أصدقاء في الديوان وفاوضت في قضية ربط الجزائر بالسلطنة العثمانية. ولسوف أعتزّ بهذا إلى يوم الدين».

وروّحت يده الهواء بحركة رحبة وتابع:

«وهناك الآن من تخوم فارس إلى سواحل المغرب، ومن بلغراد إلى اليمن السعيد إمبراطورية إسلامية واحدة يشرّفني صاحبها بثقته ورعايته».

واستطرد بهلجة عتاب غير مقنّعة:

«وأنت ماذا فعلت في كلّ هذه السنين؟ أصحيح أنّك في الوقت الحاضر شخصية مرموقة في بلاط البابا؟»

واستعملت عن عمد عبارته بالذات:

«إنّ قداسته يشرّفني بثقته ورعايته».

ورأيت من الخير أن أضيف وأنا أشدّ على كلّ كلمة:

ولقد أرسلني إلى هنا للقائك. فهو راغب في إقامة صلة بين رومة والقسطنطينية».

لو كنت أتوقّع بعض التأثر أو بعض الفرح أو بعض الدهشة لقاء هذا الإعلان الرسمي لغدوت حانقاً أشدّ الحنق. فقد بدا هارون بغتة منشغلاً ببقعة وحل على مقلب ردنه الفضفاض. وبعد أن حكّها ونفخ عليها لإزالة كلّ أثر لها تنازل فنطق بلهجة تنمّ عن خفّة متكلّفة:

«بين رومة والقسطنطينية، قلت؟ وما الغاية من ذلك؟

- من أجل السلام. أليس رائعاً أن يتمكّن المسيحيون والمسلمون حول البحر المتوسط بأسره من العيش والمتاجرة معاً بلا حروب ولا قرصنة، أن أستطيع أنا الذهاب من الإسكندرية إلى تونس مع أسرتي من غير أن يخطفني أحد الصقلّيين؟»

من جديد كانت تلك البقعة المعاندة على كمّه. ودعكها دعكاً شديداً ونفضها بقوة قبل أن يوجّه إليّ نظرة خلت من الكياسة ويقول:

«أصغ إليّ يا حسن! إذا كنت تريد أن تتذكّر صداقتنا وسنواتنا في المدرسة وعائلتنا وزواج ابني من بنتك قريباً فلنتحدّث بدعة حول مائدة حافلة، ولسوف والله أتذوّق هذه اللحظة كما لم أتذوّق غيرها من قبل. وأمّا إذا كنت مبعوث البابا وأنا مبعوث السلطان فلنتناقش عندئذٍ بشكل آخر!»

وحاولت الدفاع عن نفسي بقولي:

«ما الذي تأخذه عليّ؟ إنّي لم أتكلّم إلا عن السلام. أليس طبيعياً أن تكفّ أديان الكتاب عن التذابح؟»

وقاطعني قائلاً:

«أعلم أنّ الذي يفرّق بين القسطنطينية وروما، وبين القسطنطينية وباريس، هو الدين، وأنّ الذي يقرّب هو المصلحة، نبيلة كانت أو خسيسة. لا تحدّثني عن السلام ولا عن الكتاب لأنّ الموضوع ليس هذا، وليس هذا ما يفكّر فيه أسيادنا».

لم استطع قطّ مذ كنّا طفلين من احتمال النقاش في وجه «المنقّب». وكان في جوابي ما ينمّ عن التسليم:

«ومع ذلك فإنّي أرى مصلحة مشتركة بين سيّدك وسيّدي، فلا الواحد ولا الآخر يريد رأية إمبراطورية شارلكان تنبسط على أوروبا بأسرها، ولا على بلاد البربر!»

وابتسم هارون وقال:

«الآن وقد أمسينا نتكلّم اللغة نفسها أستطيع أن أقول لك ما جئت أفعل هنا. إني أحمل إلى الملك هدايا ووعوداً، وحتّى مئة من الخيّالة البواسل الذين سيقاتلون إلى جانبه. إنّ معركتنا واحدة: أتعلم أنّ جيوش فرانسوا قد أسرت «أوغو دو مونكادا»، الرجل الذي هزمته أنا نفسي أمام الجزائر بعد موت عروج؟ أتعلم أنّ اسطولنا قد تلقّى الأمر بالتدخّل إذا حاول الإمبرياليون من جديد الاستيلاء على مرسيلية؟ لقد عزم مولاي على عقد الحلف مع الملك فرانسوا، ولسوف يضاعف لهذه الغاية بوادر الصداقة.

ـ هل في مقدورك أن تعِد الملك بألا يُتابع الهجوم العثمانيّ على أوروبا؟»

وبدا هارون مُرْهَقاً من سذاجتي فقال:

«إذا نحن هاجمنا المجر الذين ليس عاهلهم سوى نسيب الإمبراطور شارل فلن يفكّر ملك فرنسا قطّ في مؤاخذتنا على ذلك. والأمر نفسه إذا نحن حاصرنا «فيينّا»

التي يحكمها شقيق الإمبراطور.

- ألا ينتقد ملكَ فرنسا نظراؤه إذا سمح بغزو الأراضي المسيحية على هذا النحو؟

بلا شكّ، ولكنّ مولاي مستعدّ لإعطائه في المقابل حقّ النظر في مصير كنائس القدس والمسيحيين في المشرق».

وصمتنا كلانا برهة غارقَيْن في أفكارنا. واستند هارون إلى صندوق منقوش وابتسم وقال:

«عندما قلت للملك فرانسوا إنّي حملت إليه مئة مقاتل بدا مُحْرَجاً. واعتقدت لحظة أنّه سيرفض تركهم يقاتلون إلى جانبه، لكنّه انتهى إلى شكري بحرارة. وقد أشاع في المعسكر أنّ هؤلاء الخيّالة كانوا من أتباع السلطان المسيحيين».

واستطرد من غير فترة انتقال:

«متى ستعود إلى أهلك؟»

وأجبت متردّداً:

«في يوم من الأيام عندما تفقد رومة جاذبيّتها في نظري.

- لقد أخبرني عبّاد السوسيّ عندما رأيته في تونس أنّ البابا حبسك طوال عام في قلعة.

- لقد انتقدته من غير تحفّظ».

واجتاحت هارون بغتة نوبة من الضحك المفرط وقال:

«أنت، حسن بن محمد الغرناطي، سمحت لنفسك بانتقاد البابا في قلب مدينة رومة! بل إنّ عبّاداً قال لي إنّك أخذت على هذا البابا أنّه غريب.

- ليس الأمر هكذا بالضبط. بيد أنّي كنت أعير تفضيلي بالفعل لإيطالي، وإن أمكن فلمديتشيّ من فلورنسا».

وشُدِه صديقي إذ لاحظ أنّي كنت أجيبه بأكثر ما في الدنيا من جدّ فقال:

«تقول مديتشيّ؟ حسناً، سوف أطالب منذ عودتي إلى القسطنطينية بأن يُسحب شرف الخلافة من العثمانيين ويُعاد إلى واحد من سلالة العبّاس».

وداعب بعناية عنقه ورقبته وهو يردّد وكأنّ ما يردّده لازمة مكرورة:

«تقول إنك تفضّل مديتشيًا؟»

وبينما كنت أتحدّث على هذا النحو إلى هارون كان «غويتشارديني» يرسم أغرب الخطط مقتنعاً بأنّ علاقاتي بمبعوث السلطان التركي المعظم تمثّل حظّاً لا يُعقل للدبلوماسية البابوية. وقد اضطررت إلى التخفيف من حدّته، وإلى إشعاره على الأخصّ بكلّ اللامبالاة التي أظهرها نسيبي. بيد أنّ الفلورانسي أزاح جميع اعتراضاتي بضربة من ظاهر اليد وقال:

«لن يتوانى هارون باشا بوصفه سفيراً عن أن ينقل إلى السلطان التركيّ المعظّم انفتاحاتنا. لقد خُطيت الخطوة الأولى، ولن نلبث طويلاً لنستقبل في رومة مبعوثاً عثمانياً. وربما ذهبنا أنا وأنت إلى القسطنطينية».

ولكنْ كان علينا قبل الذهاب إلى أبعد ممّا فعلنا أن نقدّم حساباً عن مهمّتنا إلى البابا.

* * *

كنا قد هُرعنا إلى رومة عندما فاجأتنا العاصفة الثلجية التي تحدّثت عنها على بضعة أميال من بولونية. ومنذ النديف الأول تمثّلت لخاطري مأساة الأطلس. وظننتني عائداً إلى تلك اللحظات الرهيبة التي كنت قد أحسست فيها بأنّي محاصر بالموت حصاري بذئاب جائعة، وبأنّي غير مرتبط بالحياة إلا بوساطة يد «هبتي» التي كنت أمسك بها في حنق. وأخذت أهمس بلا انقطاع باسم جاريتي الجميلة النوميدية وكأنّه ما من امرأة خَلَفَتْها في فؤادي.

وتضاعفت حدّة الريح، واضطرّ الجنود الذين كانوا يواكبوننا إلى الترجّل في محاولة للاحتماء. وحذوت حذوهم، وكذلك فعل «غويتشارديني» الذي لم يطل بي الأمر أن فقدته من دائرة نظري. وخيّل إليّ أنّي أسمع صرخات ونداءات وعواءات. وكنت ألمح من حين إلى حين طيفاً هارباً فأحاول اللحاق به، بيد أنّه

كان يغيب في كلّ مرّة في الضباب. وما لبثت راحلتي أن أفلتت مني. وجريت على غير هدى فاصطدمت بشجرة فتشبّثت بها مقرفصاً مرتعداً. وعندما هدأت العاصفة وتقدّم منّي أحدهم كنت مطروحاً بلا حراك غارقاً في الثلج وقد كسر أحد الجياد الهائجة ساقي اليمنى. والظاهر أنّي لم ألبث غارقاً طويلاً، الأمر الذي جنّبني أن تُبتر ساقي. بيد أنّي كنت عاجزاً عن السير وكان صدري يشتعل ناراً.

عدنا إذن إلى بولونية حيث أنزلني «غويتشارديني» فندقاً صغيراً مجاوراً لمدرسة الإسبانيين العالية. وأمّا هو فقد رحل من غير أن ينسى التنبؤ بأنّي سأستوي واقفاً بعد عشرة أيام ويكون في مقدوري اللحاق به إلى البلاط البابوي. ولكنّ ذلك لم يكن إلا لطمأنتي لأنّه ما إن وصل إلى رومة حتى نصح مادالينا بأن تنضمّ إليّ هي وجوسپ، وأن تحمل إليّ أوراقي وملاحظاتي لأتمكّن من التغرير بالضجر بالكتابة. ولم أكن أتوصّل في الواقع إلى التعوّد على عدم الحركة، ولا كنت أنفكّ عن إبداء الغضب في الأيّام الأولى لاعناً طوال اليوم الثلج والقدر وذلك المسكين مدير الفندق الذي كان يخدمني مع ذلك بصبر جميل.

وكان عليّ ألاّ أغادر حجرتي حتى نهاية ذلك العام. وكادت تقضي عليّ نزلة صدرية، وما كدت أشفى منها حتى بدأت ساقي تسبّب لي الإزعاج. فقد كانت متجمّدة ومتورمة إلى حدّ خشيت معه البتر من جديد. وأخذت بدافع الغيظ والقنوط أعمل وأعمل ليل نهار. وهكذا استطعت أن أنجز الترجمات العربية والعبرية التي كنت وعدت بها الطبّاع الساكسوني. كما تمكّنت في ذلك العام من كتابة الكتب الستّة الأولى من «وصف إفريقية». وما هي إلا بضعة أشهر حتى استسلمت إلى اللذّات التي كانت توفّرها لي حالة الكاتب المقيم والرحّالة التائب والتلذّذ بالأفراح اليومية التي تغدقها أُسرتي الصغيرة. ولم يفُتني أن أحتفظ بعين قلقة على الأحداث المُحْدِقة بي.

كنت لا أزال بين حُمّيينْ عندما أخبرتني مادالينا في أوائل شهر آذار (مارس) بالأنباء التي كانت قد بدأت تهزّ إيطاليا: كانت الجيوش الإمبريالية قد سحقت جيش الملك فرانسوا عند «پاڤية». وشاع خبر في البداية بأنّ فرانسوا كان قد قُتِل؛ لكنّني ما لبثت أن علمت بأنّه كان فقط قد أُسِر. بيد أنّ الوضع لم يكن أقلّ بلاء، فمهما يكن مصير الملك فقد كان واضحاً أنّه لم يكن في وسع الفرنسيين أن يقفوا

قبل زمن طويل في وجه مطامح الإمبراطور.

وفكّرت في كليمان السابع. لقد أبدى كثيراً من التعاطف مع فرانسوا بحيث لم يكن من الممكن ألاّ يتحمّل نصيبه من الهزيمة. فكيف سيتخلّص من هذه الخطوة الرديئة؟ أيتصالح مع شارلكان ليتّقي غضبه؟ أم أنّه سوف يستخدم بالعكس نفوذه لجمع أمراء المسيحية في وجه إمبراطور أصبح شديد النفوذ والخطر على الجميع؟ لكنت بذلت كل غالٍ لو أستطيع محادثة البابا. وأكثر من ذلك محادثة «غويتشارديني»، ولا سيّما بعد أن وصلتني منه رسالة في أوائل الصيف تحمل هذه العبارة الملغزة المرعبة بسخريتها: «لم يبق لإنقاذ رومة سوى معجزة، ويودّ البابا أن أقوم بها أنا!»

عام «العصابات السوداء».

٩٣٢ هـ (١٨ تشرين الأول «أوكتوبر» ١٥٢٥ م - ٧ تشرين الأول «أوكتوبر» ١٥٢٦ م)

انتصب أمامي تمثالاً من اللحم والحديد، من الضحكات المجلجلة وصيحات الغضب العارمة.

«أنا ساعد الكنيسة المسلّح!»

ومع ذلك كان يُدعى «الشيطان الأكبر»، وكان محبوباً على هذا النحو جموحاً مقداماً وثّاباً مستولياً دفعة واحدة على النساء والقلاع؛ وكان مرهوب الجانب، وكان الناس يخافون عليه ويدعون الله أن يحميه ويُبعده.

قال كليمان السابع بحنان واستسلام «هو ابن عمّي جيوڤاني الذي لا يُرجى صلاحه».

وكان وحده، بوصفه مرتزقاً ومن آل مديتشي، يمثّل إيطاليا بأسرها. وكانت الجيوش التي يقودها على شاكلته تُباع وتُشترى، وكانت كريمة سخيّة، وطاغية ومحبّة للعدل، وغير آبهة بالموت. وكانت قد وضعت نفسها في ذلك العام في خدمة البابا. وكانت تسمّى «العصابات السوداء»، وما لبث زعيمها أن عُرف، لا بوصفه يوحنّا دو مديتشي، وإنما بوصفه يوحنّا «العصابات السوداء».

ولقد قابلته في بولونية. فلقد أصررت لدى خروجي الأول على زيارة قصر السيد «جاكوپو سالڤياتي»، وهو أحد نبلاء المدينة الأجلّاء، وكان قد شملني برعايته طوال مرضي مُرْسِلاً إليّ بلا انقطاع المال والكتب والثياب والهدايا. وكان «غويتشارديني» قد رجاه أن يجعلني في كنفه فوفى بهذه المهمّة برأفة أبوية، ولم يدع أسبوعاً يمرّ من غير أن يرسل أحد غلمانه للاطمئنان عن صحتي. وكان «سالڤياتي» هذا أشدّ شخصيات بولونية اعتباراً، وكان يعيش بترف خليق بأكبر آل مديتشي.

والحقّ أنّ امرأته لم تكن غير أخت البابا ليون، وأنّ ابنته ماريا كانت قد تزوجّت يوحنّا «العصابات السوداء». وينبغي أن يُقال لسوء حظّها لأنّها نادراً ما كانت تراه، وكان ذلك يتمّ بين حملتين أو بين قصّتي غرام أو بين مضاجعتين.

وكان حضوره في هذا العام من أجل ابنه الذي له من العمر ست سنوات، أكثر ممّا كان من أجل زوجته. وكنت أدنو من قصر «سالڤياتي» متّكئاً على كتف مادالينا عندما سُمع صوت الموكب. وكان يحيط بقائد المرتزقة أكثر من أربعين من المخلصين على جيادهم. وكان بعض المارّة يهمسون باسمه، وبعضهم الآخر يهلّلون له، وكان آخرون يحثّون الخطى. أمّا أنا ففضّلت أن أفسح له الطريق نظراً لأن مشيتي كانت لا تزال بطيئة غير واثقة. وصاح من بعيد: «كوزيمو!»

وظهر في الطبقة العليا طفل من خلال إحدى النوافذ. وانطلق يوحنّا خبباً، وإذ أصبح تحت الطفل شهر سيفه وحدّده نحوه وصرخ: «اقفز!»

كاد يُغمى على مادالينا. وغطّت عينيها. أمّا أنا فجمدت في مكاني. ومع هذا فإنّ السيد «جاكوپو» الذي خرج للقاء صهره لم يقل شيئاً. وكان يبدو بالطبع أنّه متضايق، ولكنْ تضايُقَ المرء حيال بؤس يوميّ لا حيال مأساة. ولم يبدُ الصغير «كوزيمو» مندهشاً قطّ، ولا حتى متأثّراً. ووضع رجلاً على الطنف وقفز في الفراغ. وفي اللحظة الأخيرة ترك الأب سيفه وتلقّاه من تحت إبطيه ومدّ به ذراعيه ورفعه فوق رأسه وقال:

«كيف حال أميري؟»

وضحك الطفل والأب، كما ضحك جنود المواكبة. وجهد «جاكوپو سالڤياتي» في أن يبتسم، وإذ رآني قادماً فقد انتهز الفرصة لتبديد التوتّر وقدّمني بكثير من الاحتفال إلى صهره قائلاً:

«السيد يوحنّا ـ ليون، جغرافيّ وشاعر ودبلوماسيّ في البلاط البابوي».

وترجّل المرتزق، وأعاد إليه أحد رجاله سيفه فأغمده وهو يقدّم نفسه إليّ بمرح مفرط: «أنا ساعد الكنيسة المسلّح!»

كان شعره قصيراً وشارباه كثّين أسمرين مقصوصين من الطرفين، وكان يملك

نظرة اخترقتني بأشدّ ممّا يخترق الرمح. وبدا لي الرجل للتوّ سمجاً جدّاً. غير أنّي لم ألبث أن غيّرت رأيي وقد فتنتني كما فتنت كثيراً غيري مَلَكته العجيبة في التخلّي عن روح المصارع ليغدو وقد اجتاز باب غرفة من غرف الاستقبال فلورنسياً وواحداً من آل مديتشي خلّاباً برهافته وثقوب فكره.

«قيل لي إنّك كنت في «پاڤية».

ـ لم أمكث فيها سوى بضعة أيّام بصحبة السيد «فرانشسكو غويتشارديني».

ـ أنا نفسي لم أكن بعيداً من هناك. كنت أتفقّد عساكري على طريق ميلانو. وعندما عدت كان المبعوث العثمانيّ قد رحل. وأنت أيضاً على ما أظنّ».

وابتسم ابتسامة خبيثة. ولكيلا أفضح مهمّتي فقد سكتّ وتحاشيت أن تلتقي عيناي عينيه. وتابع:

«علمت أنّ رسالة ذهبت حديثاً من باريس إلى القسطنطينية تطلب إلى الأتراك مهاجمة هنغاريا لإجبار شارلكان على تحويل نظره عن إيطاليا.

ـ أليس ملك فرنسا سجيناً في إسبانيا؟

ـ هذا لا يمنعه من مفاوضة البابا والسلطان ومن إرسال التعليمات إلى أمه، الوصيّة على عرش فرنسا.

ـ ألم يُقَل إنّه برسم الموت؟

ـ لم يعُد كذلك. لقد غيّر الموت رأيه».

وإذ كنت مستنكفاً عن التعبير عن أيّ رأي شخصي، مقتصراً على طرح الأسئلة، فقد سألني يوحنّا بشكل مباشر:

«ألا تعتقد أنّ في الأمر ائتلافاً عجيباً: البابا متحالفاً مع فرانسوا المتحالف مع السلطان المعظّم؟»

هل كان يسعى إلى اكتناه عواطفي تجاه العثمانيين؟ أم إلى معرفة ما قد يكون دار مع هارون باشا؟

«أظنّ أنّ السلطان المعظّم، على الرغم من قوّته، لا يملك تقرير مصير حرب في إيطاليا. إنّ مئة رجل حاضرين في ساحة القتال أهمُّ من مئة ألف موجودين في الجهة الأخرى من الدنيا.

ـ من هو الأقوى في إيطاليا برأيك؟

ـ جرت معركة في «بافية»، وينبغي جيّداً استخلاص نتائجها».

لقد بدا واضحاً أنّ جوابي قد سرّه. فغدت نبرته نبرة صداقة، بل حتى نبرة إعجاب وقال:

«إنّي سعيد بسماع هذه الأقوال لأنّ البابا في رومة متردّد وصديقك «غويتشارديني» يدفعه إلى محاربة شارل والتحالف مع فرانسوا، حتّى في الوقت الذي يقبع فيه ملك فرنسا سجين الإمبراطور. ولا استطيع في الوضع الذي أنا فيه أن أعبّر عن تحفّظاتي من غير أن أُشعِر بأنّني أهاب المواجهة مع الإمبرياليين، غير أنّك ستدرك في وقت قريب أنّ يوحنّا المجنون هذا ليس خِلْواً من الحكمة، وأنّ ذلك الحكيم الكبير «غويتشارديني» يسعى إلى ارتكاب عمل جنوني ويحمل البابا على ارتكاب عمل جنوني».

وإذ رأى أنّه قد أطال في الكلام بجدّ فقد شرع يقصّ خبر صيدهِ الأخير الخنزيرَ البريَّ مُرْفَقاً بعدد كبير من النكات والمُلَح، قبل أن يعود بغتة إلى ما كان فيه:

«عليك أن تقول ما تراه للبابا. لماذا لا ترجع معي إلى رومة؟».

والحق أنّه كان في نيّتي أن أضع حدّاً لإقامتي الطويلة الاضطرارية في بولونية. وأسرعت إلى قبول الاقتراح قائلاً لنفسي إنّ رحلة إلى جانب يوحنّا ستكون سارّة جدّاً وخالية من الخطر لأنّه ليس في وسع لصّ الاقتراب من مثل هذا الموكب. وعليه فقد وجدت نفسي منذ اليوم التالي مسافراً مع مادالينا وجوسب محاطين بمحاربين أشدّاء من «العصابات السوداء» انقلبوا للمناسبة إلى رفاق في غاية اللطف.

***

وبعد مسيرة ثلاثة أيام بلغنا مقرّ يوحنا، وهو قصر رائع يُدعى «إيل تريبيو»،

فقضينا فيه الليل. وفي ساعة مبكّرة من صباح اليوم التالي اجتزنا فلورنسة. وقال قائد المرتزقة متعجباً:

«لا بدّ أنّك المديتشيّ الوحيد الذي لا يعرف هذه المدينة!

ـ كدنا نتوقّف فيها ونحن ذاهبان أنا و«غويتشارديني» إلى «پاڤية»، ولكنّنا لم نكن نملك الوقت لذلك.

ـ إنه لوقت بربريّ جدّاً هذا الذي يمنعك من رؤية فلورنسة!»

ولم يلبث أن أضاف:

«في هذه المرة أيضاً يدهمنا الوقت، ولكنّني سوف آخذ على نفسي أنْ لم أجعلك تقوم بجولة فيها».

لم يسبق لي قطّ أن زرت مدينة وكان دليلي فيها جيشاً. فمن شارع «لرغا» الطويل إلى قصر آل مديتشي الذي نفذنا بشكل عاصف إلى فنائه المُعَمَّد كان الأمر عرضاً عسكرياً صباحياً. وحضر خادم يدعونا إلى الدخول، بيد أنّ يوحنّا رفض بجفاء.

«هل السيد «ألسندرو» موجود؟

ـ أعتقد أنه نائم.

ـ والسيد «أيپوليتو»؟

ـ نائم كذلك. هل عليّ أن أوقظهما؟

وهزّ يوحنّا كتفيه بازدراء وأدار لجواده العنان. وقام ونحن خارجون ببضع خطوات إلى اليمين ليريني بناء قيد التشييد وقال:

«كنيسة القدّيس «لورنزو». ههنا يعمل الآن ميكلانجلو بيوناروتي، غير أنّي لا أجرؤ على أخذك إليها لأنّه قد يطردنا. إنّه لا يحب آل مديتشي قطّ، ثم إنّه لجافي الخُلُق. وهذا ما جعله على كلّ حال يعود إلى فلورنسة. إنّ معظم فنّانينا يقيمون في رومة. بيد أنّ ليون العاشر الذي كان قد استدعى كثيراً من ذوي المواهب للإقامة

بالقرب منه فضّل أن يُبعد ميكلانجلو ويعهد إليه بعمل هنا».

وعاد يسلك الطريق باتّجاه القبّة. وعلى جانبي الطريق بدت لي المنازل حسنة التنظيم مزّينة بذوق، ولكنْ كان قليل جداً منها بمثل فخامة منازل رومة. واعترف دليلي بأنّ «المدينة الخالدة حافلة بأعمال الفن، غير أنّ فلورنسة بأسرها رائعة من الروائع، والناس مدينون للفلورنسيين بأحسن ما في كلّ فنّ من الفنون».

وخيّل إليّ أنّي أستمع إلى فاسيّ!

وعندما بلغنا ساحة «ديلا سينيوريا»، وفي اللحظة التي اقترب فيها وجيه متقدّم في العمر يرتدي عباءة طويلة من يوحنّا ليبادله بعض الحديث أخذت زمرة من الأشخاص تهتف بشعار التقاء آل مديتشي الذي أجاب عنه رفيقي بتحية وهو يقول لي:

«لا تظننّ على الأخصّ أنّ جميع أفراد عائلتي يُهتف لهم على هذا النحو. فأنا الوحيد الذي ما يزال يتمتّع ببعض الحظوة لدى الفلورنسيين. ولو أن ابن عميّ يوليوس، أريد أن أقول البابا كليمان، قرّر مثلاً أن يأتي إلى هنا فإنّه لن يُستقبل بغير الهرج والمضايقة. وعلى كلٍّ فإنّه يعرف ذلك تماماً.

ـ أليست هذه المدينة موطنك؟

ـ آه يا صديقي! إنّ فلورنسة عشيقة غريبة في نظر آل مديتشي! وعندما نكون بعيدين تنادينا بصرخات عالية؛ وعندما نلتقيها تلعننا.

ـ وماذا تريد اليوم؟»

وبدا ساهماً. وأوقف حصانه في وسط الطريق عند مدخلِ الجسر القديم الذي أفسح له فوقه الناس مع ذلك السبيل وكانت تصدر منه بعض الهتافات، وقال:

«إنّ فلورنسة تريد جيّداً أن يحكمها أمير، شرطِ أن يكون حكمه جمهورياً. وفي كلّ مرّة كان فيها أجدادنا يَنْسَوْنَ ذلك كانوا يندمون أشدّ الندم. واليوم يمثّل آل مديتشي في مسقط رأسهم هذا المغرور الشاب المدعو «ألسّندرو». إنّه يكاد يكون

في الخامسة عشرة ويتصوّر أنّه ما دام من آل مديتشي وابن بابا فإن فلورنسة بنسائها وخيراتها ملك له.

ـ ابن بابا؟»

لم تكن دهشتي مُصْطَنَعة. وانفجر يوحنّا ضاحكاً وقال:

«لا تقل لي إنّك عشت سبع سنوات في رومة من غير أن تعرف أن «ألسّندرو» هو ابن غير شرعي لكليمان؟»

واعترفت بجهلي. ووجد لذّة في إنارة سبيلي بقوله:

«عندما لم يكن ابن عمّي بعدُ بابا ولا كردينالاً تعرّف في ناپولي على جارية عربيّة فأنجبت له هذا الابن».

وكنّا قد بدأنا نصعّد نحو قصر «پيتي». وما لبثنا أن اجتزنا الباب الرومانيّ الذي هُتف عنده من جديد ليوحنّا. غير أنّه إذ كان غارقاً في همومه فقد أهمل الردّ على الجمهور فأسرعت أقوم بذلك بدلاً منه، الأمر الذي أفرح ابني جوسپ فرحاً بلغ حدّ التوسّل إليّ بأن أقوم إلى ما لا نهاية بالحركات نفسها مقهقهاً جدّاً في كل مرّة.

* * *

في يوم وصولنا بالذات إلى رومة أصرّ يوحنّا «العصابات السوداء» على أن نذهب معاً إلى البابا. ووجدناه مجتمعاً إلى «غويتشارديني» الذي لم يبد قطّ مسروراً لقدومنا. فلقد كان ولا شكّ قد أقنع الأب الأقدس باتّخاذ قرارٍ شاقّ ما وكان يخشى أن يجعله يوحنّا يغيّر رأيه. ولكي يُخفي قلقه ويسبر غور نيّاتنا فقد اختار كالعادة طريقة المزاح:

«ألا يمكننا قطّ أن نجتمع بوصفنا فلورنسيين من غير أن يكون بيننا عربيّ!»

وابتسم البابا ابتسامة مرتبكة. وأمّا يوحنّا فما فكّر حتى في الابتسام. وأمّا أنا فأجبت باللهجة نفسها وبحركة انزعاج ملحّة:

«ألا يمكننا قط أن نجتمع بوصفنا من آل مديتشي من غير أن ينضم العامّة إلينا!»

وفي هذه المرّة فرقعت ضحكة يوحنّا كالسوط وانهالت يده على ظهري في تربيتة ودّية مهولة. وضحك «غويتشارديني» بدوره واستطرد على الفور في الكلام على أحداث الساعة:

«لقد وَصَلَنا للتوّ بريد على جانب كبير من الأهمية. سوف يغادر الملك فرانسوا إسبانيا قبل يوم الاربعاء الذي يُحتفل فيه بانحلال الجسد».

وتبعت ذلك مناقشة قدّمنا فيها أنا ويوحنّا بشيء من الحياء ذرائع إلى تسوية مع شارلكان. ولكنْ بلا جدوى. فلقد كان البابا بكلّيته تحت تأثير صديقي «غويتشارديني» الذي كان قد أقنعه بـ «الوقوف في وجه قيصر»، وبأنْ يكون روح الائتلاف المناهض للإمبريالية.

* * *

في ٢٢ أيار (مايو ١٥٢٦ م ولد «حلف مقدّس» في مدينة كونياك الفرنسية ضمّ بالإضافة إلى فرانسوا والبابا دوق ميلانو والبنادقة. وكانت تلك هي الحرب، إحدى أفظع الحروب التي عرفتها رومة يوماً. لأنّه إذا كان الإمبراطور قد هادن بعد «پاڤية» فقد كان مصمّماً هذه المرّة على الذهاب حتى النهاية ضدّ فرانسوا الذي كان قد حُرِّر لقاء تعهّد خطيّ ما لبث أن أعلن بطلانه ما إن اجتاز جبال البرانس؛ وبعد ذلك ضدّ البابا حليفِ «الحانث». وكانت الجيوش الإمبراطورية قد بدأت بالتجمع في إيطاليا من جهة ميلانو وترنتو وناپولي. ولم يكن في وسع كليمان لكي يواجههم إلا الاعتماد على شجاعة رجال «العصابات السوداء» وقائدهم. وإذ قدّر هذا أن الخطر الرئيسي كان من الشمال فقد ذهب إلى «مانتوفه» مصمّماً على منع العدو من اجتياز نهر «الپو».

وكان لشارلكان أيضاً ويا للأسى حلفاء داخل الدولة البابوية نفسها، عشيرة كانت تُسمى الـ «إمبريالستا». وعلى رأسها الكردينال ذو النفوذ «پومپيو كولونا». وإذ استغلّ هذا الكردينال في أيلول (سبتمبر) بُعْدَ «العصابات السوداء» فقد ظهر في أحياء «بورغو» و«تراستڤيري» على رأس زمرة من النهّابين الذين أضرموا النار في بعض البيوت وأعلنوا في الساحات العامّة أنّهم سوف «يخلّصون رومة من طغيان

البابا». وهُرع كليمان السابع يحتمي في قصر القديس أنجلو مختبئاً خلف الحواجز والمتاريس في حين كان رجال «كولونا» يعيثون فساداً في قصر القديس بطرس. وكدت أنا نفسي أقود مادالينا وجوسب إلى القصر، ولكنّني عدلت أخيراً إذ قدّرت أنّه كان من التهوّر بمكان اجتياز جسر القديس أنجلو في مثل هذه الظروف. وعليه فقد قبعت في منزلي تاركاً للأحداث طوال هذه الساعات العصيبة أن تأخذ مجراها.

والواقع أنّ البابا اضطر إلى القبول بجميع مطالب «كولونا». وقد وقّع تعهّداً يعد فيه بالانسحاب من الحلف ضد الامبراطور والعدول عن كل عِقاب بحقّ الكردينال المذنب. وبالطبع فإنّه ما إن ابتعد المهاجمون حتى أفهم الجميع أنّه ليس في حسبانه أن يحترم معاهدة فُرضت بالإكراه والإرهاب وخرق القدسيّات.

وفي اليوم التالي لذلك العدوان، وفي حين لم يكلّ كليمان السابع عن التفجرّ غضباً على الإمبراطور وحلفائه، ورد إلى رومة نبأ الانتصار الذي حقّقه السلطان سليمان في «موهاك» ونبأ موت ملك المجر نسيب الإمبراطور. واستدعاني البابا يسألني عمّا إذا كان الأتراك سيهاجمون في رأيي ڤيينا، وما إذا كانوا سيدخلون المانيا عمّا قريب أم أنهم سيتوجّهون إلى البندقية. وكان عليّ أن أعترف بأنّي لم أكن أملك أدنى فكرة عن ذلك. وبدا الأب الأقدس قلقاً جدّاً. وكان «غويتشارديني» يقدّر أنّ مسؤولية هذه الهزيمة النازلة بالمسيحيين تقع بكاملها على الإمبراطور الذي كان يتلهّى بالحرب في إيطاليا ويصبّ غضبه على ملك فرنسا بدلاً من الدفاع عن الأراضي المسيحية في وجه الأتراك، وبدلاً من محاربة الهرطقة التي كانت تجتاح ألمانيا. وقد أضاف قائلاً:

«لماذا يُراد أن يخِفّ الألمان لنجدة هنغاريا إذا كان لوثر يقول لهم صباح مساء: «إنّ الأتراك هم العِقاب المرسل إلينا من السماء، والوقوف في وجههم وقوف في وجه مشيئة الخالق!»

ووافق كليمان السابع بهزّة من رأسه. وانتظر «غويتشارديني» خروجنا ليشاطرني سروره البالغ بقوله:

«سوف يغيّر انتصار العثماني مجرى القدر. ولعلّ هذا هو المعجزة التي كنّا ننتظرها».

* * *

وضعت في هذا العام اللمسة الأخيرة لكتابي «وصف إفريقية». ثم قرّرت من غير أن استريح يوماً واحداً أن أنصرف إلى تأريخ حياتي والوقائع التي قدّر لي أن أدانيها. وإذ رأتني مادالينا أعمل بمثل هذا الجنون فقد رأت في الأمر نذير شؤم. وكانت تقول: «كما لو أنّ أيامنا كانت معدودة».

ولقد وددت أنا أن أطمئنها، غير أنّ عقلي كانت تحاصره التخوّفات والهواجس نفسها: رومة تخمد، وإقامتي الإيطالية في طريقها إلى الزوال، ولست أدري متى يُتاح لي الوقت للكتابة.

عام المرتزقة الألمان

٩٣٣ هـ (٨ تشرين الأول (أوكتوبر) ١٥٢٦ م - ٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٥٢٧ م)

أقبل حينئذ عامي الأربعون، عام رجائي الأخير، عام فِراري الأخير.

وكان يوحنّا «العصابات السوداء» يرسل من الجبهة أكثر الأنباء طمأنة مشدّداً أزر البابا وإدارته ورومة بأسرها بالشعور الخدّاع بأنّ الحرب كانت بعيـدة جدّاً وستبقى كذلك. وكان قائد المرتزقة يعد بأنّ «الإمبرياليين» شمالي نهر «البو» وأنّهم لن يجتازوه على الإطلاق». وكان يحلو للناس من «تـراستيفيري» إلى حيّ «تـريفي» أن يُشيدوا ببسالة المديتشيّ ورجالـه. وسواء أكـانوا من أصـل رومانيّ أم عـابرين فـإنّهم كانـوا يتنافسون في ازدراء «هؤلاء الجرمان الـبرابرة» الـذين طالما نظروا، كـما يعرف كـلّ إنسان، إلى المدينة الخالدة بحسد وجشع وعدم إدراك مُقيم.

كنت عاجزاً عن المشاركة في هـذه الحماسـة المجنونـة لفرط مـا كانت محفـورة في ذاكـرتي حكايـات أيام غـرناطـة الأخيرة عنـدما كـان أبي وأمّي وسارة وكـلّ حشـد المنذورين للمنفى مقتنعين بـأنّ الخلاص كـان مؤكّداً، وعنـدما كـانوا يتعهـدون في أنفسهم احتقاراً جماعياً لقشتالة المنتصرة، وعندما كانوا يرمون بالريبة كلّ من تسوّل له نفسه الارتياب بوصول المعونات الوشيـك. وإذ كنت قد تعلمت درساً من محنة أهـلي فقد تعلّمت أن أحـذر من المسلّمات. وحين يتجمّـع كـلّ النـاس حـول رأي واحد أهرب؛ فالحقيقة هي بالتأكيد في مكان آخر.

وكانت ردود فعل «غويتشارديني» بالطريقة نفسها. فإذ عُيّن قائداً عاماً للجيـوش البـابويـة فقد كـان في شمالي إيـطاليا بصحبـة يوحنّـا الذي كـان يراقبـه بخليط من الإعجاب والغضب: «إنّه شديد البسالة، ولكنّـه يخاطـر بحياتـه في أقلّ منـاوشة. والحقّ أنّه لو أصابته مصيبة لاستحال علينا أن نوقف سيل الإمبرياليين». ولم تُعرف

في رومة هذه الشكوى التي ضمّنها رسالة موجّهة إلى البابا إلا عندما انتفى الغرض منها: كانت ساق زعيم «العصابات السوداء» قد تحطّمت من جرّاء إصابتها بقذيفة مدفع خفيف. ولم يكن بدّ من البتر. وكان الظلام قد خيّم وطلب يوحنّا أن يمسك بنفسه المشعل بينما كان الطبيب يقطع له الطرف المصاب بمنشار. وكان عذاباً من غير جدوى لأنّ الجريح أسلم الروح بعد قليل من إجراء العملية.

لقد كان طومان باي الجركسي ويوحنّا «العصابات السوداء» أبسل من عرفتُ من الرجال. وقد قُتل الأوّل على يد سلطان الشرق، وقُتل الثاني على يد إمبراطور الغرب. ولم ينقذ الأوّل القاهرة؛ ولا عرف الثاني كيف يجنّب رومة العذاب الذي كان مكتوباً عليها.

وما إن عُلِم نبأ هذا الموت في المدينة حتى دبّ الذعر في القلوب. ولم يكن العدو قد تقدّم سوى بضعة أميال، ولكنْ ساد الشعور بأنّه بات على أبواب المدينة، وكأن فَقْد يوحنّا كان قد محا من الوجود الأمكنة الحصينة وجفّف الأنهار وسطّح الجبال.

وقد خُيّل في الواقع أنْ ليس في إمكان شيء إيقاف التدفّق. فعندما قُتل زعيم «العصابات السوداء» كان يحاول يائساً منع التقاء قوّتين إمبرياليتين مسلّحتين في شمال إيطاليا، تتألف إحداهما بشكل خاصّ من القشتاليين الذين كانوا في ميلانو، وتتألف الأخرى، وهي أخطر بكثير، من المرتزقة الألمان، وجميعهم تقريباً من اللوثريين المنتمين إلى باڤاريا وساكس وفرانكونيا. وكانوا قد اجتازوا جبال الألب واجتاحو «ترانتونو» بقناعةِ مَنْ تلقى تكليفاً إلهياً: معاقبة البابا الذي اقترف ذنب إفساد المسيحية. عشرة آلاف هرطوقيٍ ثائر يسيرون لملاقاة البابا تحت راية إمبراطور كاثوليكي: تلك كانت المحنة التي نزلت بإيطاليا في ذلك العام.

وقد أتاح موت يوحنّا وانسحاب «العصابات السوداء» المتعجّل على أثره أن يحتشد جميع الإمبرياليين ويجتازوا نهر «البو» مصمّمين على المسير إلى قصر القديس بطرس. وما كانوا ليقلّوا عن ثلاثين ألف جندي مهلهلي الثياب سيّئي الغذاء والرواتب، وكانوا يأملون في رغد العيش وتحسين الأحوال على حساب البلاد. وقد اقتربوا أوّل الأمر من بولونية التي اضطررت إلى دفع جزية كبيرة لتجنّب الأذى ثم كان الدور على فلورنسة التي ظهر فيها الطاعون ودفعت هي أيضاً جزية باهظة

للإفلات من النهب. ونصح «غويتشارديني» الذي كان له دور في هذه الترتيبات بأن يفاوض البابا من أجل اتفاق مماثل.

ومن جديد سادت الحماسة، فقد أخذ الناس يؤكّدون بأنّ السلام في متناول اليد. وفي ٢٥ آذار (مارس) وصل إلى رومة نائب ملك نابولي، «شارل دو لانوا»، مبعوثاً فوق العادة من قبل الإمبراطور لعقد اتّفاق. وكنت وسط الجماهير في ساحة القديس بطرس لمشاهدة لحظة الخلاص هذه. وكان الجوّ حسناً والنهار ربيعياً رائعاً عندما ظهر صاحب المقام العالي يحفّ به حرسه. بيد أنّه في اللحظة التي اجتاز فيها باب الفاتيكان حدث برق تلاه وابل من المطر انهال على رؤوسنا في ضجيج كأنّه من علامات الساعة. وإذ أفقت من الدهشة فقد هرعت احتمي تحت مظلة أحد الأبواب، وما لبث أن حاصرني بحر من الأوحال.

وبجواري كانت امرأة تجأر بالشكوى من نذير الشؤم هذا. وتذكّرت وأنا أسمعها طوفان غرناطة الذي كنت قد عشته في عيني أمي تغمّدها الله برحمته. أيكون ذلك في هذه المرّة أيضاً آية من آيات السماء على حلول كارثة؟ ومع ذلك لم يحصل في ذلك اليوم فيضان من نهر «التيبر» ولا سيول جائحة ولا مجزرة. بل لقد وُقِّع الاتفاق في الأصيل. وقد نصّ على أن يدفع البابا مبلغاً كبيراً من المال لصون مدينته من الخراب.

ودُفع المال بالفعل، وقد قيل لي إنّه كان ستين ألف دوكا. ولكي يثبت كليمان السابع حُسْن نيّاته فقد عزم على تسريح المرتزقة الذين كان قد طوّعهم. بيد أنّ الجيش الإمبراطوري لم يقف مع ذلك تقدّمه. ومن تجرّأ على الحديث عن الانسحاب من الضباط كان نصيبه التهديد بالموت على يد عسكره بالذات؛ وفي إبّان الخصام قضى زعيم المرتزقة الألمان الأعلى من سكتة دماغية وانتقلت القيادة إلى قائد بوربون الأعلى، ابن عمّ ملك فرنسا وعدوّه اللدود. ولم يكن يملك كبير سلطة، وكان يتبع الجيش الإمبراطوري أكثر مما كان يقوده. وما كان لأحد هيبة على هذا الجحفل، ولا حتّى الإمبراطور الذي كان في إسبانيا على كل حال. وهكذا كان يزحف باتّجاه رومة جامحاً لا يرحم ومخرّباً في طريقة كل شيء، فحلّ الذعر أكثر جنوناً يوماً عن يوم محلّ الآمال بالسلام. وما كان الكرادلة على الأخصّ

يفكّرون في غير التواري أو الهرب بكنوزهم.

وأمّا البابا فقد أصرّ على الاعتقاد بأنّ اتّفاقه مع نائب الملك لن يلبث أن يُحترم حتى ولو في اللحظة الأخيرة. وعندما بلغت الجيوش الإمبراطورية نهر «التيبر» على بُعد بضعة أميال صُعُداً من المدينة في نهاية شهر نيسان (إبريل)، عندها فقط قرّر الأب الأقدس تنظيم الدفاع. وإذ كانت الخزائن البابوية فارغة فقد رفع إلى رتبة كردينال ستّة تجّار أغنياء دفعوا للحصول على هذا الامتياز مئتي ألف دوكا. وقد أمكن بهذا المال تأليف جيش من ثمانية آلاف رجل، ألفان منهم من الحرس الحجّاب، وألفا جندي من «العصابات السوداء»، وأربعة آلاف متطوّع من بين أهالي رومة.

لم أكن أشعر وأنا في الأربعين من العمر بالقدرة على حمل السلاح. ومع ذلك فقد عرضت خدماتي لإدارة مستودع الأسلحة والذخائر في قصر القديس أنجلو. ولكي اضطلع كأحسن ما يكون بهذه المهمّة التي كانت تستوجب حضوراً يقظاً ليل نهار فقد قرّرت أن أسكن في الحصن بعد أن تدبّرت أمر إقامة مادالينا وجوسپ إلى جانبي. والحقّ أنّ ذلك كان أحصن مكان في المدينة بأسرها، ولم يلبث أن تقاطر عليه اللاجئون. ولقد شغلت غرفتي القديمة، الأمر الذي جعلني أرى نفسي موسراً لأنّ القادمين الجدد كانوا مُكْرَهين بَعْدُ على التكوّم أَسَراً برمّتها في الأروقة.

وفي أوائل شهر أيّار (مايو) ساد جوّ غريب في هذا المعسكر المرتجل المؤاتي لأكثر الإثارات جنوناً. ولسوف أتذكّر دائماً اللحظة التي وصل فيها نافخ مزمار من الجوقة البابوية وهو يلهث ويصرخ بأعلى صوته: «قتلتُ البوربون! قتلتُ البوربون!».

كان ذاك شخصاً يُدعى «بنڤنوتو شيلّيني» من فلورنسة. وكان أحد إخوته قد قاتل في صفوف «العصابات السوداء»، وأما هو، وكان يعمل نقّاش أوسمة، فلم يكن قد شارك قطّ في أي جيش. ولقد أخبر أنّه ذهب يناوش مع اثنين من أصدقائه ناحية باب «تريتوني»، وقال:

«كان هناك ضباب كثيف، بيد أنّي استطعت تمييز طيف القائد على حصانه. وأطلقت طلقة بندقية. وما هي إلا دقائق حتى انقشع الضباب في ذلك المكان ورأيت البوربوني مسجّى على الأرض، وكان واضحاً أنه مات».

واكتفيت وأنا أسمعه بهزّ كتفيّ. وكان أن زجره بعضهم بعنف، فقد كانت المعركة مستعرة على أسوار المدينة، ولا سيّما من جهة «بورغو» ولم تكن الطلقات قطّ بمثل هذه الشدّة؛ وكان ضجيج حرب وألم وخوف يتعالى من قلب المدينة؛ ولم يكن الوقت وقت مفاخرات.

ومع ذلك فإنّه قبل أن يوليّ النهار كان الخبر ـ وعليّ أن أقول: ويا لعظم دهشتي! ـ قد تأكّد: لقد قُتل البوربوني حقّاً في جوار باب «تريتوني». وعندما أعلنه لنا كردينال وقد أشرق وجهه المتطلّق بابتسامة عريضة تعالت بعض صيحات النصر. وكان إلى جانبي رجل لم يعبّر عن أية فرحة. كان محارباً قديماً من «العصابات السوداء»، وكان يغلي من الغيظ.

«أهذه هي الحرب إذن في أيّامنا؟ إنّ أشجع الفرسان قد يقتله من بعيد نافخ في مزمار بهذه البنادق اللعينة! إنّها نهاية الفروسية! نهاية الحروب المشرّفة!»

وعلى الرغم من هذا فقد غدا نافخ المزمار الفلورنسي بطلاً في نظر الجمهور. وقُدِّم له الشراب، ورُجي أن يقصّ من جديد خبر صنيعه، وحُمل على الأكتاف. وكان احتفال في غير محلّه لأنّ موت البوربوني لم يؤخّر لحظة هجوم الإمبرياليين. بل يُمكن على العكس القول إنّ اختفاء قائد الجيش لم يكن منه إلا أن زاد رجاله جموحاً. فبفضل الضباب الذي أبطل مفعول المدفعية القابعة في قصر القديس أنجلو تسلّق المرتزقة الألمان الأسوار من عدّة جهات وانتشروا في الشوارع. واستطاع بعض الناجين بلوغ القصر حاملين في أعينهم حكايات الأهوال الأولى. ثم تبعهم شهود آخرون.

وأقسم بالله الذي جعلني أجوب الدنيا الواسعة، بالله الذي جعلني أعيش عذاب القاهرة كما عشت عذاب غرناطة، أنّني لم أقارب قطّ هذا القدر من الوحشية، هذا القدر من الحقد، هذا القدر من الاندفاع الدموي، هذا القدر من المتعة في الذبح والتدمير والتدنيس!

فهل أُصدَّق إذا قلت إنّ راهبات قد اغتصبهنّ على مذابح الكنائس مرتزقة يضجّون بالضحك قبل أن يخنقوهنّ؟ هل أُصدّق إذا قلت إنّ الأديرة قد خربت، وأن الرهبان قد خلعت عنهم ملابسهم وأجبروا تحت التهديد بالسوط على دوس

الصليب وإعلان أنهم يعبدون الشيطان الرجيم، وأنّ مخطوطات المكتبات قد غدت إبّالات كبيرة أقيمت للفرح وأخذ الجنود السكارى يرقصون حولها، وأنّه لم ينجُ محراب ولا قصر ولا منزل من النهب، وأنّ ثمانية آلاف مدنيّ، ولا سيّما من الفقراء، قضوا، فيما أُخِذ الأغنياء رهائن حتى يدفعوا جزية؟

ولم يكن في مقدوري وأنا أتأمل من سور القصر أعمدة الدخان الكثيفة التي كانت تتصاعد متزايدة من المدينة أن أطرد من ذاكرتي صورة البابا ليون الذي تنبّأ لدى لقائنا الأوّل بهذه الكارثة: لقد انبعثت روما لتوّها، غير أنّ الموت يتربّص بها! وكان الموت هنا، أمامي، يستشري في جسد المدينة الخالدة.

* * *

كان بعض المسلّحين وبعض الناجين من «العصابات السوداء» يحاولون في بعض الأحيان منع الوصول إلى مفترق طريق، لكنّهم سرعان ما كان يغرقهم سيل المهاجمين. وفي حيّ «بورغو»، ولا سيّما في النواحي المحاذية لقصر الڤاتيكان، صمد الحرس الحجّاب بشجاعة تدعو إلى الإعجاب مضحّين بأنفسهم بالعشرات، بالمئات، من أجل كلّ شارع وكلّ بناء، مؤخّرين ساعات على هذا النحو تقدّم الإمبرياليين. بيد أنّهم ما لبثوا أن استسلموا تحت وطأة العدد، واجتاح المرتزقة الألمان ساحة القديس بطرس وهم يصيحون: «لوثر بابا! لوثر بابا!»

وكان كليمان السابع لا يزال في مصلّاه غير شاعر بالخطر. وجاء أسقف يشدّه بلا تحفّظ من ردنه قائلاً: «يا صاحب القداسة! يا صاحب القداسة! لقد وصلوا! سوف يقتلونك!»

كان البابا جاثياً. ونهض جارياً إلى الممرّ المفضي إلى قصر القديس أنجلو والأسقف ممسك بذيل ثوبه لمنعه من التعثّر. ومرّ في أثناء ركضه أمام إحدى النوافذ فرشقه جندي إمبريالي ببعض الطلقات من غير أن يصيبه.

وقال له رفيقه: «إنّ ثوبك الأبيض صارخ جدّاً يا صاحب القداسة!» وأسرع يغطّيه بمعطفه هو ذي اللون البنفسجي الذي هو أقلّ وضوحاً في الرؤية.

ووصل الأب الأقدس إلى القصر سليماً معافى، ولكنّه كان خائراً أغبر زائغ

البصر غير واضح القسمات. وأمر بإنزال الأبواب المسنّنة لمنع الوصول إلى الحصن ثم احتبس وحيداً في جناحه للصلاة، وربّما للبكاء أيضاً.

استمرّ النهب في المدينة المتروكة للمرتزقة ثلاثة أيام طويلة أخرى. بيد أنّ قصر القديس أنجلو قليلاً ما أزعج. وقد حاصره الإمبرياليون من كلّ صوب من غير أن يجازفوا أبداً بمهاجمته. فقد كانت أسواره صلبة ومدافعه متعدّدة ومتنوّعة الأحجام والأشكال، وكان المدافعون عنه قد صمّموا على الموت عن بكرة أبيهم على أن يَلْقَوْا مصير المدنيين المنكودين.

وكان الناس في الأيام الأولى لا يزالون ينتظرون الإمدادات. وكانوا يعلمون أنّ الإيطاليين المنتمين إلى الحلف المقدّس بقيادة «فرانشسكو ديلا روفيري»، دوق «أوربينو»، لم يكونوا بعيدين عن رومة. وهمس أسقف فرنسي في أذني أنّ السلطان التركي المعظّم قد اجتاز جبال الألب بستين ألف رجل وأنّه سوف يأخذ الإمبرياليين من خلف. ولم يتأكّد الخبر، ولا جرؤ جيش الحلف على التدخّل، بينما كان في وسعه استعادة رومة بلا أدنى صعوبة وإبادة جميع المرتزقة المنصرفين إلى نهبهم ومجونهم وسُكرهم. وإذ خارت عزيمة البابا بفعل تردّد الحلفاء وجبنهم فقد عزم على المفاوضة. ولقد استقبل منذ الحادي والعشرين من أيّار (مايو) مبعوثاً من الإمبرياليين.

وبعد يومين تبعه مبعوث آخر في زيارة مقتضبة. وبينما كان يتسلّق درج القصر سمعت اسمه يلفظ مقروناً ببعض النعوت النابية. والحقّ أنّ الأمركان يتعلّق بأحد زعماء عائلة «كولونا»، وهو ابن عمّ الكردينال «بومبيو». وقد شرع أسقف فلورنسي بالقدح فيه، غير أنّ جميع الحاضرين ألزموه الصمت. وكان كثيرون بالفعل يعلمون مثلي أنّ هذا الرجل، وهو على قدر كبير من الاستقامة، ما كان ليُسرّ بالكارثة التي حلّت بمدينته، وأنّه كان آسفاً بالتأكيد للخيانة التي ارتكبتها عائلته، وأنّه سوف يفعل كلّ ما من شأنه إصلاح الخطأ محاولاً إنقاذ ما يمكن إنقاذه من رومة ومن الكرامة البابوية.

لم يدهشني إذن مجيء هذا الـ «كولونا». وبالمقابل فإنّي لم أكن لأظنّ أبداً أنّ المبعوث سيتطرّق في أثناء محادثته مع البابا إلى الكلام عليّ. فما كنت قد التقيته قطّ من قبل، وعندما حضر أحد المسلّحين يدعوني إلى الذهاب إلى الجناح البابوي لم

أكن أملك أدنى فكرة عمّا يمكن أن يُطلب مني.

كان الرجلان جالسين في المكتبة على أريكتين متقاربتين. ولم يكن البابا كليمان قد حلق لحيته منذ أسبوعين علامة على الحِداد واحتجاجاً على المصير الذي فُرض عليه. وطلب منّي أن أجلس وقدّمني إلى زائره على أنّه «ابن عزيز جداً وصديق غالٍ ومخلص». وكان مع «كولونا» رسالة لي سلّمني إيّاها بشيء من التعطّف قائلاً:

«لقد طلب إليّ مرشد مرتزقة ساكس أن أؤكّد لك صداقته وعرفانه بجميل ذكراك».

إن سكسونياً واحداً كان يمكن أن يعرف ليون الإفريقي. ولقد أفلت اسمه منّي وكأنّه صرخة نصر بدت قليلة الحشمة بعض الشيء بالمناسبة:

«هانز!

- إنه أحد تلاميذك القدماء، إذا كنتُ قد فهمت ذلك جيّداً. وهو يصرّ على شكرك على كل ما علّمته بكثير من الأناة، وعلى أن يظهر لك عرفانه بفضلك بمساعدتك على الخروج من هنا أنت وامرأتك وابنك».

وقبل أن أتمكّن من الردّ تدخّل البابا قائلاً:

«لن أعارض بالطبع بأيّ شكل ما تتّخذ من قرار مهما يكن. ولكن عليّ تحذيرك من أنّ رحيلك لن يكون من دون مخاطر كبيرة عليك وعلى أهلك».

وشرح لي «كولونا» قائلاً:

إنّ بين العساكر الذين يحاصرون القصر عدداً كبيراً من الحانقين الذين يريدون الإمعان إلى النهاية في إذلال الكرسي الرسولي. وأقصد بهم على الأخصّ الألمان الذين لقّنهم التعصبَ لوثرُ لاحقه الله بغضبه إلى قيام الساعة! وهناك بالمقابل آخرون يودّون القضاء على الكرسي وإيجاد حلّ للانتهاء من المذلّة اللاحقة بالمسيحيين. وإذا سعى قداسته اليوم إلى الخروج فإنّي أعرف أفواجاً لن تتردّد في الاستحواذ عليه وإنزال أشنع أنواع العِقاب والتعذيب به».

وامتقع كليمان فيما كان زائره يتابع بقوله:

«وهـذا ما ليس في مقـدوري، ولا حتى في مقدور الإمـبراطـور، منعـه. فينبغي الاستمرار طويلاً في التفاوض واللجوء إلى الإقناع والحيلة وعدم ادّخار أيّ وسيلة. ولعـلّ من المفيد عـلى الأخصّ تقديم مثـال على ذلـك. إنّنا نملك اليـوم حـظّاً غـير مأمول في إمكـان إخراج أحـد المحاصَرين بنـاء على طلب ملحّ من مبشّر لـوثري. وهو ينتظرك مع مفرزة من السكسونيين جميعهم هـراطقة مثله، ويقـول إنّه مستعـدّ لمواكبتك بنفسه بعيداً من هنا. وإذا جرى كل شيء على مـا يُرام، وعـرف الجيش بـأسره غداً أن مـرشد المـرتزقـة السكسونيـين قـد حـرّر أحـد المحـاصَرين في قصر القديس أنجلو، فسيكون أسهل علينا أن نقـترح بعد بضعـة أيام تحـرير أشخـاص آخرين، بل ربّما قداسته بالذات، بشروط من الكرامة والأمان».

وتدخّل كليمان السابع من جديد فقال:

«أكـرّر أنّه ينبغي عـدم تجاهـل الأخطار. لقـد قال لي نيـافتـه إنّ بعض الجنـود المتعصّبين قد يمزّقونك إرباً أنت وأسرتك والذين يواكبونكم من غير حتّى أن يوفّـروا هذا المرشد. إنّ القرار المطلوب منك اتّخاذه ليس هيّناً. زدْ على ذلك أنّـك لا تملك وقتاً للتفكير، فالكردينال يتهيّأ للرحيل وعليك مرافقته».

وكـان من الأفضل لي بحسب مـزاجي أن أتعرّض لخـطر مبـاشر، ولكنْ قصـير الأمد، من أن أظلّ إلى الأبد في هذا السجن المحاصَر الذي قد يُجتاح في كـل لحظة وتُضرم فيه النار وتسيل الدماء. وكان تردّدي الوحيد يتعلّق بمادالينـا وجوسپ. فـما كان من اليسير عليّ أن أقودهما بملء خاطري وسط جحافل القتلة والنهّـابين. ومـع هذا فإنّ تـركي إيّاهمـا في قصر القديس أنجلو، بحضـوري أو في غيابي، لن يؤمّن لهما السلامة.

وعاجلني «كولونا» بقوله:

«ما الذي اخترت؟

ـ أفوّض أمري إلى الله. سأقول لامرأتي أن تُعِدّ المتاع القليل الذي نملكه هنا.

ـ لن تأخذ معك شيئاً. إنّ أقلّ صرّة أو قُفّة قد تُهيج المرتـزقة كـما تُهيج رائحـة الدم الوحوش. سوف تذهبون كما أنتم بثياب خفيفة وأيديكم طليقة».

لم أَسْعَ إلى الحِجاج. فقد كان مكتوباً أن أنتقل من موطن إلى آخر كما يُنتقل من الحياة إلى الموت بلا مال ولا زخرف ولا ثروة غير خضوعي لمشيئة الله تعالى.

وعندما شرحت الأمر لمادالينا ببضع كلمات نهضت على مهل كعادتها، ولكنْ بلا أدنى تردّد، وكأنّها كانت تعرف منذ القِدم أنّني سأدعوها إلى المنفى ذات يوم. وأمسكت بيد جوسيپ ومشت خلفي لنذهب إلى البابا الذي باركنا وأشاد ببسالتنا وعهد بنا إلى رعاية الله. وقبّلت يده وعهدت إليه بكل ما كتبت باستثناء هذه الوقائع التي لم تكن قد اكتلمت، وقد لففتها ودسستها تحت حزامي.

كان هانز بانتظارنا مفتوح الذراعين عند مدخل حي «ريغولا» الذي كنّا قد تجوّلنا فيه معاً في الماضي ولم يكن اليوم سوى أطلال محروقة. وكان يرتدي ثوباً قصيراً وينتعل نعلين حائلين، وعلى رأسه خوذة سارع إلى رفعها قبل أن يعانقني. وكانت الحرب قد شيّبته قبل الأوان، وكانت عظام وجهه أشدّ نتوءاً من أيّ يوم مضى. وكان حوله زهاء اثني عشر مرتزقاً بثياب فضفاضة وريش مبقّع، وقد قدّمهم إليّ بوصفهم إخوته.

وما كدنا نخطو بعض الخطوات حتى اعترض طريقنا ضابط قشتالي برجاله. وإذ أشار عليّ هانز بألا أتحرّك فقد توجه إلى الرجل العسكري بنبرة جازمة ولكنها خالية من الاستفزاز. ثم أخرج من جيبه رسالة أخلت لنا رؤيتُها الطريق. تُرى كم مرّة أوقفونا على هذا النحو؟ عشرين ولا ريب، بل ربما ثلاثين. غير أنه لم يُسقط في يد هانز مرّة واحدة. فلقد سبق أن نظّم هذه الحملة بشكل يثير الإعجاب فحصل على أذون بالمرور موقّعة من نائب ملك ناپولي والكردينال «كولونا» ومختلف الزعماء العسكريين. وكان يحيط به فوق ذلك «إخوته» السكسونيون الأشدّاء السريعون في تسديد أسلحتهم إلى الجنود الكثيرين السكارى الذين كانوا يجوبون الطرقات اقتفاء لأثر غنيمة.

وعندما اطمأن هانز لفعالية جهازه أخذ يحدّثني عن الحرب. والغريب أنّ أقواله ما كانت مطابقة للصورة التي كنت أحتفظ بها عنه. فلقد أخذ يشكو من الشكل الذي اتخذته الأحداث ويتذكّر بتأثر الأعوام التي قضاها في رومة ويدين تخريب المدينة. وكان يتحدّث بادىء الأمر بكلمات مكشوفة، غير أنّه في اليوم الثالث،

وبينما كنا نقترب من ناپولي، جاء يُخيَّل إلى جانبي مقترباً منّي حتى لامست قدمه قدمي، وقال:

«لقد أطلقنا للمرة الثانية قوى لم نتمكّن من احتوائها. فهناك أوّلاً ثورة فلّاحي ساكس المنبثقة عن تعاليم لوثر وكان ينبغي إدانتها وقمعها. وهناك الآن تدمير رومة».

وكان قد تلفّظ بالكلمتين الأُولَيَيْن بالعربية ثم أكمل بالعبرية وهي لغة يملك زمامها خيراً ممّا يملك زمام تلك. شيء واحد كان مؤكّداً: لم يكن يريد أن يُدرك الجنود الذين كانوا يرافقونه شكوكه وآثار ندمه. حتى إنّه خُيِّل إليّ أنّه كان متضايقاً جدّاً من دوره مرشداً لوثرياً إلى حدٍّ أنّي شعرت وقد أصبحنا في ناپولي بأن عليّ أن اقترح عليه مرافقتي إلى تونس. وابتسم ابتسامة مُرّة وقال:

«إنّ هذه الحرب حربي. ولقد تمنّيتها وجررت إليها إخوتي وأبناء عمّي وشباب مطرانيّتي. وليس في وسعي أن أهرب منها حتى ولو أدّت بي إلى اللعنة الأبدية. وأمّا أنت فإنك لم تتدخّل فيها إلا بمشيئة من العناية الإلهية لا أملك لها تفسيراً».

وقادنا غلام في ناپولي إلى دارة عبّاد، ولم يتركنا هانز إلا عندما جاء هذا يفتح لنا سياجه. وكدت أعبّر له عن امنيتي في لقائه ذات يوم، بيد أنّي لم أرِدْ أن أفسد بعبارات مزّيفة ما كنت أشعر به من عرفان حيال هذا الرجل. وعليه فقد اكتفيت بضمّه بقوّة إليّ، ثم بالنظر إليه ينطلق مصحوباً بشيء من الحنان الأبوي.

وهنا جاء دور السوسيّ في معانقتي بحرارة. فقد كان يرجو منذ أشهر وصولنا في كلّ يوم. وكان قد ألغى جميع أسفاره هذا العام مُقْسِماً ألا يرحل من دوننا. ولم يَعُدْ يمسكه شيء بعد الآن. وما هو إلا الوقت اللازم للاستحمام، ولتناول طعام احتفالي، ولاتّخاذ قسط من النوم، حتّى وجدنا أنفسنا جميعاً في الميناء معطّرين رافلين بجديد الثياب. وكانت أجمل مراكب عبّاد في انتظارنا على أهبة الإقلاع إلى تونس.

رُسمتْ آخر كلمة على آخر صفحة وكنّا قد أصبحنا عند الساحل الإفريقي.

مآذن قمارت البيضاء، أطلال قرطاجة الشامخة، إنّ النسيان يتربّص بي في

ظلالها، وباتّجاهها يتحوّل مجرى حياتي بعد تعرّضي لعدد من حوادث الغرق. خراب رومة بعد نكبة القاهرة، وحريق تومبكتو بعد سقوط غرناطة: أتكون المصيبة هي التي تناديني، أم إنّني أنا من يستدعي المصيبة؟

مرّة جديدة يا بنيّ يحملني هذا البحر الشاهد على جميع أحوال التّيه التي قاسيت منها، وهو الذي يحملك اليوم إلى منفاك الأوّل. لقد كنتَ في رومة «ابن الإفريقي»؛ وسوف تكون في إفريقية «ابنَ الرومي». وأينما كنتَ فسيرغب بعضهم في التنقيب في جلدك وصلواتك. فاحذر أن تدغدغ غريزتهم يا بنيّ، وحاذر أن ترضخ لوطأة الجمهورا فمسلماً كنت أو يهودياً أو نصرانياً عليهم أن يرتضوك كما أنت، أو أن يَفْقَدوك. وعندما يلوح لك ضيق عقول الناس فقل لنفسك أرض الله واسعة، ورحبة هي يداه وقلبه. ولا تتردد قطّ في الابتعاد إلى ما وراء جميع البحار، إلى ما وراء جميع التخوم والأوطان والمعتقدات.

أمّا أنا فقد بلغت نهاية رحلتي. فلقد أثقل خطوي ونفسي أربعون عاماً من المغامرات. ولم يَعُدْ لي من رغبة غير العيش أياماً طويلة وادعة وسط أهلي وعشيرتي. وإلا أن أكون من بين جميع مَنْ أُحِبُّ أوّلَ الراحلين. إلى ذلك المثوى الأخير الذي لا يُحِسُّ فيه أحدٌ قطّ بالغربة أمام وجه الخالق.

فهرس

١ ـ كتاب غرناطة

عام سلمى الحرّة ١٣
عام التمائم ٢٩
عام «أستغفر الله» ٣٩
عام السقوط ٤٩
عام المهرجان ٧٠
عام الرحيل ٧٨

٢ ـ كتاب فاس

عام الفنادق ٩١
عام العرّافين ١٠١
عام النوادب ١٠٩
عام هارون «المنقِّب» ١١٥
عام المفتّشين ١٢١
عام الحمّام ١٢٨
عام الأسديْن الهائجينْ ١٣٥
عام ختم القرآن ١٤١
عام الخدعة ١٤٨
عام القشّة المعقودة ١٥٦
عام القافلة ١٦٧

عام تومبكتو ١٧٥
عام الوصية ١٨٤
عام المارستان ١٩٢
عام العروس ١٩٨
عام الثروة ٢٠٣
عام القصرين ٢١٠
عام الشريف الأعرج ٢١٧
عام العاصفة ٢٢٤

٣ ـ كتاب القاهرة

عام العين الجليلة ٢٤١
عام الجركسيّة ٢٥٢
عام العُصاة ٢٦٥
عام السلطان التركيّ المعظّم ٢٧٦
عام طومان باي ٢٩١
عام الاختطاف ٢٩٨

٤ ـ كتاب رومة

عام القدّيس أنجلو ٣١١
عام المراطقة ٣١٨
عام «المُرْتَدَّة» ٣٢٦
عام أدريان ٣٣٤
عام سليمان ٣٤١
عام الرحيم ٣٤٩
عام ملك فرنسا ٣٥٩
عام «العصابات السوداء» ٣٦٨
عام المرتزقة الألمان ٣٧٨



أمين معلوف

ولد في بيروت عام ١٩٤٩.

درس الاقتصاد والعلوم الاجتماعية في مدرسة الآداب العليا، وجامعة القديس يوسف في بيروت.

دخل ميدان الصحافة وعمل في الملحق الاقتصادي لصحيفة «النهار» البيروتية، وبالقسم الدولي للصحيفة.

سافر إلى فرنسا وأقام فيها منذ العام ١٩٧٦.

عمل في مجلة «ايكونوميا» الاقتصادية. ثم في مجلة «جون أفريك» حيث رأس تحريرها، وعمل في مجلة «النهار العربي والدولي».

تحول بعد ذلك إلى الأدب متفرغاً لإصدار أعماله، وكان أولها:

«الحروب الصليبية كما رآها العرب» التي صدرت عام ١٩٨٣ عن دار النشر الفرنسية لاتيس وترجمت بعدها إلى العديد من اللغات.

ثم صدرت رائعته «ليون الإفريقي» عام ١٩٨٦، ونالت جائزة الصداقة الفرنسية ـ العربية.

عام ١٩٨٨ أصدر «سمرقند»...